المركز القومى للترجمة

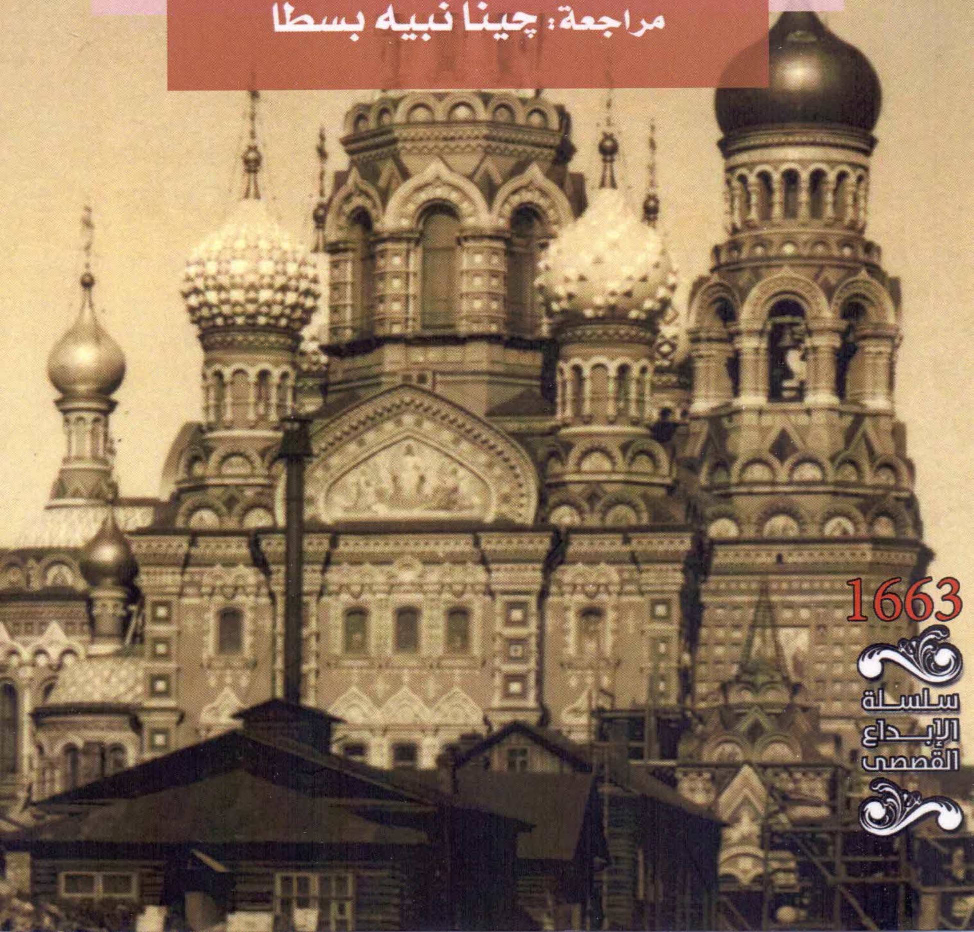
المشروع القومى للترجمة

چان أنجلاد

صانع الأجراس

ترجمة: محمود وصفى

مراجعة: چينا نبيه بسطا



1663

سلسلة الإبداع القصصى

يتنقل صناع الأجراس من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى أخرى، يزاولون مهنتهم عند سفح كل برج من أبراج الكنائس المطلوب صنع جرس لكل منها. تدور أحداث الرواية فى الحقبة الواقعة من عصر ملك فرنسا الشهير، لويس الرابع عشر، والملقب بملك الشمس، إلى عصر روسيا فى القرن الثامن عشر، حيث تعاقبت ثلاثة أجيال كاملة من أفراد عائلة مونييه المزارعين، والذين اشتهروا بصهر الأجراس لأكثر من ثلاثة قرون ونصف فى مملكة فرنسا و خارجها. يسافر پاردو مونييه، أحد أفراد هذه العائلة، بناء على دعوة من الإمبراطور بطرس الأكبر، قيصر روسيا، لصب أكبر جرس فى العالم: قيصر كالاكال، وذلك بمساعدة غيره من محترفى صناعة الأجراس... هكذا يقطع ما يربو على ألفى كم؛ ليقوم بتثبيت هذه التحفة التى تعد أعظم أعماله فى مجال صناعة الأجراس حتى تعلو أصداء رنينها في سماء مدينة موسكو.

يكتسب پاردو، بطل الرواية، العديد من الخبرات الحياتية المتراكمة خلال قيامه بهذه الرحلة، والتى كانت تعتبر نادرة جداً فى ذلك الوقت؛ لتفتح قلبه وعقله، وتجعله يحب بشكل أفضل قريته ومسقط رأسه: ڤيڤيرول فى الريف الفرنسى.

تصميم الغلاف: هانى مقلد

صانع الأجـراس

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1663
- صانع الأجراس
- چان أنجلاد
- محمود وصفى
- چينا نبيه بسطا
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة رواية:

Le Saintier
By: Jean Anglade

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

صانع الأجـراس

(روايــة)

تـــــأليف : چـــــان أنجــــــلاد
ترجمـــــــة : محمـــــــود وصـــــفى
مراجعــــــة : چينـــــا نبيــــه بــــسطا

2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أنجلاد ، جان.

صانع الأجراس (رواية) / تأليف : جان أنجلاد ، ترجمة : محمود وصفى ، مراجعة : جينا نبيه بسطا

ط١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١

٥٠٨ ص، ٢٤سم

١- القصص الفرنسية

(أ) وصفى ، محمود (مترجم)

(ب) بسطا ، جينا نبيه (مراجع)

(ج) العنوان ٤٤٣

رقم الإيداع ١٩٢٥٢ / ٢٠١١

الترقيم الدولى : 978-977-704-818-7

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

لم يكن لدىّ أى جواز سفر. ولكن فى ذلك الزمن الجميل، لـــم تكن هناك أى من تلك العراقيل التى اخترعها الفرنسيون لإنجـــاز أى إجراء إدارى (البيروقراطية)، فى محاولة منهم أن يكونوا مـــستقلين، ولكنهم أجبروا الناس على طاعتهم، وهو ما يشبه العبودية سواء فـــى بلادهم أو فى بلاد الغير.

بنيامين كونستان،

الكراسة الحمراء

"من ينظر إلى الماضى يفقد إحدى عينيه، ومن لا ينظر إليـــه يفقد الاثنتين"

مثل روسى

الجزء الأول

(١)

كانت مطرقة باب المنزل حجرية طويلة الشكل يتـدلى منهـا جرس منحوت بشكل جميل. تمتد خلف المنزل الشاسع المرتفع إلـى ثلاثة طوابق حدائق ومروج وحقول على جانبى ترعة ليجون، والتى تمتلكها عائلة صنّاع أجراس الكنائس، بعد أن تفردوا فى هذا المجـال على مدار ثلاثة قرون. ومع ذلك لم يترددوا فى العمـل كمـزارعين أو كعمال بالأجرة، أو فى جمع المحاصيل تحت الطلب.

أمسك القس دابريچيون بمطرقة الباب البرونزيـة والمـصنوعة على شكل مخلب أسد، ورفعها إلى أعلى ثم تركها تهوى ثلاث مرات.

لم يصله أى رد، فكرر الطرق من جديد دون أى نتيجة تُـذكر فوضع إبهامه على المزلاج. ولدهـشته الكبيـرة، انفتحـت ضـلفة الباب أمامه.

صاح القس من بين القضبان الخشبية: ألـيس هنـاك أحـد؟ رد عليه صوت أجوف من الداخل: بلى... هناك أحد.

- إذا لم يكن هناك حقًا أحد، فسوف أذهب.

- انتظر!

انفتح الباب أخيرًا وظهر من خلاله رجل ضخم يرتدى عباءة منزل رمادية، وعلى رأسه شعر مستعار موضوع بالاتجاه المعاكس. سرواله القطنى مجذوب لأعلى بدون اهتمام مما شكَّل طيَّات عديدة يسميها سكان المنطقة "الضفادع الصغيرة".

- أنا القس دابريجيون رئيس رهبان دير سان بونيه.

- أى سان بونيه؟ فأنا أعرف أربعة منهم.

- سان بونيه لو شاتوه... لقد قطعت ستة أميال على ظهر جوادى كى ألقاك.

- سامحنى... فقد كنت فى مكان، مع احترامى لك، حتى الملك نفسه لا يمكنه أن يجد من يمثله (أى كان يقضى حاجته).

- حسنًا... حسنًا. أود أن أتحدث معك فى موضوع ما.

- فلتدخل إذًا من فضلك... أنا الآن وحدى بالمنزل فقد ذهبت زوجتى وأولادى إلى الكنيسة من أجل الإعداد للشهر المريمى[1].

---

(١) هو شهر مايو من كل عام.

عبر رجل الدين عتبة الباب وهو ما زال يضع قبعته السوداء على رأسه. مشى الاثنان فى ممر طويل تكسو أرضيته قطع من الحجارة. راحت بعض البلاطات المتفككة تتحرك تحت أقدامهما. دخلا إلى غرفة كبيرة كان الراهب يعتبرها بينه وبين نفسه كمكان فوضوى. مثل بلدة "الجليل" التى اشتهرت بالبيوت المتنقلة وبالفوضى.

باستثناء نافذة صغيرة ملونة بمربعات صغيرة، عُلقت على باقى الجدران أرفف من الخشب الخام تعج بمقتنيات مختلفة : لفائف ورقية، مخطوطات عتيقة، مثلثات هندسية، بوصلة، نموذج للكرة الأرضية، أسطرلابات (آلة السدس الفلكى)، تليسكوب (منظار)، خريطة العالم، بعض الكتب المفتوحة وأخرى مغلقة، نظارة طبية، بعض التماثيل المصنوعة من الجبس وأخرى من الجص، مزهريات ذات رقاب طويلة، قارورات من أحجام كبيرة وصغيرة. كان الراهب دابريجيون يتساءل مندهشًا إذا ما كانت قدماه قد وطأت عند ساحر ما، أو عالم كيمياء، أو بائع عاديات مختلفة إذا لم يكن على علم بالسمعة التى انتشرت عن بيير مونييه، أو كما كان يُلقب دائمًا فيليستن، وهو من مؤسسى صناعة الأجراس فى بلدة ڤيڤرول. وقد أسهمت فى الإيحاء بهذه الفوضى الغريبة أيضًا قطع الأثاث: الكراسى

المصنوعة من القش، والمقاعد الصغيرة المستطيلة بدون ظهر، والمقاعد الوثيرة، كما توسط الحجرة مكتب كبير للأعمال الكتابية ذو أدراج متعددة.

قال مونييه للراهب: تفضل بالجلوس. وهو يشير إلى مقعد عليه وسادة وقد اتخذ هو نفسه مكانه خلف مكتبه وهو يعدل من شعره المستعار، ثم عقد يديه.

– حسنًا... أنا أعلم أنك أحد أفضل صناع الأجراس في المملكة. بل ربما الأفضل على الإطلاق. (وافقه فيليستن مؤيدًا بتواضع بهزة من رأسه وفوقها الشعر المستعار). يوجد في المبنى الرئيسي لدير سانت بونييه برجان للأجراس. أحدهما ملىء بالأجراس الصغيرة التى تناسب الأعراس، وطقوس المعمودية، والاحتفالات الدينية. ولكنها لا تناسب المناسبات الحزينة، ولا الجنائز. أما بالنسبة للبرج الثانى، فيلزمنا جرس أكبر وأقوى حتى يجتذب بالفعل انتباه الملائكة. فهم يعيشون بعيدًا عنا ولا يسمعون إلا الأصوات القوية. أتعلم أن صوت أجراس الكنائس يمكنه جذب انتباه الملائكة؟

– كيف يمكننى أن أجهل ذلك فى مهنتى هذه؟

– أما أجراسنا، يا حسرة، فليس لها القدرة على إبعاد البرق ولا الصواعق الرعدية.

- إنها إذًا صغيرة جدًا، سحقًا!

- أرجوك، لا تستخدم هذه الكلمة، فهى من الكلمات البذيئة.

- أرجو المعذرة. فلم أفكر فى ذلك بالمرة.

- باختصار نحن نريد جرسًا يزن ما بين ثمانمائة أو تسعمائة رطل.

- هذا هو ما نطلق عليه : بوردون (جرس ضخم ذو رنين عميق).

- هل يمكنك أن تنفذ ذلك لنا؟

- بال... (ثم عض على لسانه): بالتأكيد.

- حدِّد لنا سعرك.

- يجب أن تحدد لى أولاً الصوت الذى تختاره لصناعة الجرس.

- أنا لا أعلم شيئا من هذه الأشياء.

نهض فيليستن وفتح خزانة أخرج منها جهازًا غريبًا جدًا يتكون من عدة أنابيب مختلفة الأطوال متصلة ببعضها. أطول أنبوبة منها تحتوى على ثلاثة أذرع، بينما أقصرها لها ذراع واحدة. تشبه إلى حد ما المحاقن أو مزمار الناى.

أمسك فيليستن الأنبوبة الأولى منها بكلتا يديه ونفخ بها فأصدرت هديرًا عميقًا للغاية حتى إن القس شعر بصداها فى أحشائه. أحدثت الأنبوبة الثانية رنينًا أقل قوة، والثالثة أقل فأقل.

- ما رأيك؟

- سأترك لك الخيار.

- أعتقد أننا متفقان على نفس النغمة.

راح فيليستن ينفخ لمرات عديدة فى الأنبوبة الثالثة، ولكن ليس بنفخة واحدة متواصلة، ولكن من خلال مجموعة من النفخات القصيرة، مما أصدر بشكل غامض لحنًا لنشيد جرس الكنيسة.

- ها نحن قد وصلنا إلى الخامة المطلوبة. قال فيليستن مؤكدًا قبل أن يكمل: بتسعمائة رطل من البرونز، يلزمنا صوت نصف عميق، كى يرن لموتاكم وحينما يحين خطر ما.

من جديد، راح الراهب دابريجيون يتحدث عن الثمن. أخذ فيليستن يحسب حسبته:

- من أجل مثل هذا الوزن، وأخذًا فى الحسبان ما قد يُهدر من المواد المقطوعة، سوف يلزمنا ألف رطل من البرونز. ثمانمائة رطل من النحاس الأحمر، مائة وأربعون من القصدير وستون من الزنك.

كان يقوم بحساباته دون استخدام قلم رصاص، وهو يغمض عينيه. لقد تعهد الراهب بتوفير المواد الخام من المعادن. تتبقى بعد ذلك تكلفة التصميم والصهر، والنقل.

- عادةً، قال فيليستن موضحًا: نقوم بالتصنيع في المكان المراد نفسه حتى نتفادى صعوبات النقل. ولكن المسافة من بلدة سان بونييه إلى لوباردانج، حيث توجد ورشتنا التى نصنع بها الأجراس، ليس بعيدة. فبضع ساعات قليلة من النقل، وزوج من الثيران سيكونان كافيين للقيام بالمهمة.

تم الاتفاق على مبلغ مائتين وأربعين من الفرنكات الفرنسية البيضاء القديمة، يُدفع نصفها عند التسليم، والباقى فى غضون ستة أشهر. سوف يتم تدشين الجرس فى السابع والعشرين من شهر أكتوبر ١٦٩٣، الموافق يوم القديسة إرميلين.

- ولماذا القديسة إرميلين؟

- لأن زوجة سيد منطقتنا تحمل هذا الاسم وأنوى اتخاذها كأمٍّ روحية لى.

كان لابد من تدوين كل هذه الاتفاقيات بالحبر على الورق بمعرفة كاتب العقود ببلدة فيفيرول.

هكذا ظهر المحامى كوافيه مرتديًا رداءه الأسود كما تتطلب مهنته. على الطاولة، قام بفرد صفحة من الورق الجميل المصنع بمنطقة آمبير، وهو ورق به حبيبات طفيفة، ثم أخرج مطواة صغيرة وسن بها ريشة إوز، بينما أخذ الراهب وفيليستن يشرحان له مفردات العقد، وهكذا شمر عن ساعده وطوى وبدأ فى الكتابة. أحدثت الريشة صريرًا على الورق فتحتم عليه أن يبللها باستمرار فى زجاجة الحبر. قبل أن يبدأ فى ملء الورقة، راح يدون مصطلحاته التى يعرف أسرارها فقط رجال القانون:

بحضورى أنا، المحامى كوافيه سيمون، كاتب العدل الأعلى لبلدة فيفيرول، قد قمنا بإخطار السادة... اللذين أعلنا نفسهما أمامنا... ولهذا فقد اتفقا... فى التاريخ الموافق السابع والعشرين من شهر أكتوبر فى العام الجليل الموافق ألفًا وستمائة وثلاثة وتسعين، وقد تعهد كل متعاقد منهما، بعد أن سمعا وقرآ... وأقرا على ما اتفقا عليه ووقّعا.

هكذا قام الاثنان بالتوقيع ثم أضاف كاتب العدل بتدوين اسمه وتحته توقيعه بطريقة معقدة، كما لو كانت متاهة من متاهات مصر الفرعونية حتى يجعلها غير قابلة للتقليد.

- يلزمنا أن نختم اتفاقيتنا بشرب نخب ذلك. هكذا قال صانع الأجراس ملخصًا الحوار، احتج الراهب، ساكن منطقة سان بونييه بصوت واهن قائلاً: أتعتقد ذلك؟

- فى الربيع الماضى وبعد أن قمت بتصنيع جرس كنيسة فى بلدة بالقرب من مدينة أفينيون، وقد جلبت معى برميلاً من نبيذ البابا. لذا لا يمكنك رفضه!

- حسنًا فى هذه الحالة.

قاد صانع الأجراس ضيفه إلى قاعة تفوح منها رائحة الشمع. عُلقت على الجدران، لوحات بها وجوه العديد من أسلافه مثل جاسبار، أنطوان، ماتلان، باردو، آن، لويس، وكذلك سلسلة طويلة من شجرة عائلة صناع الأجراس الممتدة على مدار ثلاثة قرون. أخرج من البوفيه أكوابًا زجاجية مطلية، يقول إنه طلب إحضارها من مدينة البندقية فى إيطاليا.

- ليس إلى درجة أن أذهب إلى هناك، فقد جاءت لى بكل بساطة عن طريق الباعة المتجولين.

وها هى قارورة من نفس المصدر، مملوءة بسائل غامق اللون. انسكب نبيذ البابا أولاً فى الأكواب، ثم فى حلق كلٍ منهم. راح الراهب يتذوق كوبه بنفس الإيماءات التى كان يقوم بها عند شرب كأس النبيذ المقدس الذهبى، وهو يعلن عن استحسانه للمذاق البابوى الطيب. عرض مونييه عليه تقديم كأس أخرى ولكن الراهب رفض واضعًا يده فوق الكوب.

افترق ثلاثتهم عند عتبة الباب فاتجه الراهب إلى جواده، والذى كان قد ربطه فى حلقة معدنية من الحلقات المتدلية فى جدار المنزل، كان الجواد ينتظر بصبر وهو يمضغ الشوفان فى كيس من القماش حول رقبته. وضع الراهب قدمه فى الركاب المعدنى، واستقر على السرج المبطن، ثم راح يفرد طيات عباءته حتى يخفى ساقيه على أفضل ما يكون، حتى لو ظل حذاؤه ذو الرقبة منكشفاً، ثم انطلق فى طريقه إلى سان بونييه لوشاتوه.

فى بلدة فيفيرول الواقعة فى منطقة ليفرادوا فوريز، كانت هناك فى الماضى وعند نقطة التقاء فرعى ترعة لاليجون، تصب فى ترعة أكبر هى ترعة لانس التى تصب بدورها فى نهر اللوار، كان هناك حوض صغير مُخصص لتربية الأسماك - يُدعى حظيرة أسماك فيفاريوم - تقوم بالاهتمام به جماعة دينية. كان الرهبان يغرسون سمك السلمون فى عصا الواحدة بعد الأخرى ثم يبيعونه بعد ذلك فى الأسواق.

- اشتروا أسماكى وسوف تذهبون إلى الجنة! من هنا أتى هكذا اسم فيفايرول ثم أصبح بعد ذلك فيفارول. لقد كانت حظيرة للأسماك، ولكنها أيضًا حظيرة للرجال. إن هذا المكان ما هو إلا جزء من البلاد التى ليس لها حدود دقيقة كما لو كانت فسيفساء تشكل فرنسا القديمة. يسمى هذا المكان باللهجة المحلية "ليورادويه". فهل

كانت هذه المنطقة تسمى كذلك لأنها تحت حماية القديسة ليفراد التـــى كانت عذراء وشهيدة! ربمــا لا. لقــد جــاءت مــن مدينـــة أجــان (جنوب فرنسا)، وكانت تتغذى فقط على فاكهة القراصــيا المجففــة والتى لم تجد منها عندما رحلت إلى سفح جبال فوريز. يعتقد بعــض الرجال المثقفين أن اسم منطقة ليفرادوا يستوحى اسمه من التجمعات المائية، وليس من الجبال، وهو آت من الأصول الهنديـــة الأوربيـــة القديمة "ليفاد" والذى يعنى: "المكان المغمور". فى ذلك المكان تمتــد منذ قديم الأزل بحيرة كبيرة شديدة العمق حتى إن القمم الحالية منهــا شكلت جزرًا فوق مياهها. مازالت هنــا وهنــاك، بعــض الحلقــات المعدنية مثبتة بصخور الجرانيت التى تعلو فوقها من ناحيــة قريــة كورنيللون، ومن ناحية أخرى قرى كلاقلييه ومونتراڤيل، لقد كانــت تلك الحلقات بمثابة مرابط تفيد فى إرســاء المراكــب التــى تخــدم البحيرة. ثم يقال إن هناك رجالاً عمالقة جــاءوا وفجــروا صـــخور منطقة تورجويون. نتج عن ذلك انحسار الماء مــن البحيــرة كــوّن تيارات كاسحة، ولكنها خمدت مع الزمن ولم يتبق منها سوى ترعـــة لاليجون ذات المياه النقية، والتى تسمح للناس بالعمل والبقاء فى حالة نشطة، كما أنها مغذية ولهذا استحقت هذه المنطقة أن يُطلــق عليهــا حظائر الأسماك والمنازل ذات الطواحين المائية.

منذ ذلك الزمن الذى بدأت فيــه قــصة الأجــراس وأبــراج الأجراس، احتل الدين مكانة هامة فى حياة الناس اليومية. فمــا بــين

صلاة الصباح وصلاة المساء، ضاعف الرجال والنساء مـن رشـم الصليب على صدورهم: عندما ينهضون من السرير، وأمام الحساء، وفى كل مرة يقوم رب الأسرة بغرس شفرة السكين فـى رغيـف الخبز؛ وعندما تعود الزوجة إلى أعمال الإبرة فى قماش الـدانتيل، أو فى بعض إصلاحات الحياكة، أو فى عمل الجبن الريفى، أو عندما يتناول الأطفال أول حبة كرز أو فراولة فى العام الجديـد، أو قبـل النوم. كانوا يقومون أيضًا بالرشم عند ولادة عجل أو عنز. ولا سيما العروسين فهما لا يدخلان إلى عش الزوجية الجديد إلا بعد مباركـة القس برشهما بالماء المقدس.

فى حالة دخول قس جديد إلى القرية؛ كان ذلك بمثابـة احتفـال عام. فقد كان الأهالى يزفونه فى كل شارع، فى كل درب، فـى كـل زقاق، كما لو كان ذكر جاموس سمينًا، تحت مظلة كبيرة لتحميه مـن الشمس، يحملها أربعة حمالين، ليبارك المنازل ثم يدخل إلـى كنيـسته المزدهرة الحديقة والتى تفترش أرضيتها بأوراق الأشجار مثل الطريق إلى القدس أمام المسيح، وهكذا يحضر جميع القرويين قداس التدشين.

كان الدين يصاحب العمل فى الحقول. فمثلاً عندما كان الفلاح يبدأ مهامه فى حرث أرضه بإزالة الحشائش الضارة والعرق يتصبب على جبهته، ما إن يسمع قرع أجراس الكنيسة من بعيد حتى يتوقـف عن عمله ويلقى بقبعته على الأرض، ثم يـتلو صـلاة "السـلام لك

يا مريم". وفى أول يوم أحد بالصوم الكبير، كان الليل يُضاء بألف وهج ينتشر بسرعة فى جميع الاتجاهات ما بين الحقول. فقد كان ذلك عيد "المشاعل". كان الأهالى يخرجون وقد أمسك كلٌ منهم بمشاعل من القش، يلوحون بها تحت الأشجار، ويغرسون فى الأرض صلباناً متوهجة بالنار. لابد وأن ذلك كان يساعد على إبعاد الحشرات التى تهاجم المحاصيل. أما يوم أحد الزعف - - فكانوا يقومون بغرس أغصان خشب البقس المباركة. إذا ما حدث ونمت جذور أحد هذه الأغصان من جديد، فيكون هذا بمثابة نذير شؤم، وعلى الأسرة أن تتوقع موت أحد أفرادها.

أما فى أسبوع الآلام المقدس، فقد كان الأهالى يمتنعون عن قرع الأجراس فى عادة تُسمى "صوم الأجراس" وذلك بالامتناع التام عن الطعام فى فترة الصمت التى تعادل وقت قرع الأجراس.

وفى مساء يوم الخميس، يخرج المتديّنون من كنيستهم الصغيرة، متدثرين بأغطية رؤوسهم التى تغطى وجوههم فيما عدا ثقبين حول الأعين، يرتدون أثوابهم البيضاء، ويسيرون حفاة الأقدام، يحملون الفوانيس والمشاعل، وكل ما يعربون به عن حبهم لدينهم؛ وأمامهم يسير شخص بردائه الأحمر والمفترض أنه يمثل شخص المسيح.

أما يوم أحد الفصح، تعود الأجراس للقرع من جديد لتملأ السماء برنينها المبهج. فى ذات الوقت تهدهد مئات الأمهات أطفالهن

الرضع على إيقاع رنين الأجراس لحمايتهم من السوء ومن الوقوع غير الحميد على الأرض.

وفى الشهر التالى، يسير موكبٌ دينى آخر فى أرجاء الريف وسط أهازيج "كيرى" (أناشيد دينية): وهى فترة معينة فى شهر يونيه يتضرع الناس فيها إلى السماء طلبًا للمزيد من المحاصيل الجيدة. وكان عليهم، خلال خطوات الموكب، التلويح بالصلبان الحجرية وإشهارها عند تقاطعات الدروب.

وفى يوم القديس جان، كان الأهالى يشعلون نيرانًا ويعلقونها فوق قمم الأشجار للإعراب عن بهجتهم وسعادتهم. وكان القسيس يقوم بإضرام النار فى مجموعة من أعواد الحطب المكدسة حول صارٍ خشبى. يتدلى من الطرف الأعلى للصارى إكليل من الزهور وسلة بها ضفدع قبيح، رمزًا للشرور والأحقاد. وعندما تصل إليه ألسنة النيران تهلل الحشود فرحًا. هنا يتقدم كبار السن من الوهج وهم محنيُو الظهر ليبرزوا عمودهم الفقرى وأعضاءهم المتوجعة. يتقدم إليهم الشباب من الفتيان والفتيات ليلقوا بباقات صغيرة من الزهور لجلب الحظ والسعادة. تتحدد البشائر وفقًا للاتجاه الذى يتطاير فيه شرر النيران:

فإذا ما تطاير الشرر فى اتجاه الشمال، فلتستعد بجعبتك لملئها بالدقيق؛ ولكن إذا ما تطاير فى اتجاه الجنوب، فلتستعد بمعدتك لبراثن الجوع والبؤس.

وعندما تخمد النيران وتتحول إلى كومة من الجمرات، تتشابك أيدى جميع الحضور ليشكلوا دائرة ويبدأوا فى التحرك بشكل سريع. بعد ذلك يأخذ كل رب أسرة قطعة من الفحم ليرسم بها صلباناً على واجهة حظيرته، وعلى أبوابه، وعلى عرباته. وفى صباح اليوم التالى، وأثناء أخذ الرعاة لدوابهم وماشيتهم إلى المراعى، يجعلونها تعبر فوق الرماد الذى ما زال الدخان يتصاعد منه لتتبارك هى الأخرى.

ولكن أكبر وأجمل عيد دينى يقام على مدار العام هو عيد القديس بارتليمى، ويُسمى الملكية، ويُقام فى الرابع والعشرين من شهر أغسطس. وقد أُطلق عليه هذا الاسم لأنه كان يُقام تحت سلطة "ملك وملكة". وكان القس هو من يسبغ عليهما هذا اللقب ويعرض أغراضهما الشخصية فى المزاد: الصليب، الراية، النبيذ المبارك، ثم يقومان بتوزيعه على الأهالى، وكان ينبغى شربه فى راحة اليد. كانت المجموعة الدينية (كل من ينتمى إلى هذه الطائفة) يأتى من كل مكان لحضور هذا الاحتفال الدينى الكبير وهم يرتدون أبهى حللهم. فالنساء يتحلين بكل ما لديهن من ذهب إذا كن يمتلكنه، وقماش

الدانتيل، وشرائط الشعر، أما الرجال فيرتدون أفضل أحذية وسراويل لديهم. وبعد القداس، يقوم الملك بافتتاح الموكب، ويقوم رجال الدين بحمل تمثال القديس المُحتفى به، ويقفون به عند كل مذبح كنسى. كانت وجبة الظهيرة بمثابة وليمة حقيقية، أو وجبة غداء مُشبعة وسخية للغاية. فكل عائلة تدعو أقاربها. تتكون الوجبة من دجاج مسلوق فى وعاء، ثم حساء كثيف تنغمس فيه قطع من دهن اللحم البقرى ويشربون معه النبيذ الفاخر الذى تشتهر به مقاطعة أوفرنى. وفى حوالى الساعة الثالثة عصرًا، يذهبون لسماع الأناشيد الدينية لصلاة العصر ويرتلون معها.

لاحقًا يقوم الشباب بالمشاركة فى ألعاب ترفيهية مختلفة: صارى الهدايا المدلاة لاصطيادها، أو السباق بالركض داخل أجولة من الخيش، أو لعبة الطاسة (وفكرتها الإمساك بواسطة الشفاه بقطعة معدنية ملتصقة فى ظهر طاسة سوداء للغاية) أو لعبة الغزلان (وفكرتها تعليق بعض الأوانى الفخارية بحبل أفقى، ويجب عليهم كسرها بعصا وهم معصوبو الأعين، وكى يشيع جو من الإثارة والمفاجآت، يتم وضع بعض من الماء داخل هذه الأوانى، أو الجص، أو بعض قطع المكسرات أو حتى حمامة حية). لعبة الباتشلوه (فى هذه المرة يتحتم البحث عن قطعة معدنية فى قاع دلو دون استخدام الأيدى).

وأخيرًا كان "عيد الملكية" بمثابة فرصة للرقص فى المــروج المحيطة بالقرية، أو فى ميدان كنيسة القديسة مادلين. كل هــذا كــان يدور تحت مراقبة أعين القساوسة المتشددة مما لا يسمح بالقيام بــأى تصرفات غير لائقة، وأيضًا على إيقاع نغمات آلــة موســيقية تُــدار بالمانيفلة، وتُسمى لو نيارجو، وفى قول آخر كانت تُدعى آلة الربابة. وفى ذات الوقت، كان العازف يغنى على رقصة فلكلورية تقول:

هكذا تكون الروبيوبيو! للقمرية الطائرة

روبيو! روبيوبيو!

هذا ما جعل فصل الشتاء يمر علىَ

روبيو! روبيوبيو!

هذا ما جعل فصل الصيف يمر علىَ.

هكذا يكون اليوم قد انصرم، أو على الأقل لمن هــم مليئــون بالورع والتقوى من رجال الدين، وهكذا كانوا يعودون إلى الكنيــسة وهم يرددون أهازيج دينية فى نهاية النهار.

أما بالنسبة لعائلة مونييه، فقد كان الدين أكثر أهمية لهــم مــن الآخرين، فهو يلهمهم، ويشغل وقتهم، كما أنه السبب فى مورد رزقهم بل فى ثرائهم.

(٢)

على مدار عشرة أجيال، ومنذ زمن ذلك الرجل الذى كان يُدعي أنطوان موسفير، والذى كان يقوم بصناعة أجراس الكنائس ويبعث بها حتى انتشرت وامتدت فى جميع أنحاء وضواحى مدينة ليون، إلى قرية مونبريزون وقرية سانت مارتن لاسوفتيه وقرية شامبولى فى منطقة لالوار، ثم إلى كاتدرائية سان جان دى ليون، توارثت العائلة مهنة صناعة الأجراس أبًا عن جد. ومع ذلك كانت حالتهم المادية تكفى بالكاد لإعاشة وإطعام مثل هذه العائلة الكبيرة، والتى تخطى عددها العشرين فردًا فى نهاية هذا القرن، تحت السلطة النظرية البحتة لآن مونييه، سلفهم وكبير العائلة، وهو من مواليد عام ١٦١٠، وهو ذات العام الذى ذُبح فيه الملك هنرى الرابع على يد الراهب رافاياك بسكين مسروق. وبرغم سنه الطاعنة والتى لا تسمح بممارسة السلطة الحقيقية أو إدارة العمل، فهذا لم يمنعه من التنزه كل يوم فى ورشة صناعة الأجراس الموجودة فى بلدة لوباردانچ، ولا من أن يراقب كل شيء بعينيه المحمرتين الدامعتين، ولا أن يبدى ملاحظاته التى كان الجميع يتلقاها بكل احترام، ولكن لا يأبهون بالمرة إلى تنفيذها.

إن القيادة الحقيقية كانت لابنه الأكبر بيير، أو كما يسمونه فيليستن، والذى ترقى إلى منصب رئيس الشركة عند وفاة إيتين شقيقه، بعد سقوطه من أعلى شجرة الكرز فى عام ١٦٨٥. تولى إيتين هذا مسئولية الشركة، وكان بإمكانه أن يولى مهمة قطف ثمار الكرز إلى شخص آخر، ولكنه أراد أن يتولى ذلك بنفسه بسبب جشعه، وأن يلهو بتذوق الفاكهة وكذلك بالتسلق. والنتيجة : تم حمله من على الأرض بعد أن تكسرت عظام حوضه. وقامت راهبات الأورسولين ببلدة فيفيرول بعلاجه وبذلن أقصى ما يستطعن، ولكن ما من علاج لكسر فى العمود الفقرى، وهكذا توفى إيتين بعد أربعة أشهر من المعاناة، تاركًا وراءه زوجته فرانسواز وطفلاً صغيرًا رضيعًا وُلد أثناء احتضاره. لكم كان حفل تعميده حزينًا، فى غياب والده التعس!

- فلنسميه إذنًا باردو. هكذا قال بيير الذى أصبح إشبينه.

وباردو اسم شائع ومتداول بين أفراد عائلة مونييه، وإن كان لا أحد يعلم سببًا لهذا التداول، فباردو لم يكن قديسًا لمنطقة أوفرنى، ولكنه كان اسمًا فى الحدود ما بين منطقة أوفرنى ومنطقة أخرى. بعد الانتهاء من مراسم التعميد، لم يكن هناك تناول أى مشروبات أو وجبات، ولا حتى توزيع مكسرات على الأطفال. هكذا تم تعميد باردو الصغير وسط الدموع.

وبعد أربعة أسابيع لاحقة تم دفن إيتين، الذى اشتهر بنهمه الزائد للكرز. ها هى فرانسواز، الأرملة الشابة، تنهمر دموعها مثل النافورة. اتشحت باللون الأسود، وقصت شعرها، ووضعت عليه وشاحًا للرأس. خلال الأشهر التالية، انهمكت فى رعاية طفلها حديث الولادة وفى الأعمال المنزلية مما خفف عنها قليلاً. وفى كل يوم، كانت تذهب لوضع الزهور على قبر المرحوم. ثم أصبحت تذهب كل يومين، ثم من حين لآخر. ثم مرت الشهور، وتتابعت الفصول، وعندما جاء فصل الربيع الذى اعتقدت فرانسواز أنها قد نسيته، نما شعرها من جديد، وازدهرت أشجار الكرز مرة أخرى. وراحت فرانسواز تتأمل هذا الازدهار بشعور من الكراهية رغم الرائحة العبقة للوز المر. لقد أحاطتها عائلة المرحوم بكل رعاية فتمكنت بذلك من أن تربى ابنها بكرامة، ولكى تجعل منه لاحقًا صانع أجراس مثل أبيه.

ولكن ها هى وبعد عشرة أشهر من الانتظار، وفى يوم أحد لدى انتهائها من حضور القداس، يطلب منها قس كنيسة القديسة مادلين، ساربوال، أن تنتظره فى الغرفة الملحقة بالكنيسة حيث يضع أدواته. هناك قبلت يده، وربت هو على صغيرها باردو.

– ها أنت... ها أنت. هكذا قال القس ليبدأ حديثه معها وهو يجذب لحيته القصيرة المشعثة بإصبعيه.

راحت فرانسواز تنظر إليه بتوجس إزاء هذه الدعوة المفاجئة. ولكنه على ما يبدو لم يكن متعجلاً للدخول فى الموضوع، بل راح يتلكأ فى ترتيب أدوات زينته الكهنوتية داخل الدولاب، ثم راح يُعدل من وضع لوحة بها رسم مريم المجدلية جالسة عند أقدام المسيح.

كرر القس من جديد: ها أنت. ثم سألها : كم عمرك الآن يا فرانسواز؟

- أربعة وعشرون عامًا يا أبتى.

- إنها لسن صغيرة كى يتشح المرء فيه بالسواد طوال حياته... إنه لسن صغيرة.

- هذا هو ما أراده الله يا أبتى.

أشاح بيده كما لو كان يريد أن يستبعد سيرة الله عن حديثهما واستمر قائلاً:

- أنا أعرف طبيعة الإنسان... بروحه وقلبه وجسده. فى مهنتى هذه أستمع إلى العديد من الاعترافات وبها كل ما يخطر على البال. ليس خيرًا لك أن تظلى وحدك يا فرانسواز... لابد لك من زوج آخر... من أطفال آخرين... من ليس له طفل لا يحصل على شيء. إذا كنت قد فقدت زوجك هذا، فمن الذى سيعتنى بك عندما تصبحين عجوزًا؟

ها هو باردو الصغير نائم على كتفها، بينما نكست هى رأسها وقد احمر وجهها خجلاً وقد ارتبكت من كلامه هذا إليها. هكذا تركها تغادر ثم بادرها فى الأحد التالى قائلاً:

- هل فكرت فيما قلته لك يا فرانسواز؟

- بعض الشيء يا أبتى. ولكن كى أتزوج من جديد، لابد من شخصين، وأنا لم يطلبنى أحد.

- من تعاليم القديس توماس الإكوينى لنا أن الأرملة عندما تكون على وشك اختيار زوج ثانٍ، فالأفضل لها أن تختار شقيق زوجها المتوفى.

- شقيق زوجى المسكين إيتين؟ إنه واحدٌ فقط: بيير. أتريدنى أن أتزوج من إشبين ابنى باردو؟

- الشيطان... الشيطان! قال القس ساربوال الذى لم يكن فى علاقة سيئة مع الشيطان، فبدونه لكان قد خسر نصف زبائنه، ثم أكمل: لقد نسيت هذه التفصيلة. ألن يكون ذلك بمثابة زنا محارم روحى[1]؟ لابد لى وأن أستشير أسقف مدينة كليرمون بشأن هذه النقطة.

(١) لأن المعتقد الكاثوليكى يضع شقيق الزوج بمثابة الشقيق الفعلى، وعليه يكون الزواج به من قبل زنا المحارم. (المراجع).

تجرأت فرانسواز.وأخبرت بيير بما يفكر فيه القس ساربوال، فأجابها بيير بكل بساطة أنه يحبها مثل شقيقته، وأنه لن يكون من الصعب عليه أن يحبها كزوجة... بل إنها لن تضطر لتغيير اسمها.

في غضون شهر كان القس يدعوهما ليبلغهما برد الأسقف: لا يوجد أي عائق أمام الزواج لمن هما في مثل حالتهما.

وقُيمت مراسم حفل الزواج في أضيق الحدود، فما زالت ذكرى إيتين المسكين حاضرة وبشكل قوى، ولهذا انهمرت الدموع لأكثر من مرة. ولكن بعد ذلك، ووفقًا لما أوصى به كتاب الإنجيل: لابد من ترك الموتى يدفنون الموتى.

هكذا وجد باردو الصغير نفسه وقد أصبح له أبٌ جديد، وهو في ذات الوقت عمه وإشبينه. ثم أصبح له في العام التالي أخ يُدعى چيرمان. ثم جاءت له ثلاث شقيقات: سيدوني، كونستانس، ألبرتين، وأربع إخوة آخرون، ولكنهم توفوا في سن مبكرة.

هكذا زاد ثراء عائلة مونييه من صناعة الأجراس والمدافع فراحوا يستثمرون أموالهم بحكمة في تستصلاح الأراضي. كانوا يحرثونها بأنفسهم بمساعدة بعض العمال الذين كانوا يعملون في صناعة الأجراس ثم أصبحوا عمالاً زراعيين. أصبحت لديهم أراضٍ صالحة للزراعة، وأراضي غابات ومراعٍ. بالإضافة إلى مزرعة

كبيرة تقع فى مكان يُطلق عليه فريسينيه، تديرها عائلة من مزارعين أُجراء وهى عائلة روسية، كانوا يقدمون إلـــى أصـــحاب المزرعـــة نصف منتجاتها. بها اثنتا عشرة بقرة وزوجان من الثيران ومائة من الغنم والخنازير والدواجن والماعز.

كان لابد من إحاطة كل هذه المواشى والطيـــور ومراقبتهـــا، لأنها إن وُجدت هائمة فى غابات أسياد المنطقة من اللوردات، ستُتهم بالرعى فى هذه الأراضى وبالتالى إفساد الأشجار الجديدة، وهكذا لن يتردد حراس السيد الماركيز من رشقها بوابل من الرصاص. ولكـــن هؤلاء الحراس، والذين عُرفوا بالشعارات المرسومة على أســـلحتهم، لم يكونوا مع ذلك عديمى الإنسانية، بل كان من الممكن كسب ودّهـــم ورضاهم من خلال نفحهم بهدايا صغيرة.

شيء واحد تخصصت مزرعة فريسنيه فى زراعته: القنـــب، وهو باللـــهجة العامية يأتى مؤنثًا، كما ورد فى حكايات لافونتين[١]:

"سوف يصل فى الوقت المناسب لبذر القنب".

كانت عائلة روسييه تقوم بعملية البذر عنـــدما يحـــين فـــصل الربيع فى تربة غضة عميقـــة، مدعمـــة بأفـــضل أنـــواع الـــسماد،

---

(١) هو شاعر وكاتب الخرافات الشهير وقصص الحيوان فـــى القـــرن الـــسابع عشر.(المراجع).

المستخرج من روث الأغنام. أما البراعم والنبت الجديد من مزرعة القنب فيتم حراسته عن طريق طفل يحل محل خيال ظل صغير يلوّح بفرع شجرة ليبعد العصافير، ولولاه لما كانوا استطاعوا الاحتفاظ بنبت جديد واحد أو حتى بالبذور. فقد كانت النبتة تخرج من الأرض لتترعرع وتنمو وتصبح قوية، حتى يصل ارتفاعها إلى طول الإنسان وربما أكثر، وتنبسط أوراقها كأكف أيدٍ مفتوحة، تتدلى منها عناقيد طويلة من الأزهار الشاحبة.

ومع حلول شهر أغسطس، يصل ارتفاع كل شجرة من أشجار الكرز إلى حوالى مترين، لتحول الحقل إلى غابة خضراء تفوح برائحة قوية تؤثر على النساء نفس التأثير الذى يُحدثه مفعول عشب الفاليريان على القطط الذى يمنحها حالة تشبه السُكر، مما يجعل أجسادها متهيجة. لهذا السبب تكون مهمة الرجال وحدهم فى شهر سبتمبر هى حشُ هذه الأفرع القوية بالمنجل. ثم يتركونها تهوى فى تجويفات أكواعهم، ثم يقومون بعد ذلك بزلقها تدريجيًا على التربة من أجل وضعها عند سفوح الأفرع. بعد قطف الزهور ودكها، تُستخرج منها حبات الكرز الثمينة التى يتم الاستفادة منها على ثلاثة أجزاء: الأول تُستخدم كبذور للمستقبل، والثانى كأعلاف للدواجن، والثالث لتُعصر ويُستخدم زيتها ذو اللون الأخضر الذى يُشع نكهة حيوية لتتبيل السلاطة شأنه شأن زيت البندق، والكرنب، والتقريظ، أو لحرقها فى مصباح زيتى.

ولكن القنب كان يُزرع فى المقام الأول من أجل أليافه: تستخرج من هذه الألياف حبال ونوع من القماش يكاد يكون غير قابل للتهرؤ تستخدمه النساء لعمل الملاءات، ومفارش الموائد والقمصان والسترات التى يمكنها أن تدوم لعدة أجيال متلاحقة. فى البداية كان أفراد عائلة روسييه يضعون جذوع الأشجار فى أحواض بها ماء، وفى برك المياه الراكدة أو فى الحفر المليئة بالماء، ثم يضعون فوقها ألواحًا خشبية يتم تعزيزها بالحجارة. بعد نقعها هكذا لمدة أربعة أسابيع، يتم إخراجها من المستنقعات لتُجفف فى الفرن. بعد ذلك كان يجب التخلص من المادة القشرية، وهى نوع من الطبقة المطاطية تغلف الألياف. يقومون بتمديدها على أسرّة ذات حوامل، ثم يتم طرقها بمطرقة كبيرة. هكذا يتم فصل هذه الخيوط عن المنطقة المزدهرة بالألياف ثم تُجمع معًا فى حزم. تُستخدم هذه الجذوع الخشبية فى الإضاءة المتنقلة من غرفة لأخرى، مثل الشمعدانات، ولكنها لم تكن تُصدر إلا شعلات قصيرة. بعد ذلك تُستخدم فرشاة كبيرة لها أسنان طويلة حادة مثل الخناجر لتمشيط هذه الطبقة. هنا تتدخل أيدى النساء. فعصى الغزل (اسم تلك المهنة) فى ذلك الزمن وكانت أكثر من إجبار، فقد كانت بمثابة امتياز كبير تتشرف به العديد من سيدات المجتمع.

كان ذلك ينطبق على ماريا مونييه، زوجة كبير العائلة، فقد مارست ذلك العمل طوال حياتها، إما وحدها أو برفقة خادماتها، كما أنها علمتها ونقلتها إلى بناتها وحفيداتها.

كانت الفرشاة التى تستخدمها ماريا مونييه عبارة عن عصا خشبية متفرعة فى أعلاها حيث تلف عليها خصلة من الخيوط كانت تُطلق عليها دميتها. كانت تُمسك بالفرشاة النسوية بذراعها الأيسر، وتمدد من اتجاه اليمين بعض مسارات معلقة على عمود مستدير، ثم تُمسكه بين إصبعى السبابة والإبهام، ثم توقع عليه ضربة شديدة فى حركة دائرية. وهكذا يتشكل الخيط شيئًا فشيئًا. بعد ذلك تبلله بلعابها لتليّنه، وبما أن هذه الممارسة كانت تجفف فمها سريعًا، فإنها كانت تحتفظ بحصاة مستديرة صغيرة تجعل لعابها يسيل باستمرار. هكذا كانت خيوط الصوف والكتان تُنسج على نفس المنوال. بعد ذلك كان يجب أن يتحول الخيط إلى نسيج. وكانت هناك ثلاث ورش تتنافس على حياكة النسيج فى بلدة فيفيرول. ولكن هذه المهنة كانت متوفرة فى العديد من المنازل حيث يمارسها الرجال والنساء على حد سواء بالتبادل على هذه الماكينة بلا مبالاة. كانوا يمررون المكوك من اليمين إلى اليسار ثم من اليسار إلى اليمين. مما لم يترك كثيرًا من فرص العمل للنساجين المحترفين، الذين تحتم عليهم ممارسة مهنة أخرى أو مهنتين من أجل العيش.

من ناحية أخرى كانت هناك قاعدة عامة: كان الحداد يعمل أيضًا في صنع السكاكين، وحدوة الخيل وتصنيع الأواني، والنجار يعمل في تغطية أسطح المنازل بالقش أو بالبوص؛ وخياط الملابس يقوم أيضًا ببيع القبعات والأحذية؛ أما رعاة الأغنام فيعملون في حياكة الصوف أو قماش الدانتيل؛ كما كان هناك قساوسة يمتهنون الكتابة العمومية أو حشو الكراسي بالقش.

لقد قامت عائلة مونييه في الماضي بإذابة المعادن للمدافع الصغيرة لحكام مدينة مونفيران أو مدينة بريود التابعتين لماركيز دي بوليناك؛ والمخاطيف البحرية لأسطول مراكب نهري "دي لوار" و"دي ألييه"، وبتصنيع تماثيل القديس بطرس، والقديس أنتوني والقديس نيكولا ومريم العذراء. أما مزارع القنب التي يملكونها فجعلتهم يستصلحون سلسلة أخرى من الأراضي في منطقة لوباردانج، وهي أرض مكشوفة، تظللها أشجار الزيزفون. كان رجلان يكيّفان لهذه المهمة. أحدهما يرفع بين ذراعيه أكوام الخيوط المتشابكة، والثاني يدير مانيفلة رافعة المغزل على دبابيس عديدة. كان الأول يمشي متقهقرًا إلى الوراء، تاركًا بشكل تدريجي المسارات التي تفتلها دبابيس الرجل الآخر لتلفها إلى حبال أو كابلات. يتألف كل حبل من عشرين أو ثلاثين مسارًا حسب السُمك المطلوب. حيث إن الأجراس ما هي إلا آلات تعمل أيضًا بالحبال. فهناك مثل يقول: "من يعمل في ثلاث مهن، له ثلاثة مصادر دخل".

يبلغ تعداد قرية فيفيرول حوالى ألف نسمة وكلهم تقريبًا تحت سيطرة اللورد دوريل، ماركيز دى كولومبين، وهو صاحب القصر، ونصف الأراضى، وأربع طواحين فى منطقة لاليجون، وقد خُصصت للمزارع. كان هؤلاء العاملون فى المطاحن يُدفع لهم رطل من الحبوب على خمسة وعشرين مطلوبًا طحنها، وهو ما يكفى لإطعام كمية من الدواجن.

أما الفرن الوحيد فى القرية، والواقع بالقرب من الكنيسة، فكان ملكًا للورد؛ فالفران كان يطالب بعشر عملات معدنية صغيرة على كل فرد فى السنة، على أن يجلب كلٌ منهم حزم الدقيق الخاصة به. الوحيدون الذين أفلتوا من تسلط الماركيز، هم أصحاب الأراضى المشاع والعزب الخارجة على نطاقه، وأصحاب الممتلكات من الأثرياء، وكذلك ذوو المهن المربحة مثل عائلة مونييه، وكتّاب العدل (المحامين) والمدعى العام وبعض الحرفيين الأغنياء. أما البسطاء والعمال الأُجراء، فقد كان فصل الربيع بالنسبة لهم هو موسم القحط والمجاعة، حيث تكون المؤن الغذائية قد وصلت إلى حدها الأدنى. حتى إنهم كانوا يضطرون أحيانًا إلى أكل الحبوب المخصصة للزراعة فى الموسم المقبل. وكانوا يحاولون التحكم فى أنفسهم وهم يقومون بطهو حساء القراص والهندباءات، ومسلوق الشعير والشوفان المغلى. كان خبزهم أسود، لزجًا ومخلوطًا بقشور الحبوب. يرتسم

الجوع على وجوه أطفالهم، وهكذا يموت العديد منهم. ولـذا تنتـشر الصلبان على مقابرهم، فليست كلها تعلو الكنائس. وكانت الأمهـات يعملن كمرضعات لإيجاد مصدر رزق ما... بينما يذهب الآباء إلـى مدينة ليون، أو باريس، أو أورليان للعمل فى بعض المهن البـسيطة كتنظيف المداخن، أو حمل المياه، أو مسح الأحذية، أو بكل بـساطة كمتسولين. والبعض الآخر منهم عبر البحار، وكثيرًا منهم نـسى أن يعود مرة أخرى إلى بلاده.

كان شهر أغسطس هو موعد الحصاد بالمنجل، ولهـذا ظهـر وجه "ديكسميه" اللعين، والذى عيَّنته الكنيسة، لكى يأتى ويقـوم بعـد حزم المحاصيل، ويأخذ واحدة من كل عشرة من نتاجها. من بعـده، يأتى رجل آخر ليقوم بحصد ضريبة الخراج الملكى ليأخذ هو الآخر كمية كبيرة. هكذا استلهم المزارعون الفقراء هذه الأغنية منه:

ها هم الحصاد قد أتوا وداروا دورتهم

ها هم قد نهشوا أحشاءنا

أخذوا منا الحبوب والقش، من أجل الضرائب والمتأخرات

لم تعد لدينا سوى عيوننا لنبكى بها

لم يعد بمقدورنا أن نجلب من كل هذا الجبل إلا التوت البـرى وبعض المكسرات.

أما الحزم التى كانت تبقى فكانت ترص كجملونات وتترك فى الشمس لتجف لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. بعد ذلك يـتم إدخالهـا إلـى الحظائر حيث تطرق فى فصل الشتاء التالى، وسط صـخب ومـرح المزارعين بواسطة عصى فى أيديهم. لا تبقى من الحزم سوى بذور القشور إذا لم يفرض الجوع سيطرته فيأكلونها.

أما الأغنام فكانت تأكل القصبات القشية فتقصها وتحولها إلـى سماد عضوى.

تأتى بعد ذلك أعمال الحراثة، والتجريف بالمحراث الفريد من نوعه المزدوج الذراعين. كان يُمرر فى كل الاتجاهـات لـثلاث أو أربع مرات تبعًا لمتطلبات التربة. كان ينبغى رفع كل حجر وحملـه إلى حدود الحقل، حتى إنها شكلت جيلاً بعد جيل، فيما يشبه جـدارًا متهدمًا. وهناك حيث لم يكن من الممكن تحريك المحراث، كانت أداة الجاروف المسطح هى التى تحل محل المحراث: وهى أداة خـشبية ذات أطراف حديدية.

بعد ذلك تُنثر البذور... أبدًا لم تُنثر بذور القمـح ولكـن بـذور الجاودار (الشعير). فى أحسن الأحوال، كانت تُنثـر مجموعـة مـن البذور، وهى خليط من كميات متساوية من حبوب الشوفان والجودار. وكذلك حبوب الحنطة السوداء. كان النتاج ضعيفًا فى هذه الأراضـى

الصخرية الشحيحة السماد. السبب وراء ذلك قلة كميات القش التي كانت توضع في مخلفات البهائم، حيث كانت الجذوع تُقطع عند منتصفها بمنجل ويصبح المتبقي ملكًا للجميع. فكل من هب ودب كان بإمكانه "لملمة" ما في استطاعته من القش لإشعاله وإضاءة منطقته، أو لعمل سقف لمنزله، أو لإطعام أغنامه؛ التي كانت تمتنع عن تناول قش الشعير الصلب أكثر من اللازم، خاصة في فصل الشتاء.

كانوا يتعمدون نثر بذور الشعير السميكة تحسبًا لصقيع الشتاء، وكذلك تحسبًا لنهم العصافير الصغيرة، وللنطف السيئة. وكانوا يقومون بتمشيط التربة الحديثة البذر بشوكة كبيرة تشبه المشط لها أهداب شائكة تُغرس متقاطعة في التربة. بعد ذلك لا يتبقى إلا ترك الأراضي لعوامل طبيعة الخلاق من أمطار وشمس، لتأتي بتأثيرها على ترعرع المحاصيل.

كان عدد الأبقار ضئيلاً، فقد كانوا يربونها ليس من أجل لحومها، ولكن من أجل حليبها، وعملها في حرث الأراضي، والأسمدة التي تنتج عنها. كانت النساء يتولين مسئولية حلب الأبقار، ثم يستخرجن منها الزبد، والجبن الأسطواني الشكل والذي يكون طوله ضعف عرضه، ثم يضعنه ليجف على حواف النوافذ، تحت رحمة الذباب. عندما تستوي هذه الأجبان وتصل إلى مرحلة النضج التام، تتساقط منها الديدان قافزة في حركات بهلوانية. وكانت الأبقار شبه

مقدسة كما كان سائدًا فى الهند، لذا كانوا يتركونها حتى تصبح طاعنة فى السن، هزيلة، وبالتالى عديمة الفائدة وعقيمة، ولا يصلح منها سوى جلدها وقرونها. وقتها يحين موعد ذبحها فيشتريها الجزارون مقابل بضع عملات نقدية تصلح لدفع "الملح اللازم لتمليح اللحوم".

كانت كل عائلة مفترضًا أن تستهلك ما يُعادل سبعة أرطال من الملح للفرد الواحد على مدار ثمانى سنوات. ولكن فى المناطق الريفية المحيطة بمنطقة أوفرنى، كانوا يستفيدون تمامًا من هذه الكمية. ففى فصل الشتاء، كانوا ينشرون خليط القش والتبن لتتغذى الأبقار عليه. ثم يحتفظون فى المخازن بلحوم الأبقار أو الخنازير المذبوحة.

وكان الأب ساربوال يوصى الأهالى فى خطبه: إخوانى الأعزاء، إذا لم يلب ملح التموين حاجاتكم، فلا تشتروا الملح المُهرب. فربما كلف جلبه حياة واحد أو العديد من الرجال. فالأحرى بكم أن تستخدموا الملح الصخرى الموجود فى القبو الموجود أسفل منازلكم، فهو مجانى.

لم تكن الخنازير أفضل حالاً من الأبقار. فقد كانت تكتفى بالتغذى على الفطريات وثمرات الجوز التى تتساقط من الأشجار على حدود الغابات، وعلى المياه المتسخة من جراء غسيل الصحون، والقراص المفروم. ومع ذلك ففى كل شتاء، كان كل مزارع يذبح

أحد خنازيره. فيحظر على نفسه وعلى أسرته تناول لحم الفخذ: فهو يكتفى بتعليقها فى سقف غرفة المعيشة كنوع من الزينة حتى تحين مناسبة زواج أحد أبنائه، فيقرر استهلاك العدد المطلوب لتلك المناسبة.

من المدهش أن موسم الشتاء القارص البرودة لم يكن هو أصعب الفصول مرورًا على الأهالى. فسواء فى مخزن اللحوم المملحة، أو فى العلية، أو فى القبو، كان هناك دائمًا ما يجدونه من مؤن غذائية. إذا كان الماركيز قد احتفظ لنفسه بالأشجار ومنع المزارعين من الأهالى لمسها، ففى المقابل صرح لهم بجمع الحطب وما يتبقى من جذوع أشجار ميتة. وبالتالى كان البسطاء من خدام الماركيز يتدفأون بإشعال حزم الحطب. هكذا كان منزل بائس ذو سقف من القش له مخزونه من حزم الحطب، تغطيها كومة من أعواد مصنوعة من أشجار السرو لتحميها.

كانوا يحرقون الجفت أيضًا، وهو نسيج نباتى مستخرج بواسطة الجاروف ينمو على ضفاف بعض المستنقعات. كانوا يعرّضونه للشمس فى أكوام كثيرة لأشهر عديدة حتى تتضح منه الرطوبة، ثم يطوقوا الحرارة الصادرة عنها ويوجهوها فى المداخن. فى الخارج، كانت الرياح تعصف بالثلوج فتشكل حواجز منيعة. لهذا كان الأهالى يعيشون كالسجناء تجنبًا للبرودة القارصة كما لو كانوا

حيوانات الخلد، يمضون وقتهم فى طرق حزم القمح، أو فى حياكة النسيج، أو فى صنع الأحذية أو فى تضفير السلال أو الأغطية القشية، أو فى صناعة المناحل أو أقفاص البوص. أما النساء فتخصصن فى حياكة قماش الدانتيل.

بعد العشاء، ولكى يقتصدوا فى زيت مصابيح الإضاءة، كانوا يدعون الجيران، ليلتفوا جميعًا حول الموقد، حيث يخرج الضوء الوحيد من جمراته. لهذا يشعرون بالدفء فى بطونهم وببرودة فى ظهورهم. كانوا يجلسون إما فى حظيرة المواشى، حيث دفء ورائحة الأبقار، أو يجلسون على بالات القش أو نبات السرخس. ولم يكونوا يحتاجون إلى إضاءة لكى يتحدثوا، فالكلام يعبر الظلام.

ترى ما الذى كانوا يقولونه؟ فمعظمهم لم تطأ أقدامهم خارج القرية. وبالتالى فهم لا يعرفون عن باريس ولا فرساى ولا سان دونى إلا ما كان الراهب ينقله إليهم. ولم تكن الأخبار ليست دائمًا سارة:

– لقد تم إعلام أهالى قرية فيفيرول أن ملكنا، حفظه الله، لويس الرابع عشر، قد تورط فى حرب طويلة ضد أعداء لا يُستهان بهم، ولهذا يقتضى على رعاياه المخلصين المقيمين فى منطقة أوفرنى تقديم دعم مالى استثنائى يعادل خمس عشرة عملة معدنية

لكل فرد من أفراد العائلات التى تسكن تحت سقف واحد. سوف يقوم بتحصيل هذه المبالغ المحصلون المعتادون، وفى حالة عدم السداد النقدى، سوف يأخذون ما يعادل قيمتها من الفواكة وكمية مما ينتجه الفرد من محاصيل.

لم يكن لدى السهارى شيئًا ليقولوه عن ماضيهم، ولا حاضرهم ولا مستقبلهم، ولهذا كانوا يحكون لبعضهم البعض باللهجة المحلية حكايات عن عالم خيالى ملىء بالجنيَّات والشياطين، بل والعفاريت والديابة، وكذلك الشخصيات الخرافية. ولكى ينتقموا، لطالما أحبوا كثيرًا أيضًا أن ينتقدوا قساوستهم، خدام الله المخلصين، ولكنهم يشكلون بصورة أكبر متحدثين رسميين للملك لويس الرابع عشر ومحصليه. وهكذا كانوا يحكون أسطورة الجرس الذى دق من نفسه:

"كان قس بلدة شالمازل قد تم تسهيل إمداده بالنبيذ بفضل شقيقه الذى يعمل فى مزارع كروم قرية كوزان. هكذا كان قبوه يزخر دائمًا بخزين وفير من النبيذ، وهو ما جعل فييت، حافظ غرفة المقدسات فى الكنيسة، لا يتردد عن زيارة ذلك القبو، وقد أُطلق عليه هذا الاسم لأنه اعتاد أن يهتف فيها قائلاً:

" فييت! يا له من طقس حار اليوم! يا فييت! لكم كانت القاعة تضج بالناس اليوم أثناء القداس!".

ففى القبو، كان هناك دائمًا كوب مخبأ وراء برميل النبيذ. وبما أن فييت كان يتحرك بحرية داخل منزل القس بصفته خادمًـا يقـوم بعمل كل شيء، فقد اعتاد الذهاب فى كثير من الأحيان لإفراغ كأس من النبيذ فى جوفه. بعد ذلك يصعد مرة أخـرى للكنيـسة بعـد أن يمصمص شفتيه وشاربه.

إلى أن جاء يومِ أحد لم يسمع فيه القس جرس صلاة العصارى والتى تسبق ساعة القداس. اعتراه القلق فذهب إلى كنيسته... ومـاذا وجد؟ فييت ممددًا على الأرض، وبالتحديد تحت حبل الجرس، يغـط فى نوم عميق ويشخر بصوت عالٍ جدًا. كان بإمكان القس أن يوقظه بركله برفق فى جانبيه، ولكنه فضل استخدام طريقـة مفيـدة أكثـر. صعد إلى برج الأجراس وحرك العجلة النصف دائرية، ممـا جعـل الجرس يبدأ فى الاهتزاز. فى البداية بدا الرنين ضعيفًا، ثـم أصـبح مسموعًا، ثم رن عاليًا بصوت أصم مجتاحًا بصداه البـرج، متـسربًا من خلال فتحات الصوت، ومخترقًا نوافذ البرج الخشبية التى يخرج منها صوت الجرس إلى أسفل، فتهرب منها الغربان فزعة، وينتـشر فى أرجاء الريف داعيًا سكان القرية لإقامة صلاة العصر.

فى هذه الأثناء، أفاق فييت من نومه الـسكران فوجـد نفـسه ممددًا على بلاط الكنيسة. رفع رأسه لأعلى فرأى الحبـل ذا العقـدة الضخمة فى نهايته يتحرك صعودًا وهبوطًا من نفسه أمام أنفه. نظـر

إلى أعلى حتى الفتحة الموجودة فى قبة البرج، فإذا بالعقدة الضخمة ترتطم برأسه أثناء حركته! قال لنفسه: "حتمًا ولا شك أن الشيطان يعبث بهذا الحبل العاهر! سوف ألقنه درسًا كى لا يقرع مرة أخرى دون إذنى! أحكمَ قبضتى يديه على الحبل فارتفع به على الأرض تجاه السقف المقبب ثم هبط به إلى أسفل مجددًا. ما لبث أن ارتفع مرة أخرى بمقدار حوالى مترين. جن جنونه من الحنق فأخرج من جيبه سكينًا وفتحه بأسنانه ثم راح يجز فى الحبل من فوق رأسه. استمر هكذا حتى آخر دوبارة من الحبل الذى انتهى به المطاف أن انقطع فتهاوى فييت وسقط على مؤخرته.

بعد برهة من الوقت، نزل القس من أعلى برج الأجراس بينما راحت حركة الجرس تخف تدريجيًا. وجد فييت جالسًا على الأرض فاقدًا لاتزانه، فراح يبوّخه.

(٣)

آن، هو كبير عائلة مونييه، لم يعد يعمل بيديه حيث خبا بصره فلم يعد يرى تقريبًا حتى إنه أصبح بالكاد يميز القمر من الشمس. لم يمنعه ذلك من إصدار أوامره وانتقاداته للجميع.

- صحيح، إننى لم أعد أرى الشىء الكثير، ولكن لدى أنف وأذنان، وبشرة ينبهوننى بما يحدث من حولى.

إحدى المهام الأخرى التى كان يقوم بها آن: الدمدمة باللغة اللاتينية أثناء الصلاة التى تتلى قبل تناول الوجبة. بعد ذلك يتقاسم الخبز الذى يقوم بتوزيعه على كل فرد جالس أمام المائدة المشتركة من رجال وصبيان. ثم يبدأ الجميع فى تقطيع شريحة الخبز بدقة وحرص، ويغمسونها فى الصحن الكبير الذى تكون الجدة ماريا قد قامت بوضعه، بمساعدة إحدى زوجات أبنائها، ليتوسط المكان. ثم تقوم بسكب مرق القلقاس به على دفعات كبيرة فتلمع على سطحه فقاعات من الزيت. يتشرب الخبز المرق لينتفخ ويملأ الوعاء منه البخر وتفوح منه رائحة لاذعة ولكنها ذكية. يمسك آن بملعقته المصنوعة من الحديد المنقوش (عادة لا يمتلك مزارعو القرية

والبسطاء من الكادحين سوى الملاعق الخشبية)، ثم يبدأ في تقليب الحساء. وسرعان ما يبدأ الباقون في تقليده.

في النهاية، يخفض كل منهم رأسه حتى يصبح فمه في مستوى الوعاء ثم يبدأوا في ارتشاف الحساء. ينحنون جميعًا بشكل، كما كان يُقال وقتها، رؤوسهم في قرية لوباردانج وظهورهم في بلدة فيفيرول.

بعد ارتشاف الحساء، يأتي دور لحوم المواشي أو لحم الخنزير المقدد، والخضروات المقطعة إلى شرائح صغيرة والجبن الريفي أو جبن العنز الصغير. في نهاية الوجبة، يُقدم التفاح أو الحلويات. وكان العمال يشاركون أسيادهم الطعام، ولكن لا يحق للمتدربين الجدد منهم تناول الحلوى. وكان يتحتم على الأطفال الصغار أن يتناولوا وجبة العشاء قبل الكبار ببرهة من الوقت. أما النساء فيأكلن واقفات قرب المدفأة ويمسكن بوعاء الطعام في أيديهن، بينما تستعمل كلٌ منهن رغيف الخبز كما لو كان طبقًا. كان بيير فيليستن يجلس إلى يمين والده ولا يحق له التحدث، رغم بلوغه الثالثة والأربعين من عمره، إلا إذا وجه له أبوه آن الكلام. فأهمية تناول وجبات الطعام تأتي في المقام الأول من أجل الصلاة، ثم للتأمل والخشوع، وفي النهاية من أجل التغذية ولكن بشكل ثانوي.

في يوم الأحد، يقومون بطهو الدواجن والبيض المقلى فتتطاير رائحتهما ليُجن لها جنون الكلاب من الجوع والـنهم. كانـت الجـدة ماريا هى وحدها المسئولة عن القيام بتقليب قرص البيض المقلى فى المقلاة. أمام أعين الجميع، كانت تعده قائلة:

- واحد! اثنان! ثلاثة!

ثم ها هو قرص البيض المقلى يقفز فى الهـواء! ثـم ينقلـب ليسقط حيث يجب أن يكون. بالنسبة للشرب، فالماء متاح للجميع كما يشاءون، فكان الصغار يكتفون به. أما بالنسبة للرجال فكـان كبيـر العائلة يسكب لهم قليلاً من النبيذ فى أكواب من القصدير على شـكل أجراس، تتم إذابته لتشكيلها فى ورشة صنع الأجراس. كانوا يسكبون كمية ضئيلة من النبيذ لكى تشكل الطعم التقليـدى وتمتـزج حـرارة الحساء مع حرارة نتاج الكرمة، ويحتفظون بالباقى لاختتام الوجبـة، بعد تناول التفاح. كانوا يرتشفونه على جرعات صغيرة، بكل احترام، كما لو كان دم المسيح.

لقد كان النبيذ يصل إلى منطقة "ليمانى" بفضل قوافـل بـائعى النبيذ الذين كانوا يجوبون جبال "فوريز" حتى جبـال "مـونبريزون". وكانت كل قافلة تتألف من خمسة عشر بغلاً وعشرات الرجال، تحت قيادة زعيم، يُعرف بقامته الطويلة وبالحلقة الحديدية المستديرة التـى

تتدلى من أذنه اليمنى. يحمل كل بغل قفتين جلديتين تزنان معًا مائتى رطل، ناهيك عن السرج المزخرف، والمشدات والأجراس الصغيرة. أما البغل الذى يسير فى المقدمة فكان يحمل فى رقبته جرسًا ضخمًا كما لو كانت رأسًا آدمية.

كان الموكب برمته يحدث جلبة شنيعة، تمتزج معها نداءات الرجال وأغانيهم وصفق أسواطهم على ظهور البغال. وكان ذلك الضجيج يجذب الناس، ويطرد الذباب.

- هيا... ها هو نبيذ ليمانى الطيب! هيا يا سكان "ليمانى"! ها هو نبيذ شانتورج اللذيذ!

هكذا كان محبو النبيذ يخرجون من منازلهم عند سماع هذه النداءات. ومن لا يخرج كان بائعو النبيذ لا يترددون فى الطرق على بابه، أو بقرع أجراسهم الصغيرة. كانوا يقدمون النبيذ فى كوب من الفضة، بل ويسكبونه أحيانًا فى راحة أيديهم كى يتأمل الأهالى لونه بإعجاب. فى ذلك الزمن كانت جودة النبيذ تُقاس بلونه: فكلما كان أحمر فاقعًا يسبب البقع، كلما ازداد تقديرهم وإعجابهم به. وإذا لم يكن غامقًا بما فيه الكفاية، كان بائعو نبيذ "ليمانى" يضيفون إليه عصير التوت البرى أو نبات البلسان. وأيضًا كان كثير من العاملين فى الحانات يطلبون نبيذًا ذا طعم حامض وصعب البلع. لم يكن هناك

أسهل من نقعه فى مادة زنجار النحاس. ولكن الحقيقة تقول بأن القائمين على مزارع الكروم لم يصنعوا النبيذ بحب وجدية مثلما كان يصنعه مزارعو الكروم فى مناطق بورجونى، وأنچو، وآكيتان. وذلك لاعتقادهم بأن كل ما يدخل إلى البطن، لا تهم جودته. فكانوا يبيعون أفضل ما لديهم من محاصيل، ويحتفظون لأنفسهم بالجزء الردىء منها.

فيليستن! من أين جاءه هذا الاسم الذى يعنى "الملعون من الله"؟ لابد وأن بيير مونييه كان يبلغ من العمر حوالى عشر سنوات عندما أشار القس أثناء وعظه لشعب فلسطين، هذا الذى يتخذ رأس القط كآلهة له. ولكن أفضل صديق لبيير كان أحد أربع قطط موجودة فى المنزل وكان يُدعى مارتينيه، وكان يتبعه فى كل مكان كما لو كان ظله. هكذا كان بيير يجلس وهو طفل محتضنًا إياه بين ذراعيه للحظات طويلة، فكان القط يقرقر ويدفن فمه تحت ذراعه اليسرى، ويسيل لعابه من فرط السعادة، حتى يتبلل إبط بيير تمامًا. وفى موسم طرح الفواكه، كان بيير يتسلق شجرة الكمثرى لقطف ثمارها. وبالنسبة له، الشجرة تشبه القرية: فهو يعرف كل طريق بها، كل تقاطع، كل ممر مختصر. ففى هذه الرقعة كان يعرف تمامًا أن بها ميلاً، وفى رقعة أخرى انزلاقا. فى أعلى الشجرة، بدت القمة وقد استحال الوصول إليها بسبب فروعها المتشعبة المتشابكة بشدة. لكى

يصل إليها، تحتم عليه أن يثنى جسمه ويلويه ويقوم بألعاب بهلوانيـــة. وأخيرًا، عندما وصل إلى القمة وجد أن طرفها ملىء بالتشعبات، كما لو كانت شجرة الكمثرى قد تحولت إلى حزمة من البوص. ســـرعان ما راوده شعور أنه هو نفسه قد أصبح ثمرة فاكهة كبيـــرة امـــتلأت باللحم المغذى الصاعد إليه عن طريق العروق النباتية، كما أنه أحب هذا التأرجح. على مرمى النظر، رأى الخطوط المتعرجـــة للجبـــال الأرجوانية، والشريط الفضى حيث المياه المتلألئة لترعة لاليجـــون، والغابات الداكنة لدير "شيز – ديو".

وأثناء قيامه بقطف الثمار، لم يكن للحظة وحده فوق الـــشجرة فقد كان قطُه مارتينيه دائمًا فى إثره، غير مكترث بالجرذان والفئران وحيوان الزغبة، بل صعد وراء صاحبه واستقر فوق فرعٍ من الأفرع على مقربة منه. هكذا راحا يلعبان معًا لعبة القط المعلق. بسبب هـــذا العشق المتبادل والكلمات التى قالها القس، حصل من حيث لا يعلـــم على هذا الاسم الملقب بفيليستن.

عندما كان فيليستن يضطر للسفر وترك بلدة فيفيرول إلى بلدة لوباردانج أو إلى غيرها من الأماكن الأخرى، كان قطـــه مارتينيـــه يستشعر رحيله فيمضى يومه فى المواء ذهابًا وإيابًا بين أقدامه وكأنه يقول له:

- خذنى معك! خذنى معك!

فى النهاية كان بيير يرضخ للأمر: فيضعه داخل سلة ويأخذه معه. فى يوم من الأيام، كان فيليستن ووالده فى طريقهما إلى بلدة "سان أنتم"، عندما توقفا للاستراحة عند حدود غابة "لافاى" ولكى يتحمما فى البركة الموجودة هناك. وهنا كانت الفكرة المؤسفة لمونييه الصغير، وهى أن يفتح السلة لقطه مارتينيه لكى يتحمم هو الآخر. ولكن الذى حدث أن فر القط مذعورًا من نباح كلب متشرد، وتسلق إلى قمة شجرة من أشجار التنوب. راح فيليستن ينادى عليه ليقنعه بالنزول ولكن دون جدوى، بينما استمر الكلب الضال فى نباحه المزعج.

- حسنًا... لم تترك أمامى خيارًا إلا أن أصعد لإحضارك. هكذا قال فيليستن باختصار.

وحين وصل فيليستن إلى المكان الذى كان فيه القط، غرس القط المرتعب فى البداية مخالبه فى الشجرة، ثم فى لحم صاحبه. ورغم الألم الشديد الذى شعر به فيليستن فإنه لم يترك قطه للحظة. هكذا نزل به إلى الأرض وهو يمسك به بين يديه المليئتين بالدم. لقد ظلت آثار هذه الخدوش فى يديه طوال حياته. فمن الحب ما قتل ومنه ما يسبب الندوب.

ها هو فيليستن الآن وقد بلغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا، قد أصبح اسمه يلائمه تمامًا، بلحيته على شكل معين منحرف، وحاجبيه الكثيفين اللذين يكادان يلتحمان، كجناحي طائر أسود منفتحين، وبعصاه ذات القبضة المستديرة والتي كان يمسك بها كل يوم أحد أثناء دخوله الكنيسة ليضرب بها على بلاط الأرضية، وقبعته المخملية التي كان يضعها تحت ذراعه. في صحن الكنيسة، وعند المقاعد الرئيسية الأمامية، هناك اثنا عشر كرسيًا منحوتًا عليها أسماء بالنحاس الأصفر:

عائلة مونييه. كان مقعد آن يحتل المكان الأول، وبيير المكان الثاني، ثم مكان إيتين والذي احتله ابنه باردو رغم صغر سنه، والرابع لأنطوان، أو كما يُطلق عليه مونييه الصغير وهو الأخ الأصغر لفيليستن.

هكذا تزوج بيير من زوجة أخيه، فرانسواز كالمار. بهذا الزواج توحدت للمرة الثانية أعرق عائلتين متخصصتين في صناعة الأجراس في قرية فيفيرول. ومع ذلك لم يحدث بينهما قط أي نوع من التنافس أو التحدي. بل على العكس: ففي الماضي، كثيرًا ما حدث أن عمل أفراد عائلة كالمار ومونييه معًا. كانت هذه هي الحال على سبيل المثال في أجراس الكنائس التي صنعوها معًا في كنيسة القديس جان دي ليون، والقديس جيرمان لافال، والقديس جينيس دي تييرس.

كان فيليستن رجلاً متعلمًا فقد علمه والده بنفسه الهندسة وفن الرسم، وهما ضروريان لتحديد أشكال قوالب الأجراس، وتصميم أبراجها. أما القس كومتور، الذى كان يحكم أبروشية فيفيرول بمصاحبة قسيسين تابعين من أبنائه المعمدين، بمعنى أنهما كانا يعيشان مع أسرهما، فقد علم فيليستن القراءة والكتابة وقليلاً من اللغة اللاتينية بما يكفى لفك الطلاسم.

أما زوجته والتى كانت زوجة شقيقه المتوفى، فقد جلبت له مع المهر، ليس فقط قيمته المادية البالغة أربعمائة ريال فرنسى قديم من الفضة، وإنما أيضا دستة من الكتب فى الدين والجغرافيا والتاريخ. هكذا اكتشف فى هذه الكتب معلومات عن الشعوب التى تقطن هذا العالم الشاسع: الصينيون الذين يصففون شعرهم إلى الخلف على شكل ذيل مماثل لذيل الأبقار، وهنود الغرب الذين يعيشون عراة، ولا يضعون على أجسامهم سوى بعض النقوش؛ والبلغار أو البوجر الذين يضاجع بعضهم البعض من نفس الجنس كما تفعل القواقع لدينا، والأفارقة الذين يضعون صحون الفناجين فى شفاههم. وهناك أيضًا شعوب التاراتاتا التى لا يملك الفرد فيها سوى قدم واحدة، ولكنها كبيرة جدًا، وعريضة جدًا، وهم يسيرون بالقفز حتى مائة مرة أعلى من ارتفاعهم مثل البراغيث، ومع ذلك فهم يفضلون التنقل على أيديهم ورءوسهم موجهة لأسفل بطريقة تجعلهم يستخدمون قدمهم الوحيدة

هذه كمظلة ضد المطر أو لتحميهم من الشمس حسب الموسم. هكـذا أتاحت له كتب فرانسواز اكتشاف عجائب الكون، التي تؤكـد علـى وجود اللـه خالقها.

لقد كانت فرانسواز نفسها إنسانة مثقفة وعميقة المعرفة، بفضل معلم من جنيف يميل إلى المعتقد البروتستانتي ويُدعى شـابوى وقـد عينه لها والدها.

في مكتبه الفوضوى في قرية فيفيرول، أمسك فيليستن بورقـة كبيرة وراح يدون وزن ونوعية الجـرس الـذى اختـاره الأسـقف دابريجيون، ثم انهمك في رسم جرس سان بونيـه لوشـاتوه. بعـد حسابات دقيقة تنم عن خبرة كبيرة، قام بتحديد النسبة المطلوبة تمامًـا من النحاس والزنك والقصدير وسمك جسم الجرس، وشـكل التـاج وأذنيه، وعرض الجسم، ثم طول ووزن ضارب الجرس. بعد ذلـك راح يرسم بقلم رصاص أحمر وبدقة تفاصيل هيئة الجـرس، بعـشر المقياس، دون أن ينسى الحلى، ولا التـدوينات وهـى: طُلـب هـذا الجرس من قبل الأسقف أوجست دابريجيون، وقـام بـصنعه بييـر مونييه من فيفيرول، وإشبينة السيدة النبيلة إرميلين دالجر، هـا أنـا أدون اليوم الموافق السابع والعشرين مـن شـهر أكتـوبر ١٦٩٣. وعندما كان يتحتم عليه أن يمسح بعض الخطوط أو الأحـرف غيـر المرغوب فيها، كان يفركها بفتات الخبز الصلبة.

كل ذلك كُتب أو رُسم بعناية، وبعدها راح بيير مونييه يملس على لحيته الشبه منحرفة بارتياح ورضا. ظل ينظر إلى الورقة عن بعد، وراح يتخيل الجرس بالفعل وهو يقرع داعيًا ملائكة سان بونيه. هكذا ستتناقل الأجيال المقبلة اسم صانع الأجراس الذى كان يقطن قرية فيفيرول، مما يمنحه نوعًا من الخلود على الأرض. طالما ظل دين المسيح على الأقل باقيًا، وكذلك احترام الناس لعلامته. فى اليوم التالى ذهب فيليستن إلى قرية لوباردانج وراح ينحت بيديه على لوح من رماد الخشب الجاف، العيار الذى سيفيده فى رصد الشكل والحجم الطبيعيين لجرس إرميلين بدقة.

(٤)

على بُعد حوالى فرسخ ونصف الفرسخ من قرية فيفيرول، تقع قرية لوباردانج الصغيرة وهى تتألف فقط من اثنى عشر منزل مُشيدة على تبة شديدة الانحدار، بين سلسلة من التلال والجبال يُطلق عليهـا بكل بساطة صخور وادى لاليجون. تحد الطريــق علــى الجــانبين أشجار الزيزفون التى تعطر الريف بعبقها فــى موســم ازدهارهــا، وجميعها يعج بطنين النحل. كانت أشــجار المنحــدرات المزروعــة بشكل جيد تنتج حبوب الجاودار والكاليه والكرنب والقرع. وهو مــا يميز هذه المنطقة من منتجات زراعية محلية.

فهذه النباتات تنمو فى الأراضى المُسبخة جيدًا، مثل اليقطــين أو الكوسة. فالبذور تنثر فى موسم الربيع، ثم تطــرح الأرض فــى شهر أكتوبر أنواعًا مختلفة من الفواكه، البعض منها يــشبه الكوســة الضخمة، والبعض الآخر يشبه الزجاجات ذات الرقاب المختنقة. لابد وأن تُترك حتى تنضج بالكامل، ثم يتم قطفها، وبعد ذلك تجفيفها. هنا يبدأ اللحاء فى أخذ شكل الجلود. يتم تفريغ الثمرة من لبِّها، وهو مــا يجعلها تفتح فمها عند القمة، فتوضع بداخلها ملعقة من مادة ماصــة

للرطوبة. ثم تُترك لتجف من جديد، ثم يتم رجُّها وبداخلها حفنتان من الرمال الخشنة، ثم تُشطف بالماء وتُترك لتجف مرة أخرى. كانت جميع منازل قرية لوباردانج مُزينة بصفوف من ثمار القرع في نوافذها، وكذلك بواحد أو العديد من المكاييل. البعض منها كان على حالته الخام، والبعض الآخر كان ملونًا بخطوط، ومزينًا بالأكاليل ومشرشفًا مثل أسنان المنشار. هذا ما كان يثير ولع المسافرين العابرين لهذه القرية الصغيرة، وخاصة الحجاج والباعة المتجولين. كان هؤلاء الباعة المتجولون يقومون بتوزيع حبات القرع في جميع أنحاء المملكة. فسواء الأجراء القادمين من منطقة بيكاردى، أو جامعى المحاصيل من نورماندى، أو رعاة الغنم من منطقة شمبانى، كانوا كلهم يقومون برىّ عطشهم بالشرب فى قراع أوفرنى. فهى تصلح لوضع الماء والنبيذ، والميد (مشروب كحولى مصنوع من العسل) أو ما يُطلق عليه ماء الحياة. ومع ذلك، فقد كان بائعو النبيذ من سكان بلدة فوريز، يفضلون القراع الصناعية، المحفورة داخل جذع شجرة، وأن يكون لها منقار مدبب ومقبض حديدى، ويطلقون عليها "البراميل".

هكذا كان سكان قرية لوباردانج الصغيرة يتمتعون بأشياء جميلة عديدة: أسماك بحيرة لاليجون، المراعى الخضراء المحيطة بهم، والفطريات والحطب المتوفرين بكثرة فى الغابات. الأكثر من

ذلك أن ماركيز دى كولومبين قد صرح لهم، تعويضًا عن المتاعب التى يلقونها، بقطع شجرة لكل أسرة، فكانوا يقطعون ثلاثًا. كما كانوا يصطادون الخنازير الوحشية بالحراب، وينصبون الفخاخ للأرانب والدجاج البرى الصغير. فإذا حدث وطارد حراس الغابة أحد الصيادين غير المُصرح لهم بالصيد، فإنه كان يفر عابرًا الترعة، ليصل إلى الجانب الآخر، ويصبُح تحت حماية لورد منطقة مونبريزون. وفى أحيان أخرى، كان بعض سكان مدينة ليون يلجأون إلى منطقة أوفرنى طلبًا للحماية. هكذا كان كثير من عمليات تهريب الملح والتبغ والأقطان تُمارس فى هذه المنطقة الحدودية، التى تحد أربع مقاطعات فى آن واحد.

بعد ذلك كانت صناعة صب الأجراس. كانت عائلة مونييه تقوم بتشغيل من عشرة إلى اثنى عشر شخصًا حسب احتياجاتهم. كانوا يبقونهم للعمل بضعة أسابيع، ثم يرسلونهم عائدين إلى ديارهم. أو كانوا يستأجرونهم بصفة مؤقتة أيضًا لنشر المحاصيل وتجفيفها، فى موسم الحصاد، وفى تقليب تربة حقول ثمار القنب، وأيضًا كحطابين. والأيدى العاملة - والذين يعملون فى أى مهن بسيطة متعددة - كانوا دائمًا على غير يقين مما سيحدث لهم فى الغد.

فى كنيسة القديس بونيه لو شاتوه، صعد القس دابريجيون على منبره وهتف قائلاً:

- أيها الإخوة الأعزاء: إن أجراس كنيستنا تفتقد الرنين العالى وملائكة السماء لا تكاد تسمعها. وهذا ما يفسر سبب عدم مجيئها لإنقاذنا عندما نكون فى حاجة إليها. أتذكرون الحريق الذى دمر فى العام الماضى أحد أحياء بلدتنا بأكمله؟ أتتذكرون ذلك الوباء اللعين الذى أزهق أرواح العديد من أطفالنا الأحباء إلى قلوبنا؟ أتتذكرون تلك الجريمة البشعة، لقد قررنا أنا وورشة صناعة الأجراس أن نقوم بصب جرس يزن ثمانمائة رطل، توقظ نغمات رنينه حتى الملائكة ثقيلة السمع. ولكى نحصل عليه، يا إخوانى الأعزاء، لابد لنا من توفير ألف رطل من البرونز. وهو معدن يتألف من النحاس والقصدير وقليل من الزنك. لهذا على كلٍ فرد منكم أن يفتش فى القبو الخاص به وكذلك فى علية منزله وفى المخازن الملحقة به. عليكم أن تحضروا لى كل الأوانى والأوعية القديمة المصنوعة من هذه العناصر. إن مصلحتكم هى التى تتطلب منكم ذلك.

ما إن حل صباح اليوم التالى، حتى راح مخزن الأسقف يمتلئ بالدلاء والأحواض والأوانى والأوعية القديمة المثقوبة، والنواقيس المتهالكة التى توضع عادةً فى رقاب المواشى، والمغارف المليئة بالكدمات، وحنفيات لم تعد تستخدم. بل إنه كانت هناك قراع من النحاس المخصصة لتنقية المشروبات الكحولية. وها هى نافورة جدارية ضخمة بدون غطاء. وها هو سهم معدنى لا يعمل، من الذى

يُعلق على سطح الكنيسة لتحديد اتجاه الريح وعليه ديك معدنى صغير. وقاعدة هاون بدون مدقة. ولوحة مدفأة معدنية من طراز "بريتانى". بعد ذلك توقف التدفق فراح الكنسى يزن مجموع تلك الأشياء المعدنية، فوجد أن مجملها لا يتعدى ستمائة رطل.

- يا إخوانى الأعزاء: ما زلنا أبعد ما يكون عن الرقم المطلوب. فلتبحثوا عن المزيد. فتشوا فى جميع الأركان. بعدها تلقى الأسقف شمعدانًا ملتويًا ومصباحًا زيتيًا مزدوجًا ومشطًا معدنيًا كبيرًا لجمع التوت البرى، وسوارًا معدنيًا ليس له قيمة، وثلاثة أزرار لزى حربى مطبوعًا عليها الشعار الملكى، وبندول ساعة يمثل قرص الشمس، وحاملاً لسيوف المبارزة، وكشتبان خياطة مثقوبًا. كل هذه الأشياء المتنوعة لم يكن لها وزن يُذكر. لهذا اضطر مجمع الكنائس أن يمرر طلب صناعة هذا الجرس إلى الإخوة بلومار المقيمين فى مدينة ليون، وبالتحديد فى شارع "تروا مارى" حيث تجار المعادن، لجلب أربعمائة رطل من النحاس الأحمر. بعد أسابيع قليلة، تم تحميل هذه الأوزان على عربة ونُقلت إلى لوباردانج.

احتلت ورشة مصهر عائلة مونييه مبنى شاسعًا ذا جدران غليظة يبلغ سمكها ثلاثة أقدام على قاعدة حجرية طولها ستون قدمًا وعرضها أربعون. تعلو مدخنتان ضخمتان السطح المبلط. كان الدخان يتصاعد منهما فقط أثناء عملية الصهر.

لكى يتم عمل الشموع، يجب تحضير قالب أسطوانى الشكل مفرغ، ويصب داخله مصهور الشحم الحيوانى. بعد فترة معينة، يتجمد الشحم الحيوانى ويصبح صلبًا. يتم استخراجه تدريجيًا وبحرص لفصله عن القالب، لتصبح الشموع باردة وجاهزة للاستخدام بإشعالها.

وهكذا يتم تصنيع الجرس تقريبًا على نفس المبادئ، إلا أنه بدلاً من صب مصهور الشحم الحيوانى، يُصب البرونز السائل. وبالطبع فالقالب له شكل بالغ التعقيد. فهو قالب جرس. عمليًا، لابد من تصنيع ثلاث قطع يجب أن تُعشق كلٌ منها فى الأخرى بطريقة محكمة:

فى الوسط، يكون القلب أجوف مثل قلب ثمرة الخوخ، ثم فى منتصف السمك، ينبغى أن يكون النموذج، أو الجرس المزيف كما يطلقون عليه، مطابقًا تمامًا لنفس الحجم والشكل والتفاصيل والزخارف الموجودة على الجرس الحقيقى. فوقه توجد الطبقة الخارجية المبطنة للجرس، أو التى تُسمى "العلية"، والتى تأخذ بالضبط نفس طابع النموذج، كما يأخذ المعجون نفس طابع المفتاح، مشكلاً نفس البروزات فى التجاويف ونفس التجاويف فى البروزات. المادة الأولية المصنوعة من الفخار اللين يتم خلطها بروث الخيل وفروة الأغنام. وتُعجن فى البداية معًا بالمجرفة ثم باليد. تزداد

صلابة الفخار بالتجفيف الطبيعى أو بالتسوية، فالروث يجعله خفيفًا، أما مخلفات الغنم تزيده تماسكًا. بعد ذلك، وباستخدام الفرشاة، يتم تغليف نموذج سطح الجرس المزيف بطبقة رقيقة من الشمع المذاب لتسهيل خلع الطبقة الخارجية للجرس.

عندما تصبح العناصر الثلاثة متوفرة، يتم فصل الطبقة السطحية المشدودة على "النموذج" بحرص شديد ومع اتخاذ آلاف الاحتياطات بواسطة رافعة تعمل بعجلتين خشبيتين صغيرتين. يبقى النموذج معلقًا فى الهواء وكأنه جرس من الجبن. إذا ما تمت عملية الفصل بنجاح، عادةً لا يتبقى أى أثر على النموذج أو على الطبقة الخارجية. هنا يتنفسون الصعداء! فهذه الخطوة هى الأكثر دقة والأشد صعوبة. يهلل العمال فرحًا ويصفقون، ثم يقوم فيليستن بتوزيع كمية وفيرة من نبيذ ليمانى على كلٍ منهم.

تلى ذلك مرحلة تبديل (النموذج) المسمط بالفارغ. يتم كسر الجرس المزيف، ثم رفعه وكنس بقاياه المتناثرة. تظهر من جديد النواة الداخلية على شكل رأس مدببة تشبه رأس الأب أوبو (شخصية فى أسطورة قديمة). والآن تأتى مرحلة صعبة أخرى: إنه العنصر الوحيد الذى تتم تسويته بإشعال النار فى تجويفه. يتم إنزال الطبقة الخارجية عليه كما كانت فى وضعها الأول مع تحديد بعض المعالم، ثم تسد بعناية الخطوط التى تحدد الأماكن المتصلة. بين النواة

والطبقة الخارجية، يبقى الآن المكان الفارغ والذى سيُملؤ بالمعدن السائل. هذه الخطوة تتم فى قلب ورشة صناعة الأجراس داخل حفرة مربعة، واسعة وعميقة. تحتل المواد الأولية الأراضى المحيطة، على شكل أكوام منفصلة: مادة البرونز التى تم جلبها من بلدة "سان بونيه"، روث الخيل، مخلفات الغنم، الطين اللين، وقطع الحطب. تنتج عن كل هذا الخليط روائح رحيق الأشجار، ورائحة الدخان وخام الكبريت والشحم الحيوانى الخام والشحم الحيوانى المُذاب. كما لو كانت روائح الجحيم. ولكن صناع الأجراس كانوا يتفاهمون فيما بينهم بإشارات بطيئة ومحسوبة، كما لو كانوا يعملون فى ورشة فخار.

فى الحقيقة، إنهم كانوا يعملون فى مادة الفخار بقدر ما يعملون فى المعادن. لقد تم تصنيع قلب الجرس فى قاع هذه الحفرة التى بلغت قمتها مستوى أرضية القاعة، بينما تجاوزتها العلية بقليل. لزيادة مقاومة قلب الجرس ولاختبار صلابته وتعرضه للحرارة بسكب البرونز المُسال عليه، لتجنب حدوث أى شقوق أو انفجار، كانوا يرمون عليه نفايات مكدسة على عربة لها عجلتان، ويهيلون عليه ما تبقى من فضلات فى الحفرة، ثم يقوم الرجال بالدوس والرقص عليه رقصة محلية. لقد قاموا فقط بتحضير ثقب فى قمة الجرس. على بُعد خطوات قليلة من الحفرة، يوجد الفرن وكأنه مبنى مستقل بذاته مرتفع عن الأرض.

فى وعاء ضخم مصنوع من الفخار المقاوم للحرارة يتم صهر مادة البرونز حتى تميع. كان غطاؤه، على شكل قبة أو ما يُسمى "العاكس" فهو يبعث بالحرارة من جديد. كانوا يضرمون تحتها نارًا أشبه بنار جهنم. بطرف عينه، يراقب فيليستن مدى تفاعل المعادن؛ وتغير لونها من اللون الأحمر الداكن إلى أحمر الكرز، ثم إلى الأبيض. بعد ذلك تتحول المعادن إلى قوام مائع، ثم تتصهر وتنخلط معًا أخيرًا لتصبح معدنًا موحدًا، ثالوثًا متجانسًا. كما أن الله ثلاثى الأقانيم.

هنا تحين اللحظة... فبإشارة من القائد فيليستن، يقوم عامل بانتزاع غطاء السدادة، أو ما يطلقون عليها "الغالقة"، وذلك باستخدام عصا طويلة من الحديد. ينسكب السائل البرونزى المتوهج، فى منظر مدهش لا تتحمله العين المجردة - فينظرون إليه بأعين ترمش - ليسير داخل مجرى فى الأرض المجهزة من قبل، تُسمى "الحفرة"، والتى تقوده إلى فوهة القالب. ينزل بها محدثًا صوت غرغرة ويتسرب الهواء المطرود من الفتحات. عندما يمتلئ القالب عن آخره، يتوقف تدفق السائل المنسكب بأن يقوم أحد العمال بوضع السدادة مكانها مرة أخرى.

يجب أن تتم عملية الصب بسرعة كبيرة وعلى دفعة واحدة، مهما كانت أبعاد وحجم الجرس، حيث إن المعدن المسال يصلب

قوامه فى أقل من ساعة. فى هذه اللحظة، على الرغم من أن الـــسائل لا يزال مشتعلاً، يتم إطلاقه من تجويفه الفخارى، ويتم كسر الرقبـــة مثلما حدث مع الجرس المزيف. هنا يظهر أخيرًا الجرس الحقيقـــى، ساطعًا بنحاسه الجديد، مثيرًا للإعجاب فى تشكيلاته وتفاصيله. بعـــد ذلك يُترك ليبرد على ما هو عليه، وهذا يستغرق أيامًا عديـــدة. فـــى النهاية، وعندما يصبح قابلاً للمس، يقوم العمـــال بتنظيفـــه وتلميعـــه وبمقص معدنى أو بآلة حادة لتشذيب الأطراف التى قد تكون تلوثـــت بالأزيز أو بالجير، وأخيرًا يقبلونه وكأنه صـــديق عزيـــز. يبقـــى أن يضيفوا إليه عضوين مهمين: الخروف والمطرقـــة. العـــضو الأول (الغنم) عبارة عن قطعة ضخمة من خشب البلوط المجفف للغاية كى تستقر داخلها الأذنان، تتمدد بواسطة قطعتين من الحديد المضفر لكى تعلقا داخل تجويفين مثل الأكواب الطويلة من النحاس لتسمحا بحركة الجرس واهتزازه. أما المطرقة فهى مصنوعة من الحديد المجـــدول البسيط، وهى غير قابلة للكسر؛ يتدلى من نهايتها "المقبض" الذى يتم به دق الناقوس. ينبغى أن يكون وزن المطرقة عشرين مرة أكثر من الجزء الطنان.

هكذا ظهر الجرس "إرميلين" إلى الوجود بعد شهر من الإعداد والعمل. فى حضور أفراد عائلته كلها، وكذلك كـــل عمّالـــه، أمـــر فيليستن برفع الجرس على الرافعة حتى أصبح فى مستوى وجهه. ثم

أمسك المطرقة بكلتا يديه من الباب ثم رمى بها تجاه البرونز فأحدث رنينًا رائعًا نصف عميق فملأ أرجاء الورشة، محاطًا بسرب من الأصداء الأقل قوة، متناغمة كالنحل حول ملكته. نفخ بيير في السرنجة التى أحضرها معه، لكى يتحكم فى دقة رنين الجرس. بعدها أراد الجميع من بعده، رجال ونساء وأطفال، أن يكرروا قرع الجرس إرميلين ذى الرنين النصف عميق. وبالفعل شعروا جميعًا بالملائكة ترفرف حول الجرس وقد بدت منبهرة وسعيدة.

فى اليوم الموافق السابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٦٩٣، وقبل بزوغ الفجر، غادرت عربة تجرها الثيران حاملة الجرس نزولاً تجاه ترعة "آنس" فى المنطقة الضحلة منها بالقرب من قرية كوهاند. لقد امتلأت الترعة بمحفوف الأمطار التى هطلت أخيرًا، فتقدمت الثيران فى الماء وقد وصل إلى مستوى بطونها. راح فيليستن يستثيرها بصوته مرة ويلدغ عصاه ذات الطرف المدبب مرة أخرى. مرورًا بالغابات، ثم اتجهوا بعد ذلك ناحية عزبة بوير والتى وصلوا إليها مع الصباح الباكر.

بدا المنظر غريبًا وهذا الجسم العملاق يتقدم هكذا وسط ضباب الصباح. ها هو باردو، الابن الأكبر لبيير، والبالغ من العمر سبع سنوات، قد أراد مرافقة عمه ووالده وإشبينه فى آن واحد. لهذا قامت أمه فرانسواز بلفه فى عديد من اللفائف لتحميه من البرد. هكذا جلس

الاثنان فى مقدمة العربة، ملتصقين ببعضهما البعض، وراحا يتـأملان مؤخرة الثيران الكبيرة وهى تتهادى أمامهما. بعد ساعتين مـن السـير بالعربة، وصلا إلى منطقة "أوسون" حيث شعرا أخيرًا بقليل من ضوء الشمس. أخرج باردو رأسه من وسط اللفائف التى تلفه. توقفا لتنـاول وجبة الغداء التى كان ينقصها الحساء، ومع هذا حصل كلٌ منهما على حصة جيدة من الخبز والجبن ولحم الخنزيـر المقـدد. اسـتمرا فـى طريقهما إلى سان بونيه مرورًا بجرانجييف، وبوريت، وإيست بفاربى. استغرق منهما ذلك ثلاث ساعات طوال قبل أن يلمحوا من جديد معالم البلدة الصغيرة، المتجمعة على نتوءاتها الأرضية التى يهـيمن عليهـا برجا أجراس مربعان من الحجارة الرمادية. يحيط بها جدار طويـل، مُدمَّر جزئيًا، به فناء كلوى الشكل. احتل المبنـى العمـومى للكنيـسة بالضبط وسط هذا الفناء. وما إن لمحهم بعض أهالى القرية حتى جرى ناحيتهم بعض الصبية، وهم يرمـون العربـة والثيـران بالأغـصان الخضراء، ويقبلون الجرس بحرارة وحماسة. لم تمر لحظة إلا وكـان جميع الأهالى قد نزلوا إلى الشارع، أو فى النوافذ أو على الجـدران، يهللون فرحًا ويغنون ويصفقون. كما راحت الأجراس الصغيرة تقـرع راقصة ترحيبًا بوصول شقيقهم الأكبر.

دارت عربة سكان فيفيرول حول مجمع الكنيسة فـى طريـق وعر صاعد لأعلى بطريقة صعبة، تدفعها من الخلف آلاف الأيـدى.

هكذا وجدت العربة الجديد نفسها وقد انتقلت وحدها تقريبًا إلى الدرب الذى يفصل بين الكنيسة ودير أورسولين، فراح ناقوس الجرس الجديد يسطع كوميض الشمس.

ظهر الأسقف دابريجيون ومساعداه واقفين على صخرة متعرجة وهم يرتدون الزى الكهنوتى، تحيط بهم حفنة من الأطفال الشمامسة والجوقة. التفوا جميعًا حول العربة وراحوا يرتلون النشيد الدينى "سبحانك يا رب" (باللغة اللاتينية) ها نحن نسبحك يا الله عظيم القدرة، فنحن نعترف بك إلهًا للكون! فأنت الأب السرمدى معبود كل الأرض...

ثم فجأة سمعوا ضجيجًا عاليًا جدًا تلته موجة جديدة من الهتاف: لقد تقدم إلى الساحة موكب من الفرسان يزين الريش ملابسهم الأنيقة، يحوطون فرسًا بيضاء رشيقة تجلس عليها من جانب واحد زوجة اللورد مالك المنطقة إرميلين دى ألجير. ترتدى فستانًا مُزينًا بأكمله بالريش والدانتيلة، كما صففت شعرها رافعة إياه على شكل قصعات لأعلى وزيّنته بالعقد والشرائط المكدسة فوق بعضها البعض، حتى إنها بدت وكأنها تضع على رأسها قلعة ذات أبراج وأسوار لها فتحات. على الفور حيَّاها الأهالى بوابل من الزهور والقبلات، فردت عليها بتلويحات بكلتا يديها. عندما اقتربت من عربة الجرس، قدم أحد مساعديها الصغار باقة من الأغصان الخضراء بالنيابة عنها ووضعها على العربة.

رفع الأسقف كأسه التى يرش منها الماء المقدس، وراح يبارك بسخاء زوجة اللورد ورعاياها المكرسين لخدمتها. بصوت راعد، راح الأسقف يقرأ الإهداء المنحوت على جسم الجرس:

- طُلب من قبل الأسقف أوجست دابريجيون وقام بصبه بيير مونييه من فيفيرول، إهداءً إلى راعيتنا الكريمة إرميلين دى ألجير، تمت تسميتى فى هذا اليوم الموافق السابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٦٩٣.

هتف الأهالى من جديد وراحو ينشدون مرة أخرى. لم يسمح عمر باردو الصغير أن يشهد من قبل مثل هذا الاحتفال الضخم، ولهذا راح يملِّى عينيه وأذنيه به حتى ينقله فيما بعد لأبنائه وأحفاده. اقترب صبى آخر من مساعدى السيدة النبيلة وقدم لها كيسًا من الجلد فدست يدها به ثم لوحت بها فى لفتة وكأنها تبذر ناشرة ما بها فيما حولها بحفنات من العملات النقدية. حدث هرج ومرج وتسارع الرجال والنساء والأطفال متكالبين على هذا المن، فراح القوى منهم يخطف ما اغتنمه الضعيف، وهم يتصافعون ويركلون بعضهم البعض بعنف. علا الصراخ والصياح بما فيهما من غضب وألم. فمن كان منهم بعيدًا هرول وداس بأقدامه على الآخرين حتى يقترب. شاركت الخيول فى هذه الفوضى وراحت تتقافز من الخوف، فوقع من عليها راكبوها، فأعطت السيدة إرميلين أمرًا بيدها للانسحاب بعيدًا عن هذا الهرج.

هكذا عادت إلى قصرها الذى يعود نصف اسمه إلى اسم قرية سان بونيه لو شاتوه. من خلفها، تمدد العشرات من الجرحى والمتألمين. راحت الأخوات راهبات أورسيلين يضمدن جراح الأهالى ويواسونهم. هكذا تم تدشين أكبر جرس تم صبه فى لوباردانج أكثر من أى وقت مضى فى ظروف ليست هى الأفضل. لم يتبق سوى رفعه ووضعه فى مكانه. لقد قام حدادو ونجارو القرية بتشييد مبنى يشبه برج الحراسة بالقرب من برج الجرس يعلو عدة طوابق. بمشقة بالغة، تم رفع الجرس باستخدام الرافعة وبعض السلاسل الحديدية. وبهذا صعد الجرس تدريجيًا، بعد أن تم إيقافه للراحة عند كل مستوى من برج الحراسة هذا، حتى وصل إلى القمة أخيرًا. تم تعشيق أطراف القطعة الخشبية الضخمة (الخروف) داخل الأذنين المخصصتين لذلك، بينما عُلقت النصف عجلة فى القطعة الخشبية، وربط الحبل فى نهاية قطرها. استغرقت كل هذه التجهيزات ثلاثة أيام. فى نهاية اليوم الثالث، بصق الأسقف دابريجيون فى يديه، ثم تشبث بهما فى الحبل على طريقة فيبيت خادم الكنيسة، وبعد عدة حركات صعودًا وهبوطًا، صدح صوت الجرس إرميلين رنانًا ورائعًا. بدأت جميع الملائكة فى التجمع لكى تسمعه بشكل أفضل عند نوافذ الجنة، وراحت تصفق بأيديها وأجنحتها.

على مدار الأيام الثلاثة هذه، أقام القادمان من قرية فيفيرول، ألا وهما بيير مونييه وابنه باردو لدى سكان سان بونيه. وبالتحديد عند خادم مجمع الكنيسة فييت، وهو نفسه أب لطفل يُدعى تيوفيل، الذي يكبر باردو بعام واحد، وهكذا كانا في نفس السن تقريبًا وسرعان ما أصبحا صديقين. وحدث أثناء وجود السيدة النبيلة التي ألقت للأهالي بالعملات النقدية أن تمكن باردو من جمع عدد لا بأس به منها دون مشقة، وأعطى نصف الكمية إلى تيوفيل الذي لم يحالفه الحظ في جمع مثلها. في المقابل أعطاه تيوفيل لعبة النحلة وهي لعبة على شكل نحلة تدور على طرف مدبب، كان تيوفيل قد صنعها من قطعة خشب لدنة ملقاة على الأرض.

وراح تيوفيل يشرح لباردو: إنه لأمر سهل. إن أبي أيضًا يعمل صانع قباقيب. لهذا يتوفر لديّ كل ما أريد من خشب وأدوات.

أخذه إلى الشرفة ليتأملا معًا خط الأفق ومنظر سهل "فوريز" الممتد على مرمى البصر حتى جبال الألب المتباعدة التي تعلوها القمم البيضاء. وتظهر ليس ببعيد منطقة "مزنيك" الغريبة وأيضًا هضبة القديس رومان التي تُسمى تبة بيلاطس التي أتى إليها بيلاطس البنطي واختفى عن الأنظار حتى الموت بسبب شعوره بالخزي والعار لصلب السيد المسيح[1]. وفقط على بُعد عدة خطوات منهما،

(١) كان بيلاطس البنطي هو الحاكم الروماني الذي سلم السيد المسيح إلى اليهود ليصلبوه غاسلاً يديه من ذنبه، لأنه وجده بحسب القانون الروماني بريئًا. (المراجع).

توجد المقبرة المكونة من طابقين. ثم أطلعه على مبنى المجمع الكنسى والأشياء المثيرة للفضول الموجودة به: المنبر ذى الدرابزين المصنوع من الحديد المطروق، ولوحات القديسين، وتمثال لرأس بها أربعة أنوف تمثل القديس سان بونيه شخصيًا.

- كيف ذلك؟ تساءل باردو مندهشًا: هل كانت له أربعة أنوف؟

- نعم. أربعة أنوف جميلة!

عندما وصلا أمام المذهبية التى يأتى عادةً الناس إليها ليعترفوا بذنوبهم للقسيس، قال تيوفيل لباردو مقترحًا:

- هل تريد أن تدلى باعترافاتك لى؟

- ولكن... ولكن...

- لماذا أنت متردد؟!

- أنت لست على دراية!

- بل أعلم تمامًا مثل الأسقف دابريجيون.

لم يحدث لباردو أن يدلى باعترافاته من قبل، رغم أوامر جدته ماريا ونهرها له عندما كان يرتكب حماقة كبيرة:

- فلتذهب للاعتراف. أيها الوغد! فنيتك سوداء مثل قاع حلتى!

أغرته فكرة هذه التجربة التى سيقوم بها لأول مرة فى حياته خاصةً وأنها ستجعله يشعر بأنه قد كبر، ولهذا وافق. أشار له تيوفيل بالمكان الذى ينبغى أن يجثو فيه على ركبتيه، بينما دخل هو إلى الخزانة كى يجلس ويستمع فيها إلى اعترافات باردو. من هناك فى الداخل، راح يملى على باردو بما يجب أن يفعل:

- فلتوقع على صدرك بعلامة الصليب... ثم قل: "باركنى يا أبتى، فإننى ارتكبت ذنوبًا..." ثم رتل "أعترف لك يا ربى".

- ولكنى لا أعرفها يا أبتى.

- دعنا من ذلك... الآن، أدلِ لى بخطاياك.

مرت برهة من الصمت... فباردو لم يكن يعلم جيدًا ما الذى ارتكبه من خطايا. حاول أن ينعش ذاكرته بحثًا عن ذنب ارتكبه، ولكن ذلك بدا له وكأنه يبحث عن إبرة فى كومة من القش. اضطر تيوفيل أن يوجهه فقال له:

- هل تناولت من قبل السكر أو العسل أو المربى دون الحصول على إذن مسبق؟

- نعم يا أبتى.

- إن ذلك لأمر فى غاية الخطورة يا بنى. كم مرة؟

- عشرة مليارات مرة.

- يا إلهى... هل كذبت من قبل؟

- نعم يا أبتى.

- كم مرة؟

- عشرة مليارات وعشر مرات.

- يا إلهى... هل تلفظت من قبل بكلمات بذيئة مثل: هراء، قاذورات، عاهر، نكاح، عديم الأخلاق أو متعفن؟

- نعم يا أبتى.

- كم مرة؟

- عشرة مليارات وعشرون مرة.

- يا إلهى... والكلمات المسيئة للذات الإلهية... أو التى تسخر من الدين؟

- آه... نعم... عشرة مليارات وثلاثون مرة.

- يا إلهى! وهل أنت حقًا نادم على ما ارتكبته من ذنوب يا بنى؟

- نعم يا أبتي... أنا نادم من كل قلبى.

- هذا شيء جيد... وأنا أغفر لك... أما للتكفير عن أفعالك، عليك أن تتلو صلاة "السلام لك يا مريم".

- حاضر يا أبتي... كم مرة؟

- عشرة مليارات وأربعون مرة... هيا يا بني... ولا ترتكب خطيئة مرة أخرى.

رافق تيوفيل كلماته هذه بإيماءات كما لو كان يُنعم عليه ويباركه. خرج كلاهما من المذهبية المخصصة للاعتراف، وهما يضعان أيديهما على أفواههما ليكتما ضحكاتهما. ها هي لوحات القديسين والقديسات المعلقة على الجدران تلقي بنظراتها عليهما وكأنها تشعر بالإهانة. جلسا للحظة على الأرائك الخشبية الموجودة في القاعة الرئيسية حتى يستردا هيئتهما الجادة. في الخارج، سمعا صيحات النجارين وهم يقومون برفع الجرس، وهتاف بعض الحشود من أهالي القرية.

قال له تيوفيل: هناك شيء آخر أريد أن أطلعك عليه. ثم أكمل: ولكن أقسم لي أولاً أنك لن تخبر أحداً عنه. وإلا...
- أقسم لك. هكذا قال باردو وهو يرفع يده إلى أعلى ويبصق على الأرض.

- اتبعني.

بعد أن اعتادت عيونهما على الظلام، توجها إلى المذبح، حيث كان يلمع بالقرب ضوء أحمر ساطع يشير إلى وجود قديس مبارك. شبَّ تيوفيل ابن خادم الكنيسة على رءوس أصابع قدميه حتى يتمكن من اقتلاع واحدة من الشمعتين الموضوعتين حول خزانة صغيرة ملصقة في الحائط. مد طرفها تجاه الشمعة الثانية المضاءة ليشعل فتيلها. راح صديقه، باردو، لم تكن لديه أدنى فكرة عن تدنيس المقدسات، يراقب هذه الطقوس دون حراك.

– فلتمسك هذه الشمعة للحظة. قال تيوفيل، هكذا وجد باردو نفسه مسئولاً عن شمعة مضاءة أمام أعين القديسين والقديسات الذين ظهرت في نظراتهم الإدانة والرفض بصورة متزايدة. ثم توجها إلى كنيسة صغيرة تقع على يمين المدخل الرئيسي للمجمع. رفع تيوفيل ستارًا فظهر من خلفه تصدع كبير في الحائط عرضه بمقياس حجم يدين.

– هل تعتقد أنك تستطيع أن تمر من خلال هذا الشق؟

راح مونييه الصغير يقيس عرض الشق، مقارنًا إياه بسُمك جسده، للتأكد من مقدرته على المرور.

– فيما عدا ذلك يجب أن تتوخى الحذر! إذا حدث وانحشرت في هذا الشق، فسوف تظل به حتى تجف مثل الفأر في مصيدة الفئران. لهذا يجب أن تحترس. هناك سلم على الجانب الآخر. تقدم

تيوفيل والشمعة فى يده، واندس داخل الجدار واختفى داخله. بدوره، مرر باردو نفسه من خلال الجدران، مسترشدًا بالبصيص الخافت القادم من الشمعة حول قدميه. تحسس ما حوله حتى وجد درجات السلم، فراح ينزل عليها الواحدة تلو الأخرى. عندما وصل إلى نهايته قال له تيوفيل:

- انظر جيدًا! قال تيوفيل وهو يلوح بالشمعة فيما حوله. راود تيوفيل فى البداية انطباع أنه قد دخل إلى كهف بدون فتحة للخروج. فبعد روائح البخور والدهن الحيوانى الذى كان يفوح فى أرجاء الكنيسة، اندهش لاختفاء هذه الروائح فجأة. ثم بدأت عيناه تخترق الظلام الكثيف لتكتشف أشكالاً لا يراها المرء إلا فى الكوابيس. فهى لوجوه إنسانية ولأيد هزيلة، عيونها غائرة، وأفواهها خالية من الأسنان. إنهم مجموعة من الرجال والنساء والأطفال يجلسون على كراسٍ حول مدفن. البعض الآخر ممدد على الأرض. يرتدون ملابس رثة تبدو وكأنها عالقة بأجسامهم.

- ما هذا؟ أهذه تماثيل؟ أم دمى؟

- بالطبع لا! إنهم أشخاص حقيقيون ميتون... يتخطى عددهم الأربعين.

- وما الذى يفعلونه هنا؟ لماذا لم يُدفنوا فى المقبرة؟

- إنهم ينتظرون.

- ماذا ينتظرون؟

- أن يتم اكتشافهم... أن يتم دفنهم... أو لعلهم ينتظرون بعث يوم القيامة.

- ما هو بعث القيامة؟

- ألا تعلم، إنه فى نهاية الزمن، سيُبعث الموتى من جديد للحياة.

- ولكن من هم هؤلاء القوم؟ لماذا هم مجتمعون معًا هكذا؟

- لا أعرف... لا أحد يعلم شيئًا.

- هل يمكننى أن ألمسهم؟

- ولم لا؟ سوف أقدمهم لك: هذه هى جانيت، وهى تنتظر مولودًا... ها هو ريمون، إنه يمسك خده بيده لأنه يعانى من آلام فى الأسنان... هذا هو أرنست، أطول أفراد العائلة، فقامته تصل إلى ستة أقدام[١]. ها هى دوروتيه، تحيك الجوارب الحريمى... ها هو ميشيل... وهذه بولين... وهذه هى آميلى...

---

(١) ما يقرب من متر وخمسة وتسعين سنتيمترًا.

- أنت تعرف أسماءهم؟!

- لقد قمت بتسميتهم هكذا. توجد هناك أيضًا بعض الأغراض الخاصة بهم.

أطلعه تيوفيل على فلكة مغزل ومشط، ولعبة نحلة. راح مونييه الصغير يتنقل فيما بينهم، ويتفحص عن كثب فكي كل منهم وقد انفتحتا وكأنهم يضحكون بسخرية، وأصداغهم الغائرة، وخطوط عظام جماجمهم الصلعاء.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أمواتًا. صُعب عليه التصديق بأن هذه الكائنات كانت الحياة تدب بها في يوم من الأيام، وأن رءوسها كانت تحمل أفكارًا، وأن الدماء كانت تجرى تحت هذه الأسمال البالية التي يرتدونها. أو ربما كانوا عبارة عن أمساخ مثل خيال الظل في الحقول.

- وكيف ماتوا؟

- بلا شك من الجوع والعطش.

- متى؟

- منذ وقت طويل.

- مائة عام مثلاً؟

- ربما منذ عشرة مليارات وعشر سنوات.

هكذا قال تيوفيل ثم انفجر ضاحكًا... بدا غير مبالٍ بالمرة لهذه المجموعة من الهياكل العظمية التى رآها كثيرًا. كان وهج الشمعة المتراقص يعطى أحيانًا إيحاء بأنهم يتحركون. أمسك تيوفيل يد أرنست العملاق وهزها. أما باردو فمد إصبعه السبابة بتوجس وراح يتحسس بشرتهم الهرمة الجافة. وفجأة سمع: "أتشوم!"

فزّ باردو فى مكانه وكاد أن يقفز فى علية القبو، فقد اقتنع بأن أحد الموتى هو الذى عطس، وبالتالى نفخ فى الشمعة فأطفأها. صاح باردو - تيوفيل! تيوفيل!

- أنا الذى أطفأت الشعلة... فالموتى لا يعطسون.

- أريد أن أخرج من هنا! أريد أن أخرج من هنا! دفعه تيوفيل أمامه إلى السلم ثم مرًا مرة أخرى من خلال شق الجدار فانبعثت من جديد رائحة البخور وشجر المر، واتجها إلى المذبح ليعيدا الشمعة التى ما زالت تصدر دخانًا بعد أن انطفأت.

فى الخارج، واصل النجارون أعمالهم، بينما راح أهالى سان بونيه يتمشون أو يشاهدون الأطفال وهم يلعبون بقطع البلى. بدت عليهم جميعًا السعادة والحبور. راح باردو يفرك عينيه وكأنه يريد أن يمسح عنها كل ما رآه. حسب الوعد الذى أقسم به، فلن ينطق بكلمة واحدة عن هذا اللقاء.

(٥)

لم يظهر آن مونييه، كبير العائلة، أبدًا بدون شعره المستعار وقبعته. ليس بسبب أن غطاء الرأس كان تقليدًا متبعًا وقتها، ولكن القبعات ذات الحافة العريضة المزينة بباقة من الريش كانت موضة في بداية ذلك القرن. كان شعره المستعار متسخًا حتى إن لونه أصبح رماديًا، كثيفًا، مصنوعًا من خصل شعر الحصان، ويتدلى على كتفيه اللذين تعلوهما ياقة من الدانتيلة. يرتدي صديريًا ضيقًا يشبه الزعانف، وسرواله مليء بالثقوب، وجواربه من القطن وحذاؤه ذو حافة مربعة. بملابسه وهيئته هذه كان يشبه بالضبط رفيق الملك هنري، وبالطبع لم يكن يعرف الملك أبدًا، بعد أن كرس حياته للعمل في صهر البرونز والزراعة. كما كان يعمل أيضًا كمأمور لكنيسة القديسة مادلين ويراقب حسابات أبناء الإبرشية. لقد كان رجلاً على قدر كبير من التقوى. كان يذهب للقداس بانتظام كل يوم أحد، ويمتثل للصوم في موسم الصوم الكبير، حيث كان يلعب دورًا مهمًا بين العباد الورعين، كما يعرض خدماته التطوعية في تجهيز الموتى قبل الدفن. كما كان يحكي لأحفاده قصصًا لوعظهم ووضعهم بمنأى عن شرور الشيطان:

- عندما كنت طفلاً، كنا نذهب في مجموعتين مكونتين من اثنى عشر طفلاً لأداء الحج في دير القديسة مارى فى مدينة بووى، تحت قيادة قس قريتنا، فيفيرول. أثناء الرحلة، كان علينا عبور نهر صغير لا يوجد عليه أى جسور. بحثنا عن نوتى (ملاح) لكى يساعدنا على العبور ولكن لم نجد أى نوتى. فى هذه اللحظة شاهدنا حصانًا أحمر اللون يرعى فى هدوء على ضفة الترعة. قال لنا القس: سوف أجعلكم تعبرون الترعة على ظهر هذا الحصان، ولكن الأمر سيستغرق منا عدة رحلات ذهابًا وإيابًا. الأول منهم ركب منفرج الساقين ثم ركب أربعة من ورائه، بعد أن تشبث كل منهم فى الآخر. ثم رأى القس أنه ما زال هناك مكان خالٍ فوضع الخامس ثم السادس. أما أنا فكنت التاسع، فصعدت بدورى حيث بدا ظهر هذا الحصان وكأنه بلا نهاية. لن تصدقوننى إذا قلت لكم إن ظهره راح يتمدد تدريجيًا. دون أن نحاول فهم أسباب هذا التمدد، انتهى القس بوضعنا جميعًا على ظهر الحصان ثم لكزه فى جانبيه ليتحرك. أصدر الحصان صهيلاً رهيبة لافظًا ألسنة لهب من فتحتى أنفه ثم اندفع تجاه النهر وعلى ظهره اثنا عشر راكبًا. حينئذ، وقع القس بعلامة الصليب على صدره وصاح قائلاً: "جلوريا باتر!" (العظمة لله باللغة اللاتينية). قفز الحصان واقفًا على ساقيه الخلفيتين، قاذفًا بنا جميعًا فى الهواء فوقعنا على مؤخراتنا. فى نفس اللحظة، سمعنا

صوتًا عميقًا وأجش قادمًا من الحصان يقــول: "دون كلمتــك هــذه (جلوريا باتر): العظمة للـــه، كنت سأقوم بإغراق أربعة وعــشرين شخصًا"! هذا الحصان الأحمر، يا أولادى، كان ما هو إلا الـشيطان بعينه. على أية حال، فلتتذكروا دائمًا يا أولادى أنه فى حالة تعرضكم لمخاطر الموت أن تقولوا: جلوريا باتر!

على الرغم من منصبه الجاد كمأمور، فقد كان آن يعرف كيف يضحك ويمرح فى المناسبات السعيدة. وهكذا، فى يوم مــن الأيــام، الموافق الأول من شهر ينــاير، اعتــاد المــشاركون علــى الأرض الزراعية تقديم تحية لأسيادهم عبارة عن رأس خنزير. وفـــى قريـــة فيفيرول، اعتادت عائلة مونييه استقبال الأب روسييه وأفراد أســرته، فيقدمون لهم عصير ماء السفرجل، ويقومون بتقبيــل النــساء ثــلاث مرات فكن يُجبْن باللهجة المحلية عند كل قُبلة:

- عام سعيد على مدار السنة... صحة جيدة... فليعم الرخاء.

وكان كبير العائلة آن يرد بشكل تقليدى قائلاً:

- وأن تكون الجنة مثوانا جميعًا.

ولكنه فى مرة من ذات المرات فعل شيئًا آخر، فقد نسى هيئته الجادة وشعره المستعار وأمسك برأس الخنزير الحليقة تمامًا، وقبض على أذنيه ثم طبع ثلاث قبلات رنانة على شفتيه. ثم، وهو مــا زال

يمسك بها بطرف ذراعيه وكأنها امرأة يرقصها أمامه، يبدأ في الرقص معها رقصًا مستهترًا: ساقًا إلى الأمام، وساقًا إلى الخلف، قفزة على الجانب، ثم إلى الأمام، ثم إلى الخلف. ووقف جميع الحضور وهم يضجون بالضحك ويغنون:

دينج! دونج! هيا هز نفسك!

يبدو أن مؤخرتك تثقل عليك.

دينج! دونج! هيا هز نفسك!

كما يبدو أنك وضعت بها أثقالاً من الرصاص.

أبدًا لم نره من قبل بهذه الجرأة والرعونة.

ومع ذلك ففى فصل الربيع التالى، تعرض آن مونييه لأزمة صحية، فقد شعر بأن إحدى سرطانات البحر تسببت فى تآكل معدته، أو هكذا كان يقول. وهكذا استقرت فى جوفه حيث وجدت كل المواد الغذائية اللازمة لإعاشتها، فنمت وازداد وزنها حتى إنها كادت تسد جوفه. حدث أكثر من مرة أن يفاجئه أحد أقاربه بالدخول عليه لبجده وهو يحاول إدخال قضيب من الحديد فى حلقه:

– ما الذى تفعله أيها التعس؟

– أحاول قتل هذا الوحش القذر.

بعد ذلك بفترة قصيرة، لم يعد بإمكانه ابتلاع أى طعام صلب، لذا تحتم عليه الاكتفاء بالحساء والحليب الرائب. استمرت الأمور على هذا المنوال أشهرًا عديدة. ازداد نحافة يومًا بعد يوم، ولكنه رفض أن يعرض نفسه على الطبيب الذى يقوم بخلع الأسنان فى قرية فيفيرول، رغم أنه كان يتمتع بسمعة طيبة.

- إن الله وحده هو القادر على شفائى، إذا كانت هذه هى مشيئته. ولكن إذا ما كُتب علىَّ أن أموت، فسوف أرحل وحدى دون الحاجة إلى مساعدة أى أحد كان.

استمر هكذا لفترة من الوقت يتمشى بجسده الهزيل الأشبه بهيكل عظمى فى شوارع قرية فيفيرول، ويجر نفسه جرًا إلى الكنيسة كل يوم أحد.

- طالما أستطيع بلع جسد المسيح، سيستطيع هو أن يغذينى.

بعد ذلك بفترة لم يعد يقوى على الخروج. أصبح يتنقل فقط من السرير إلى الكرسى، مختبئًا تحت شعره المستعار المشعث. راحت زوجته ماريا تطعمه بالملعقة الصغيرة كما لو كان طفلاً رضيعًا. كان يحب صحبة حفيديه باردو وجيرمان، واللذين أوصى بأن يتعلما جيدًا مهنة صنع الأجراس.

- في يوم من الأيام، أنتما مــن... لا ينبغــي عليكمــا أن...
كان يحاول أيضًا أن يكشف لهما عن بعض أسرار المهنة، ولكنه لــم يكن يتمكن من شرح كل الخطوات إلى آخرها، فكان يكتفي بإيماءات آسفة من يده. على وجه التحديد، كان باردو ينظر إلــى يــدى جــده برعب: لقد بدت له أكثر فأكثر أشبه بأيدى الموتى الذين رآهــم فــي كنيسة سان بونيه لو شاتوه.

أصابته آلام أخرى... آلام متفرقة في صدره وظهره. ولكــي يقلل من الشعور بالألم، كان يحاول وضع جسده في أوضاع ملتوية، بالاتكاء برأسه على ذراع واحدة عند حافة الطاولة وكأنه طفل يبكي. انزلق شعره المستعار إلى الوراء وسقط على الأرض. هكذا اكتشف باردو وقد اتسعت عيناه من الرعب وجمجمة جده الــصلعاء تمامًــا، تلمع وتبدو ناصعة البياض كالعاج. أجبرته زوجته ماريا على التخلي عن شعره المستعار هذا، واستبداله بغطاء رأس تُربط أطرافه أســفل الذقن. من وقت لآخر، كان سرطان البحر يؤلمه إلى درجــة تنتــزع منه صرخة ألم، فكان يؤنب نفسه على الفور قائلاً:

- يا سيدى المسيح المصلوب! أنا أعلم أن آلامى هذه لا تمثل شيئًا إلى جانب معاناتك!

هكذا كان دائمًا يمارس هذه الأوضاع الملتوية بزعم أنها تكافح الآلام.

وفى النهاية، لم يعد يقوى حتى على النهوض. لذا توجب وجود شخص أو شخصين بصفة دائمة بالقرب من سريره للاعتناء به. لم يعد قادرًا على امتصاص أى شيء، باستثناء القليل من الماء المحلى بالعسل. أرسل فى طلب القسيس فتضاحك أفراد أسرته فى البداية قائلين : إنه لم يكن قد وصل حقًا إلى نهايته؟! ثم أذعنوا إلى حقيقة الأمر. جاء الأب ساربوال ومعه وكيله (حامل الصليب) واثنان من مساعديه الصبية. عندما رآهم المارة فى الشارع، رفع الرجال قبعاتهم بينما وقعت النساء بعلامة الصليب على صدورهن. لم تكن طقوس الصلوات الأخيرة بالشيء الهين. قاموا بإشعال أربع شموع حول سريره. وبينما كانت أسرته وكورال الأطفال يصلون فى الغرفة المجاورة، طلب القسيس من الرجل المحتضر أن يُدلى باعترافاته الأخيرة فلم يكن يقوى بالرد إلا بنعم أو لا. بعد ذلك سُمح لأفراد أسرته المقربين بالدخول إلى غرفته.

ركع كلٌ منهم على ركبتيه وهو يمسك بيده شمعة. رفع القسيس إناء القربان المقدس بين يديه وقال:

- ها هو من تطلب ومن سينقذك.

ثم قدم له لقمة جسد المسيح فتلقاها آن وهو يذرف دموع السعادة. وأخيرًا، راح جميع الحضور يرتلون باللغة اللاتينية مع

القس مناشدة اللـــه من أجل غفران الخطايا، بدءًا من "ارحمنـــى يـــا اللـــه" حتى "المجد للـــه". مما أعاد إلى ذهن باردو الصغير حكايـــة جموح الحصان الأحمر. فأخذ يردد هو نفسه هـــذا الترتيـــل عـــشر مرات، سائلاً اللـــه أن يحفظ له جده.

انصرف فريق القساوسة بعد أن انتهوا من طقوسهم، وها هـــو آن يعود لآلام عموده الفقرى وصدره. فعرض عليه باردو الاقتراح:

- ما رأيك يا جدى أن أدلك لك الأماكن التى تؤلمك؟ فربمـــا أشفيك.

- أنت يا صغيرى؟ لمَ لا؟ فيدك ما زالت بريئـــة... فلتحـــاول إذن قليلاً.

- قل لى أين؟

- فى الخلف على اليسار... أسفل قليلاً... نعم هنا بالـــضبط! أخذ الصبى يدلك بلطف شديد كما لو كان يملس عليه ليس إلا، وهـــو يردد فى داخله "جلوريا باترى! جلوريا باترى!".

- نعم، نعم... تنهد الرجل المسن: إن هذا يريحنـــى... إلـــى أعلى... بالقرب من العمود الفقرى... بالضبط هناك... إلى اليمين... إلى الأسفل... حيث إن هذا الألم اللعين يتنقل باستمرار، كان يختفـــى من منطقة تلاشت منها الآلام حتى يعاود الظهور فى أماكن أخـــرى.

هكذا وكأنه يلعب الغماية مع التدليك. ولكن باردو الصغير لـم ينفـد صبره واستمر فى علاجه حتى قال له الرجل المريض:

- كفى... لقد أرحتنى وسيكافئك اللـــه على ذلك.

ولكن سرطان البحر لم يختف بالمرة. وقد ظهر ذلك جليًا على وجه الجد، وجهوده الملحة كى يجد دائمًا وضعًا مريحًا يخفف ألمـــه. كان باردو يتضرع فى كل ليلة وهو فى فراشه، مناشدًا جميع ســكان السماء[1] أن يتموا شفاءه ولكن بدون جدوى. لهذا وجـد بـاردو أن أفضل طريقة لوضع حد لمعاناته هو أن يأخذه اللـــه. وقد فعلها اللـــه برقة بالغة، حيث إن الجد راح فى سُبات عميق لم يستيقظ منه أبـدًا. لم ينفع ترتيل "جلوريا باترى" فى شيء، إذًا فلا دخل للشيطان فى هذا الموضوع بالمرة.

أحاطوا رأسه بشريط لكى يمسك فكيه. وضـعوا لـه شـعره المستعار المصنوع من خصل الخيل. ألبسوه أفضل ثيابه. عقدوا يديه بواسطة مسبحة. جاء جميع أفراد العائلة، وعمال الورشة، والأجراء، ونصف سكان قرية فيفيرول، جاءوا لرشه بالماء المقدس.

كان الجد هو أول متوفٍ على حق تسنح لباردو رؤيته.

---

(١) الملائكة والقديسون. (المراجع).

حيث كان موتى كنيسة سان بونيه لو شاتو، لا يثيرون الشفقة، بل للسخرية والضحك، بثيابهم الرثة، كل هذا جعلهم مثـل الأمـساخ الحقيقية التى تجعل المرء يشمئز من الموت، الذى ليس إلا تغييرًا فى العنوان، فهو ليس إلا دخولاً إلى بيت الرب. تم نقلـه إلـى المقبـرة الموجودة وراء الكنيسة فى الساحة التى يُدفن فيها موتى عائلة مونييه منذ قرون. رافقه إلى مثواه الأخير جميع أهالى قرية فيفيرول. قـدم القس ساربوال خطبة تأبين له، مشيرًا إلى مزاياه الكبيـرة كمـأمور وكصانع أجراس، وأيضًا لإيمانه وصدقه وجديته. وهـو مـا كـان صحيحًا تمامًا، حتى إذا كان فى بعض الأحيان قد قام برقص مـاجن مع رأس خنزير.

فى مكتب كاتب العدل، قام المحامى كوافييه بقراءة وصيته:

أولاً، وبما أنى مسيحى مؤمن، أعهد بروحـى إلـى الثـالوث المقدس المعبود... وأتضرع إلى شفاعة القديـسة العـذراء وجميـع الملائكة طلبًا من اللـه أن يغفر لى ذنوبى.

ثانيًا، أود أن تتم مراسم دفنى فى كنيسة القديسة مـادلين، وأن تكون جنازتى مهيبة، وأن تعقد مراسم ثانية بعد مرور أربعين يومًـا على الدفن، والثالثة فى نهاية العام. أعهد وأورث إلى الـسيد القـس مبلغ عشرين عملة نقدية من أجل أن تهدأ روحى وترقد فـى سـلام،

على أن يتم دفع هذا المبلغ يوم عيد السيدة مريم العذراء فـــى شـــهر أغسطس من السنة التى تلى وفاتى.

إضافة إلى ذلك أورث وأعطى لابنى البكرى بييـــر، المـــدعو فيليستن، ورشة صب الأجراس فى لوباردانج لتـــؤول لــــه الملكيـــة والمسئولية، على أن يعمل دائمًا ويظل على علاقـــة طيبـــة بـــشقيقه أنطوان، المدعو مونييه الأصغر، مع ابنه وابن أخيه كما جرت العادة منذ قديم الأزل فى عائلتنا.

أورث إلى ابنى أنطوان منزلى فى قرية فيفيرول على أن يتحمـــل مسئولية إسكان كل أفراد عائلتنا به من رجال ونساء وأطفال وخدم.

أورث وأمنح زوجتى ماريا فاور ربع ثروتى المتاحـــة مـــن أموال. أما ثلاثة أرباع الأموال غير المجزأة المتبقية فسوف تُـــستغل لضمان حسن إدراة شركاتنا الصناعية والزراعية.

أورث أيضًا وبنفس المبلغ غيـــر المجـــزأ ملكيـــة مزرعتنـــا "فريسينيه" إلى ابنىّ الاثنين وبناتى الثلاث، علـــى أن تظـــل عائلـــة روسييه مهيمنة على إدارة الزراعة بها طالما تحقق نتائج طيبة.

(٦)

بعد مرور ثلاث سنوات. فى العام الموافق ١٦٩٧، ظهر فى السماء نجم مذنّب له ذيل ساطع. فدوام الحال من المحال. ففى شهر أغسطس، عندما وصلت درجة الحرارة أشدها لفصل الصيف وراحت النجوم تتكاثر فى سماء الليل مثلما تتكاثر الضفادع فى المستنقعات. حدث هطول أمطار فسقطت معها النجوم الرضيعة من مهودها. ولكن المذنب لم يسقط ولم ينطفئ، ولكنه عبر السماء من الشرق إلى الغرب، بسرعة شديدة تعادل فترة العد من واحد إلى خمسة. من سنحت له الفرصة لرؤية مرور المذنب بأكمله يتأكد أنه سيحقق ثروة فى خلال الأشهر المقبلة. وبالرغم من ذلك فقد احتج القس ساربوال على هذا الرأى قائلاً:

- لا تعتقدوا يا إخوانى الأعزاء بتأثير النجوم على مصائركم. فاللـه سبحانه وتعالى هو الذى ينظم حركة النجوم وليس النجوم التى تفرض إرادتها على اللـه.

ومع ذلك، حدث أن نهض الكهل مُوراى من نومه فى تلك الليلة وخرج أمام باب منزله ليسكب لنفسه بعض الماء، فشاهد مرور

المذنب بالكامل، حدث أن لدغه دبور بعد الحدث بثلاثة أيام. تورمت شفته وأصبحت ضخمة واستمرت هكذا على مدار أسبوعين مما استرعى فضول أهالى قرية فيفيرول الذين توافدوا عليه لرؤية هذا التورم العجيب. كان الأب موراى يقف أمام كوخه فى الشمس، وهو يضع يده تحت أنفه ليخبئ بها فمه ولا يكشف عنها إلا إذا ألقى له الأهالى ببضع عملات معدنية. بعد ذلك تلاشى تورم شفاه موراى، فقام بعمل حساباته ليجد أن المذنب قد جلب له أربعين قطعة معدنية. فالمذنب إذًا، أو الزواج، أو حكم الإعدام بالشنق، هى فى النهاية كلها مسألة حظ أو سوء حظ ليس أكثر.

أما المملكة بشكل عام فلم تجن فائدة كبيرة. فها هو القرن ينصرم، ولكن الحرب التى شنها الملك ضد جيرانه ما زالت دائرة. لقد فرض ضريبة جديدة على كل فرد، مع إجبار الدفع دون تمييز للسن أو للحالة، فيما عدا، بالطبع، أصحاب الامتيازات، لذلك فقد سحقت على وجه الخصوص الأسر العديدة الأفراد.

من ناحية أخرى رأى حكام المقاطعات ومحافظو المدن أن مملكة فرنسا بتعدادها البالغ ثلاثة وعشرين مليون نسمة، هو تعداد أكثر من اللازم، خاصةً وأنها لا تنتج ما يكفى من القمح لإطعام هذا الكم من الأفواه. لهذا أيضًا راحوا يشجعون الأهالى على مغادرة الوطن والذهاب للعيش فى بلاد ما وراء البحار. وهكذا، حزم أهالى

قرية صغيرة تابعة لليفاردوا، سكان قرية فيريل، وعلى رأسهم القس، أمتعتهم ورحلوا للعيش فى فرنسا الجديدة[1]. من وقتها لم يسمع عنهم أحد أى شيء بالمرة. فربما حالفهم الحظ وكونوا ثروات، وربما التهمتهم الدببة.

هكذا أيضًا رحل بعض الرجال المغامرين إلى بلاد أخرى أقرب، مثل بلاد بروفانس، أكيتان، وإسبانيا. عمل البعض منهم فى بعض الحرف مثل صناعة الأحذية أو فى البناء أو فى الحفر. كان معظمهم يعود كل عام إلى الوطن لكى يرى أسرته ويدفع لها الضرائب والجبايات. ثم ما يلبث أن يرحل من جديد، تاركًا زوجته حاملاً فى طفل آخر ينتظره مستقبل بائس.

على مدار السنوات الثلاث هذه، لم تصنع عائلة مونييه إلا نصف دستة من الأجراس. كما أنها كانت كلها مطلوبة لجهات بعيدة عن قرية فيفيرول مثل مدينة ليون، تورنون وجرونوبل. لهذا كان بيير وأنطوان واثنان من العاملين يقومون بحفر الحفر اللازمة لصب الجرس عند سفح برج الأجراس أمام أعين الأهالى، وذلك تجنبًا لنقل الجرس مسافات بعيدة بعد صبه.

ولهذا كانت عائلة مونييه تعيش على دخل أراضيها الزراعية أكثر من دخل صناعة الأجراس البرونزية. فى شهر سبتمبر عام

(١) كندا.

١٦٩٧، تلقت العائلة طلبًا لصب ناقوس جرس ضخم يصل وزنه إلى ستمائة رطل من أجل كنيسة كرابون، إحدى الإبرشيات الهامة التي تقع على ترعة أرزون على بعد فرسخين فقط من بلدة لوباردانج.

قرروا أن يقوموا بصبه فى ورشتهم مثلما فعلوا مع جرس إرميلين لصالح سان بونيه لو شاتوه. كانوا منهمكين فى العمل عندما تفاجأوا بظهور فارسين على جواديهما. يرتدى كل منهما قبعة سوداء، ومعاطف من جلد الماعز رغم موسم الصيف الذى ما زال حارًا، ثم نزلا من على جواديهما أمام الورشة.

تقدم فيليستن ناحيتهما ليستقبلهما. يبدو أحدهما فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره، وكان ضخم الجثة ذا وجه ممتلئ، له شارب رفيع تحت أنفه، كثيف الحاجبين، عيناه سوداء يقظة. يلازمه بشكل شبه مستمر، تقلص لا إرادى فى عضلات وجهه، تغيرت فجأة ملامحه لتجعله قبيحًا. أما الآخر فبدا أكبر سنًا، ممتلئًا وسمين الجسم ذا شفاه غليظة. يرتدى الاثنان أحذية ذات رقبة، ولا يضعان شعرًا مستعارًا بل ينسدل شعرهما على كتفيهما. فتح الرجل الممتلئ فمه ليتكلم. تحدث بشكل واضح، ولكن بلكنة أجنبية قوية مستخدمًا كلمات غير متداولة:

– نحن من مواطنى روسيا ولنا اهتمام خاص بالفنون والحرف اليدوية لكى ننقل إلى بلادنا بعضًا من خبراتكم. لقد علمنا أنكم أفضل

حرفيين فى صب البرونز داخل مملكة فرنسا. ها هو سيدى، ويُدعى بيوتر ميكايلوف، وهو يطلب منكم تعيينه لديكم بضعة أيام كمتدرب. إنه لا يتحدث اللغة الفرنسية جيدًا، ولكننى خادمه ومترجمه. اسمى إيفان إيفانوفيتش ساتروف.

- تقول اسمه بيوتر؟

- إنه المعادل لبيير عندكم.

- إذن فاسمه على اسمى.

ترجم ساتروف هذه المفارقة السارة إلى سيده الذى انفرجت أساريره، أطلق ضحكة عالية للغاية كشفت عن أسنانه وداخل فمه حتى لهاة الحلق.

- أحب أن أوضح لكم... أضاف المترجم: أن ميكايلوف لا يطلب أى أجر... بل إننا على استعداد لدفع ثمن إقامتنا من مسكن وغذاء.

- ما اللغة التى تتحدثونها؟

- الروسية. ولكننا متحضرون... ونؤمن بالله وبابنه يسوع المسيح.

فى الحقيقة، أن فيليستن لم يتعامل أبدًا من قبل مع مواطنى هذا البلد. لذا راح يستشير شقيقه أنطوان وعماله. سأله العمال: أين موسكو هذه؟

- إنها بلاد فى الشرق البعيد جدًا، حوالى مسافة شهرين ركوبًا على ظهر الخيل.

لابد وأنهم لا يمارسون مهنة صهر البرونز هناك.

- وأسرارنا؟

هنا كان التوجس. السماح لهم بالاطلاع على نِسب المعادن وخليط المواد وإحصاء الأبعاد وفقًا لرنة كل جرس مطلوبة، كل هذه الممارسات التى تأسست شيئًا فشيئًا على مر أجيال من صناع الأجراس، ثم ترك المجال حرًا للمقلدين. ما الذى يثبت أن هذين الفارسين حقًا من موسكو؟ ربما هما ببساطة من منطقة بورجونى (وسط فرنسا)، أو ربما من منطقة ألزاس (شمال شرق فرنسا) ويرغبان فى اقتباس خبرتنا ودرايتنا. تقرر أن يتوخوا الحذر معهما، وألا يطلعوهما أبدًا على الأرقام الأكثر أهمية.

هكذا تم استقبال هذين الأجنبيين فى الورشة على أنهما زائران. بعد أن ارتديا ملابس العمل، كان لهما الحق فقط فى المشاهدة، دون تدوين أى ملحوظات كتابية. ولكنهما سرعان ما طلبا

المشاركة فى أعمال مختلفة، فأوكل لهما فيليستَن بالأعمال الأكثر تواضعًا، وبحمل أثقل الأوزان وأكثرها اتساخًا. مع ذلك تقبلها بيوتر بصدر رحب، بل كان سعيدًا لاستعراض قوته. كان قادرًا على إمساك ونقل نصف حبل[1] من الحطب بين ذراعيه الضخمين. حاول خادمه تقليده فأمسك بقطع النحاس التى صهرت لتوها، ولكن تحتم عليه طلب المساعدة من منتصف الطريق وهو منقطع الأنفاس يتصبب عرقًا، فأطلق سيده ميكايلوف ضحكاته العالية القادرة على كسر الزجاج. عندما كان خادمه السمين هذا يرغب فى ارتداء الملابس التى أعطوها له للعمل بها، كان يجد بعض الصعوبة فى أن يُدخل ذراعيه داخل الأكمام، فكان يقفز قفزات صغيرة لتسهيل المناورة. أما بيوتر فلم يتحرج أن يظل بقميصه مفتوحًا كاشفًا عن صدره.

كانا يتشاركان تناول الحساء والخبز ولحم الخنزير المقدد والذى تشتهر به منطقة أوفرنى. وفى يوم من الأيام، ولما كانت قائمة الطعام تحتوى على ثمرات الجوز وكانوا يكسرون قشرتها بين حجرين. راح بيوتر يراقب طريقتهم هذه للحظة. ثم سارع بنفاد صبر ليكسر حبات الجوز بل ويطحنها بين أسنانه، محدثًا طقطقات عالية مثل الكلب عندما يقضم العظم حتى إنه حولها إلى طحين وقام

(١) ما يعادل مترًا مكعبًا.

بابتلاعها، وهو يحملق بنظرات مخيفة. فقد كان ذا شهية تشبه شهية الغول. عندما كان يتصادف وجوده على مائدة الطعام لدى عائلة مونييه فى قرية فيفيرول، كان يتجاهل الأطباق والملاعق ليتناول الطعام بيديه الضخمتين، ثم يلعق أصابعه بعناية.

فى الطابق الثانى من المنزل، خصصت عائلة مونييه غرفة لاستضافة الرجلين الروسيين بها. وبما أن أقدام ميكايلوف الغليظة الطويلة كانت تتخطى أعمدة السرير، فقد اضطروا إلى وضع جزء مكمل من المرتبة حتى تكفي طوله. وغالبًا ما كانوا يسمعون شجارهما باللغة الروسية، بل أحيانًا ما كانا يتعاركان ويتبادلان اللكمات. وفى الصباح التالى كان إيفان يظهر بأعين منتفخة.

- ها أنا أتكسب المال... بل أتكسب جيدًا! هكذا كان إيفان العملاق يقول لهم مفسرًا وهو يشير بيد إلى مكان الكدمات، وبيده الأخرى إلى قطعة نقدية بيضاء اللون خارجة من كيس نقوده.

هز إيفان ساتروف رأسه مؤكدًا ذلك... فعلى ما يبدو أن تلقى اللكمات من سيده كان جزءًا معتادًا من عمله.

على الرغم من قسوة ووقاحة بيوتر، فإن كان يُظهر موجات من اللطف المثير للدهشة. فقد كان يحب اللعب واللهو مع الأطفال. أحيانًا كان يضع ابنى بيير على ركبتيه، باردو البالغ من العمر عشر

سنوات وجيرمان البالغ تسعة؛ ويهزهما كما لو كانا جالسين على سرج حصان يجرى، مُحدثًا صهيلاً بفمه، أو زقزقة عصافير، أو صوت أجراس موسيقية. أحيانًا أخرى، كان يمسك بهما الواحد تلو الآخر، ويلقى بهما فى الهواء، ثم يتلقفهما، بينما الطفلان يطلقان صرخات رعب وسعادة فى آن واحد.

كانت أمهما فرانسواز كالمار تتوسل إليه قائلة: على رسلك! على رسلك!

طمأنها بيوتر قائلا: لا تخافى! ثم أكمل: أنا أيضًا لدى ابن فى موسكو... عمره سبع سنوات.

- حقًا؟ وما اسمه؟

- ألكسيس... ألكسيس بتروفيتش، وهذا معناه ألكسيس بن بيوتر... أنا أحبه كثيرًا.

فجأة داهم وجهه التوتر العضلى فتسمر جميع الحضور فى أماكنهم - باستثناء - خادمه ستاروف، حتى اختفى هذا التعبير الوجهى الرهيب. بعدها أطلق بيوتر ضحكته الرنانة دون أسباب واضحة.

فى يوم الأحد ذهبت عائلة مونييه إلى القداس وجلس كلٌ منهم على مقعده المعتاد، الكراسى ذى اللوحة النحاسية المستطيلة المنحوت عليها اسمه. لاحظ الجميع أن الرجلين الروسيين كانا يظهران

إخلاصًا وخشوعًا شديدين أثناء الصلاة، فيركعان علـــى ركبتيهمـــا، ويقرعان على صدريهما، ويرشمان علامة الصليب من اليمين إلـــى اليسار بثلاثة أصابع فقط. كانت وجبة يوم الأحد مبهجة استمتع بهـــا كل من بيوتر وإيفان كما ينبغي. بعد ذلك، أخـــذهما فيليـــستن إلـــى الحديقة الواقعة على طول ضفة بحيرة لاليجون. وكان قد تـــم حفـــر تحويلة في البحيرة تُغلق بواسطة صمام جانبي يمكنه نقل المياه لـــري الأراضي في أوقات الجفاف. جعلهم بيير يتأملان بإعجاب بستانه من الخضروات وما به من كرنب وقلقاس، وخس للسلطة وكرات والفول الذي ينبت في فصل الخريف وكذلك الجزر.

أخذ الروسيان يستمعان ويراقبان كل ما حولهما. مـــن بعيـــد، جلست قطة على عتبة من عتبات المنازل تراقبهم بلا حراك، وكأنها تمثال من الخزف. فجأة، رأوا ميكايلوف يضرب الهواء بيديـــه ثـــم يسقط في حوض من زهور الأقحوان. "سحقًا! زهوري!" هكذا قـــال بيير لنفسه في البداية: "كان من الأدعـــى أن يتعثـــر هـــذا الرجـــل الشيطاني في مكان آخر"! ولكنه سرعان ما أدرك أنه لم يكن تعثـــرًا عاديًا: إنها اضطرابات متشنجة ألمت بالرجل الروسي من رأسه حتى أخمص قدميه، بل سال لعابه على جانب فمه.

– لا داعي للانزعاج، فالأمر ليس خطيرًا. قال خادمه المترجم ثم أردف: إنها فقط أزمة صرع... أنا أعرف ما الذي ينبغي عمله.

أمسك الخادم برقبة سيده، ثم راح يصفعه صفعات قوية على وجهه كى يستعيد وعيه، ولكن من الواضح أن هذا النوع من العلاج كان يسعد الخادم ويُشعره بالارتياح؛ حيث إنه بدا كما لو كان انتقامًا غير ضار، فهو يرد له اللكمات التى يتلقاها يوميًا. أما فيليستن فوقف يراقب تلك الصفعات الرنانة السريعة ببلاهة.

- سوف يكون الأمر على ما يرام... سوف يكون الأمر على ما يرام. طمأنه المترجم وهو يواصل صفعاته.

بعد أن انتهى من توزيع صفعاته على وجه سيده، خفَّت حدة الأزمة حتى هدأت. فتح بيوتر عينيه ثم عطس خمس أو ست مرات. ساعده خادمه على النهوض ثم فى نفض ثيابه التى اعتلاها الغبار، ووضع له على رأسه قبعته التى تدحرجت وسط ثمار الكرنب. انخرطا فى حوار غير مفهوم بينما راح بيير ينظر بقنوط وفزع إلى حوض زهور الأقحوان.

تم البدء فى صناعة جرس كنيسة كرابون بالطرق المعتادة. لم ينبس لا بيير ولا أنطوان بأى شىء عن أرقام كميات المواد الخاصة بالتصنيع. تم عمل كل ما كان يجب عمله على أكمل وجه: قلب الجرس، الجرس المزيف، الطبقة الخارجية والتدوينات المحفورة عليه والحلى التى سيزين بها الجرس. تم الحصول على هذه الحلى

باستخدام الخشب المرسوم، ثم تم نحته بطريقة بارزة باستخدام أداة معدنية خاصة، بطريقة عكسية عما يجب أن تكون عليه، ثم تم ملء التجويفات بالشمع المُذاب. وما إن تجمد، حتى تم لصقه على الجرس المزيف. كان الرجلان الروسيان يراقبان كل هذه الخطوات بحرص ويقظة، دون إمكانية تدوين ذلك على الورق بل كان عليهما حفظ ذلك فى رأسيهما.

أخيرًا خرج الجرس الحقيقى من قالبه وهو يلتهب من السخونة. تُرِك ليجف لمدة ثلاثة أيام. بعد ذلك جاءت العربة التى يجرها الجاموس واستقرت إلى جواره. هكذا تم وضع الجرس فوق العربة يغطيه القش تحت قمته ومجذوبًا بالرافعة، تاركًا ببطء قاع الحفرة التى تم صبه بها. فجأة رفع الخادم ميكايلوف ذراعه وراح يتحدث قائلاً:

- إن سيدى يرغب فى وضع الجرس على رأسه.

- على رأسه؟ كيف ذلك؟

- إنه يرغب فى أن ينزل الجرس عليه، ثم يرفعه ويخرج من تحته بدون مساعدة أحد. لقد راهن مع نفسه على ذلك فهو يحب المراهنة، كما أنه على استعداد لدفع اللازم.

ما إن أبدى بيير وأنطوان موافقتهما حتى كان الرجل العملاق قد جثم جالسًا تحت ناقوس الجرس البرونزى. نزل الجرس فوقه

فغطاه كما لو كان طائر سمان وقد وقع فى مــصيدة مــن القرميــد المستدير. ستمائة رطل؟ إنه يدعى إمكانية رفع ستمائة رطل؟ فلسوف نرى إذن. سمعوا ضحكته العالية وقد كتمتها سماكة المعدن الغلــيظ. صاح به بيير، صانع الأجراس: هيا!

لمحوا احتكاكًا، ثم أربع أصابع تخرج منه عند نهايــة طــرف الجرس المسطح، وأربعًا من الناحية الأخرى. تخيلوا هيئــة الرجــل الجالس القرفصاء وقد تقوس ظهره فى الداخل محاولاً استجماع قواه. ثم سمعوا تأوهًا رهيبًا تلته صرخة لا تقل عنه ترويعًا. إنها طقطقــة روسية وحشية كما لو كانت طلقة من بندقية حقيقية!

اهتز الجرس وراح يرتفع على الأرض ثم مــال بينمــا أخــذ ينغرس فى الناحية العكسية لهذا الميل. لقد اقتلعته بالفعل يدى بيــوتر العملاق عن الأرض، ولكنه وجد نفسه غير قادر على الخروج مــن تحته، فقد عاقه هذا الثقل البالغ ستمائة رطل. أصبح الجرس مهــددًا بالكسر بسبب وضعه المائل واستمراره فى الاتجاه إلى الخلف. هكذا ترك فيليستن بيوتر العملاق للحظة طويلة فى هذا الوضــع الحــرج، وهو يسب ويسخط باللغة الروسية.

– ماذا يقول؟

- إنه يطلب المساعدة... لقد خسر الرهان وهو يعترف بذلك.

تم تشغيل سلاسل الرافعة فأخذ الجرس يرتفع إلى أعلى فسارع بيوتر بالفرار زاحفًا على يديه وركبتيه. بالطبع لم تكن لديه أى رغبة فى الضحك كما اعتاد، بل راح يسب ويهين خادمه الذى لم يمنعه عن هذا الفعل الجنونى، وأخذ يكيل له اللكمات فوجب الفصل بينهما. تحركت العربة التى يجرها الجاموس حاملة الجرس فى اتجاه قرية كرابون.

بعد ذلك بفترة قصيرة، أعرب بيوتر عن رغبته فى أمر آخر غريب:

- أنتم صانعو أجراس... ولكنى أعرف أنكم تقومون أيضًا بتصنيع المدافع، لذا أريد منكم أن تصنعوا لنا واحدًا.

ذُهلت عائلة مونييه من هذا الطلب فأضاف بيوتر قائلاً:

- كلا... لا أريد مدفعًا قادرًا على إطلاق قنابل زنة عشرة أرطال، ولكن مدفعًا صغيرًا يطلق قنابل زنة رطل واحد... مثل الذى يطلق صواريخ الاحتفالات.

- أنت إذًا... تأمل فى سرقة أسرارنا المدفعية؟

- لا أريد سرقتها ولكن شراءها.

هكذا تشاور أفراد عائلة صانعى الأجراس فقد صار لهم زمن طويل لم يصنعوا فيه مدافع، ولذا كان ذلك العرض بمثابة فرصة للتحقق من أنهم لم يفقدوا خبرتهم فى هذا المجال. اتفقوا على سعر مدفع صغير يزن مائة رطل، بطول ذراع، بالكاد أكبر قليلاً من لعبة طفل. قبل بيوتر كل شروطهم.

على الفور، بدأوا العمل به. راحوا يجهزون بالجير والرمل والنواة على هيئة إصبع نقانق والتى تشكل قلب القطعة من فوهتها إلى رقبة الإطلاق. بدلاً من المزج المعتاد للطين والروث، شكلوا نموذج المدفع الصغير من الشمع الصلب. جهزوا فى مؤخرة المدفع مجرى يدخل إليه الضوء مخصصًا لإشعال الفتيلة. تخلوا عن إخفاء أسرار مهنتهم، وكشفوا عن كيفية استخدام الكبريت والثوم، والرصاص ونكيث الأحبال والتعامل مع الأدوات: المصقلة، والأداة الحديدية التى تشذب الأطراف المدببة، وأداة مثلها ولكن مستديرة، وأداة معدنية لتنظيف كل الشوائب المتبقية وقطعة أخرى مخروطية الشكل لفصل المدفع عن قالبه. بعد أن انتهوا من أعمالهم، أُخرج المدفع من قالبه، فظهر جميلاً براقًا مثل قالبٍ من سكر النبات. ركع بيوتر الروسى أمامه، ثم أمسك به بين ذراعيه، وحمله خارجًا من ورشة التصنيع. تم تعميره بخمسة أرطال من مسحوق البارود الأسود، وعشرة أرطال من نكيث الأحبال. التف كل العمال من حوله فصاح فيليستن بهم قائلاً:

- أفسحوا المكان!

إذا ما كان هناك خطأ فى حسابات التصنيع، فمن الممكن أن ينفجر المدفع الصغير مثل ثمرة الكستن، ليقتلهم جميعًا بسبب شظاياه. لهذا ابتعدوا جميعًا فيما عدا بيوتر الذى اقترب ممسكًا بشعلة من الفتيل، قبل أن يبتعد هو الآخر. سرعان ما التهمت النيران قطن الفتيل ثم دخلت إلى مشعل المدفع محدثة من ثم انفجارات كالألعاب النارية الجميلة، قاذفة بنكيث الأحبال وبالنيران والدخان تجاه بلدة "بوبانين" دون إلحاق أى أضرار سوى إزعاج آذانهم. تبع كل ذلك وقع انفجار آخر ثم كثير من الضحك والتصفيق حتى ألهبوا جميعًا أيديهم.

سأله بيير: ماذا أنت فاعل الآن؟

– سوف نشترى حصانًا ثالثًا ليحمله. هكذا أجابه بيوتر.

وبالفعل، بعد يومين من تجربة المدفع هذه، حزم الروسيان أمتعتهما، بما فى ذلك المدفع الصغير على ثلاثة أحصنة. راح خادمه ميكايلوف يترجم معربًا عن عرفان وشكر سيده قائلاً:

– شكرًا على كشفكم لنا بعض أسرار مهنتكم.

– أوه! رد فيليستن: أنا لم أمدكم بأية أرقام.

– لم أكن فى حاجة أن تمدنى بها فقد اكتشفتها بنفسى...اكتشفتها واحتفظت بها.

ابتسم فيليستن ابتسامة متشككة.

- إن الأرقام صميم عملى. قال بيوتر بإصرار، ابتسم فيليستن من جديد فأوضح له بيوتر:

- هل تريد مثالاً على ذلك؟ هل تعرف الضرب المتضاعف؟

- ماذا تعنى بذلك؟

- مثال : ٧ مضروبة فى ٧ مضروبة فى ٧، وهكذا دواليك.

- ٧ مضروبة فى ٧ تنتج ٤٩.

- جيد جدًا و٧ مضروبة فى ٤٩؟

- حسنًا... حسنًا... دع لى بعض الوقت.

- ٣٤٣!

- ربما ذلك.

- والآن، ٣٤٣ مضروبة فى ٧؟

- لا أستطيع الرد عليك.

- ٢٤٠١. هل ينبغى أن أواصل؟

- ليس ذلك بضرورى... فأنت خارق القوة فى الحسابات.

جاءت لحظة مراسم الوداع فى قرية فيفيرول أمام كنيسة سانت مادلين، فى حضور جميع أفراد العائلة.

- والآن... فلنقم بتسوية حساباتنا. قال بيوتر الروسى.

- لقد اتفقنا على ثمن المدفع الصغير... أما بالنسبة للباقى، فأنت بارع بما فيه الكفاية فى الأرقام، ولهذا فأنا أثق بك. أعطاه الروسى العملاق كيس نقود جلديًا فى حجم البطيخة ناوله إياه خادمه ومترجمه وقال:

- أشكرك على هذه الثقة... سوف تجد داخل هذا الكيس كل ما يلزم... إنها قطع نقدية روسية... ولكن يمكن لأى صراف أن يبدلها لكم إلى عملات فرنسية.

تعانقا ثم قبل بيوتر بيير على فمه واضعًا الشارب على الشارب. ثم مرة أخرى، أمسك بجيرمان وباردو وقذف بهما إلى أعلى ثم تلقفهما فى الهواء. بعدها راح يملس على رءوس الفتيات الصغيرات، ثم قبّل أيدى النساء. ابتعدت الخيول الثلاثة فى اتجاه الشرق محملة بالفارسين، وبالمدفع الصغير وبالآلاف من أسرار ورشة تصنيع الأجراس.

أفرغوا كيس النقود على الطاولة فانهمرت منها القطع الذهبية كالمطر. هتف العم أنطوان، المونييه الصغير: يا إلهى! ثم أكمل: لم أر ذلك أبدًا فى حياتى!

أخذوا يتفحصون القطع النقدية الأجنبية عن كثب. من ناحيـــة، يظهر عليها نسر له رأسان مُحاط بعبارة من أحرف غير مفهومـــة. على الناحية الأخرى، صورة لرجل ذى وجه ممتلئ الخـــدين، علـــى رأسه شعر مستعار، ويعلو شفاهه شارب دقيق.

كرر العم أنطوان هاتفًا: يا إلهى! إنه هو! هـــو بعينـــه! إنـــه بيوتر! لم يصعب على أحد منهم أن يتعرف إليه. فوق صورته عبارة على شكل تاج باللغة اللاتينية تؤكد ذلك نجح فيليستن فى ترجمتهـــا: بيير إمبراطور روسيا والدوق الأكبر لموسكو. هـــذا الرجـــل الـــذى يعانى من مرض الصرع، الذى كان يعانى من التشنجات اللا إرادية، الذى كان يسحق ويأكل المكسرات بقشورها، والـــذى كـــان ينـــسى استخدام الشوكة على مائدة الطعام وكان يلعق أصابعه. ذلك الرجـــل الفظ الذى كان يضرب خادمه كما تُقرع الطبـــول هـــو؛ إمبراطـــور الروس! لم يتوقفوا عن التحديق وفحص صوررته المنحوتـــة علـــى القطع الذهبية. لماذا وكيف جاء إليهم فى هذه القرية المليئة بـــالجرار لكى يتعلم صهر البرونز؟ هل ذاع صيت عائلة مونييه حتى وصـــل إلى موسكو؟

ظل العم أنطوان لفترة من الوقت يتسلى هازئًا بتقليد حركـــات وإيماءات الرجل السمين، قافزًا كما كان يفعل لكى يرتدى سترته، مما كان يثير ضحكات عمال الورشة كثيرًا.

(٧)

زخرت الأشهر التالية بأحداث هامة كثيرة. أولاً، اضطر القس ساربوال إلى التخلى عن منصبه فى فيفيرول والذى تولاه على مدار نصف قرن ليدخل المستشفى. لقد فقد جميع أسنانه ولم يعد أحد يفهم ما الذى يهمهم به. حل محله الراهب الشاب فيدال، القادم من قرية "أرلانك" على حماره. استقبله شعب الإبرشية ببالغ الاحترام والتبجيل. نثروا أغصان الأشجار والزهور فى كل الشوارع المتداخلة التى سيمر بها موكبه، وزينوا المنازل بالبيادق والرايات، كما أحاطوا باب الكنيسة بالزينات وأكاليل الزهور. قدم عشرات القساوسة والرهبان من المناطق المحيطة لكى يشاركوا فى قداس الاستقبال. وامتلأت كنيسة سانت مادلين برعوس الراهبات المتسربلة بما يشبه الأقماع.

وفى الأيام التالية قام الأب بزيارة كل أسرة فى القرية. ارتدى أفراد عائلة مونييه شعرهم المستعار وقدموا له بكل احترام، وجبة خفيفة من العسل والمربى. وأثنى الأب على مهنتهم كصناع أجراس وعلى اختيار امبراطور روسيا للمجىء إليهم. فمن وقتها وجميع

أهالى فيفيرول يعلمون حقيقة هوية هذا الرجل العملاق وخادمه السمين، وقصة المدفع الصغير الذى تم تحميله على الحصان الثالث. أباح لهم الأب ڤيدال قائلاً: بالنسبة لى، أنا أشعر بالفخر لتولى مسئولية إبرشية لها هذا المجد. فعلى ما يبدو لى أن الأهالى ظرفاء وأتقياء وفى غاية الهدوء. أما قرية أرلانك التى أنتمى إليها، فكانت بالنسبة لى بلدة مضطربة أكثر من اللازم.

فهناك كل شىء يحدث بالعكس: النساء هن اللائى يسيطرن على الرجال، وعدد الراهبات أكبر من عدد الرهبان، وأحياناً ما يتحكم الأطفال فى كل شىء.

- الأطفال؟ حقاً؟

- فى العيد الدينى الموافق التاسع والعشرين من شهر سبتمبر، كل من يسمون ميشيل يكون لهم الحق فى أن يفعلوا ما يحلو لهم، فيأمرون الآباء والأمهات، ويأخذون نقودهم وغيرها الكثير من هذا الهراء. ويطلق على هذا العيد يوم "الميشيلاد". ولكن هناك أيضاً "عيد المارسيلاد"[1] الموافق السادس عشر من شهر يناير، وأيضاً عيد "الجاستوناد"[2] الموافق السادس من شهر فبراير، ثم عيد

(١) نسبة إلى مارسيل. (المراجع).
(٢) نسبة إلى جاستون. (المراجع).

"الأوجستيناد"[1] الموافق السابع والعشرين من شهر مايو. إنها فترات لعينة! وها أنا قد تخلصت منها بالمجيء إلى هنا والحمد للـــه.

وبعد أن أكل وشرب قليلاً، غادر الأب بعد أن قـــام بمباركـــة المنزل. ولكي يشكروه على هذا الامتياز، قدمت له عائلـــة مونييـــه قطعة نقدية من عملات موسكو.

جاء يوم موسم الماعز في اليوم الموافق الثامن والعشرين من شهر مايو. وقد جرت العادة في قرية فيفيرول أن تربى كـــل أســـرة عنزة أو اثنتين. وفي بعض الأحيان تربى قطيعًا بأكمله. في هذا اليوم وقبل الفجر، تتوافد الماعز من جميـــع الأنحـــاء لتحتـــل الـــساحات والشوارع والميادين، تهز ذيولها وتمضغ بأسنانها كما تقول الأغنية. إما وحدها أو يتبعها صغارها... بيضاء وحمراء وسوداء، أو متعددة الألوان. معظمها له قرون، والبعض الآخـــر مكـــسور القـــرون أو منزوعة منها. وتكون إما نشطة الحركة أو عرجاء. إما مغطاة بفروة من الشعر الطويل أو حليقة الشعر. ناهيك عـــن التيـــوس مـــن ذوي القرون الضخمة كما النشاب، وبعضهم من ذوي لحى أطول من لحية موسى، متسخين بسبب تبولهم، لا يحدثون أدنى صوت ويبدون فـــي غاية الاستياء. في خضم هذا الزحام، يلتقي البـــائعون والمـــشترون،

---

(١) نسبة إلى أوجستين. (المراجع).

يساومون مساومات شرسة، وينهون اتفاقاتهم بأن يعقد كلٌّ منهم إصبعه البنصر فى بنصر الآخر دليلاً على الاتفاق ويهتفون قائلين:

- لقد تمت البيعة!

كما يأتى على الأخص جزارون من بلدة "تييرس" على عرباتهم الصغيرة المغلقة، حيث اشتهر سكان هذه البلدة بولعهم بلحوم الماعز، فكانت كل أسرة تضحى بعنزتها وتقوم بحفظها مملحة. فكانوا يأتون ليبحثوا عن الماعز الأكثر نحافة، أو الأكبر سنًا، أو المتدهورة الحال، حيث تكون رخيصة الثمن. أما الأصغر منها سنًا، فبعد أن تتم المساومة على خفض سعرها، حيث إنها مطلوبة أيضًا لترضع المواليد الجدد من الماعز.

تُحمل الماعز المسكينة منحشرة ما بين قضبان العربات فتركل بساقيها الخلفيتين وتثور وتدوس على بعضها البعض. وتأتى بعض العربات الأخرى من قرية فيفار إيه لتجلب الماعز ذات الفراء الطويل، كى يصنعوا منها معاطف تُسمى "جلود الماعز"، التى تناسب بشكل خاص سائقى العربات والحناطير.

وبحلول منتصف النهار، سواء بيعت أم لا، تبدأ الماعز فى العودة، مخلِّفة وراءها طبقة من الروث يقوم الأطفال بجمعها فيملأون بها سلالاً بأكملها، حيث تصلح كسماد جيد لتربة الحدائق. وبالإضافة

إلى محبى الماعز، كان يوم عيد القديس جيرمـــان الموافــق الثــامن والعشرين من شهر مايو، الذى يستقطب الكثير من الباعة المتجولين بين القرى وبائعى الأدوية التى يدعون أنها تُشفى مـــن الأمـــراض، وبائعى الملابس المستعملة وأدوات المائدة. كانوا يعرضون ســلعهم على حوامل خشبية أو حتى على الأرض. خرج بيير مونييــه مــع ابنيه، وتلكأ أمام كشك يبيع الكتب حيث راح صاحبه ينفخ فــى آلــة البوق لجذب الناس، ثم راح يلوّح بكتب ذات أغلفة زرقاء وهو يشرح مضمونها قائلاً:

- يا أهالى فيفيرول وأهالى الجهات الأخـــرى! إنـــى أوجـــه كلامى هذا إلى من يستطيعون القراءة ومـــن لا يـــستطيعون، لأنهـــم سيتعلمون الحروف الأبجدية فقط بوضع أنوفهم فى كتبـــى. ســـوف يستنشقونها كما يستنشقون مسحوق التبغ، وجميع هذه الأحرف ستمر من خلال أنوفهم فتصعد إلى أدمغتهم لتملأها دون أن يكلفهم ذلك أقل مجهود يُذكر.

أيَّد كلامه أحد زملائه قائلاً: نعم...نعم يا رفاق! هكذا تعلمـــت أنا القراءة!

- ها هى إذًا يا أصدقائى الأعزاء بعض عناوين الكتب التـــى أقترحها عليكم: "هون دى بوردو"... قصة مميزة للغاية، سوف ترون

بها حكاية الشاب "هون" بن دوق بوردو، المتهم بقتل "شارليه" بن شارلمان أثناء مبارزة، ليذهب إلى بابل، ليقابل الأدميرال جوديس كى ينتزع شاربه وأربعًا من أسنان فكه، بعد أن يقبّل ابنته إسكلارموند ثلاث مرات. وهو ما نجح فى إنجازه لاحقًا بعد المرور بمخاطر كبيرة... ها هى رواية الأربعة شبان الإخوة أولاد أيمون، وهم يتصفون بالشجاعة والسخاء، ولكن لسوء حظهم، يتورطون بالإساءة إلى الإمبراطور ذى اللحية البيضاء الكثيفة. لهذا يأمر بمطاردتهم فى جميع أنحاء مملكة فرنسا، بدءًا من مدينة مونتاوبان إلى مدينة تريمونى. ولحسن الحظ، يمد لهم يد العون الساحر "موجيس"... ولكن إذا كانت قصص الأساطير لا تعجبكم، فأقترح عليكم كتاب "الطبيب المحسن"، حيث تتعلمون من خلاله كيفية معالجة وشفاء جميع الأمراض المعروفة وغير المعروفة. ولهذا السبب فأنا أتوجه بشكل خاص إلى الآباء والأمهات الذين أنجبوا ما يكفى من الأطفال، ويرغبون فى التوقف عن إنجاب المزيد. إن كتاب " الطبيب المحسن" سيعلمهم كيفية عمل ذلك بسلام دون ألم ودون حرمان.

أثارت هذه الوسيلة التى تحقق العقم دون الحرمان من المعاشرة الزوجية، اهتمام العديد من أرباب الأسر الكبيرة العدد. فأخرج فيليستن الذى لديه بالفعل ولدان وثلاث بنات والعديد من الأطفال الآخرين الذين ماتوا فى سن الرضاعة من جيبه أربعين

قرشاً، هى ثمن ذلك الكتاب الأزرق واشتراه. تحت أنظار الكثير من الأهالى الحاسدين والذين كانوا يأملون فى فعل الشىء نفسه، ولكنهم لا يمتلكون النقود اللازمة لذلك.

ما إن عاد فيليستن إلى منزله، حتى بدأ فى قراءة كتاب "الطبيب المحسن". وبعد البحث لفترة طويلة، وجد أخيرًا سر منع الإنجاب، ملخصًا فى جملة واحدة : تدلك بطن المرأة بالنعناع البرى قبل معاشرة زوجها فيمنع ذلك الحمل.

بمجرد ما مكنته الظروف، غادر فيليستن يبحث عند حدود الغابة عن هذا النبات المعجزة. لقد كانت رائحته قوية للغاية حتى إن الأعمى يستطيع قطفه. جمع أوراق النعناع على شكل باقة وضعها على الطاولة الصغيرة الموجودة بجوار سرير الزوجية. وعندما شرح لفرانسواز أسباب ذلك قالت له:

– أنا الآن فى الثانية والأربعين من عمرى، ولهذا لا أعتقد أن بإمكانى الإنجاب من جديد، ولذا ليس هناك احتمال حمل.

– لا يهم. قال لها فيليستن: كإجراء وقائى.

منذ ذلك اليوم، أصبحت لقاءاتهما الحميمية تفوح منها رائحة النعناع البرى.

لم يعر الماركيز دى كولومبين أى اهتمام يُذكر لرعاياه من قرية فيفيرول إلا ما يتلقاه منهم من رسوم نقدية أو مواد غذائية، يأتى له بها المحصلون. اكتشف الماركيز مرة أن واحدًا من المزارعين الأجراء ويُدعى بيتافى يرسل له حصته من الإتاوة على شكل أربعة أرطال من خبز الزبد الذى تجرأ وراودته الفكرة بخلطه مع قدر من دهن الخنزير. لاحظ ذلك طباخ القصر، وبالتالى أبلغ الماركيز الذى أغضبه هذا الغش، فأرسل إليه حراسه المسلحين ليقبضوا عليه، وليمثل أمام عدالته، وهكذا حكم عليه فورًا بتعليقه لمدة أربع ساعات على آلة التعذيب الخشبية.

كان هناك مبنى صغير خلف الكنيسة، مكون من برج ذى ثلاث نوافذ. مثبت فى الجزء السفلى من النافذة الوسطى ما يشبه ضلفة من الخشب بها ثلاث فتحات: واحدة للرأس واثنتان لليدين. اقتيد المزارع التعس وأُجبر على التنفيذ. وقف مساعد الماركيز للشئون القانونية، وهو يرتدى عباءة سوداء وغطاء رأس مربعًا، وقرأ بصوت عال قوى الحكم مستعرضًا الجرم الذى ارتكبه بيتافى وتفاصيل عقوبته.

– بسبب هذا السلوك المنحرف، سوف يقضى المنتهك مدة أربع ساعات معلقًا على آلة تشهير فيفيرول وعلى رأسه قطعة كبيرة مخففة من الزبد حتى يتخذ منه الأهالى عبرة ولكى يرغموه على دفع ثمن خداعه وخبثه.

هكذا تم تنفيذ الحكم وعلى مدار أربع ساعات بالتمام والكمال، ظل بيتافى التعس موضعًا لسخرية الأهالى، يسبونه ويقذفونه بمسحوق البودرة فى عينيه، ويبصقون عليه رغم كونهم رعايا أشد لؤمًا وبؤسًا منه. ذاب خليط الزبد ودهن الخنزير بفعل الشمس ليغطى وجهه بطبقة من الشحوم.

لقد كان شهر مايو هذا من عام ١٦٩٨، حقًا شهرًا مليئًا بالأحداث الطريفة.

ها هى الجدة ماريا أرملة آن مونييه تزداد عجزًا، وهنا جلست بجوار المدفأة التى نادرًا ما كانت تفارقها إلا فى الطقس شديد الحرارة. كانت تُمضى وقتها فى الغزل بآلة المغزل، فتبلل الخيط بلعابها، ثم تمرره كالنحلة اللعبة التى تلف على ساق واحدة. بدا فمها وكأنه لا يهدأ ولا يكل. كان الخيط يلتف حول العصا ليجعله منتفخًا، موضحًا بذلك معنى الأحجية القائلة: "ما الذى يصير له كرش إذا ما واصل الرقص"؟

عندما كانت تكف عن الغزل، كانت تقوم بأعمال الإبرة والتريكو فكانت إبرها تصدر طقطقة طفيفة. كانت تحيك الجوارب والقفازات والسترات بل فساتين بأكملها. كما كانت تقوم بإصلاح ما تلف أو تهرّأ أيضًا. وعندما ضعف بصرها، كانت كثيرًا ما تطلب منهم قائلة:

- من يمرر لى الخيط فى الإبرة؟

فكان أحفادها يتشاجرون لينالوا هذا الشرف. وفى بعض فصول الشتاء، كان جميع أفراد الأسرة يرتدون شيئًا من صنع يديها. لم تكن الجدة ماريا شخصية كئيبة، على الرغم من الحداد والحزن اللذين ألمّا بها. بل كانت تحب الضحك، فيكشف ذلك عن لثتها وفمها الخالى من الأسنان، ووسطه يبدو لسانها وكأنه قطعة من النقانق. كان أحفادها يحبونها بشدة، ويقبّلون وجنتيها المحمرتين الناعمتين اللتين تحيط بهما التجاعيد، كما لو كانتا جزرًا تحيط بها التعرجات.

فى هذه العائلة كان الرجال يسافرون كثيرًا بحكم مهنتهم، أما الجدة ماريا فلم تخرج أبدًا من قريتها. "أبدًا لم أخرج من نعلى"، هكذا كانت تقول. لهذا كانت تجهل تمامًا العالم الخارجى ولا تعرف عنه شيئًا. كانت تعتقد أن فرنسا ما زالت تحت حكم الملك هنرى. وكان عالمها الوحيد ينحصر فى الصلاة، والحكايات، والأغانى، والأحاجير مثل:

- عندما يتوفر لى الماء، لشربت الماء، ولو لم يتوفر الماء شربت النبيذ[1]. أو ما الشىء الذى يأكل مع البابا دون أن يلوث صحنه[2]؟ أو من هما الشقيقتان اللتان تنظران إلى اليمين وإلى اليسار، ولا تريان بعضهما أبدًا[3]؟

---

(١) عامل الطاحونة: فالماء ضرورى لعمله كى يدر عليه الدخل فيشرب النبيذ. (المراجع).

(٢) الذبابة.

(٣) الأذنان.

ودائمًا ما كانت حكاياتها عن أشياء ليس لها أهمية : فتحكى مثلاً كيف عندما كانت شابة يافعة قامت بحياكة أربعة أمتار وأكثر من الدانتيلة فقط لشراء صليب صغير من الفضة ما زالت تلبسه فى رقبتها. أو كيف انقلبت عربة الحوذى فى الحفرة بالقرب من المراعى التى كانت ترعى له أغنامه بها، وكيف تصرفت لإنقاذ الركاب الموجودين فى العربة. كيف انقض الذئب فى يوم من الأيام على حمل صغير من بين الأغنام التى كانت ترعاها، برغم الجلبة التى أحدثتها لإخافته بضرب نعليها الخشبيين فى بعضهما البعض. وكيف سرقت بعض ثمار العنب البرى من حقل القس ثم ذهبت إليه لتعترف له بفعلتها، وفى اليوم التالى، قام القس بجمع ما تبقى منه ليضعه فى منأى عنها، دليلاً على أنه لا ينسى للتو ما يُقال له فى مذهبية الاعتراف. وكيف أنها قبّلت رداء أسقف مدينة كليرمون الذى كان فى جولة رعوية فى قرية فيفيرول. وكيف تعرفت لأول مرة إلى زوجها وكبير العائلة آن مونييه خلال دروس الدين. باختصار لقد كانت حياتها عبارة عن مجموعة من حكايات ليس لها أى قدر من الأهمية.

هكذا عاشت الجدة ماريا أحد عشر عامًا بعد وفاة زوجها. وفى النهاية، أصبحت عاجزة تمامًا عن القيام بأى عمل. فى المساء كان يجب حملها إلى غرفتها، وفى اليوم التالى لابد من إنزالها إلى صحن

المنزل. ورغم حالتها هذه من العجز الكامل اعترتها رغبة شديدة فى عمل شيء مفيد:

- ما الذى يمكننى عمله لمساعدتكم؟ هكذا كانت تسأل زوجات أبنائها.

- فلترتلى لنا الصلاة... ولكن بصوت منخفض حتى لا ننزعج.

ومن ثم، دائمًا ما كانوا يرونها تحرك شفاهها، فقد كانت أصابعها ترتعش بشكل أكثر من اللازم بحيث لم تعد قادرة على الإمساك بإبر غزل الصوف أو الحياكة.

- أعطونى شيئًا لأقوم به! هكذا كانت تتوسل لهم. كان يجب إطعامها وإعطاء الشراب كما لو كانت طفلاً رضيعًا. كانت تتساءل لماذا لا يتذكرها الله بينما زوجها المسكين آن ينتظرها فى السماء منذ زمن طويل. لقد وعدها فى السابق ألا يتركها أبدًا، ولكن ها هو الآن قد اختار الموت كزوجة ثانية له.

ثم، لم يعد حتى بالإمكان رفعها من سريرها. فتحتم على كل فرد من أفراد الأسرة ملازمتها، وهكذا دواليك. وذات صباح طلبت الجدة ماريا من ألبرتين، أصغر حفيداتها، أن تغنى لها أغنيتها المفضلة.

نفذت الفتاة الصغيرة رغبتها بصوت تخنقه العبرات: "أيها الرعاة، فلتتركوا رعى حملاننا الرقيقة إلى الملاك الذى ينظر من فوق تلك التلال..

هيا أيها الراعى تحرك..

أرأيت هذا السطح المتواضع؟

هناك على قليل من القش، وُلد يسوع من أجلك..." وعندما أتمت ألبرتين الصغيرة الأغنية، اكتشفت أن جدتها لم تعد تسمعها، وأنها كانت قد انطلقت لتحلق فى سماء الملائكة الحارسة.

(٨)

منذ ذلك الحين الذى تعرف فيه باردو الصغير على الموت فى قبر كنيسة سان بونيه، وهو مفتون بذلك "العبور العظيم". وعلى الرغم من كونها حقائق لا جدال فيها، فإنه لم يتوقف عن التساؤل حول تعاليم الكنيسة. فمثلاً: يوم القيامة... إذا ما كان جميع هؤلاء المتوفين سيُبعثون فى يوم القيامة... هل ستضيق بهم الأرض وتصبح أصغر من أن يعيشوا عليها ويأكلوا من خيراتها؟ ها هى مملكة فرنسا وقد ضاقت بسكانها! هكذا راح الطفل باردو يعرب عن شكوكه هذه ويطرح أسئلته على القس ساربوال أثناء دروس الدين فى الكنيسة.

– لن يحتاج المُبعثون إلى غذاء.... سيكونون مخلوقين من مادة لا تفنى... وهذا ما يفسر خلودهم وكيف لن يموتوا مرة ثانية. ولكن الله سيحاسبهم وسوف يفصل بين الخيرين منهم عن الملاعين.

– وهل سيعود هؤلاء الملاعين إلى الجحيم؟

– أنت تسأل كثيرًا يا ابن آدم... وبهذا تقع فى الخطيئة الأصلية.

هكذا انتهى الاستجواب بصفعة قوية على خد هذا الطفل الفضولى.

كان بإمكانه أن يُحجم عن طرح مزيد من الأسئلة، ولكن خطيئة آدم كانت دائمًا تلهب أعماقه وتجعل الشيطان ينفخ فى جمراتها ليزيد من لهيبها. فى بعض الأحيان، كان يتخيل عودة جميع أسلافه: سلسلة طويلة من شجرة عائلة مونييه يجهلهم جميعًا. كلهم كانوا يعملون فى صهر الأجراس... بالتأكيد... كلهم أولاد هذه المهنة التى توارثوها على مدار ثلاثة قرون. ولكن ترى: ما الذى كانوا عليه قبل ذلك؟ ما الذى كانوا يقومون به قبل أن تظهر صناعة الأجراس وحتى أبراج الأجراس فى الكنائس إلى الوجود؟ راح يتصور نفسه فى لقائهم، وهو يمر أمامهم واحدًا تلو الآخر كضابط يتفقد جنوده الواقفين فى طابور الاستعراض. وهو نفسه الآن، ما هو إلا حلقة متواضعة فى هذه السلسلة التى لا نهاية لها، وراح أبناؤه وأحفاده يتفقدونه بدورهم، وكذلك أبناء إخوته وأبناؤهم.

لقد كان جده هو أول شخص على قيد الحياة يشهد باردو وفاته. ولعهده بجده الذى كان مهزارًا بطبعه، أحيانًا ما كان باردو الصغير يتساءل إذا ما كان الرجل الكهل يدعى المرض، وإذا ما كان سينهض فجأة من فراشه، ناسيًا آلامه ثم يشرع فى الرقصة المستهترة مع رأس خنزير. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل اقتادوه إلى

المقبرة في نعش من خشب البلوط حيث وُضعت إلى جواره بعض القطع النقدية لكي يدفعها نظير خدمة القديس بطرس، حارس أبواب الجنة. إلا أنه ظل باقيًا في المنزل من خلال أشيائه التي تركها والتي ما زالت تخصه وهي: غليونه المصنوع من الصلصال، قبعته، حذاؤه ذو الرقبة الطويلة، وشوكته الفضية.

ها هي الجدة ماريا تلحقه بعد مرور أحد عشر عامًا. وها هو باردو وقد أصبح شابًا يافعًا ولكنه ما زال لا يفهم على نحو أفضل تلك الأمور التي تحدث في السماوات. كيف كانت كل تلك النفوس تعيش معًا هناك، منشقين عن أغلفتهم الجسدية المادية، عن ملابسهم، عن أحذيتهم الخشبية، وقد تقلصوا وأصبحوا أصواتًا، هيئات شفافة... فكيف كان بإمكانهم أن يلتقوا، أن يتواصلوا، أن يتبادلوا الحب؟ وعندما يحين دوره ليأخذ مكانه بين صفوف هؤلاء الآلاف، الملايين، بل عشرة مليارات من الأبخرة التي تنتظر يوم القيامة، أين عساه يجد الروح المهزارة ذات اللحية التي لا تنتهي لجده آن، وتلك الروح الرقيقة الخجول للجدة ماريا؟

لقد أصبح باردو يحب الجنازات، بخلاف الحزن الذي كان يسببه بعضها له: كان يحب المكوس أو الجرس الصغير الذي يتم قرعه داعيًا الناس للمجيء وإلقاء نظرة الوداع على جثمان المتوفى... الكنيسة التي تمتلئ بالحداد... رائحة البخور... نحيب

أفراد العائلة... تلاوة المتوفى (باللغة اللاتينية) المؤثرة التى يقوم بها خادم الكنيسة. الخطبة التى يلقيها القس تكريمًا للمتوفى معددًا صفاته الحميدة التى لا تضاهى. "لكم أتوق إلى اليوم الذى أموت فيه حتى يُقال عنى مثل هذا الكلام الجميل"! التعبير الرائع الذى يهتف به كل من يمر أمام نعش المتوفى ليلقى عليه النظرة الأخيرة فيقول: فى الجنة.

وحاملو النعش الذين يرتدون الزى الأبيض وهم يمشون معًا بخطى محسوبة. والقطيع البشرى الذى يترجل من خلفه. وصلاة الوداع (باللغة اللاتينية) التى يتمتم بها جميع الحضور وهم واقفون فوق فتحة القبر التى سيتم إنزال النعش بها. وأشجار المدافن السوداء. والوليمة التى تلى مراسم الجنازة، حيث يأكلون جميعهم ملء بطونهم، ويشربون الكحول المركز وكأنهم يواسون حالهم لكونهم ما زالوا فى عداد الأحياء.

أثناء جنازة الجدة ماريا، تلقى باردو عدة مفاجآت. أولاً، فى كومة التراب العالية التى تم إخراجها من حفرة القبر، لم يستطع باردو الصغير أن يمنع نفسه من النظر فى أنقاضها التى مال لونها إلى اللون الأبيض. إنها رفات أفراد عائلة مونييه المتوفين على مر الزمن، لابد وأنها كانت أصابع أو أضلاعًا أو فكاكًا. على بعد خطوات قليلة من الحفرة، ها هو بوتّينا الحانوتى، وفى يده الجاروف

الكبير، يقف بشكل مستقيم كما لو كان برج الأجراس فــى الكنيــسة. ولم يكن وحده: فبرفقته اثنان من المساعدين: ابنــه وابنتــه. وُضــع صندوق النعش أولاً على حوامل. وانفجر أفراد الأسرة فــى البكــاء الجماعى ووفقًا للبروتوكول كان عليهم البكاء ثلاث مرات: مرة عند رفع الجثمان، ثم عند خروجه من الكنيسة، ثم عند حافة فتحة القبــر. من جديد، راح القس يصف المتوفاة بكل ما يمكنــه مــن الــصفات الحميدة.

بعد ذلك، وضع لوح خشبى بميل إلى أسفل فى الحفرة البــالغ عمقها حوالى مترين. ترك ابن بوتينا نفسه لينزلق فوق اللوح كما لو كان فوق زلاجة أطفال[1]. وينزل النعش بنفس طريقة الانزلاق بينما يمسك به من فوق الأب الحانوتى وابنته. ها هى الجــدة ماريــا قــد استقرت فى عمق القبر. ما إن يصعد ابن بوتينا مرة أخــرى ومعــه اللوح الخشبى، حتى يلقى كل شخص من الحضور حفنة من التــراب تتبعثر ساقطة فوق النعش.

تفرق الحضور فيما عدا باردو الذى ظل وحده، حيث أراد أن يقول شيئًا لجدته. فقبل عشر سنوات - وكان وقتها قد بلغ بالكاد سن الإدراك - حدث أنه قرر أن يلعب لعبة، من وحى الشيطان، وهى أن

---

(١) جاء هذا المصطلح من كندا، واندرج بعد ذلك فى قاموس اللغة الفرنسية مــع تعديل طفيف.

يسرق من جدته سوار قميصها، وهى قطعة قماش من الدانتيل ترتديها النساء فى نهاية الأكمام. أما هو فوضعها على رقبته كياقة قميص. عندما رأته بهذا الشكل الغريب ضحكت ثم مدت له يدها وهى تقول:

- أعطنى إياه من فضلك.

وبدلاً من أن يطيعها، هجم على يدها وعضها.

- آه يا كلب! صاحت فيه جدته: يا لك من كلب مسعور!

فى نفس الوقت، أمسكت بعصاها وهمّت بضربه على ظهره ولكنه هرب جاريًا عبر المروج، واختبأ وسط الشجيرات المتشابكة وقد راح قلبه يهدر بمزيج من الغضب والحزن. ما الذى اعتراه وجعله يتصرف بمثل هذه الوحشية؟! أن يعض تلك اليد المحبوبة؟ ولماذا؟ على مدار تلك السنوات العديدة التى تلت ذلك الحادث، لم تنمح من ذاكرته أبدًا حكاية الدانتيل والعضة؟! ها هو الآن واقف على حافة الحفرة المحمرة التراب وقد بللت الدموع وجهه بالكامل، وراح يناشد ضحيته قائلاً:

- سامحينى! سامحينى! فلست إلا كلبًا مسعورًا!

فجأة، شعر بأنه يهوى ولكن يدًا قوية أمسكت به.

- لقد كدت تسقط فى الحفرة.

استدار باردو فوجد ابنة بوتينا لا تزال ممسكة بكوعه، ويديها ملطختين بالطين. لقد كانت فتاة قوية البنيان، عريضة المنكبين، ذات صدر وجذع ممتلئين، وأرداف متكورة. كانت فى مثل سنه تقريبًا، عيونها سوداء مثل الأقحوانات. أخرجت منديلاً من صديريتها، وأعطته إياه قائلة:

- أنا أتفهم أحزانك... هيا جفف دموعك.

لم يكن منديلاً من القماش القطنى، ولكن من قماش خام خشن. عندما دفن وجهه به ليجفف دموعه، شم رائحة فلفل أشعرته بدوار خفيف. أعاده لها وهو يشكرها فقالت له:

- أدْعى فرايزى... ولكن اسمى الحقيقى هو أوفرايزى... إن والدنا معاق إلى حد ما فى ساقه، لهذا فأنا وأخى نساعده بقدر استطاعتنا.

- ولكن العمل فى المدافن لا يناسب المرأة.

- أنا أقوم بالطهو أيضًا... وأرعى الماعز.

لم يجدا ما يقولانه بعد ذلك فراحا يتبادلان النظرات. لاحظ باردو أن وجهها احمر خجلاً رغم بشرتها المسمرة مما أعطاها لونًا يقترب من لون طوب القرميد الحرارى.

- لن نغلق الحفرة إلا هذا المساء... يمكنك إذًا البقاء بقدر ما تشاء.

هكذا تركته فرايزى واقفًا على كومة الطين هذه وغادرت المكان.

استعلم باردو لاحقًا عن أسرة الحانوتى بوتينا فعرف أنه برغم إعاقة ساقه، فهو يعمل أيضًا كحفار بنانى، وكعامل بناء، وكحطاب فى قطع الأشجار، وصيد الحيوانات المحرم. توفيت زوجته منذ زمن طويل. يبلغ ابنه "بنوا" الخامسة عشر من عمره، بينما ابنته فى الثامنة عشر، ويعيشون ثلاثتهم فى منزل منعزل مغطى بالقش على ضفة بحيرة لاليجون، حيث يصطادون منها سمك السلمون المرقط على مدار كل فصول العام. إنهم بالفعل فقراء ولكن ليسوا ببؤساء. كان الماركيز يغمض عيونه على اختراقات القوانين هذه بسبب إعاقة الأب، ولكنه رأى أن العمل الذى كانوا يقومون به ضرورى ولا غنى عنه.

بعد أيام قليلة من جنازة ماريا مونييه، كانت هناك جنازة أخرى. على الرغم من أن باردو لم يكن يمت بأى صلة أو بصداقة مع المتوفى، فإنه رتب أموره حتى يكون موجودًا أثناء هذه المناسبة فى المدافن. بل إنه تعمد الوصول إلى هناك حتى قبل الموكب الجنائزى، واغتنم الفرصة لكى يصلى عند المدافن الخاصة بعائلة مونييه.

عندما وصل القس يتقدمه حاملو النعش من ذوى الرداء الأبيض، اندس باردو بين الزحام حتى أصبح على مقربة من حفرة القبر. خفق قلبه عندما رأى أوفرايزى، حفّارة القبور الجميلة، من جديد بأعينها الأقحوانية. تم اتباع نفس خطوات مراسم دفن المتوفى المجهول بدقة حسب متطلبات البروتوكول: الصرخات والنحيب، انزلاق التابوت، رمى حفنات التراب، تبادُل العناق والقبلات. كان باردو واقفًا بين آخر الحضور وهنا شاهدته الآنسة بوتينا وسرعان ما احمر وجهها خجلاً من جديد. نظرًا للحضور الموجودين حولهما، لم يتمكنا سوى من تبادل النظرات... بل تبادلا ابتسامتين رغم أن الابتسامة تعتبر أمرًا غير متداول فى المقابر. ويبدو أن البعض قد تضايق من ذلك. هكذا تلقف باردو ابتسامة فرايزى المستترة فى الهواء، كما يتلقف الصياد فراشة محلقة، ووضعها له على فمه ثم خبأها خلف يده، واحتفظ بها وكأنها شيء ثمين جدًا. فى الليلة التالية، لم يغمض لباردو جفن: لقد داعبت هذه الابتسامة خياله فأبقته ساهرًا.

فى يوم من أيام الآحاد، تقابلا فى قداس الكنيسة. وكما جرت العادة تجلس النساء فى منتصف الجانب الأيمن من صحن الكنيسة الذى يُسمى "جانب الإنجيل": بينما يجلس الرجال على الجانب الآخر الذى يُسمى: "العقيدة". ويفصل بينهما ممر واسع ومع ذلك فهما يختلطان فى لحظات الدخول والخروج.

كانت فرايزى ترتدى زيًا جميلاً : تغطى شعرها بقبعة مطرزة، تضع زهرة قرنفل على صديريتها، ترتدى نعلاً خشبيًا به فتحات على الجانبين تُظهر جواربها الأرجوانية الملونة بلون عصير التوت البرى البنفسجى. نجح باردو فى اللحاق بها أمام باب الكنيسة، وقدم لها الماء المقدس فرسمت ببطء على صدرها علامة الصليب ثم نظرت له للحظة قبل أن تخفض جفونها.

آه من تلك العيون السوداء الأقحوانية! هكذا اقتفى أثرها مضطرًا إلى المشى بنفس إيقاع قدميها حتى لا تتوه عنه. راح يستنشق الهواء الخارج من رئتيها فاستنشق العبير الذى تركته وراءها يحمل قليلاً من رائحة الفلفل، وهى نفس الرائحة التى سبق وتشممها فى منديلها، والتى صعدت على الفور إلى رأسه. إن الفتيات اللائى كانت له فرصة الاقتراب منهن وسط الزحام كانت تفوح منهن رائحة الحليب الحامض، أو روث الدجاج، بل وأحيانًا السماد. وفى أفضل الأحوال: أعشاب الليمون التى كن يضعنها فى ملابسهن لتحفظها من العثة. أما الآنسة بوتينا فكانت تفوح منها رائحة الفلفل الخفيف، وكانت هذه هى رائحتها الطبيعية.

بعد ذلك ابتعدت ولم يجرؤ هو على ملاحقتها أكثر. كان هناك شاب ينفخ فى البوق ويرتدى غطاء رأس مدببًا، ثم راح يخطب فى الناس قائلاً:

- إن والدى يعمل دكتورًا فى كلية الطب فى "توبينجو" وهو موجود الآن هنا فى فيفيرول. إنه يشفى جميع الأمراض. لقد سبق له وشفى أسقف مدينة كليرمون، وحاكم مدينة ليون، والمفتى الأكبر لمدينة القدس، وكذلك إمبراطور الصين. سوف يطلعكم على خطابات الشكر التى أرسلوا له بها جميعًا عرفانًا وكشهادةً على حنكته. إذا كنتم تعانون من آلام فى الرئتين أو فى الطحال أو فى المثانة والأمعاء، فسوف يقدم لكم جرعة دواء تهدئ من معاناتكم فى ظرف ثلاثة أيام. أما إذا كان الألم فى الرأس أو فى القلب أو فى الكبد، فلمسة من يديه تكفى للتخفيف من آلامكم. إذا كنتم تعانون من أرق فى النوم، سيعيد إليكم النعاس. إذا كنتم تشعرون بالشيخوخة القديمة والوهن، فسيعيد إليكم جزءًا من شبابكم. تعالوا إذًا واطلبوا استشارته فى نزل "لاليس" حيث يوجد فى الوقت الحالى. لن تندموا على ذلك أبدًا.

أعرب باردو عن أسفه لعدم لقائه بصانع المعجزات هذا عندما كانت جدته فى أمس الحاجة إليه. بعد ذلك كانت نفسه تدور ثم تعود إلى التفكير فى ابنة الحانوتى. ظل دائمًا على هذه الحال مهما كانت أفكاره وتأملاته. لم يبعدهما أى تشتت لوقت طويل، مثلما يحدث لإبرة البوصلة عندما تعود دائمًا إلى اتجاه الشمال.

وبالرغم من ذلك فإنه لا يستطيع أن يقضى حياته فى المقابر. فبعد بضعة أيام، أمره أبوه فيليستن بالتوجه لجلب الأخشاب والحطب

من غابة "تاياد". هكذا ذهب وهو يحمل بلطته ومنشاره. ومع ذلك، أثناء عبوره طريق راڤو، من وجد هناك؟ لا أحد غير أوفرايزى تقوم برعى خمس نعجات وأربع عنزات. وكانت جالسة على الجانب الآخر من المنحدر، منهمكة فى نسج خيوط الصوف. عندما رأت هيئة رجل من بعيد يتوقف ثم يقترب ناحيتها، أشهرت آلة غزلها، لتبين أنها ليست بمعزل عن السلاح. فهذه الأداة النسائية يمكنها أن تصبح مروّعة، كما تُثبت واقعة "شاسانى" الواطئة بالقرب من "أرلانك": بعد أن اكتشف قس هذه القرية سوء سلوك العديد من النساء المقيمات هناك، قام بتوبيخهن فى خطبته على المنبر ولكن دون أن يشير إلى أى منهن بالتحديد. وهكذا أبدت عشرات من هؤلاء القرويات السيئات السلوك الرغبة فى الانتقام من القس بسبب ما قاله. تربصن له ذات مساء فى ركن من الغابة وانهلن عليه بأدوات الغزل. هكذا مات الرجل المسكين بينما تمكنت هؤلاء المتوحشات من مواصلة الفسوق.

لم تحتج فرايزى إلى استعمال أداة الغزل فقد تعرفت إلى الشاب باردو مونييه.

صاح باردو من بعيد: أنا ذاهب إلى جمع الأحطاب... هل أستطيع أن ألقى عليك التحية؟

- كما تشاء.

تشجع باردو واقترب منها.

- صباح الخير... يا أوفرايزى.

- صباح النور يا سيد مونييه.

- يمكنك أن تناديني باردو... أنت التى أنقذتنى من الوقوع فى قبر جدتى.

خفضت رأسها، ثم تناولت أداة الغـزل مـن جديـد، ولكـن أصابعها كانت ترتعش قليلاً كما أخذت وجنتاها فى الاحمـرار مـن الخجل. توقفت العنزات عن الرعى وراحت تنظر إليهما بأعينها التى تشبه أعين قدماء المصريين، وكأنها تتساءل ما الذى يحدث. قطـف باردو نباتًا عادةً ما ينمو على حافة هذا الطريق العام، ليزين البرارى المهملة ويطلقون عليه "كارنييه"، ولكن صغار سكان منطقة أوفرنـى يطلقون عليه اسم "بتاريه" حيث يلهون به ويتسلون بانتزاع كبسولاته، ثم يجمعون أطرافها بين ثلاث من أصابعهم ويجعلونها تنفجر تجـاه جبهاتهم، أو تجاه ظهور أيديهم أو على ركبهم. قال باردو لها:

- هل تسمحن لى بالجلوس؟

- كما تشاء.

اتخذ مكانه بالقرب منها على ظهر المنحدر ثم أردف:

- أليس لديك كلب؟

- كلا فهو يأكل كثيرًا من الخبز ولن يتبقى لنا شيء.

- لقد رأيتك فى قداس يوم الأحد الماضى.

- نعم... وقد قدمت لى الماء المقدس.

لقد كانت مجرد لفتة كياسة لا تورط فى أى شيء، مثلما يحيِّى المرء شخصًا يلتقى به مصادفةً. بدأ باردو يفجر كبسولات نبات الكارنييه على جبهته. مرة... اثنين... ثلاثًا... مع كل انفجار، كانت فرايزى تضحك قليلاً. طلب منها إذا ما كانت ترغب فى أن تناوله ظهر يدها اليمنى، فمدت له يدها وهى تقول:

- كما تشاء.

دائمًا نفس الموافقة. أخذ يدها بين يديه فوجدها دافئة ورقيقة برغم المهام القاسية التى تقوم بها. يدها تميل إلى الشكل المربع وأصابعها قصيرة. التحمت راحتا يديهما. انفجرت الكبسولة الأولى. ثم الثانية. ثم الثالثة. ثم لم يعد فى النبات أى كبسولات. بادرت فرايزى بسحب يدها، ولكنه تشبث بها فاستسلمت بينما ظلت أداة الغزل منتظرة على ذراعها الأيسر. ومازالت العنزات تحدِّق بهما مندهشة. سألها من جديد:

- هل يمكننى أن...

- ماذا بعد؟

- أن ألمس ظهر يدك؟

- كما تشاء.

راح يمرر إصبعه السبابة على الخطوط الزرقاء التى توضح عروقها.

قالت له: من يرى عروقه يرى عذاباته.

أجابها: ما أجمل العذابات مع الخبز.

- إن خبز الآخرين يكون دائمًا مملحًا.

- جبن بدون ملح وامرأة بلا عقل سببان قويان للنفور من المنزل.

بعد أن أفرغا ما فى جعبتهما من أمثال، ظلت يد فرايزى اليمنى خاملة لفترة طويلة بين يديه، ثم تركتها له ليملّس عليها من أطراف أصابعها حتى بداية الرسغ.

راحت العنزات تمضغ الأعشاب من جديد، والحملان ترضع من ضروع أمهاتها وهى تهز ذيولها. ظلت الغيوم فى السماء بلا

حراك أمام الشمس. لم يحدث أى شيء آخر غير تلك الدغدغة اللذيذة. وصل إصبع السبابة إلى نقطة محددة يصدر فيها الدم نبضه البسيط. راح باردو يبحث عنه، ساعيًا إليه، حتى وجده وبسرعة، تقريبًا بتلهف وهوس. لم يكن هدوء الفتاة إلا سطحيًا، متناقضًا مع ما يعتمل داخلها من اضطراب. أمسك باردو برسغها ورفعه إلى شفتيه، وطبع على مكان نبضها قبلة طويلة جدًا، بها إصرار، كما لو كان يتمنى أن ينقله إلى قلبه. وأخيرًا، راح يمرر شفتيه ذهابًا وعودة، متأخرًا عند راحة اليد، عند كلٍ من ثناياه، عدة مرات، وكأنه يفرش قبلاته وينشرها على اليد بأكملها. تركته فرايزى يفعل كل ما يحلو له، دون أن تظهر أى تضايق أو سرور.

بعد ذلك، وقد تعبا من الجلوس، تمددا على العشب، وأيديهما متشابكة.

قال لها: أنا عمرى ثمانية عشر عامًا.

- وأنا أيضًا.

سادهما سلام تام. هدأ تدفق الدم فى معصم الفتاة راعية الأغنام شيئًا فشيئًا. لم يكن لديهما شيء يفعلانه إلا سماع أنفاسهما، ومشاهدة العصافير تصعد عاليًا فى السماء وهى تزقزق، دون أن يفصحا بالكامل عما يجول فى خواطرهما:

- يسوع المسيح! إلا هــذا... يــسوع المــسيح! إلا هــذا...

وقفت دعسوقة خنفساء صغيرة على يد فرايــزى الأخــرى، التــى أسقطت أداة الغزل. رفعتها فرايزى حتى مــستوى عينيهــا، وبــدت وكأنها تتحدث إليها فقد كانت شفاهها تتحرك بشكل طفيف ثم نفخــت برقة فرفعت الحشرة أجنحتها الداخلية الحمراء التى تملؤهــا الــنقط السوداء، وانتصبت أجنحتها الحريرية ثم طارت محلقة لأعلى. سألها باردو:

- ماذا قلت لها؟

- حملتها رسالة لتوصلها إلى اللــه.

- هل يمكن أن أعرفها؟

- إنه سر بينى وبينها.

(٩)

منذ ذلك اليوم وباردو يسعى دائمًا وراء كل فرصة أو مناسبة ليلتقي بابنة الحانوتي. في المدافن، في الكنيسة، في المواكب الدينية، في الأماكن العامة، وعلى الطرقات. تبعًا للظروف، كانا يلتقيان لبضع ثوان، أثناء تلاوة الصلاة أو في القداس. كانا بالكاد يتحدثان معًا. كانت ترفع عينيها تجاهه وتبتسم له.

تجرأ أخيرًا على تقبيل تلك الابتسامة... على نحو أخرق، أو بطريقة غير صحيحة. أما المرة الثانية فكانت أكثر نجاحًا.

وفي يوم من الأيام، عند حدود الغابة، شاهدا معًا زوجًا من السناجب منشغلين في التضاجع. انفجرا بالضحك وهما يخبآن فميهما بأيديهما، بصمت، حتى لا يزعجاهما. ولكن فيما بينهما لم تصل الأمور إلى أبعد من ذلك.

في يوم آخر، وبينما كانا يقومان بجمع حبات الفراولة البرية معًا، وقد تلونت أصابعهما بلون العصير الناضح منها، ظهر فجأة من ورائهما أبوها الحانوتي بوتينا، يسند ساقه المعاقة بعصاه.

– ما الذى تفعله هنا مع ابنتى؟ صاح فى باردو وهو يرفع عصاه المتعرجة.

– إننا... نقوم بجمع حبات الفراولة البرية.

– حبات الفراولة البرية! تستطيع هى جمعها بمفردها... فهى ليست بحاجة إليك! فلتغرب عن هنا فورًا! عد إلى أجراسك! تدخلت الابنة قائلة : لم يحدث شىء كريه يا أبى... إن باردو شاب صادق.

– أنت تنظرين لأعلى أكثر من اللازم يا ابنتى. إنه غنى جدًا بالنسبة لك. من ينظر إلى العلاء ينكسر عنقه. والآن أنا أرفض أن يرافقك فى رعى غنمك مهما كانت الأسباب. أفهمت؟ ثم رفع الأب نبُوته إلى أعلى بشكل عدوانى دون أن يُنزله على ابنته، فتراجع باردو إلى الوراء وهو يهتف: لن تمنعنا عن شىء! لن تمنعنا عن شيء!

هكذا غادر باردو وهو يجرى وقطع الحجارة التى راح الحانوتى يقذفه بها تتدحرج بين أقدامه.

بالفعل لم يمنعهما من شىء فقد ظلا يلتقيان رغم كل شىء، وفى أماكن لا يمكن السيطرة عليها أو مراقبتها مثل: السوق، عند النافورة، عند الفرن العمومى. كانا يتبادلان التحية، والنظرات، وابتسامات حذرة، وتلامس الأيادى. كل هذا كان بمثابة لمسات حانية رقيقة تبهج وتُنعش آمالهما.

من جانبه، علم بيير مونييه بمغامرات ابنه. هو أيضًا كان يرى استحالة زواج صانع أجراس من ابنة حانوتى. ولكن بدلاً من اللجوء إلى تهديد ابنه، فكر بأنه أفضل وسيلة لعلاج باردو من حالة الحب هذه هى إبعاده لفترة من الوقت. فالبعيد عن العين، بعيد عن القلب. ينسى المرء كل ما يؤلمه بطرحه بعيدًا عنه خلال ترحاله.

- أريدك يا بنى أن تقوم بجولة إلى جميع أنحاء فرنسا... فهذا أمر ضرورى من أجل أن تكتسب مهارات جيدة وخبرات جديدة. عليك أن تهتم بالعمل فى المعادن، عليك أيضًا الاهتمام بالمهن الأخرى، وفقًا للفرص والمناسبات. حيث لا يكفينا العمل فى صهر البرونز، ولكن لابد أن نعمل أيضًا فى بعض الأحيان كنجارى الأسقف الخشبية وحدادين وعمال البناء وقاطعى حجارة. لذلك أنصحك يا بنى، أن تذهب لمقابلة أفضل الحرفيين من المملكة، أن تشاهدهم وهم يعملون، كما فعل إمبراطور روسيا عندنا، أن يختاروك للعمل لديهم، وأن تتعلم أسرار مهنهم. سيتحتم عليك إخفاء كونك ابن رب العمل وقائد أعمال المستقبل. عليك أن تصبح فقط عاملاً بسيطًا. وحتى إذا سنحت لك الفرصة، لا تتردد فى تكوين صداقات أو الاشتراك فى جماعات العمل.

فى البداية ظل باردو مندهشًا من هذا الاقتراح، ولكن والده أظهر له أنها فرصة يمنحها له كى يصقل من نفسه ويتعرف على العالم من حوله.

في صباح اليوم التالي، في الكنيسة، حيث سنحت لهما الفرصة أن يلتقيا، أسفل تمثال القديسة مادلين، صارح باردو أوفرايزي برغبات أبيه:

– هل ستكونين قادرة على انتظاري سنة، وربما أكثر؟

– بل سأنتظرك عشر سنوات، أو عشرين سنة إذا ما لزم الأمر.

– وإذا ما حدث وفكر والدك في زواجك من رجل آخر أثناء غيابي؟

– أفضل الموت على ذلك!

أعد فيليستن جرابًا كبيرًا مصنوعًا من الجلد لحمل ما يلزم ابنه. نشر أمامه خريطة للمملكة على مخطوطة، تم طبعها في مدينة ليون. لونت فيها البحار والأنهار والبحيرات باللون الأزرق؛ وحُددت المناطق الجبلية بخطوط بنية غامقة، بينما المدن الكبيرة والصغيرة باللون الأحمر، وهي عديدة كما لو كانت فقاعات من الزيت على سطح طبق من المرق الدسم. راح يرسم لابنه باللون الأسود خط السير الذي يريده أن يسلكه أثناء رحلته. لم يكن المسار يتخطى أعلى حدود منطقة لالوار، أما النصف العلوي من البلاد فقد خصصه لرحلة أخرى محتملة في المستقبل.

- لن تكون هذه إلا نصف جولة فى مملكة فرنسا. سوف تتنقل، وفقًا للظروف، سواء سيرًا على الأقدام، أو على ظهر الخيل، أو بحرًا فى مركب، أو برًا على عربة. ولتعد إلى هنا خلال عام، مثل هذا اليوم بالتمام، والذى سيوافق الثانى والعشرين من شهر مارس عام ١٧٠٥.

وقدم له حزامًا يوضع على بطنه مباشرة، به جيوب عديدة ملأها فيليستن بعملات نقدية ذهبية، فضية وبرونزية، وأوصاه أن لا يمسها إلا فى أضيق الحدود، أو أن يستعيد ما يأخذه منها مما سوف يربحه من أموال.

- إذا عُدت بنقود أكثر من التى غادرت بها فأنت بالفعل جدير بخلافتى.

وألبسه حذاءً ذا رقبة ثلاثى النعل، وغطاه بمعطف ذى غطاء للرأس وجاءه بقبعة جديدة من صنع "فوريللون"، صانع قبعات فى بلدة أمبرت، هكذا كان مطبوعًا على البطانة الداخلية. وزوده أيضًا بمؤن غذائية كافية لأيام عديدة، كما سلحه بمسدس جيب ذى مقبض قصير وماسورة طلقات مزدوجة.

- أبقه دئمًا محشوًا، فى مكان جاف وقريب من متناول يديك، وعليك فقط أن تجذب الزناد، فهو أداة يمكنها أن تفيدك.

أمام كل هذه التحضيرات، راحت أمه فرانسواز تبكي في هدوء. أوصته أن يكتب لها كلما مر أمام مكتب بريد، وأن يتلو كل ليلة قبل أن ينام صلاة "السلام لك يا مريم" وصلاة "أبانا الذى فى السماوات". بعد ذلك جاءت لحظة الوداع: قبّله جميع أفراد الأسرة وهم مفتوحو الأذرع، ثم تركوه لينطلق فى طريقه.

مر أمام منزل بوتينا، فلمح فرايزى واقفة وراء النافذة بلا حراك وقد التصق أنفها فى الزجاج. لوَّح لها بذراعه يودعها، ووجد أباها واقفًا أمام الباب وهو يشهر له عصاه. كان ذلك اليوم هو الموافق الثانى والعشرين من شهر مارس ١٧٠٤، أحد أيام الربيع وكانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا. سطعت الشمس فوق المروج الشاسعة.

كان يضع قدمه اليمنى أمام اليسرى ثم اليسرى أمام اليمنى، ويكرر ذلك ربما لتسعة آلاف أو عشرة آلاف مرة فى اليوم، وهكذا بدأ خط السير الذى رسمه له أبوه بالقلم الرصاص على الخريطة. اخترق فى البداية بحيرة لاليجون حتى وصل إلى قناة جاريس التى قادته إلى لاجا، ثم إلى أمبرت. وهى منطقة تشتهر بالطواحين الورقية حيث يرى المرء عجلاتها التى تماثل طواحين الدقيق، ولكن الطقطقة التى تُحدثها أثناء دورانها تجعلها تبدو وكأنها تغنى "تيك! تاك! توك"! وحيث إن لا علاقة له بموضوع الطواحين، فقد مر باردو مبتعدًا فى تجاه مدينة "تييرس".

ومن هناك، بدأت رحلته سيرًا على الأقدام على النحو التـــالى: ينام فى المزارع التى يمر عليها، بعد أن يوضح لأصحابها شخصيته، ومن أين هو آتٍ، وإلى أين هو ذاهب. وبما أنه كان يبـــدو ذا هيئـــة ووجه طيب، وحسن السلوك، كانوا يتركونه عن طيب خـــاطر ينـــام على فرشة من القش فى مخزن الغلال، بل وأحيانًا فى سرير داخـــل المنزل. علاوة على ذلك، كان يشارك مضيفيه الطعام مـــن حـــساء وخبز وجبن. وفى صباح اليوم التالى، كان يطلب منهم أن يسمحوا له بالقيام ببعض الأعمال لديهم مقابل الطعام والمسكن. فكانوا يطلبـــون منه أن يقوم بتقطيع الأشجار، وتقسيم جذوعها، وحمل الحجارة. بعـــد ذلك كان يقوم بغسل يديه ثم يمضى إلى حال سبيله. عبر نهر لادور إلى بلدة كوربيير على قارب مسطح، وذلك بسبب عدم وجود جـــسر، مقابل رسوم قدرها ستة فرنكات فرنسية قديمة، ثم عبر جسرًا شـــبه متهالك فوق نهر دورول، ويُسمى جسر سيشال مصنوعًا من ألـــواح خشبية تم استحضارها من أبواب المدينة... مدينة تييرس التى وصلها باردو، وتُعد أكبر مدينة صناعية وأكثرها كثافة سكانية وحركة فـــى مقاطعة أوفرنى بأكملها.

تُصنع بها أوراق الكتابة وأوراق اللعـــب وســـكاكين المائـــدة وسكاكين الجيب ومطاوٍ لسن أقلام الريش التى يكتبون بهـــا وشـــوك طعام، ومقصات وشفرات حلاقة وألف نوع مـــن العاديـــات وأدوات

المنزل المعدنية. كانت جميع هذه الأدوات تُباع بأسعار زهيدة، مما يبرر طريقة صنعها. فبدلاً من أن تُصنع بالكامل على السندان المعدني الضخم، مثل صناع السكاكين في الريف، كان أهالي مدينة تييرس يكتفي كل منهم بتصنيع جزء واحد فقط من المنتج: فالأول يقوم بسن الشفرات، والثاني ينقعها في الماء، والثالث يقوم بحدها، والرابع يصقلها والخامس يقوم بتصنيع قالب الجانبين، والسادس يُشكل الحلقات، والسابع يقوم بتجميع كل هذه الأجزاء معًا... إلخ. هكذا كانت كل سكين تمر في مراحل التصنيع على ثمانية عشر زوجًا من الأيدي قبل أن تأخذ شكلها الأخير. فمنذ حوالي قرن من الزمان وهؤلاء العمال يشتغلون في الحديد الصلب والنحاس وقرون الحيوانات وهو ما توجب تسميته فيما بعد بـ"تقسيم العمل". هكذا أصبح جميع أفراد الأسرة أيدي عاملة هم أيضًا: من نساء إلى أطفال إلى أجداد يعملون بهمّة، وفقًا لإمكانياتهم، مع الأب الذي هو رب الأسرة. وفي ورش التصنيع المتناهية الصغر هذه، والتي كانوا يطلقون عليها "متاجرهم"، أولاهم باردو حواسه كلها: عيونه وآذانه وحتى فتحات أنفه حتى يتعلم مهنهم. لهذا كانت المدينة تفوح منها رائحة الزيت المطهو، والقرون المحترقة، وروث الخيل ونبيذ البراميل. اعتاد الرجال أن يغنوا أثناء عملهم باللهجة المحلية لمدينة تيير والتي لا يفهم سكان قرية فيفيرول إلا نصفها. لقد كان هؤلاء

الناس الفقراء فى أمس الحاجة إلى أن يُدخلوا البهجة على أنفسهم، حيث ينخرطون فى العمل لمدة خمس عشرة ساعة فى اليوم فى مقابل الحصول على ثلاثة أرطال من الخبز. وبالرغم من ذلك فقد استقبلوا باردو بسخاء ولقبوه "الشاب الطيب" عندما علموا بالمحنة التى يمر بها، وبالفعل قاموا بتقديم الطعام والشراب له، كما ملأوا جيوبه بالسكاكين. قال له أحد الرجال وقد اسودّت يداه ووجهه من العمل: عندما تصل إلى ضواحى مدينة أورليانز،: أنصحك بأخذ قارب لتعبر به إلى بلدة ليمون. فهذا هو الطريق الذى تُنقل به أدوات المنزل المعدنية إلى باريس.

وهذا هو ما قام به باردو. فعند المصب الذى يلتقى فيه نهرا لادور وألنييه، وجد باردو مجموعة من القوارب الراسية والصنادل عند مرفأ الضفة. مصنوعة من خشب أشجار التنوب العالية والتى يبلغ ارتفاعها اثنتى عشرة قامة، وبالتالى بإمكانها حمل ألف قنطار من البضائع. وبحساب بسيط يستطيع القارب البالغ طوله ثمانى قامات حمل ثلاثمائة قنطار؛ والصندل البالغ طوله خمس قامات حمل مائتى قنطار؛ والصندل الصغير البالغ طوله أربع قامات حمل عشرين قنطارًا. لقد تم بناء نسختين متطابقتين من كل قارب، من أشجار التنوب التى تم استقطاعها من منطقة دير شيس - ديو. لم يُستخدم فى بنائها قطعة حديدة ولا حتى مسمار واحد. بل تم وصل أجزائها بأوتاد من خشب البلوط.

تأخذ كل مركب شكلاً مستطيلاً طويلاً تكون مقدمته منخفضة وعريضة ومنحنية، ثم ترتفع. يُحف الجزء المقوس في المقدمة بالعديد من هذه الأوتاد لامتصاص تأثير الصدمات. أما مؤخرة المركب فتكون عريضة ومربعة لتلقى دفعات التيارات المائية. في الوسط، تقع قلعة طاقم المركب: كوخ بسيط من الألواح الخشبية يعلوها صليب يمثل المسيح مصلوبًا ورسمة للقديس نيقولا، شفيع البحارة. يفترش القش الأرضية الداخلية للكوخ من أجل النوم عليه، وبعض الأطعمة: لحم الخنزير المقدد المملح، بعض النبيذ والزيت والخبز. أمام الباب، صندوق مليء بالرمال يُستخدم كفرن، بينما تتصاعد أبخرة الحساء من الوعاء المعلق بواسطة ثلاثة قواطيع على شكل مثلث.

إن هذه المراكب هي ممتلكات "صاحب المراكب" المستقر على البر، بينما يبحر الأسطول بأوامر من اللواء البحري، والذي كان يتولى مسئولية المراكب والممتلكات.

التقى باردو مع رجل يُدعى جوتان، أبدى استعداده لقبول باردو على متن مركبه مجانًا، على شرط أن يساعده في مناورات المركب وأن يخضع لأوامره. لقد كانت مراكبه هذه المصنوعة من أشجار التنوب تقوم بنقل بالات من الورق وحزم من أدوات المائدة إلى مدينة تييرس. ملأت الحمولة بأكملها اثنتى عشرة قاربًا باستثناء

ثلاث، الأصغر حجمًا والأقصر غاطسًا، ظلت فارغة في ذيل الأسطول، وقد خُصصت لشحنهم بجزء من البضائع في المياه الضحلة. عندما جاءت اللحظة المناسبة، أبحر الأسطول مبتعدًا عن ميناء ليمون. تقدم جوتان إلى المقدمة ووقف على المنصة، ليتعرف على مسار النهر، ويقيس مدى عمقه عن طريق أثقال خشبية يرمى بها البحارة إلى قاع النهر لتوضح لهم المسارات الصحيحة التى يجب اتباعها. ثم يلتفت خلفه ملقيًا بأوامره، بلهجة عامية، يكررها البحارة إلى المركب التى وراءهم وهكذا حتى آخر قارب. - "المتجه إلى مقاطعة بورجونى، فليلزم الضفة اليمنى! المتجه إلى فرنسا، يلزم اتجاه اليسار..." وفى كثير من الأحيان، كانت هتافات تحية تأتيهم من الشاطئ قائلة: - رحلة سعيدة!... فليحفظكم الله!... تحياتنا إلى عاهرات باريس!

فى نهاية اليوم، كان من الضرورى إيقاف المركب "برمى المخطاف"، حيث تحظر اللوائح الإبحار ليلاً. بعدها يقومون بطهو الحساء ووضع الخيوط لصيد الأسماك. ثم يتولى أحدهم مهمة الخفير لكى يسهر حارسًا باقى أفراد الطاقم أثناء نومهم على القش. فى صباح اليوم التالى، ما إن يشقشق الفجر حتى يبحروا من جديد. وعند مرورهم بجسر "الإحسان"، كادت شدة تيار النهر القوى أن تعصف بالمراكب ناحية أقدام الجسر.

- فى هذه المنطقة، سبق لى أن تعرضت سفنى للغرق أربع مرات وغرق ثلاثة أشخاص وفقدنا الكثير من البضائع. كان عليهم الإمساك بزمام الأمور وبكل ما يستطيعونه من قوة القواطيع الخشبية لتجنب هذه العوائق.

أحيانًا وأثناء إبحارهم كانوا يلتقون ببعض المراكب العائدة، يجذبها الناقلون من على الشاطئ، وقد التف حبل حول صدر كل منهم، فقد كان عليهم الإبحار بالقرب من شاطئ النهر لكى يفسحوا طريقًا لمرور المراكب المبحرة فى الاتجاه الآخر. وفى أحيان أخرى، كانت هناك معدّيات تعوزها القدرة على المناورة. فكان هذا يسبب مهاترات كبيرة ترتفع خلالها وصلات من السب والصراخ والشتائم. بعض هذه الشتائم كانت موجهة فى كثير من الأحيان إلى بحارة منطقة أوفرنى: الأغبياء الحمر! الأغبياء الحمر! هل كانوا حقًا أكثر غباءً من غيرهم؟ ولكن بالتأكيد لونهم أحمر، بسبب بشرتهم المحمرة مثل الطوب، وأنوفهم أيضًا، ويرجع هذا إلى زجاجات النبيذ التى يفرغونها عن آخرها خلال رحلة العودة. كان لديهم تقليد مُتبع أثناء عودتهم من باريس، وهو التوقف للراحة عند كل نزل وشرب الخمر بجزء كبير من المال الذى كسبوه خلال رحلة الذهاب. بعد ذلك ينتهى بهم الأمر بأن يذهب كل منهم فى طريقه. هكذا يستأنف أسطول الصنادل رحلته وعليه الحمولة المكونة من أدوات المائدة

والورقيات. أخذ البحار جوتان يبوح ببعض ذكرياته للراكب الذى يرافقه، باردو:

- فى مهنتنا هذه لابد وأن نتحد لنعمل معًا كأصابع اليد الخمس. فالفرد للجميع والجميع للفرد، هكذا يقول المثل. سأحكى لك حكاية هى خير مثال على ذلك: فى بداية حياتى المهنية، كان يعمل معى بحار مؤقت، ولكنه كان أصلاً يعيش فى الجبل. كان فظًا فى تصرفاته وقبيح الشكل كما لو كان خنزيرًا وحشيًا ذا أسنان طويلة، ولم يكن يغتسل أبدًا إلا عندما يسقط فى الماء.

أثناء عبورنا غابة "مارلوت"، وقد اعتدنا أن نضع مجموعة من الفخاخ لاصطياد الفرائس البرية مما كان يسمح لنا بالتنويع فى الطعام. فى نهاية اليوم، عندما يقترب حلول الظلام ولا يبقى كثير من ضوء النهار، كنا نرسو بالمركب عند الضفة. ينزل إلى الشاطئ اثنان أو ثلاثة رجال ليجمعوا الفرائس الواقعة فى الشراك ثم ينصبوا الفخاخ من جديد ثم يعودوا إلى المركب ومعهم الغنائم سواء من أرانب جبلية أو أى حيوان برى من حيوانات الغابة. وهكذا، كانت الاحتياطات التى يتخذها البعض تنفع من يليهم. وحدث أن صادف البحار الفظ الآتى من الجبل فى طريقه فريسة ثمينة: جديًا صغيرًا واقع فى شباك الفخ وقد راح يناضل محاولاً التملص، ولم يكن قد اختنق بعد. استل البحار سكينه وراح يذبح الجدى بطريقة محكمة.

ولكن فجأة، ترى مـن ظهـر وراءه؟ أحـد حـراس الغابـة المسئولون عن منع الصيد وقد وضع يده على كتفه للقـبض عليـه. استدار البحار الفظ وهو مازال يمسك فى يده النصل الحاد فلم يتـردد وبادر بذبح الحارس بنفس الحركة التى قتل بهـا الجـدى، فتهـاوى ساقطًا كما لو كان خنزيرًا. انتابت البحار حالة من الذعر والخـوف، فترك ضحيتيه فى مكانهما وهرع عائدًا ناحيتنا ليحكى لنا ما قام بـه. أطفأنا المصابيح ورفعنا المخطاف ثـم غادرنـا المكـان مبحـرين على الفور.

ناضلنا كيفما اتفق، ورحنا نجدف بأذرعنا رغم حظر الإبحـار ليلاً، وذلك حتى نستطيع قطع أكبر مسافة ممكنة قبل بزوغ الفجر. ما إن ارتفعت الشمس، لم نبطئ من التجديف بـل ظللنـا علـى نفـس السرعة. هكذا وعلى نفس المنوال حتى هبوط ظلام اليوم التالى كنـا قد ابتعدنا بما فيه الكفاية عن غابة مارلوت بشكل لا يمكن لأحـد أن يشك بنا. لدى وصولنا إلى باريس، دفعت للبحار راتبه، ولكنه لم يعد بعد تلك اللحظة بحارًا فى أى طـاقم مـن أطقـم البحـارة التابعـة لأسطولى. وهكذا تعلم باردو كيف يكون التعـاون والتـضامن بـين الأفراد. وصولاً إلى مدينة "بريار" حيث منبع القناة التى ينبغى علـى رئيس البحارة جوتان ومراكبه المصنوعة من أشجار التنوب الإبحار بها حتى يصلوا إلى نهر السين، ومن ثم يصلون بعد ذلك إلى مرفـأ سانت سابين دى باريس.

- إن الذى يضايق فى هذه القناة هو عـــدم وجـــود تيـــارات. بعض القوارب تربط بعضها ببعض لتجرها الثيران من على الـــشط. ولكننا نفضل التجديف فهو لا يكلف شيئا.

لقد قرر جوتان أن يتخلص من ثلاثة صنادل لم تـــستخدم، وأن يبيعها بثمن أخشابها المجردة. مما يجعل أسطوله ينخفض من اثنتـــى عشرة إلى تسع وحدات. وفى الوقت نفسه، أنهى خدمة ثلاثة رجال لم يعد فى حاجة إليهم، بالطبع بعد أن دفع لهم مستحقاتهم المالية. هكـــذا عاد هؤلاء البحارة الثلاثة أدراجهم إلى منطقـــة أوفرنـــى، يحملـــون حقائبهم الجلدية ذات الأحزمة المتدلية بينما مطارقهم وأدواتهم معلقـــة على أكتافهم، وهم يرددون مقطع أغنية كاذب شيئًا ما:

"ها نحن عائدون من باريس

ترا لا لا لا لر

لكم شربنا وضحكنا وأكلنا لحية التيس (نوع من الخضروات)

يا له من طعام لذيذ، لذيذ، لذيذ!

ها نحن عائدون إلى باريس

ترا لا لا لا لر".

قال له باردو مونييه الشاب: فى القريب العاجل سوف تنتهـــى همومك.

- تنتهى همومى! فى باريس سوف تصبح أكثر من ذى قبل. سيتحتم علىّ أن أجد مشترين لبضائعى من أدوات المائدة والورقيات. وأن أبيع خشب التنوب المصنوع منه الصنادل. بعدها فقط سأستطيع دفع أجور رجالى. قد يستغرق منا ذلك حوالى أسبوعين.

- وما الذى يفعله رجالك فى هذه الأثناء؟

- يخلدون للراحة فى الميادين، ثم يعودون للأكل على سطح المراكب. ولقتل الملل يذهبون إلى المسارح، ويعملون كمصفقين هناك، وحيث إن أيديهم ضخمة وقوية كالمضارب، فهذا يسمح لهم، ليس فقط بمشاهدة العروض مجانًا، ولكنهم أيضًا يكسبون بضعة فرنكات. ولكن فى النهاية، يسعد الجميع للغاية بالعودة إلى ديارهم.

وبما أن باردو قد عهد على نفسه الالتزام بالخريطة التى رسم له والده فيها مساره بالقلم الرصاص، قرر مغادرة صنادل خشب التنوب فى بلدة بريار واستكمال طريقه إلى أورليانز. حذره جوتان قائلاً:

- إن أورليانز منطقة ينتشر بها العنف، حيث طائفة البروتستانت وطائفة الكاثوليك يتقاتلون فيما بينهم. إنهم حقًا رفقاء السوء. فى عام من الأعوام شارك واعظو البروتستانت فى إشعال النار فى الكاتدرائية.

- ولكن هذه المدينة موجودة فى المسار المُخطط لى.

- إذن حاول ألا تبقى بها وقتًا طويلاً.

هكذا افترقا عند مدخل القناة، ووقف الشاب باردو مونييه يراقب بوحشة ابتعاد الأسطول التابع لمنطقة أوفرني، بينما راح أفراد الطاقم يودعونه بتلويحات كبيرة بأذرعتهم وبمجاديفهم. واصل باردو طريقه سيرًا على الأقدام، متتبعًا الدرب المحاذى للضفة، حيث يؤمن له مجرى نهر لالوار الوصول إلى أورليانز. بدت الحركة على النهر لا تهدأ بالمرة، فهو يعج على الدوام بالقوارب. بعضهم يبحر صاعدًا النهر إما بفضل الأشرعة المواتية لاتجاه الريح، أو باستخدام المجاديف. البعض الآخر كان يبحر فى الاتجاه المعاكس، ودائمًا يجرون الأخشاب العائمة التى تعوق طريق الملاحة وهى مؤلفة من جذوع أشجار مربوطة معًا بحبال مصنوعة من أفرع أشجار الصنوبر التى تنمو فى منطقة دير شيس - ديو، أو منطقة مارجيريد وهى فى طريقها إلى مدينة سان نازار وإلى البحرية الملكية.

وصل باردو إلى أورليانز وأمضى ليلته فى نزل "إتاب". ولكن على الرغم من بحثه، لم يجد فى هذه المدينة أى صناعة معادن. نصحه الأهالى بالذهاب إلى بلدة آمبواز التى اشتهرت بتصنيع الأدوات الحادة، وهى تقع على بعد خمسة وعشرين فرسخًا. كانت هناك خدمة عربات تقوم بنقل الأفراد إلى هذه البلدة يوم الأربعاء من كل أسبوع. وكان السعر للفرد، بما فى ذلك الطعام: ثمانية جنيهات

وعشرة قروش. بدا له المبلغ باهظًا ولهذا فكر جديًا في قطع هذه المسافة على الأقدام فهى لا تخيفه، وسينهيها في غضون يومين. هكذا بدأ رحلته بخطوة نشطة، دائمًا بحذاء النهر. بعد بضع ساعات مرت دون أية أحداث، التقى باردو بأحد المارين يحمل حقيبة ضخمة على ظهره، لونها أخضر يزينه شعار أحمر في قمته صليب أبيض صغير. تعلو الحقيبة طبلة صغيرة. - أنا من منطقة سافوى وأمارس مهنة عرض الفانوس السحرى... إن أهالى منطقة برتانى يطلقون علىّ "المشاكس".

- وهل هذا هو لقب عائلتك؟

- كلا... بل إنه اختصار لاسم مهنتى. فمنذ أكثر من عشرين عامًا وأنا أجوب الطرق في إيطاليا وسويسرا وفرنسا. أستطيع أن أقدم لك العرض الذى أقوم به إذا كان ذلك يثير اهتمامك. هل سبق لك أن حضرت عرضًا فنيًا؟

أجابه باردو بالنفى، وبأنه سيكون سعيدًا جدًا لرؤية ذلك. بعد قليل وصلا إلى بلدة "كليرى". أخذ الرجل يبحث عن حظيرة، حتى وجد واحدة دون مشقة كبيرة. بعد ذلك راح يجرى في بلدة "كليرى" بطولها وعرضها، وهو يدق على طبلته وينادى على الأهالى هاتفًا:

- يا أهالى "كليرى"! إن الاحترام القومى الذى تتمتع به بلدتكم، وكل ما نعرفه عن صفاتكم الحميدة التى ذاعت فى المملكة بأثرها دفعتنى بأن آتى إليكم خصيصًا من منطقة ساقوى البعيدة لكى أتشرف بمعرفتكم.

"هذا المساء، وما إن يحل الظلام، تعالوا إلى حظيرة السيد بورداى الموجودة خلف الكنيسة لحضور عرض كبير للفانوس السحرى. سوف ترون العالم بقاراته الخمس، وجانبى القمر. أولاً سوف تكتشفون عليه مخلوقات خرافية ستظهر لكم كما لو كانت حقيقية، مع شرح تفصيلى لكل صفاتها.

ثانيًا، سوف تسمعون وترون ذلك الرحالة اليونانى العظيم الذى، وبعد أن خاض معارك طروادة فى آسيا، صادف أهوال العالم بأجمعها كى يتمكن من العودة إلى وطنه، وهناك بعد غيابه الطويل، لم يتعرف إليه أحد سوى كلبه. ولكى تستطيعوا حضور كل هذا العرض، الذى يقدمه لكم العبد لله، فلن يكلفكم ذلك سوى نصف قرش لكل فرد بالغ، وثلاثة ملاليم لكل طفل. ولتجلبوا مقاعدكم معكم. فى الساعة المحددة، علق "المشاكس" قطعة قماش بيضاء كبيرة على الحائط الموجود فى نهاية الحظيرة، ثم وضع فانوسه على برميل فارغ، ووضع بالقرب منه صندوقًا يحتوى على قطع من الزجاج الملون، قام بصبغها يدويًا رجل متخصص من مدينة تورين. أشعل

المصباح الزيتى فراح دخانه يتصاعد فارًا من خلال مدخنة صغيرة، ثم أخذ يضبط الصورة وينتظر الزبائن الذين لم يتأخروا، بل راحــون يتوافدوا وكلٌ منهم يحمل مقعدًا أو كرسيًا خشبيًا صغيرًا بدون ظهر، حتى إنهم بدوا من بعيد وكأنهم قطيع مـــن المواشـــى لهـــا قـــرون. استقر كلٌ منهم فى مكانه حول الحاوى، ومن لم يكن له مقعد اكتفـــى بالوقوف، أو جلس على بالات القش. مر "المشاكس" بين الحـــضور وهو يمسك بين يديه بكيس نقود جلدى مفتوح، وراح يتنقل من واحد إلى آخر ليجمع أنصاف القروش أو أرباعها. بعد ذلك أغلق الأبـــواب وبدأ العرض.

على قطعة القماش البيضاء، شاهدوا أولاً حيوانات ملونة متنوعة من التى تعيش فى مختلف القارات الخمس من العالم : الفيلـــة والجمـــال والنمور والدببة القطبية والجاموس البرى، والكنغر، والثيـــران... إلـــخ. يصاحب كل ذلك تعليق صوتى من "المشاكس" وسط صيحات الدهـــشة والإعجاب التى راح المتفرجون يطلقونها "أوه!" "ياه!"

بعد ذلك جاءت قصة اليونانى أوديسوس الذى غـــادر بـــلاده ليشارك فى الحرب ضد طروادة من داخل بطن حصان خشبى، ثـــم عاد بعد فترة طويلة جدًا صادف خلالها مغامرات طويلـــة وعجيبـــة. كان العرض رائعًا وشيقًا لدرجة أن أهالى كليرى لم يصدقوا أعيـــنهم ولا آذانهم.

عندما أعلن "المشاكس" نهاية العـرض، أخـذ العديـد مـن المتفرجين يطالبون باحتجاج قائلين:

- والقمر؟ نحن لم نر بعد جانبي القمر!

أزلق الرجل "المشاكس" قطعة زجـاج جديـدة فـي فانوسـه السحرى. فماذا رأوا؟ امرأة عارية من الخلف، تميل إلى الأمام قليلاً، لتظهر مؤخرتها الكبيرة، التى فى الواقع تتكون من نصفى دائـرتين تشبهان نصفى الكرة الأرضية. ضـج الجميـع بالـضحك وراحـوا يصفقون للحاوى. اختتم الرجل العرض بكلمة أخيرة، يـشكر فيهـا الحضور لمجيئهم، ويؤكد أن زيارته العابرة لبلـدة كليـرى سـتظل ذكرى نفيسة سيحتفظ بها فى مخيلته. ظل باردو مرافقًا له يومًا آخر، وبعدها اختلف طريق كلٍ منهما، وواصل باردو طريقه متجهًـا إلـى مدينة آمبواز.

(١٠)

ظهرت المدينة الصغيرة منعكسة على صفحة مياه نهر لالوار، ويتوّجها قصر رائع منتصب يحيط به سور ذو بواكٍ. لم يلتفت باردو للطرز المعمارية واتجه فورًا إلى ورشة سن الأدوات الحادة ليقدم نفسه هناك. كان يعمل بها حوالى مائة شخص. وافق أرباب العمل على انضمامه إلى العمل معهم، ولكن كان عليه أولاً الحصول على موافقة رفاقه، وعلى الأخص توماس جويمون أقدمهم فى المهنة. كان رجلاً طويل القامة، له لحية وحاجبان بلون الفحم ويضع فى أذنه اليمنى حلية صغيرة تتدلى منها حلقة. أوضح له رب العمل رغبة باردو، الشاب القادم من أوفرنى، فى الانضمام إلى العمل معهم.

رد توماس، أقدم العمال: نحن لا نرغب هنا فى غرباء. فسر له رب العمل: بمعنى أننا لا نرغب فى عمال مستقلين من خارج الطائفة. أنا على استعداد أن أصبح من الطائفة وأحصل على الزمالة.

انفجر توماس بالضحك، فكشفت لحيته السوداء عن صفين من الأسنان البيضاء الشرسة. هل تعتقد أن النية وحدها تكفى؟ لابد وأن تُظهر لنا قدراتك أولاً. ما هى مهنتك؟

- أنا عامل فى ورشة صهر أجراس.

- هل يمكنك أن ترينا أهم عمل لك؟

قال المعلم: أرى أن ذلك شيء صعب فكيف سيحمل لنا جرسًا؟ ولكن على الأقل يستطيع أن يرسم لنا نموذجًا بأبعاده. أتقبل يا توماس نموذجًا بمثابة قمة أعماله؟

- سوف يبت المجلس فى الأمر. فليأتِ هذا المساء إلى المقر المركزى، فى حوالى الساعة الثامنة، فى نزل "دو هيرون"، على رصيف زهور البنفسج. إذا لم يكن لديك مسكن فسوف يوفر لك النزل غرفة. بعدها تصعد إلى الطابق الأول وتدق ثلاث مرات على باب غرفة مجموعتنا.

وفعلاً أطلعه صاحب النزل على الخيار الموجود من الغرف: إما بخمسة قروش فى الليلة داخل غرفة مشتركة مع نزلاء آخرين أو بعشرة قروش فى غرفة مستقلة بما فى ذلك وجبة حساء فى المساء وأخرى فى الصباح. اختار باردو العرض الثانى. من نافذة غرفته، رأى النهر يعج بالقوارب والصنادل وبعربات الماء. على مرمى النظر أمامه، ظهرت جزيرة سان جان ممتلئة بالشجيرات الصغيرة والمراعى.

فى الموعد المحدد، ذهب باردو ليقدم نفسه عند باب مجموعة الرفاق، ودق عليه ثلاث دقات كما قيل له.

جاءه من الداخل صوت توماس الرخيم، كبير العمال وأقدمهم:

- من هناك؟

- أنا باردو مونييه عامل صهر الأجراس الذى يأمل قبــولكم الدخول إلى جماعتكم.

- بأى غرض؟

- بغرض أن تقبلونى فى ورشة سن الأدوات المعدنية.

- هل أنت شخص صالح وعلى خُلق؟

- نعم أنا على خُلق.

- ألم تأت إلى هنا فقط بغــرض التجــسس علـــى طقوســنا وممارستنا؟

- هذا ليس فى نيّتى بالمرة.

- هل أنت مستعد لتقبل كل مفاهيمنا؟

- نعم، أنا على أتم استعداد.

- إذن انتظر لحظة.

فى أثناء دوران هذا الحوار من وراء الباب، كان باردو ينصت إلى صيحات طيور النورس، وكان يتخيلها تهتف بتهكم قائلة:

- إنه مؤدب للغاية... مهذب أكثر من اللازم... مهذب لدرجة لا تجعله كفؤًا لقبوله زميلاً للعمال! على الجانب الآخر من الباب، سمع صوت عميقًا لم يكن إلا صوت توماس جويمون يعطيه أخيرًا الإذن بالدخول.

كان الرفاق مجتمعين حول مائدة طويلة مغطاة بمفرش أبيض، عليها ثلاث شموع تحترق فى وسطها وضعت على شكل مثلث. تحولت كل الأنظار إلى الشاب القادم من أوفرنى، ثم بدأ توماس فى الكلام قائلاً:

- أنا هنا أدعى وادى الضحك، على العكس من "وادى الدموع" التى يرتلونها فى نشيد "الخلاص". من أين أنت قادم؟

- من قرية فيفيرول التابعة لمقاطعة ليفرادوا فوريز، فى منطقة أوفرنى.

- وإلى أين أنت ذاهب؟

- أنا أقوم بجولة حول فرنسا لتعلم الحرف اليدوية الجيدة. ولهذا السبب أطلب منكم السماح لى بدخول ورشة سن الأدوات المعدنية بين عمال المعادن. لابد وأن هذا ممكن.

- فلتقدم لنا أولاً أحد أهم أعمالك. مجسم لنموذج جرس مع رسم لأبعاده، بما أنك لا تستطيع أن تقدمه مصهورًا هنا. ولتعد به إذن خلال أربعة أيام فى نفس هذا التوقيت، إلى هذه الغرفة، غرفة النزل. بدءًا من اليوم التالى، راح باردو يبحث عن مكتبة لبيع الأوراق والأدوات المكتبية. عثر على واحدة فى حى سان فلورنتين، وابتاع منها لفة ورق رسم ذات أبعاد مناسبة، وأقلام رصاص وأقلامًا ذات أطراف من الريش وحبرًا صينيًا. ما إن عاد إلى نزل هيرون حتى طلب منضدة ثم انخرط فى العمل عليها. راح يرسم بمقياس واحد على عشرة، جرسًا مجسمًا بشكل رائع، آخذًا فى الحسبان كل التفاصيل وأدقها. حتى إنه لم ينس القارع المتدلى وسط ناقوس الجرس الذى يمكن رؤيته فقط من خلال جسم شفاف. راعى فى التصميم كل الأبعاد الحقيقية، ووزن كل جزء، والعناصر التى تُصهر معًا لتشكيل مادة معدنية واحدة. بعد ذلك مرر على كل ما رسمه بالحبر الصينى.

فى اليوم الرابع - ليلة السبت - حلق ذقنه بعناية، ونفض ملابسه وقبعته بالفرشاة، وارتدى سرواله القطنى الرمادى الفاتح، وحزّمه بالأربطة الحريرية وذهب ليطرق الباب فى الموعد المحدد.

- توك توك توك!

– من هناك؟

– باردو مونييه، عامل الصهر، الذي يرغب فى قبوله داخل جماعتكم.

– كم عمرك؟

– ثمانية عشر عامًا ونصف العام.

انفتح الباب. فى ذلك المساء، كان العمال يضعون شارة رابطتهم: حزامًا ذا لونين أحمر وأصفر، وشريطًا أبيض حول الجبهة نُقشت عليه ثلاثة أحرف كبيرة باللون الأسود: ف د د، وتعنى "الإخوة فى الواجب". فى نهاية القاعة، رُفعت راية بيضاء تحمل شعار "العزة لله والاحترام للواجب". فى وسط الطاولة، الثلاث شموع مُضاءة. قدم نموذجه الذى انحنى كل منهم بالتناوب ليتفقده فى صمت. دام الفحص أكثر من ساعة بعدها تكلم توماس المخضرم قائلاً:

– إخوانى، لقد نظرت فى أمر هذا العمل الهام لباردو مونييه... من هو بينكم على استعداد لاستقباله فى جماعتنا، فليرفع يده اليمنى.

إرتفعت جميع الأيدى فيما عدا اثنين. نظر باردو إلى معارضيه، ولكنهما حوّلا ناظريهما بعيدًا، حيث إنهما غير مضطرين لتبرير سبب تصويتهما بالرفض.

قال وادى الضحك لينهى الأمر: كما ترى، لقد تم قبولك كـأخ فى الواجب. أولاً: ينبغى عليك أن تدفع لصندوق الجماعة مبلغ ستة جنيهات.

مد باردو يده تجاه حزامه الذى يرتديه حول لحم خاصرته، ودس إصبعين فى جيبه الصغير، فأخرج منه قطعة معدنية بستة فرنكات منحوتًا عليها وجه ملك فرنسا بأنفه الطويل، وناولها لتوماس. أخذها منه ورماها على الطاولة لترن كى يتحقق إذا ما كانت حقيقية أم مزيفة. بعد هذه الاحتياطات، دس بها داخل شىء يشبه الجرة، وواصل قائلاً:

- يا أخى أنت الآن بصدد الدخول إلى عائلة جديدة، أى إلى عالم جديد. سيكون هذا بمثابة ميلاد جديد لك... ولهذا فنحن نستأذنك أن تنسى اسمك الأول وتختار اسمًا آخر.

أغمض باردو عينيه، وراح يعتصر تفكيره حتى إنه لم تعد إلا نقطة فى دماغه، مثل حبة حمص داخل جرس صغير من تلك التى تعلق فى رقاب الحيوانات الأليفة. وأخيرًا، أعلن قائلاً:

- سوف يكون اسمى ليڤرادوا.

- يا ليڤرادوا، فلتعلم بأن مبادئ جمعيتنا هى مبادئ إنسانية وفاضلة، وشجاعة وحكيمة وأخوية.

- إن ذلك ليسرني كثيرًا.

- يا أخي، لدينا رفاق بدون عمل، وبالتالي يعانون ويسببون المعاناة لأسرهم. وبما أنك تعترف بأن مبادئنا إنسانية، قدم لنا دليلاً على هذه الإنسانية وذلك بدفع مبلغ ستة جنيهات أخرى لصالح هؤلاء الإخوة المعوزين الفقراء.

وضع باردو- ليڤرادوا يده مرة أخرى في حزامه السرى، ومن جديد رنت قطعة نقدية ساقطة في جرة الإنسانية. لننتقل الآن إلى الاختبارات: فلتركع على ركبتيك وترفع يدك وتقسم، أمام علمنا، بيمين الولاء والطاعة والسرية. اتبع باردو المتقدم هذه التعليمات، وكرر وراءه تلك العبارات بالضبط، ثم قال ثلاث مرات: "أقسم بذلك! أقسم بذلك! أقسم بذلك".

- الآن وأنت ما زلت راكعًا على ركبتيك، فلتدُر ثلاث مرات في جميع أنحاء الغرفة. أما إذا كنت تفضل إعفاءك من ذلك فعليك أن تدفع ستة فرنكات أخرى لصندوقنا. اختار الشاب أن يضحي بالقيام بهذا المسار على ركبتيه حول أرجاء الغرفة تحت أعين هؤلاء الرفقاء ثلاث مرات. في نهاية الاختبار، وجد أن أربطة جواربه قد انفلتت وبالتالي ترهلت جواربه وانخفضت فوق ساقيه. ولهذا اضطر لرفعها باستمرار إلى مكانها.

– ها هو الآن أصعب اختبار، قال توماس المخضرم: "سأقوم بتغمية عينيك مثلما في لعبة الاستغماية... فلتعلم أن هناك خائنًا قد اندس بيننا، تمامًا مثلما حدث واندس يهوذا بين الحواريين. تقدم بضع خطوات للأمام... ومد ذراعيك لكي تلمسه... لا تخش شيئًا فيداه مكبلتان خلف ظهره، فلتحكم قبضتك عليه جيدًا... ولكي تثبت إخلاصك لجماعتنا، فإننا نطلب منك أن تقضي عليه بهذا الخنجر الذي أناولك إياه.

بالفعل شعر ليڤرادوا بأحدهم يسلحه بخنجر شفرته حادة للغاية.

– ها هو يهوذا! لا تتردد في ضربه!

– هل... إذا ما دفعت قطعة نقدية بستة فرنكات أخرى... يمكن أن أُعفي من ذلك؟

– كلا يستحيل ذلك. فهذا الاختبار لا يعادله أي إعفاء.

– ارحموني! الرحمة! الرحمة! راح المحكوم عليه يتأوّه صارخًا.

– اضربه بجرأة لخلاص رفاقك!

ارتعدت فرائص باردو الشاب بينما راح "إخوة الواجب" يراقبون الموقف بصمت واهتمام وقد بدوا متأثرين أمام تردد باردو هذا.

- كلا! كلا! صاح باردو فجأة.

- كيف كلا؟

- أنا صانع أجراس ولست جلادًا!!

ألقى بالخنجر الذى كان فى يده على الأرض، وجذب الشريط الذى كان يغطى عينيه. انفجر جميع الحضور ضاحكين بقوة فاهتزت أرجاء المكان. راح باردو - ليڤرادوا يبحث بعيونه عن يهوذا الذى كان عليه أن يضحى به، فلم يجد شيئًا سوى دمية لا يدرى كيف خرجت ومن أى خزانة. لقد فعل به "إخوة الواجب" نفس الموقف الذى قام به الله سبحانه وتعالى حين تأهب سيدنا إبراهيم بالتضحية بابنه إسماعيل. راح كل منهم يهنئه على إنسانيته وشجاعته. قدموا له نبيذ الأنچو لكى يرفعوا من معنوياته بعد ذلك الذعر. اقترب منه "وادى الضحك" وقبّله على فمه قائلاً:

- يا أخى أنت مُصدق عليك بيننا بصفة نهائية. وأحاط له جبهته بوشاح أبيض منقوش بثلاثة أحرف كبيرة. ثم راحت المجموعة كلها تغنى كما الكورال:

يا رفاقنا الأعزاء، مثل إخوتنا، دعونا نحب من كل قلوبنا. فليكن العمل هو بصيرتنا، والراحة هى سعادتنا. فليرشدنا إله السموات، كما يرشد الراعى الصالح أغنامه. فليبقى على ألسنتنا رطبة، وليحفظنا من الغريب.

ظلوا ينشدون هكذا خمسة أو ستة مقاطع على نفس المنـــوال. وبعد ذلك، تم طيّ المفرش الأبيض ورُفعت الشموع من على المائدة. ثم قام الأب والأم (أصحاب النزل) بوضع الزجاجات والخبز والجبن ولحم الخنزير. هكذا احتفلت المجموعة بأكملها وأسرفت فى احتســاء الخمر طوال الليل، بمنتهى الإنسانية والشجاعة والأخوية. ظلوا هكذا حتى سمعوا أذان الديكة تعلن بزوغ الفجر. وهذا لم يمنعهم بالمرة من الذهاب للحضور والاستماع إلى القداس فى حوالى الــساعة الحاديــة عشرة فى كنيسة القديس فلورنتين.

وفى صباح يوم الإثنين، وفى ميعاد العمل، ظهر باردو عنـــد باب ورشة سن المعادن. استقبله أولاً "وادى الضحك" وســأله عــن المدة التى يرغب بقاءها فى الورشة، وعن العمل الذى يرغــب فـــى القيام به:

- ســـوف أقوم بما أُكلف به... حتى ولو كان بكنس المكـــان، أو بجمع الرقائق.

- وكم تتوقع أن تكسب؟

- أنا تحت تصرفكم.

- إذن سوف تكسب عشرين قرشًا فى اليوم الواحد، تضع منها خمسة قروش فى صندوقنا.

وعلى هذا الأساس، قدم ليفرادوا نفسه لأرباب العمل. في البداية تذمروا قليلاً كما لا بد وأن يحدث في أي مفاوضات، ثم بعد ذلك قبلوه. هكذا شاهد ليفرادوا تصنيع الفئوس والمعازق والمجارف والشفرات والعتلات والمطارق والمناجل. تعلم التعامل مع الضربات أمام طاولة الطرق، ومطرقة النجار وآلة اللىّ وملقط الحداد والمفك. أمضى ثلاثة أسابيع بين شرر اللهب ودخان الأفران، وصخب المطارق. عُهد إليه بالمهام الأكثر صعوبة والأكثر قذارة:

كإزالة رماد الحدادة ونقل القمامة، تفريغ زيوت التبريد. كان يتلقى بصورة منتظمة كل مساء سبت ستة جنيهات كأجرة على عمله في أسبوع يعطى منها ثلاثين قرشًا إلى "وادى الضحك" كما اتفقا معًا. كان يوفر كل ما يكسبه ليستعيد به النقود التي وضعها في الصندوق الإنساني.

اكتشف وجود مكتب البريد التابع لبلدة آمبواز والذى يغادر منه البريد مرتين في الأسبوع إلى مناطق بيرى، بوربونيه، أوفرني وفوريز. كتب رسالة لوالديه مليئة بالمشاعر المؤثرة ومليئة أيضًا بالأخطاء الهجائية:

كما نصحني أبي العزيز، فقد سافرت على ظهر الحصان ثم على الأقدام ثم بالعربة ثم بالمركب. ذهبت أولاً إلى مدينة تيير، حيث شاهدت كيف يصنعون السكاكين ولهم طريقة خاصة بهم في ذلك سوف أشرحها لكم بالتفصيل لاحقًا. في مدينة ليمون صعدت على متن سفينة تُدعى سابينير تقوم بنقل بالات الورق والسكاكين، وقد أطعمني البحارة كثيرًا من السمك وعلى الأخص سمك السلمون. وهكذا أبحرت معهم حتى مدينة بريار وهناك افترقنا حيث كان عليهم الاستمرار في الإبحار تجاه باريس إلى مرفأ سان سابين. مشيت بعد ذلك حتى مدينة أورلينز والتي لم أجد بها شيئًا يهمني، ومنها إلى مدينة آمبواز حيث أكتب لكم الآن، وأعمل في ورشة سن المعادن حيث استقبلوني هناك وأصبحت رفيقًا للحدادين. لقد غيرت من اسمي وحاليًا أُدعى ليڤرادوا، ولكني بالنسبة لكم سأظل دائمًا ابنكم المخلص والمحب الذي يقبّلكم من كل قلبه.

باردو مونييه – نزل هيرون – مرفأ زهور البنفسج. بلدة آمبواز، تورين.

كانت والدته، فرانسواز كاليمار، هي التي علمته القراءة والكتابة والعد. ولكنه لم يحب القراءة كثيرًا، وحيث إن الفرصة لم تسنح له من قبل أن يكتب إلى أي شخص، فقد نسي الهجاء وقواعد اللغة.

وحتى لا يثير استياء والديه، لم يذكر فى هـذه الـسطور أى شيء عن أوفرايزى. وهكذا يمكنهم أن يعتقدوا بأنها خرجت تمامًا من تفكيره، وهذا هو أبعد ما يكون عن الحقيقة. لكم كان يود أن يكتـب إلى حبيبته، ابنة الحانوتى، ولكنه لم يفعل. أولاً: لأنها أمية لا تعـرف القراءة ولا الكتابة وكانت ستضطر إلى إعطاء رسالته إلى القـس أو إلى خادم الكنيسة ليقرأها لها. وثانيًا، لأن أجرة البريد تُحـصل عنـد وصول الرسائل، والتى تتراوح تكلفتها من عشرة إلى أربعين قرشًـا حسب وزن الرسالة وطول مسافتها. لهذا كان يكتفى بالتحدث معهـا كل ليلة فى قلبه.

وحيث إنه كان على عهده بتوصيات أمه، كان يتلو كـل ليلـة قبل النوم صلاة "السلام لك" وصلاة "أبانا الذى فى السماوات". كـان يقنع نفسه بأن هذه الصلوات لا يمكن أن تأتى بتأثيرها الكامـل إلا إذا كانت روحه أثناء التلاوة خاشعةً ومتحولة تمامًا إلى مريم المباركـة وإلى أبينا فى السموات. ولكنه كان يجد صعوبة بالغة فى الوصـول إلى هذا التركيز والتفرد. ففى أثناء ما كان يرتـل بعقلـه الكلمـات المقدسة، كان الشيطان يدس له بينهما صورًا غريبة جدًا وبعيدة كـل البعد عن معانيها :

- السلام لك: يا مريم المباركة، وسيدنا المسيح معك. هل فرايزى على وشك أن تتحدث معك هى أيضًا؟ أباركك من بين كل النساء. ولكن من بين كل الفتيات، هى من أريد. إن يسوع، ثمرة أحشائك، مبارك هو الآخر. أوه! ثمار الفراولة! أوه! توت العليق الذى أكلناه معًا، فجعل لسانها أسود تمامًا، عجبًا. آه من طعم شفاهها الذى له نكهة التوت! إن ثمرة أحشائك مباركة. ما الذى يجعلنى أهذى بهذا الشكل؟ فكر فيما تقوله يا باردو، ولا تقل ما تفكر فيه... صلوا من أجلنا... أيها المذنبون البائسون... يا لها من ضربة شيطان! إن الشيطان يذكره بعيون فرايزى وخدى فرايزى ويدى فرايزى. كل هذا كان يمر أمام عينيه المغمضتين مثل صور الفانوس السحرى. حقًا كان يجبر نفسه كى يثبت تفكيره فقط على السيدة العذراء كما يراها فى كنيسة فيفيرول بوجهها الأسود وطفلها الأسود على ركبتيها، ولكن ذلك " الآخر " كان يتدخل دائمًا. لذا كان عليه أن يبدأ من جديد التلاوة حتى يغلبه النعاس ويضع حدًا لتفكيره فى حبيبته فرايزى.

بعد ثلاثة أسابيع من العمل فى ورشة سن الأدوات المعدنية، صرح باردو "لوادى الضحك" بنيته فى الرحيل. قدم له "وادى الضحك" شهادة تفيد انتماءه إلى جماعة العمال، تزينها ثلاثة أختام من الشمع الأرجوانى وأيضًا عصا لها كرة من الصوف ذات لونين أصفر وأحمر.

- بفضل هذه الشهادات، أكد له المخضرم توماس: ستحوذ التقدير ويتم قبولك فى معظم ورش التعدين فى فرنسا ومنطقة نافار.

هكذا افترقا وهما يحتضنان كلٌ منهما الآخر، فيما يُسمى بتحية الرفاق: فى نفس الوقت الذى كانا يقبلان بعضهما البعض فيها، كان كل منهما يقضم أذن الآخر. استأذن باردو من أرباب عمل ورشة سن الأدوات المعدنية. تمنوا له وفير الحظ والسعادة فى استكمال جولته حول فرنسا. قبل أن يغادر، وجه إليهم سؤالاً كاد أن يحرق شفتيه منذ اليوم الأول لوصوله:

- ألستم بالطبع، أصحاب هذا المنزل؟

- نعم بالتأكيد.

- لماذا أنتم إذن لستم أحرارًا فى تعيين وإقالة من يعجبكم دون طلب مشورة أو استئذان "وادى الضحك" هذا؟

- لماذا؟ أنت تسأل لماذا؟

- هذا هو ما أسأله بالفعل.

- لأننا لا يمكننا أن نفعل شيئًا بدون إذن منهم... فنحن الرأس وهم الأعضاء. بدون أعضاء، لا يمكن للرأس أن تفعل شيئًا.

- وما الذى يحدث مثلاً إذا حاولتم أن تتصرفوا ضد رغبتهم؟

- سوف يضرمون الفتنة.

- الفتنة؟ ماذا يعنى ذلك؟

- سوف يشكلون حزب ائتلاف ويتوقفون عن العمل... لهـذا فنحن مضطرون للإذعان لهم كى نتجنب الإفلاس.

فى ذات اليوم، قرر باردو أن يسافر على متن العبارة المائية، وذلك للتنويع فى رحلته التى تستغرق ست ساعات من الإبحار، لكى يصل إلى مدينة تور.

(١١)

لم تكن عربات الماء هذه إلا صنادل كبيرة، يبلغ طولها نحو خمسة وثلاثين قدمًا، ينتصب في مقدمتها صارٍ يحمل شراعًا. وفي وسط الصندل، يوجد "كوخ خشبي" يمكن لعشرات من الأفراد أن يحتموا بداخله عندما تسوء الأحوال الجوية. كان هناك العديد من تلك الصنادل راسية على رصيف مرفأ أوجستن عندما اقترب منهم باردو لكي يسألهم إذا ما كانوا مبحرين تجاه بلدة تور. لم يكونوا فقط متوجهين إلى هناك، بل أيضًا كانوا يتنافسون فيما بينهم منافسة شرسة:

صاح به أحد المراكبية: تعال معي! فلن تأسف لذلك أبدًا... بأربعين قرشًا، سوف أوصلك عند سفح كاتدرائية سان جاسين. وصاح آخر: وأنا، سوف أنقلك مقابل خمسة وثلاثين قرشًا!

وصاح ثالث: أما أنا، فبمقابل ثلاثين!

وبطبيعة الحال، وقع اختيار ليفرادوا على من هو أقلهم جشعًا. وعلى الصندل، كانت هناك عربتان تحتلان جزءًا من المكان تجرهما الخيل، وقد بدا عليهما الذعر الشديد فراحت أطرافها الأربعة ترتعد

من الخوف. أما أصحاب العربتين فكانوا جالسين بداخلهما، متكئين على الأرائك، ولكن أنوفهم ملتصقة بالنوافذ. وكان بعض الركاب يتمشون من جانب إلى آخر، وهم يتأملون المنظر. أما البعض الآخر فكانوا جالسين على قمة المركب. بعد حوالى ساعة من المساومات واجتذاب الزبائن من الركاب، أرخى الصندل حباله مبتعدًا عن الجسر وابتعد إلى منتصف النهر تاركًا نفسه للتيار.

وحيث غادروا فى الساعة الثامنة صباحًا، توقفوا عند بلدة مونلوى ثم فى بلدة فوفراى. وعند كل محطة كان ينزل أو يصعد ركاب جدد، وكذلك خيول وخنازير. وكلما اقتربوا من البحر، كلما ازدادت الملاحة شدة على نهر "لا لوار". ولكن العبّارات كانت تتمتع بالأولوية على المراكب الأخرى، وبالتالى كان كل مراكبى يقف فى مقدمة الصندل، وينفخ فى بوقه لكى تفسح له المراكب الأخرى. ووصلوا إلى مدينة تور فى بداية فترة ما بعد العشاء. وعثر باردو بدون مشقة على غرفة بالقرب من كنيسة سانت إتيان. ليس ببعيد عن هذا المكان، كانت هناك ورشة تصنيع مسامير. فتوجه إليها منذ صباح اليوم التالى، مقدمًا نفسه هناك، فقد كان شغفه كبيرًا لمعرفة كيفية صناعة المسامير المتنوعة بلا حصر، سواء فى الأشكال أو فى الأحجام. وقدم شهادة مؤهله كرفيق كاثوليكى (من العمال) فاستحوذ بذلك على تقديرهم وبالفعل تم قبوله على الفور، مع شرط وحيد هو أن يدفع مشروبًا لكل رفاقه.

وراح أقدمهم يُسر له: إن المسمار يا أخى: مثل العجلة، مثل السيف القصير، ومثل القارب، فهو أحد اختراعات الإنسان الجديرة بالإعجاب والتى ما زلنا نجهل من الذى أبتكرها، وسمح للبشرية كلها بالانتقال من حالتها الحيوانية التى كانت عليها سابقًا.

إن نجارينا يثبّتون الأخشاب ببعضها، ولكنهم فى حاجة إلى المسامير لتعزيز وتقوية الأبواب والخزائن. لقد كانت المسامير سببًا فى صلب سيدنا يسوع المسيح وتعليقه على الصليب. وقد كان الرومان يدقون مسمارًا فى عارض خشبى لتحديد مرور عام بعد عام. هل يمكننا تخيل العالم الآن بدون مسامير؟ بالضبط كما لا نتخيله بدون عجلة، أو قارب، أو قداحة.

وهكذا كما أخذ پادرو الشاب فى تعلم الحاضر الذى حوله، تعلم كذلك الماضى من خلال جولته حول فرنسا.

وفيما كان يتنقل للقيام بالمهام المتواضعة الحقيرة إكرامًا للزمالة التى حصل عليها، كان يفتح عينيه جيدًا إلى كل ما حوله ويراقب كل صغيرة وكبيرة.

كان كل مسمار يُصنع على اليد وعلى حدة. أول خطوة تكون بتقطيع قضبان الحديد وهى باردة. بعدها يمسك صانع المسامير بهذه الشرائح بواسطة كماشات مخصصة لذلك. يقوم برص عدد معين

منها فوق جمرات الفرن، بطريقة تظل بها كل شريحة معدنية دائمًا ساخنة فى أثناء طرق الشريحة التى قبلها، بمعنى أنه يشكل بالمطرقة رأس المسمار سواء كان بسيطًا أم معقدًا. ولكى يقوم بذلك، فهو يستخدم أداة معدنية مستطيلة تنحشر ما بين ساقى منضدة، نصف مكعبة، والتى سبق وأن شَكل عليها هيئة جسم المسمار. ثم يقوم بدسه داخل ثقب موجود فى هذه الأداة حتى العمق المطلوب، ثم يراقب أحد العمال طرفه الذى لا يزال ساخنًا إلى درجة الاحمرار، فيقوم بتمديده، ووضعه فى قالب حسب النوع المطلوب. حيث إن رءوس المسامير متنوعة مثل رءوس الناس: فمنها الرءوس المسطحة وأخرى محدبة، وأخرى على هيئة خطاف، وأخرى بمخالب، وتلك مدببة الرأس ذات حافة ماسية، ومسامير أخرى صغيرة لها رءوس عريضة مسطحة. جميع هذه الخطوات تتطلب خمسين ثانية. وهكذا فى خلال يوم عمل يبلغ طوله خمس عشرة ساعة، يكون العامل قد انتهى من تصنيع آلاف المسامير. يكسب فى مقابل ذلك عشرة قروش، بالإضافة إلى وجبة الغداء.

فى مدينة تور، عرف الشاب مونييه ما هو المقصود بالضبط من مصطلح "العمل من أجل المسامير". لهذا بات متلهفًا إلى ترك المكان والذهاب لتعلم شىء آخر فى مكان آخر.

فى مدينة نانت، أهلته خبرته فى صهر البرونز أن يتم قبوله دون تردد فى ورشة تصنيع المدافع. لم يتعلم بها الشىء الكثير، لكونه قد مارس بالفعل من قبل أو شاهد القيام بهذا العمل فى فيفيرول. فيما عدا أن عمال صهر البرونز لمدينة نانت كانوا يقومون بإعادة تسخين القطع بعد إزالة القوالب عنها، فى فرن خاص لجعل خليطها متجانسًا. وبعد البقاء لفترة ثانية فى النار، تُفتح أبواب الفرن بصورة مباغتة، مما يُحدث تبريدًا قاسيًا للبرونز مماثلاً لتجمد الصلب. لقد كان عمال مدينة نانت يعملون فقط لحساب المدفعية الملكية، والتى كانوا يمدونها بمدافع سواء من طراز الأربع قذائف، أو الثمانى، أو الاثنتى عشرة، وفقًا لوزن ذخيرتها من القذائف بالأرطال.

بعد أيام قليلة، سلك باردو طريقه من جديد، وجرابه على كتفه، وانطلق يعمل مرة أخرى لفترات مؤقتة عند أصحاب المزارع الذين يوافقون على استضافته. وكان يلتقى أثناء ترحاله تقريبًا فى كل مكان يصادفه ورش حدادة محدودة ومتواضعة وسط الغابات. حيث كانوا يستغلون خام الحديد والنحاس والقصدير الذى يجدونه فى المناطق المحيطة، ويصنعون منه أوانى الزهر، والطاسات، والمغارف، وحواف عجلات العربات. هكذا كان يتعلم حرفًا ومهارات جديدة وجيدة فى كل مكان يذهب إليه.

وفى يوم من الأيام، حوالى الساعة الرابعة عصرًا، كان يتمشّى وهو يمسك بيده عصا الزمالة الكاثوليكية التى كان يفتخر بها، فإذا به يتعارك مع زملاء من البروتستانت المناهضين للكاثوليك، وما إن تعرفوا على الشعار الموجود على عصاه، حتى فكروا فى ضربه وتكسير ضلوعه. ولكنهم فى النهاية، تعاطفوا مع صغر سنه، فقرروا أن يجبروه فقط على دفع ثمن الجعة، فى حين راحوا يتغنون على مسمع منه بعبارات هجومية مهينة للغاية:

"أيها الكاثوليكى! أيها الوصولى!

أنت خزى وعار على فرنسا!

فلتحرك مؤخرتك من هنا

واذهب للتبرز فى وادى آران".

إلى ذلك اليوم، كان باردو يعتقد أن آران هذا هو نوع من الأسماك المملحة. ولكنه علم فى النهاية أن آران هو اسم وادٍ فى إسبانيا، وأن هؤلاء المناهضين للكاثوليكية كانوا يرغبون فى مغادرته لمملكة فرنسا.

اكتشف باردو بعد ذلك أن مدينة توار كانت مزدهرة فيما مضى بورش النسيج، وقد أفلست فى الوقت الحالى بسبب مرسوم

ملكى يمنع أية ممارسات بروتستانتية[1]. لهذا اضطر محترفو ومعلمو النساجين وجميعهم من البروتستانت ومتخصصون فى صبغ الأقمشة، أن يغادروا البلاد متجهين إلى هولندا.

أما أهالى بلدة "شاتلرو" فكرسوا أنفسهم بالكامل وحصريًا لصناعة أدوات المائدة. ولكن طرق التصنيع المطبقة هناك كانت تختلف كليًا عن المطبقة فى مدينة تو ارس. ففى كل منزل تقريبًا كانت هناك الورشة الخاصة به التى تُصنع بها أدوات المائدة بالكامل. وفى الشارع يقف الأطفال والنساء ليعرضوا على المارة إنتاج أزواجهن. كانت هذه الأدوات مصنوعة بشكل جميل، ولكنها كانت أغلى ثلاث مرات من تلك التى فى مدينة تيير. فى مدينة بواتييه، اكتشف باردو الشاب القادم من أوفرنى، مدينة صناع الغلايات حيث تدق فيها المطارق من الفجر إلى الغسق. كانوا يستقدمون النحاس من مناجم إسبانية وبالتحديد من منطقة ريو تينتو، وذلك على شكل شرائح ثم تُستخدم المطارق لتحويلها إلى رقائق. تتألف كل آلة من مطرقة فى طرفها نيل أفقى طويل وعمود حدبات، تقودها عجلة لتحركها: ويمكنها إنتاج ثلاثمائة دقة فى الدقيقة الواحدة.

بداخل هذه الورش، كان الضجيج صاخبًا لدرجة تصم الآذان، ولكن الأجور كانت جيدة. فالحداد الذى يقوم بالطرق يمكنه معالجة ما

---

(١) تم إلغاء هذا المرسوم فى مدينة نانت عام ١٦٨٥.

يصل إلى مائتى كيلوجرام من خام المعادن يوميًا ويكسب أربعة أو خمسة جنيهات.

يشكل صناع الغلايات هذه الرقائق التى تستخدم فيما بعد فى صناعة الأحواض والنوافير والدلاء والأوانى والفوانيس واللافتات والثريات. وكانت أصعب عملية هى عملية السحب بعد الطرق. وهى عبارة عن إعطاء شكل مستدير لشريحة معدنية مسطحة دون ثنيها ولكن بمجرد دقها بالمطرقة. بعدها يقوم الخزاف بدوره بطلائها بالطين. أما النحاس فلم يكن ممكنًا طرقه وسحبه بهذه السهولة.

بعد مدينة بواتييه، استأنف باردو مساره نحو الجنوب المضىء.

فى مدينة روفك لم يهتم باردو كثيرًا بصناعة النعال والأحذية ذات الرقبة. كما لم يهتم كثيرًا بصناعة الخزف والسيراميك فى مدينة سانت. أما فى مدينة سان ساڤن، فقد انتقل إلى نسج الصوف. ثم وصل إلى مدينة بوردو بعد أن عبر نهر الجارون على قارب. كانت هناك مئات المراكب المتراصة على طول الرصيف عند سفح قصر ترومبت.

لم يكن أهالى مدينة بوردو متخصصين إلا فى صناعة واحدة هى: صناعة البراميل الخشبية، وذلك باستخدام قطع من جذوع أشجار البلوط وأشجار الكستن التى كانت تصل إليهم عن طريق

الصنادل فى النهر من مناطق أوفرنى، بوربونيه وليموزين. حيث كانت أكبر صناعة لديهم يحرصون عليها هى إنتاج وتجارة الأنواع المختلفة من النبيذ. البعض الآخر منهم كون ثروات طائلة من تهريب الرقيق السود الذى كانوا يذهبون إلى قارة أفريقيا لشرائه ثم يبيعونه فى جزر الأنتيل. فقد كانت أفضل وأجمل نماذج من هؤلاء العبيد يمكن أن تجنى ألف جنيه للرأس الواحدة.

وبالنزول أكثر إلى الجنوب، عبر باردو منطقة رملية شاسعة غير محددة المعالم، تهيم فيها قطعان ضخمة من الأغنام. كان الرعاة يرتدون قبعات مستديرة ومسطحة تلتصق برءوسهم كقرص البيض، يقفون على طاولات خشبية ويحيكون بالإبر التريكو أثناء مراقبة الغنم. لمرات عديدة، وقد كادت الكلاب تلتهم باردو الشاب لمرات عديدة برغم نداءات الرعاة محاولين ردعها قائلين:

- أنت يا ابن العاهرة!

وكان يردعها بعصاه المزركشة. وحتى يعتذر له الرعاة كانوا يناولونه جرّاتهم المليئة بنبيذ أسود اللون قوى المذاق. تعرف باردو على هذه الجرات، فهى نفس التى تُصنع فى بلدة لوباردانج من ناحية أشكالها وأطرافها المزينة. لكم كان يود أن يستمر فى التحدث مع هؤلاء الرعاة المتجولين، ولكنهم كانوا يتحدثون فقط باللهجة المحلية التى كانت تصعب عليه فهمها.

أما بلدة مونت دى مارسان فكانت تشتهر بـصناعة الأقفـال. راقب بإعجاب مهارة الحرفيين الذين قدموا له مفاتيح تـضاهى فـى جمالها ودقتها مفاتيح الجنة.

وأخيرًا استطاع أن يرى عند خط الأفق سلسلة جبال البيرينيه وكأنها ترسم حاجزًا يحدد نهاية مملكة فرنسا. فأخذ يفكر، كما نصحه البروتستانت، أن يذهب للتبرز فى بلدة آران الإسبانية ليعـرف مـا عيب ذلك المكان، ولكن ساكنى جبال البيرينيه جعلوه يعدل عن قراره هذا، لأن ذلك الوادى كان يقع فى بلاد الأعداء. علاوة علـى ذلـك، بسبب لهجتهم اللعينة هذه وكل هذه الغوغاء التى راحت تتطاير مـن حوله، شعر بالفعل أنه فى بلاد غريبة.

وفى مدينة "لورد"، لم يجد شيئًا جديرًا بالاهتمام إلا سجنًا على شكل قلعة حصينة فوق صخرة ضخمة يجمع بداخله كل أولئك الذين لا يروقون لملك فرنسا بمجرد "خطاب عليـه الخـتم الملكـى". رأى باردو الرجال يسيرون على كعوب أحذية مصنوعة مـن الحبـال لا تُحدث أى صوت يسمونها (إسباردى).

وفى قرية تاراسكون المطلة على ضفاف نهـر الأريـج، زار باردو ورش الحدادة التى تستخدم حديد فيكدوسوس. قـال لـه أحـد الحدادين بكل فخر: وهنا، يا سيدى، الرجال هم أيضًا من حديد.

ومع ذلك لم ير باردو فيهم شيئًا مختلفًا عن الآخرين، سوى قبعاتهم الحمراء.

وجد فى منطقة كاركاسون، مدينتين يفصل بينهما نهر صغير: تقع السفلى حول كاتدرائية سان ميشيل، أما العليا فتحيط بها أسوار نصف محطمة. ولكن لا هذه ولا تلك تُمارس أى صناعة تعدينية. ومن هناك، مشى عبر سهل أرضيته صخرية وتنتشر به طواحين الهواء. ولكن لهجة الأهالى بقيت غير مفهومة بالنسبة له أيضًا، رغم أن بعض الكلمات بدت له مستوحاة من لهجته المحلية لمنطقة أوفرنى، مثل كلمة (الحجر المسمر)، وكلمة (الزاوية)، وهذا المثل الذى يُقال أثناء الحياة الزوجية لشخصين:

العام الأول: قبلات.

العام الثانى: يهدهدان الطفل.

العام الثالث: بيف- باف، بيف – بوم (يتشاجران).

قال باردو مونييه الشاب لنفسه، إذا ما تزوج من محبوبته أوفرايزى، فإنهما ولا شك سيملآن العامين الأولين، ولكنه أبدًا لن يحدث أن يقوم بضربها.

في مدينة ناربون، نصحه الناس بزيارة كنيسة القديس بولس. أكثر ما رآه غرابة وملفتًا للأنظار هناك هو ضفدع منحوت في عمق جرن الماء المقدس في مدخل الكنيسة، وقد كان النحت دقيقًا للغاية حتى إنه بدا حقيقيًا وكأنه يشرب من الماء المقدس. ولكنه كان يفتقد إحدى ساقيه الأماميتين. وقد راح خادم الكنيسة، والذي كان يتحدث بلغة فرنسية واضحة إلى حد ما، يشرح له أن هذا التشوه يرجع إلى ضربة مطرقة.

– ومن الذي فعل ذلك؟

– رفيق مثلك... يعمل كنحات على الحجر. وهو على ما أعتقد، أصلاً من منطقة بيكاردي، وكان يقوم بجولة في أنحاء فرنسا. عندما عاد إلى بلاده، راح يحكي رحلته إلى معلمه المخضرم الذي سأله: "هل رأيت الضفدع الموجود في جرن الماء المقدس لمدينة ناربون"؟

– لقد فاتني ذلك.

– حسنًا، فلتعد إلى هناك وتشاهده جيدًا إذا ما كنت ترغب البقاء في مجموعتنا. غادر الشاب من جديد، عابرًا مرة أخرى المملكة بأكملها، وعندما وصل إلى ناربون، راح يتفحص الضفدع الذي جعله يقطع كل هذه المسافات. ومن فرط حنقه، وجه إليه ضربة بمطرقته حطمت ساقه.

رأى باردو أن هذا الضفدع الرائع يستحق معاناة تلك الرحلة الطويلة. لقد ذكره بجدته ماريا، التى كانت تترك أهالى بلدتهم، فيفيرول، ينادون عليها باسم "ضفدع جرن الماء المقدس".

وفى مدينة بيزييه، راح يتأمل بإعجاب القضبان المشغولة التى تحمى نوافذ كاتدرائية سان نازير.

وفى مدينة مونبلييه، رأى صناعة واحدة ألا وهى منشرة للرخام وأنواع الحجارة الأخرى. كان الأهالى يعملون فى بيع وتصدير النبيذ والصوف والأقمشة المنسوجة إلى المناطق الريفية المجاورة. أمضى باردو هناك على الأقل فصل الشتاء حيث كانت هذه المنطقة أدفأ من غيرها، ووضع نفسه فى خدمة الحداد صانع الحدوات. هكذا تعلم صنع الحدوات وتركيبها فى حوافر الخيول والحمير والأبقار والبغال. وقد حدث أكثر من مرة، بينما كان يمسك بحافر إحدى الدواب على ركبته، كانت مطرقة الحداد تهوى لتسقط على أصابعه لتصحح أسلوبه فى الجلوس.

كان هذا الرجل، الحداد، والملقب باسم بيارودز – ذو الشعر الأحمر – مهزارًا من الدرجة الأولى. فكثيرًا ما كان يزوره جار له كهل وممل للغاية، وهو جندى سابق، وكان يأتى وهو يدخن غليونه، ويحكى له عن حملاته ضد الإسبان والإنجليز والهولنديين. وأحيانًا كان يحكى مغامراته العاطفية. وكان دخان تبغه يختلط مع نظيره

الصادر من الفرن والفحم. وقد اعتاد ذلك الرجل الجلوس على مقعد من السندان. وبعد أن تململ الحداد بياروذز من هذه الثرثرة المتكررة لمئات المرات، وجد حلاً ليتخلص منه. فقبل حوالى ساعة من وصول الرجل العجوز، وضع الحداد قطعة من الحديد فى فرنه وقام بتسخينها حتى تحول لونها إلى اللون الأبيض، ثم وضعها على مقعد السندان لينقل إليه سخونته. بعد ذلك بلحظة ظهر الجندى السابق. قام بتحية الموجودين ثم توجه على الفور إلى مقعد السندان بعد أن قام الحداد برفع الحديد عنه، وجلس عليه بكل ثقله. آى! اللعنة!

راح يتلفت حوله باحثًا عن وعاء أو حوض ماء بارد ليبلل فيه مؤخرته ثم هرول خارجًا. لم يروه بعد هذه الواقعة لمدة شهر. وضع باردو فى باله هذه الوسيلة الجيدة ليطبقها فى المستقبل مع الأشخاص المزعجين.

فى شهر فبراير من عام ١٧٠٥، وصل باردو إلى مدينة "نييم" والتى لم يحدث له بها أى شيء هام سوى أنه كاد يتعرض للسلخ حيًا. فى صباحِ يوم أحد، دخل إلى كنيسة لسماع القداس. كان بيت الله هذا مليئًا بالمؤمنين حتى الأبواب وقد انهمكوا فى غناء الترانيم، راكعين على بلاط الأرضية. أراد باردو إظهار نفس الحماسة والخشوع، فلوح تلويحة كبيرة بعلامة الصليب. على الفور، تنبه المصلون الواقفون من حوله له، وكانوا إلى هذه اللحظة مسالمين للغاية، والتفتوا إليه وراحوا ينعتونه بكره واضح:

- إنه كاثوليكى المذهب! بابوى! بابوى!

عندئذ أدرك أنه قد ضل طريقه إلى داخل معبد للبروتستانت، وأن ليس أمامه إلا الفرار بنفس السرعة التى جرى بها الجندى السابق الذى احترقت مؤخرته. وهذا هو ما فعله فى الحال، بعد أن تلقى بعض اللكمات والخدوش حتى امتلأ وجهه بالدم. خرج من هذه المدينة بقدر ما يمكنه من سرعة وخفة. وبعد بضع ساعات لاحقة، وجد نزلا هادئًا فى قرية مارجريت. تديره أرملة ما زالت شابة تُدعى كارلوتا. فتعاطفت معه وراحت تعالج له جروحه بنوع من الأعشاب. كانت أصلاً من منطقة بيمو فى شمال غرب إيطاليا، ذات جسد بض وممتلئة الأرداف. أطلقت عليه اسم ميوجالتو، وهو ما يعنى "ديكى الصغير" بلغتها. سعت إلى إرضائه بقدر الإمكان. عندما رأت أن حذاءه قد بدأ يتهرأ ويبلى من كثرة الاستخدام، أخذته إلى صانع أحذية تعرفه فأصلح الحذاء ليصبح كما لو كان جديدًا.

ذات مساء، لم تتردد فى الانضمام إليه فى فراشه. بدعوى أن الطقس كان باردًا، وأنها "فقط ستدفئه". حتى هذه اللحظة، لم يكن باردو قد انجذب حقًا إلى أية امرأة من قبل بخلاف فرايزى التى أحبها دائمًا من كل قلبه. عندما كانا يتقابلان سرًا، أو فى كنيسة فيفيرول، كان كلٌ منهما يمسك بيد الآخر، ويصليان معًا للقديسة

مادلين لتبارك وتعزز حبهما. وفى بعض الأحيان، فى خلاء الريــف، وبرغم تشدد ومراقبة أبيها العجوز بوتينا لهما، فإنــه كــان يتجــرأ ويأخذها بين ذراعيه، ويمطر جبينها وعينيها وخديها وشفاهها بقبلات صغيرة رقيقة لها خفة الفراشات.

أما كارلوتا، على النقيض، فقد علمته كل أنــواع الممارســات الجيدة التى لا تمت بصلة إلى صب الأجراس. بما فى ذلك ما أســماه هو بينه وبين نفسه "قبلة القمع" والتى شعر بمتعة كبيرة أثناء تذوقها. فبدلاً من أن تمد له شفتيها مضمومتين، كانت تفتح فمها عن آخــره. لهذا كان يغوص بكل لذة فى هذه الفتحة، كما ينسكب النبيذ فى قمــع كبير. كان يفعل كل ذلك ببراءة متناهية، مدفوعًا فقط بالرغبــة فــى التعلم. ولكن دون أن يدق قلبه أو يتحرك لها.

هتفت كارلوتا قائلة: إنه لشىء لذيذ! أن أضم بين ذراعى هــذا الديك الصغير النضر، الذى يصيح لأول مرة!

حكت له أنها كانت متزوجة من رجل كبير فى السن لدرجــة تمكنه من أن يكون ليس فقط والدها ولكن تقريبًا جدها. بالطبع كــان زواجًا تم ترتيبه من قبل العائلتين. من حين إلى آخر، كان هذا الديك العجوز، الذى تساقط ريشه بالكامل، يذهب إلى صيدلى مدينــة نيــيم ويقول له:

- أنت على علم بوضعى وبسنى، وبوضع زوجتى الشابة. أرغب فى شىء يعطينى قليلاً من الإحساس.

فى الواقع لم يُظهر لها أى شىء من هذا الإحساس. بعد ذلك، تغمده الله برحمته بعد أن استجاب لدعائها بدون مشقة كبيرة. عندما كشف لها باردو عن نيته فى الرحيل إلى مرسيليا، وهى المدينة التى تحددها نقطة حمراء كبيرة على خريطته، حاولت كارلوتا أن تُثنيه عن ذلك بشدة قائلة بأنها مدينة موبوءة بالطاعون ولن يخرج منها حيا. وهكذا أبقته لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال. بعد ذلك، قبلته قبلة عادية وهى تقول له:

- وداعًا يا ديكى الصغير. فلتحفظك السيدة مريم العذراء! رشم كل منهما على صدره علامة الصليب، وبعدها انطلق باردو فى طريقه، وهو يتلفت فى كثير من الأحيان ليراها واقفة على عتبة نزلها تلوح له بمنديل. استطاع أن يلمح من بعيد فى اتجاه الشرق الخط الأبيض لجبال الألب والذى يشكل حدًا آخر من حدود المملكة، ولكنها بدت بعيدة لدرجة جعلته غير متشجع وليس مستعدًا لاستهلاك حذائه الجديد كى يصل إليها.

وحين وصل إلى جسر الروح القدس - والذى أُطلق عليه هذا الاسم بسبب أقواسه التسعة عشر التى تعبر نهر الرون تحت رعاية

الروح القدس – أمضى باردو أسبوعًا هناك فى خدمة صانع العجلات الخشبية. وبين جميع الأدوات التى كان يستخدمها فى عمله، أُعجب باردو على وجه الخصوص ببلطة متأرجحة، تُستخدم فى قطع قضبان العجلة. لها شفرة سميكة، عريضة، ثقيلة، على شكل هلال قمرى ولها ذراع متمددة كالنبوت. يتم الإمساك بها من وسطها، لتعمل بعد ذلك تقريبًا وحدها، متأرجحة من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، لتتصل حركتها بالشفرة.

فى مدينة "فيلنوف دى بيرج"، حيث كان ينام فى نزل يُدعى نزل الأسوار، كانوا يطعمونه غذاءً مجهولاً ولكنه لذيذ المذاق. وعندما سأل عن ماهيته قيل له:

– هذا هو مفروم البطاطس المطبوخ بالزبد.

– البطاطس؟ وما هذا؟

– ألا تعرف البطاطس؟

أطلعوه على ثمرات تشبه الأقماع البيضاوية، رمادية اللون، ترابية، بها سرات صغيرة هنا وهناك وفى عمقها أعين سوداء. تنمو فى هذه المنطقة الكثير من هذه الثمار تحت الأرض، حيث اشتهرت عن طريق أسياد قرية سير (منطقة آرييج – جنوب فرنسا)، فنمت على مدار السنوات الخمسين الماضية فى مزرعة "برادل". وفى

الإمكان تجهيز وطبخ هذه الثمرة بطرق متعددة كما أن الحيوانات تتغذى عليها أيضًا.

هكذا استهوت باردو هذه الثمرة حيث وجدها طيبة المذاق للغاية، حتى إنه طلب منهم أن يشرحوا له كيفية زراعتها، ثم اشترى منها رطلين كى ينقلها معه إلى أوفرنى.

- قم بزراعتها بعد انتهاء موجات البرد القارصة، على عمق نصف ذراع تحت التربة، ثم اجمعها فى شهر أكتوبر.

حملها معه فى جرابه الجلدى، على فرشة من القش. لدى وصوله إلى بلدة "أوبينا" فى منطقة فيفارى التى تعلو هضبة صخرية، لاحظ باردو أن معظم أهالى البلدة ينتعلون أحذية خشبية مثل التى يرتدونها فى قريته فيفيرول. ولكن الأطفال كانوا يمشون حفاة الأقدام. "إنى أقترب من أوفرنى" هكذا استنتج باردو. إن "أوبينا" بلدة بدون أجراس كنائس، حيث إن أهاليها قاموا بقرع ناقوس الخطر إعلانًا منهم التمرد على السلطة الملكية الحاكمة، وقد فعلوا ذلك منذ ثلاثين عامًا. فقد حطمها الجنود ذوو الخيول... لذلك فهم لا يقيمون أى صلوات أو قداسات، ولا احتفالات دينية، ونتيجة لذلك، لا يوجد أى سبب لقرع الأجراس. قال باردو لنفسه إن صناع الأجراس كان باستطاعتهم أن يتكسبوا مالاً وفيرًا فى هذه البلدة. وخصوصًا أن المنطقة قد عادت للازدهار من جديد، وذلك بفضل حرير دود القز الموجود هناك. أخذ باردو ذلك فى حسبانه.

عندما صعد الطريق المؤدى إلى منطقة أرديش، وصـل إلـى هضبة مغطاة بالغابات السوداء مثل السخام، وهناك وجد باردو مكانًا للنوم فى نزل خشبى ريفى ليس به ما يُقدم من طعام سوى الحساء والجبن والنبيذ ولكن بوفرة. نام باردو كقطعة حجر بعد أن أنهكه المشى، ولكن سريره كان مسكونًا بجيوش من البق. واستيقظ فى صباح اليوم التالى وهو فى غاية الاسترخاء وقد امتلأ جسده بالنقاط تمامًا مثل خريطته. تناول فى وجبة الظهيرة حساء آخر ثم واصل طريقه بعد أن دفع أجرة الغرفة خمسة عشر قرشًا.

سأل باردو مضيفه: ما هو اسم نزلك؟

– ليس له اسم... وبسبب هذه الصخرة الموجودة فى الساحة الخارجية، فقد تمت تسميته نزل "بير بل" ومعناه بكل بساطة الصخرة الكبيرة[(١)].

هكذا واصل باردو طريقه. فى بلدة بووى – سانت مارى، التى يأتى إليها الحجاج للتعبد أمام تمثال العذراء السوداء، هناك تعمل النساء فى حياكة قماش الجيبير والدانتيل. أما الرجال فيعملون فى صهر أو طرق الأجراس الصغيرة الخاصة التى تُعلق فى رقاب البغال وكذلك ألواح المواقد وأوعية الماء المقدس فى الكنيسة

---

(١) يرجى الرجوع إلى رواية " نزل الموت " بقلم ميشال بيرامور (دار نشر بيجمليون).

والنواقيس الصغيرة وأثقال ساعات الحائط، أو لوحات الدفايات. كانوا يصنعون كل ما هو يرن أو يهتز، أو يقرع موصلاً إلى مجال دائرة من خمسين فرسخًا، وكلها آتية من ورش هذه المنطقة (بووى - سانت مارى). وكان أجمل ما رأه باردو هناك هو ناقوس موسيقى ضخم مؤلف من أربعة وعشرين جرسًا صغيرًا معلقين في إطار خشبي. يمكن القرع عليها بعصى خشبية رفيعة لتعزف ألحانًا مثل لحن: "على جسر أفينيون"، و"وردة الغابة".

لم يتبق لباردو سوى يومين على وصوله إلى فيفيرول. وكان يتوق للعودة إلى بلدته حتى إنه ود لو سار خمس عشرة ساعة متواصلة إلى هناك. ونتيجة لذلك كلما اقترب من هدفه، كلما قل تلهفه في الوصول إلى هناك. فعلى مدار عام كامل عاش بدون أن ترده أى أنباء من عائلته أو من حبيبته التى لم يتوقف يومًا عن حبها. لقد أخطأ والده فى حساباته عندما فكر فى أن غيابه الطويل سوف يغير من مشاعر قلبه. ولكن ترى كيف تحمل قلب أوفرايزى هذا الغياب؟ ها هو قد عاد بعد أن أثرى عقله وروحه بالخبرة والمعرفة. لم ينضب حزامه المليء بقطع النقود الذهبية أو يشح. ترى ما هى الحالة الصحية التى سيجد عليها والديه وشقيقه جيرمان، وأخواته: سيدونى وكونستانس وألبرتين، وعمه أنطوان وأبناء عمه؟ إذن فقد كان يقترب من قريته متمهلاً، متأملاً ومصغيًا بدقة إلى كل ما هو حوله.

رن جرس كنيسة سانت مادلين معلنًا صلاة المساء. وقد بدت أطراف سنابل القمح الصغيرة الخضراء خارجة من التربة. والمزارعون يتوجهون إلى حقولهم وهم يرتدون سراويلهم المصنوعة من الخيش ونعالهم المثبتة فى كواحلهم بواسطة حبال من القش. والخنازير الهزيلة تنبش بأنوفها فى التربة حيث لم يكن هناك ما اعتادوا أكله من الجوز والفطر، تقودهم عصى الصبية ذوى السيقان العارية.

أمام أبواب المنازل، تجلس الجدات منهمكات فى أعمال الإبرة والدانتيل. وها هى الأبقار البيضاء والحمراء تجر وراءها العربات الصغيرة المحملة بحزم الحطب. راح باردو يقول لنفسه وقلبه يدق من السعادة والقلق: "ها أنا أعود إلى بلدى"! كلما تقدم فى عمق الريف، وحتى يؤكد لنفسه أنه لا يحلم، كان يصيح ويحيِّى باللهجة المحلية كل من يصادفه وكانوا يردون عليه بنفس التحية: الهمة يا رجال!

- شدوا حيلكم!

- شكرًا جزيلاً!

لقد هطل المطر خلال الليل، أما الآن فقد انقشعت السحب الداكنة كاشفة عن سماء زرقاء باهتة.

من بعيد، ارتسم قوس قزح مشكلاً ذلك المنحنى الرائع والذى يُعرف فى المنطقة باسم "حمالات جوارب القديسة العذراء". هكذا اختلطت جميع الأشياء معًا لتكون فى استقباله. شعر بجرابه الجلدى على ظهره والذى امتلأ لنصفه بثمار البطاطس، وفكر فى المفاجأة التى ستُحدثها. لقد أحضر معه أيضًا هدايا أخرى: غطاء رأس من مدينة بواتو لأمه، لتحميها من الذباب؛ وبعض السكاكين من مدينة تيير لوالده وعمه أنطوان، وشرائط شعر حريرية من مدينة أوبينا لعمته وبناتها. أما أوفرايزى، فاشترى لها قلادة الحب من مدينة بووى - سانت مارى، على شكل سلسلة يتدلى منها قلبان صغيران من الفضة.

وسوف يعيد المسدس دون أن تسنح له الفرصة لاستخدامه أو حتى الضغط على زناده.

(١٢)

ما إن أشرق صباح اليوم التالى حتى راح باردو يجوب الضواحى الواحدة تلو الأخرى، حيث كان يعلم أن أوفرايزى اعتادت التردد على هذه المنطقة بقطيع أغنامها الصغير. هكذا وجدها عند منطقة فرايس جالسة عند سفح شجرة الرماد، وفى يدها أداة الغزل التى لا تفارقها. فى البداية لمحته، ثم رأته، ثم تعرفت إليه، ثم جرت ناحيته، ثم ارتمى كلٌ منهما فى أحضان الآخر. دفنت رأسها فى كتفه، وراحت تطلق صيحات قصيرة وكأنها طفل صغير. كانت تفوح منها قليلاً رائحة الصوف الخام تمتزج مع رائحة الفلفل التى كانت دائمًا رائحتها الطبيعية. مرة أخرى، شعر بدوار خفيف. ظلا متعانقين هكذا لفترة، ينتحبان، يهذيان، يتأوّهان، غير قادرين على الكلام. ثم ابتعدا عن بعضهما قليلاً لينظر كل منهما إلى الآخر. أمسك بوجهها بين يديه، ولعق الدموع التى أغرقت وجهه. ثم عاد إليه الكلام شيئًا فشيئًا:

– ظننت أنك.. أنك لا تعرفين البكاء.

– أحيانًا... ما يحدث لى ذلك.

- أنت... لم تنسنى؟

- هل يبدو علىّ ذلك؟

- هل... ظللت مخلصة لى؟

- أقسم بذلك أمام مريم العذراء... وأنت؟

- وأنا أيضًا... أقسم بذلك.

بالتأكيد عادت أمام مخيلته كارلوتا. ولكن ما معنى أن يكون الإنسان مخلصًا؟ أن يحافظ على إيمانه وحبه سليماين دون أى تغيير؟ فلم يحدث له أبدًا، خلال غيابه الطويل هذا، أن أعطى مشاعره إلى أى امرأة أخرى. لم تكن كارلوتا بالنسبة له إلا متعة حسية جسدية... لا شىء إلا دغدغة لذيذة. بالضبط كمن يدخل إلى منزله، فى الطقس البارد، فيجد أمامه سريرًا يملأه الدفء. إنها لم تطلب أن يخفق قلبه لها... فقط علمته بعض الممارسات اللذيذة.

- أقسم لك بذلك. قال لها وهو مقتنع ببراءته.

لم يمل أبدًا من النظر إليها، فقد تزودت الآن بكل ما هو ضرورى.

- لقد أصبحت أكثر جمالاً... أكثر امتلاءً.

- إن عمرى تسعة عشر عامًا.

فى قرية فيفيرول، وبلا شك فى منطقة أوفرنى بأكملها، كـــان جمال المرأة يُقاس حسب وزنها وأيضًا حسب حجمها. فهم يريـــدونها ولاّدة بشكل جيد، ومرضعة بشكل غزير. أما الفتيات النحيفات فكـــن يثرن الشفقة، ولا يرغب أى رجل فى الزواج منهن.

جذب باردو من جيبه كيسًا صـــغيرًا مـــن القطـــن الرمـــادى المتسخ، وفتحه ثم أخرج منه قلادة الحب ووضعها حـــول رقبتهـــا. قالت أوفرايزى: هذا كثير علىّ. لن أستطيع أن أرتديه أبـــدًا... مـــاذا سيقول الناس عندما يرونى مرتدية قلادة من الفضة؟ لابد أن... لابـــد أن...

- لابد أن ماذا؟

- أن يكون هناك سبب لارتدائها.

- أى سبب؟

- أن أكون مثلاً، مخطوبة لك.

- مخطوبة لى؟

- كما يقولون: أن يكون بيننا وعد.

- أنت بالفعل كذلك! أنت كذلك!

- ولكنك لم تطلب ذلك منى أبدًا!

- ها أنا أطلب ذلك منك! عزيزتى أوفرايــزى بوتينـــا، هــل تقبلينني زوجًا لك؟

فى هذه اللحظة هى التى طوّقته بذراعيها.

كان الوقت ما زال سانحًا لغرس ثمار البطاطس فى الأرض. بعدها بدأت تطرح نبتات بنفسجية اللون. كان من الممكن اقتطاع كل منها إلى نصفين، بما أن كلاً منها تحتفظ على الأقل بــثلاث نبتـــات. قال بيير الذى كانت لديه خبرة كبيرة من كثرة سفره وترحاله: إنهـــا تشبه ثمار الكمأ (الفطر). هل سيتحتم علينا استخدام الخنازير لعمــل حفرات لهذه الثمار؟

- كلا... إنها مهمة سهلة للغاية يستطيع حتى الأحمق أن يقوم بها.

قال جيرمان: سيكون إذن أنا من يقوم بذلك.

- سنعمل جميعًا بتلك المهمة.

تمت زراعة البطاطس كل على مــسافة أربعـــة أقـــدام مـــن الأخرى، كما أوصوه فى مدينة "ڤيلنوڤ دى بيرج".

فى كل صباح، كان باردو يذهب ليرى نتيجة ما غرسوه. بعد أيام قليلة، لاحظ أن واحدة من هذه "الكمآت" قد أخرجت نبتـــة مثـــل الأذن. ثم أخرجت الأذن الأخرى. وسرعان ما راحت تخرج كل منها على حدة.

مع حلول منتصف شهر يونيه، كانت الثمار قد نمت ووصل ارتفاعها إلى مستوى الركبة. راح باردو يجمع التربة من حول جذورها حتى يتسنى لكل مجموعة مساحة كافية تحت طبقة ذات كثافة كافية من التربة، بالضبط كما تحتاج الدجاجات الصغيرة لكثافة معينة من الريش. فى شهر يوليو، وصل ارتفاعها إلى مستوى الفخذ، وتغطت بأزهار أرجوانية اللون جميلة ولكن ليس لها رائحة. هنا أ باردو نفسه وهو يرى أفرع الثمار وقد ترعرعت على مسافات متباعدة جدا، حيث أصبحت أوراقها تتلامس الآن. راحت القطط ترقد تحتها لتتلذذ بظلالها.

وكما كانت تفعل الأم روسييه عندما تضع إصبع سبابتها فى فتحة شرج الدجاجة لمعرفة ما إذا كانت البيضة على وشك الخروج أم لا، كان باردو يضع أصابعه فى الأرض المتجمعة، ليشعر بالسعادة عندما يتحسس البيض (الثمرات) الموجود تحت الأرض. لقد أوصاه مزارعو قرية "فيلنف" بعدم قطف ثمار البطاطس قبل أن تصبح جذوعها نصف ذابلة.

فى يوم السادس من شهر أكتوبر، وهو اليوم الموافق لعيد القديس باردو، سارع باردو بقطف ما أسماه بحقل البطاطس. كان عليه أن يغرس الجزء الحديدى من المجرفة إلى عمق كبير، ثم يخرجه مرة أخرى إلى السطح شيئًا فشيئًا، جاذبًا النبات من أوراقه.

من أول ضربة، تعالت صيحات الدهشة والانبهار من حوله: لقد علق بمجرفته عنقود من ثمرات البطاطس، البعض منه كبير فـــى حجـــم التفاح، والبعض الآخر فى حجم المكسرات، هــذا دون الأخــذ فـــى الحسبان ما تبقى مدفونًا تحت التربة، والذى تحتم جذبه بلطف حتى لا يتجرح. أما الثمرة الأم فكانت بارزة فى منتصف مجموعتها، لونهـــا مائل إلى اللون البنى، مجففة، ذابلة وميتة مثل الجدة ماريا. اتـــسعت عينا فيليستن من الدهشة فأصبحت مستديرة مثل قطع عملـــة الـــستة فرنكات وراح يهتف بلا توقف:

- يا سيدى المسيح! يا سيدى المسيح! يـــا ســـيدى المـــسيح!

أراد أن يقوم بالاقتطاف هو الآخر.

سرعان ما أنجزت المجارف ما تبقى من عملية الاقتطاف. ملأ الحصاد أربع سلال وقاموا بتخزينها فى القبو.

قال الأب: سوف نأكل نصفها ونحتفظ بالباقى لعمليـــة غـــرس البذور القادمة.

قالت له الأم: والآن علمنى كيف أقوم بطبخها. إن أهالى قرية "فيلنف" يطبخونها مفرومة... إذن نحتاج إلى مبشرة.

- لدى واحدة. قال بيير: إنها أداة مبشرة التبغ.

كان يستخدمها لسحق أوراق ثمرات الجزر المستقدمة من الجزر البعيدة، وكانت هذه المبشرة تحمل اسم (جريفواز). ولكن يستحيل تمرير اللحم الموجود داخل ثمرات البطاطس فى نفس ثقوب المبشرة كما هو متبع مع التبغ.

قال باردو: هناك، يقوم أهالى فيلنف بشيِّها على جمرات الفحم مثل الكستناء، ثم يقومون برفعها عن النار بأطراف مدببة لمنع انفجارها.

توضع ثمار البطاطس على قطع الفحم المتوهجة بعد أن يتم إزالة الطين من عليها. فتتصاعد منها رائحة تميل إلى الحلاوة تدير الرءوس. ولكن عندما يتحول لون قشورها إلى اللون البنى، يبدأ كل منهم فى أكلها مما يلهب فمه وأصابعه. مع وضع قليل من الملح عليها. وهكذا، جاءت هذه الثمار الدفينة من بلدة برادل فى فيفارى وعُرفت فى قرية فيفيرول قبل أن تسترعى انتباه أهالى فرساى وباريس. ولكنها ظلت لفترة طويلة حكرًا على عائلة مونييه، الذين كانوا غيورين عليها كما يغارون على أسرار مهنتهم فى صناعة الأجراس. فيما بعد، سميت هذه الثمار باسم الكمأة فى منطقة أوفرنى وبالبطاطس فى بقية أنحاء المملكة.

من جهة أخرى، كان مزارعو منطقة ليفرادوا- فوريز قد اكتشفوا بالفعل كمثرى الأرض، أو ثمر القلقاس. وكان يتميز على ثمرة البطاطس بأنه يقاوم الصقيع.

كما أنه ينمو حتى فى أسوأ الأراضى الزراعية، وكانت تترعرع على شكل جذوع طويلة مثل ثمار القنب، وبها زهور صفراء مثل الشموس الصغيرة. وكانت الخنازير مغرمة بشدة بهذه الثمار ذات اللحم الأبيض المشوب بالوردى. كما كان الناس يتناولونها أيضًا بكميات صغيرة. كان اقتلاع ثمار التوبين (القلقاس الرومى) من التربة لا ينجح أبدًا فى استئصال فروعها المتسلسلة، لذلك لم يكن عليهم إلا بالكاد إعادة غرسها، فقد كانت تنمو بغزارة وبكل سهولة.

واصل باردو وأوفرايزى لقاءاتهما وكان جميع أهالى القرية على علم بحبهما. حتى أبيها الحانوتى فقد أذعن هو الآخر فى النهاية بقبول هذه العلاقة، حيث قال لنفسه إنه على كل حال، لو كان الشاب مونييه من الجنون لرغبته فى الارتباط بابنة رجل بائس مثله، فإنه، بوتينا سيستفيد هو نفسه من هذا الزواج. لذا قرر أن يغمض عنهما عينه، إن لم يكن الاثنان.

كانا يلتقيان خلف منحدر الهضبة، وراء المجمع الكنسى، وسط غابة الأشجار وتحت حماية أغصانها وأوراقها النصف مظللة والنصف مشمسة، فقد كان لديهما الكثير ليتحدثا فيه. راح باردو يحكى لها عن رحلته الطويلة. بسط أمامها الخريطة التى كان والده قد أعدها له وأخذ يشير لها إلى جميع المدن التى توقف بها لا أكثر

ولا أقل. شرح لها المهن العديدة التي أذعن للقيام بها. كانت أوفرايزى تستمع إليه وهى فاغرة الفم. لم يحك لها بالمرة عن الثلاثة أيام التى قضاها فى نزل مارجريت. وأيضًا فقد أراد أن يطبق مع عروسه الموعودة قبلة الفم المفتوح. فى البداية تفاجأت هى للغاية بهذه القبلة، بل صُدمت إلى حد ما.

- هل تعلمت ذلك أيضا أثناء رحلتك؟

- نعم... لقد أخبرنى عنها بعض الأصدقاء... وشرحوها لى.

لم تلح أوفرايزى أو تسأله عن ذلك أكثر. بل يبدو وأنها قد تلذذت من هذه الممارسة.

وبالرغم من ذلك، لم يجرؤ أى منهما أن يتمادى أكثر فى هذه المداعبات واللمسات. ربما بسبب حيائهما الفطرى. أو ربما خوفًا من ارتكاب معصية. وأيضًا بسبب الماعز التى ترعاها أوفرايزى والتى كانت تسعد بالرعى قريبًا منهما ولا تكف عن التحديق بهما.

فى صباح يوم الأحد، استبقى بيير- فيليستن ابنه باردو فى غرفة مكتبه التى يرسم ويخطط بها أعماله من نماذج الأجراس وهو يقول له إنه يريد التحدث معه فى أمور خطيرة:

- ما الذى يمكن أن يكون أكثر خطورة من الزواج؟ أنت لم تبلغ بعد عشرين عامًا وليس هناك ما يدعو للعجلة إلا إذا رأيت أنك

متورط فى علاقة سيئة. وعلاوة على ذلك، فإنه من الأفضل أن يتزوج الرجل وهو حديث السن بدلاً من أن يجرى وراء راعيات الغنم أو فتيات الهوى، وهو ما يقود حتمًا إلى وقوع أحداث مؤسفة. لهذا السبب يا ولدى، أريد أن أقدمك إلى إنسانة ملائمة تمامًا، أود أن تصبح زوجة لك، فهى تنتمى إلى واحدة من أفضل العائلات فى المنطقة. إنها ابنة كاتب العدل لقرية "سانت أنتم"، المحامى تورنبيز.

- يا أبى، لا جدوى من أن تستدعى هذه الفتاة إلى هنا. لقد أجبرتنى على السفر والقيام بجولة حول فرنسا لكى تجعلنى أنسى أوفرايزى بوتينا، ولكنك لم تتمكن من ذلك.

إنها المرأة التى أريدها كزوجة وكأم لأطفالى. فيما عدا ذلك، سأبقى أعزب طوال حياتى.

رد عليه الأب بصبر: انتظر! فلنتوافق فقط على رؤية الفتاة التى أحدثك عنها. أنا لا أجبرك على شىء. مثلما يرغب المرء فى شراء عنزة، فهو يذهب إلى السوق، ويفحص هذه وتلك ثم يقارن ثم يحدد اختياره. لا أريدك أن تختار امرأة دون أن تقارنها بأخرى.

- لن يفيد ذلك فى شىء.

- سوف يأتون لزيارتنا بكل بساطة من باب الذوق والأدب، دون أى إلزام بشىء من هذا الطرف أو ذاك. إذن لا يمكنك رفض أن تكون مهذبًا.

قال له الابن وهو يهز أكتافه: كما تشاء.

قامت النساء بأعمال تنظيف كبيرة فى المنزل كما لو كان المدعوون لديهم الحق فى فحصه من القبو إلى السندرة الموجودة فى العلية. قاموا بتغيير الستائر وتلميع قطع الأثاث بالشمع وتنفيض السجاجيد. كما قاموا بوضع الزهور وأغصان النباتات فى كل مكان. لو كان سلطان بابل هو الذى سيزورهم لما قاموا بكل هذه التجهيزات الكبيرة.

وفى صباح يوم الأحد المشهود، ذهب جميع أفراد عائلة مونييه لحضور القداس وقد مشوا جميعًا فى موكب. بعد ذلك تجمعوا حول مائدة الطعام الرئيسية، ثم بدأوا فى تناول الوجبة الرئيسية: قطع البطاطس المنقوعة فى الحساء والدجاج الحبشى واللحم البقرى المسلوق وقطع من لحم الضأن ثم الجبن والمربى. بعد أن انتهوا من الطعام، ذهبوا مرة أخرى إلى الكنيسة لحضور صلاة نهاية اليوم.

ها هى عائلة تورنبيز تصل داخل عربة حنطور ذات سقف محكم يجرها زوج من الخيل وبداخلها الأب والأم والابنة. رآهم فيليستن، الذى كان واقفًا وراء النافذة ينتظر وصولهم، فهرول فى استقبالهم. - لقد كنا مارين بالقرب من هنا بالمصادفة. هكذا ادعى كاتب العدل: وقلت لنفسى: ماذا لو مررت لأحيى صديقى العزيز بيير مونييه؟ وها نحن هنا... لكننا لا ننوى البقاء طويلاً، فنحن لا نريد أن نسبب لكم أى مضايقات.

- مضايقات؟ على العكس! على العكس! أهلاً وسهلاً بكم.

ظهر جميع أفراد عائلة مونييه بعد أن كانوا مختبئين خلف الباب لتحية الضيوف وتقبيلهم. كانت زوجة كاتب العدل ترتدى كل حليّها ومجوهراتها، بينما قصعت الابنة شعرها فى قصعات لأعلى فيما يسمى بتسريحة فونتاج مثل السيدة إرميلين ماركيزة بلدة أليجرى. التف الجميع جالسين فى غرفة الصالون. فى البداية قدمت فرانسواز مشروب "الكاسيس" الكحولى، فأخذت السيدات نقطة صغيرة منه مع كثير من الماء. بعدها أحضرت الطباخة بعض الرقائق والكعك وفطيرة التفاح. ثم وضع بيير أمامهم قنينة نبيذ. كان لدى الشاب باردو متسع كبير من الوقت لكى يتفحص أماندا تورنبيز، التى هى نفسها فى حاجة لهذه التسريحة العالية، لأنها قصيرة القامة إلى حد ما. ولهذا كانت ترتدى أيضًا حذاءً ذا كعب عالٍ للغاية. قالت لها فرانسواز: إن تسريحتك حقًا جميلة يا آنسة. ولكن كيف تثبتين شعرك بهذه الطريقة؟

شرحت لها الأم كيف تترابط هذه القصعات وتتماسك بواسطة سلك معدنى رفيع، وأن هذه التسريحة تستغرق ساعة من التصفيف. فى قرية فيفيرول، يستخدم المزارعون هذه الأسلاك المعدنية فقط فى إصلاح النعال الخشبية المنفصلة.

كانت الآنسة تورنبيز ذات جمال ريان، وبشرة خمرية للغاية حتى إن من يدقق النظر إليها جيدًا، يلمح ظل شارب خفيف فوق شفتها العليا تخفيه بطبقة من البودرة البيضاء. وقطعًا لكي تحول الأنظار الثاقبة عن فمها، فقد لصقت بالقرب منه قطعة صغيرة من قماش التفتا والذى يطلق عليه الباريسيون "شامة". تحيط عينيها أهداب طويلة، بينما دهنت يديها بمسحوق الأرز. كانت بضة الجسد وممتلئة فلم يكن ينقصها من تلك الجهة أى شيء عن فرايزى بوتينا. وكانت قليلة الحديث ولكنها تبتسم كثيرًا، مما يحفر في خديها غمازات جميلة. كان الرجال هم الذين يديرون الحوار. فراحوا يتناقشون حول الأحداث البعيدة عن قرية فيفيرول: الحرب والسلام، الملك وكيف أصبح طاعنًا فى السن، المصائب التى ابتليت بها أسرته، الأوبئة التى انتشرت فى المملكة، الجبايات التى فرضها الملك على كل فرد، غلاء أسعار الخبز والنحاس. كما تحدث المحامى تورنبيز عن ابنته: كيف تلقت تعليمها على أيدى راهبات أورسلين فى دير سان أنتم وأنها تتحلى بكل الفضائل.

ثم اقترح عليها فجأة: أماندا، ماذا لو تغنين لنا شيئًا؟ قالت أماندا وقد احمر وجهها خجلاً حتى بدايات شعرها: ولكن... ولكن...

- ولكن ماذا يا صغيرتى؟

- لا توجد موسيقى مصاحبة.

أوضح أبوها: هذا صحيح. عادةً ما تعزف راهبات أورسولين على آلة القيثار والمندولين. ولكنى متأكد من أنها تستطيع أن تغنى دون الحاجة إلى ذلك... فلن تنجذبوا إلى شىء أفضل من صوتها. ألح عليها أفراد عائلة مونييه، حتى رضخت الفتاة فى النهاية.

- ماذا ستغنى لنا؟

- بروميثيه فى القيود الحديدية.

- إنها أغنية بديعة، رغم أنها... كيف لى أن أقول ذلك... جريئة شيئًا ما.

ساد الصمت... وتوقف الذباب عن الطنين. تنحنحت أماندا وبدأت فى غناء المقطع الأول:

بروميثيه مكبل بالقيود الحديدية،

وقد نقره النسر،

يموت لهذا السبب؛

وأنا أيضًا، أموت عشقًا".

كانت هذه الكلمات ملائمة تمامًا للمناسبة فعلَت الابتسامات الوجوه. أما المقطع التالى فلم يكن أقل جرأة من السابق:

"وبشكوى آسفة،

هكذا، راح تيرسيس فى ذلك اليوم،

يقول فى هذا الوادى:

"ولكنى أنا، أموت من الحب"

انفلق قلب الرخام،

وعلى نفس وقع الصدى، بدوره،

جعل الأشجار تردد هى الأخرى:

"ولكنى أنا أموت حبًا".

أحنت الفتاة رأسها لتعلن أنها قد انتهت. صفق الحضور بحرارة وراحوا يقبلونها ويهنئونها. راح بيير يختلس النظر بزاوية عينه ناحية ابنه، وكأنه يقول له: "أترى! كم هو رائع أن يكون فى المنزل صوت عذب مثل هذا الصوت! هناك أناس تدفع نقودًا لكى تستمع إليه!" لم يبخل باردو عن مجاملتها أيضًا، رغم ذهنه الشارد فى عالم آخر: فى أصابع أوفرايزى وهى تلف على أداة الغزل، فى شعر أوفرايزى الذى تفوح منه رائحة الفلفل، فى فم أوفرايزى عندما يمارسان قبلة الشفاه المنفرجة.

غادرت أسرة تورنبيز قبل هبوط الليل حتى لا يضطرون إلى السفر على ضوء المصابيح. لكى يصلوا إلى قرية "سان أنتم"، عليهم قطع حوالى ساعتين ونصف الساعة من الطريــق مــرورًا بقريتــى إجليسول وسان كليمن. سمعوا أجراس عربة الحنطور التــى تقلهــم وهى تبتعد حتى تلاشت.

ظل الوالد وابنه جالسين وجهًا لوجه.

- حسنًا، ما رأيك فى الآنسة أماندا؟

- تغنى بشكل جيد كما أنها جميلة إلى حد ما رغم شاربها.

- شاربها؟

- ألم تلاحظ ذلك؟

- أنت تريد أن تمزح على ما أظن!

- انظر! ليس أنت من سيتزوجها! ولهذا فقد شــاهدتها عــن كثب، كما يفعلون فى سوق الماعز.

- هل لك ملاحظات أخرى عليها؟

- إنها حقًا قصيرة... ولكن إذا صعدت فوق كرسى...

- كن جادًا قليلاً باللـــه عليك.

– فلتعلم أننى لن أحبها أبدًا، فأنا أحب فتاة أخرى.

– الرجل ليس فى حاجة إلى الحب كى يتزوج. فكما يقول المثل: الزواج عن حب تنتج عنه ليالٍ جميلة وأيام سيئة. المرأة الجميلة هى مرآة الرجل المجنون. إن الحب والمودة يأتيان لاحقًا بعد الزواج. لذلك خذ وقتك فى التفكير.

ظل باردو يفكر كثيرًا. وهو يجمع البطاطس من التربة. وهو يقطع الحطب فى الغابة... وهو يصطاد سمك السلمون فى بحيرة لاليجون. ولكنه كلما فكر فى ذلك، كلما أدرك أن ابنة الحانوتى لا غنى عنها فى حياته.

حكى لفرايزى عن زيارة أسرة تورنبيز. عن شعر أماندا المثبت بالسلك المعدنى. عن شاربها. عن أغنية بروميتيه. ثم، وبعد رحيلهم، عن حديثه مع والده. عن الليالى الجميلة والأيام السيئة.

– لماذا سوف تكون أيامنا سيئة؟ سألته أوفرايزى.

– لا أعرف.

– هل كانت أيامنا ستصبح أفضل إذا لم نكن نحب بعضنا البعض؟

– هذا هو ما أسأله لنفسى.

- إذن خذ وقتك فى التفكير.

- أنت الآن تتحدثين مثل والدى. أنا أفكر فى هذا الأمر منذ ثلاث سنوات. ألم تعودى محبوبتى بعد؟

- إن الارتباطات مثل ضفائر الشعر: ترتبط وتتفك. لا يجب أن نتعجل الأمور.

ظلا متخاصمين لمدة أسبوع كامل بعد هذا اللقاء. ذاقا معًا عذوبة سوء التفاهم التى أعقبها - وكانا يعرفان ذلك مسبقًا - حلاوة التصالح. وفى هذه اللحظة، كان لقاؤهما عبارة عن فيضان من قُبل الشفاه المنفرجة، حيث بدا كلٌ منهما وكأنه يرغب فى أن يبتلعه الآخر. انتهيا من فيضان القبل وهما منقطعان الأنفاس.

- هل طلبت موافقة والدك على زواجنا؟ سألته أوفرايزى.

- ليس بعد ... ولكنه لن يعطينى إياها.

- إذن يجب أن تلوى ذراعه، إذا كنت موافقًا على ذلك. راحت تشرح له ماذا يجب أن يفعل، وقد وافق على ذلك.

يوم الأحد التالى، وبينما توجه المصلون إلى القداس الكنسى، تمكن جميع أهالى قرية فيفيرول من رؤية الخطيبين الجديدين: يتأبط كل منهما ذراع الآخر. هكذا راح باردو مونييه وفرايزى بوتينا

يتمشيان معًا فى البلدة متشابكى الذراعين. بات إذن من الواضح أن هذا يعنى: ها هو خطيبى، وها هى خطيبتى. لم يعد أحد يجهل ذلك. من الآن أصبح مستحيلاً على الشاب صانع الأجراس أن يتقهقر إلى الوراء، وإلا أثار انتقادات الأهالى لارتباطه بأخرى.

حتى بيير- فيليستن نفسه فقد اضطر إلى قبول هذه الغصة. فقد تخاصم إلى الأبد مع كاتب عدل قرية "سان أنتم"، بل ذهب شخصيًا إلى منزل بوتينا. كان الحانوتى يقوم "بتنظيف زريبة أبقاره"، ويُخرج السماد من الحظيرة على النقالة ذات العجلة الواحدة، ويرفع كومة القش التقليدية الموجودة فى ساحة منزله على عربة صغيرة والتى تنقر عليها الدجاجات وتؤذن الديكة تحية لشروق الشمس. ما إن رأى بيير مونييه يقترب مرتديًا قبعته الطويلة حتى سارع ليغسل يديه فى النافورة الموجودة فى الساحة، ويحييه بانحناءة من ظهره رد عليها بيير بوضع يده على قبعته. كانت الآنسة واقفة فى المراعى. قال بيير وقد تملكه حرج شديد: حسنًا، ها أنا..

- هل لى أن أعلم سبب تشرفى بزيارتك؟

- أمر هام للغاية.

- إذن تفضل بالدخول، سنكون على راحتنا أكثر فى الكلام. وبالرغم من مهنة بوتينا النجسة التى يعمل بها، فإنه لم يكن أفقر

أهالى البلدة. تشهد على ذلك قطع الأثاث الموجودة فى غرفة معيشته: فالمائدة والأريكة مصنوعتان من خشب البلوط أما البوفيه الخشبى فمنحوت ببعض الرسومات، وها هو لحم الخنزير معلق على الحائط، وأقراص الجبن تصطف على الرفوف، والمدفأة يتصاعد منها دخان جذع حطب، وطاسة الطبيخ معلقة على رف الأوانى. وقد ملأت الغرفة رائحة الطهو الطيبة.

- أنا أرمل منذ خمس سنوات... ولكن لا يمكن أن نترك أنفسنا لنموت من الجوع، أنا وابنى وابنتى... بل يجب أن نعيش جيدًا... فالموتى فى حاجة إلينا أيضًا.

أكد بيير على كلامه : يجب أن يعيش المرء منا حياة جيدة.

- لقد كنت على وشك إعداد الطعام. إذا كنت ترغب فى الأكل معى، فإن ذلك سوف يسعدنى.

هز بيير رأسه بالنفى: أشكرك جدًا.

دلف بوتينا إلى الغرفة المجاورة، وعاد منها يحمل كرسيًا من القش، وقدمه لضيفه بينما جلس هو نفسه على طرف الأريكة. تنحنح بيير، ثم ملس على لحيته وهو يبحث عن الكلمة الأولى التى سيبدأ بها حديثه:

- لقد تمكن الجميع... هكذا بدأ.

راح الآخر ينتظر باقى كلامه وهو يحبس أنفاسه.

- لقد تمكن جميع أهالى قرية فيفيرول من رؤية ابنتك وهى تتأبط ذراع ابنى. أنت تعلم المثل الذى يقول: من الأفضل أن تُبقى مئة نعجة بالقرب من حقول القمح على أن تُبقى فتاة خفق قلبها بالحب.

لم ينبس بوتينا بكلمة واحدة وساد الصمت مرة أخرى فاضطر مونييه لكسره قائلاً:

- نستطيع قول الشيء نفسه عن الشبان أيضًا... وعلى ما يبدو أن ابنى مجنون بحب ابنتك.

- هذا هو ما قيل لى.

- وعلى ما يبدو لى أيضًا أنه ليس بيدنا حيلة سوى القيام بشيء واحد.

- ما هو؟

- أن نزوجهما.

ساد صمت طويل كان الحانوتى بوتينا هو أول من خرج منه موافقًا وبأنه ليس لديه أى مانع، على شرط أن تمضى الأمور بشكل صحيح، بمعنى كل ما سيحدث بعد الخطوبة. وأنه شخصيًا، لن يستطيع إعطاء مهر ابنته إلا ملابسها، وبعض ملايات الأسِرّة القطنية وأغطيتها وكذلك دولابًا تقليديًا سيطلب من ابن عمه النجار صناعته.

وحسب التقاليد، ستجوب كل قطع الأثاث أنحاء القرية بطولها وعرضها، على عربة مفروش بها طبقة من القش، حتى يعلم كل الأهالى أن ابنة بوتينا لم تكن بهذا البؤس الذى يعتقده الكثيرون. أما إذا رأى والدا العريس أن عدد الملابس القليل وقطعة أثاث الدولاب هى أشياء متواضعة وبالية، فلن يمنعهما شيء من إضافة أشياء أخرى من ممتلكاتهم.

- لن يكون هناك أى عيب أو تحرُّج. أوضح حانوتى الأموات قائلاً: إذا ما وضعت مثلاً كيسًا من النقود فى عربة الأثاث... فأنت رجل غنى.

- ماذا! أتريد منى، أنا الحما، أنا أعطى مهرًا لزوجة ابنى؟

- إن ابنتى لديها ثروات ومميزات أكبر من أموالك: قوتها، جمالها، نزاهتها، كل هذه هى صفات جميلة حبتها بها الطبيعة. أتعلم كم وزنها؟

- ليس من المعقول أن تبيعها لى حسب وزنها، كما لو كانت بقرة عشارًا!

- أريد فقط أن أوضح لك أنها لا تفتقر إلى أى شىء... كما أنها ستنجب لكم أحفادًا موفورى الصحة والجمال. ولسوف تشكرنى يومًا ما على إعطائها لكم.

- ومع ذلك كيس نقود! دعنى إذن أفكر فى الأمر برمته... فأنا لم أتوقع مثل هذه المساومة.

- كلا، عليك أن تقرر الآن وفورًا، وإلا فربما أغير رأيى أنا الآخر. فكما يقول المثل: إذا اضطررت لتقبيل مؤخرة الكلب، فالأجدر بك أن تفعل ذلك اليوم قبل غدًا. ما إن قال بوتينا الحانوتى ذلك حتى انفجر ضاحكًا. فهؤلاء القوم، مهما فكر الناس بهم، ليسوا ذوى طبيعة حزينة خارج نطاق عملهم. نكس مونييه رأسه وقد شعر بشيء من الارتباك، فقد كان يعلم بالفعل أنه سيستسلم للأمر على طول الخط. فقط ومن أجل الشكل الخارجى ولحفظ ماء الوجه، كان يساوم على مضمون الصفقة. فى نهاية الأمر، وقع الاثنان على الاتفاقية، فمد كل منهما يده وعقد إصبعه الصغير فى إصبع الآخر:

- تمت الصفقة!

- تمت الصفقة!

بالضبط كما يفعل تجار الماعز. يجذب كل طرف إصبعه قليلاً، فيما يعنى أن الصفقة قد تمت.

أول خطوة قامت بها النساء تجهيزًا لحفل هذا الزفاف الإجبارى كان بإعداد حلوى الملبس: اللوز، البندق، المربى المجففة،

بذور البطيخ، الباربريس. فى البداية كان ولابد من نزع قشور جميع هذه المكسرات. بعد ذلك يجب تذويبها وتبييضها فى سكر القصب الذى يتم شراؤه من العطار على نار هادئة. كانت تُصب فيه المكسرات ثم تُستخرج بواسطة مصفاة ثم تُترك لتجف. يُكرر هذا الغمر لعدة مرات، حتى تُصبح مغلفة. فى النهاية، توضع حبات الملبس فى كيس من القماش الخشن وتُرج بشدة حتى تنعم الطبقة الخارجية لكلٍ منها من خلال الاحتكاك. كما يحدث لعقولنا حين تحتك، خلال رحلاتنا بعقول الآخرين.

قبل ثلاثة أسابيع من الموعد المحدد للزفاف، وقف الأب فيدال تحت قبة مدخل الكنيسة، ليعلن أن هناك وعدًا بالزواج بين السيد باردو مونييه بن فلان وفلانة على الآنسة أوفرايزى بوتينا ابنة فلان وفلانة، طالبًا من الحضور أن يُعلمونه إذا ما كانت هناك أى معارضة على هذه المصاهرة، أو أن واحدًا منهما قد وعد بالزواج من شخص آخر، أو بسبب ديانة أخرى، أو لأى سبب آخر". ومن ثم بدأ العريس والعروس فى تجهيز مجموعة دعواتهم. اختارت هى فتاة لتكون وصيفة الشرف، بينما اختار هو شابًا ليكون إشبينه، حتى يكونا مسئولين عن تنظيم مراسم حفل الزفاف. فى عشية "اليوم المشهود"، تم عرض المهر ليجوب أنحاء البلدة. وُضع على عربة

تزينها الزهور وتجرها بقرتان صغيرتان. تضمن المهر بعض الملاءات، وبعض الاغطية والملابس والأدوات المنزلية، والخزانة المصنوعة من شجر الصنوبر المصبوغ بهباب المدفأة حتى يعتقد الناس أنه من خشب الأرو. وبالطبع تم عرض وبوضوح، كيس النقود الجلدى الذى يكتظ بالعملات الذهبية، وفقًا للاتفاقية. راح أبوها الحانوتى يتمشى بزهو أمام العربة، وبخطوات بطيئة جدًا، متعمدًا الوقوف كل عشر خطوات لكى يتسنى لكل فرد من أهالى فيفيرول أن يتأمل بإعجاب، ويحزر ما الذى يحتوى عليه كيس النقود. كان على العروسين أن يذهبا إلى الكنيسة ليدلى كل منهما باعترافاته أمام القس. فى هذه المرة لم يكن هناك أى مجال للضحك، مثلما حدث لباردو وهو صغير فى كنيسة سان بونيه لو شاتوه، بل كان الأمر جادًا تمامًا. كانت فرايزى هى الأولى التى استجوبها الأب ڤيدال. اعترفت فرايزى له بخطاياها الصغيرة وقد احمر وجهها خجلاً فى الركن المظلم:

- ماذا الذى فعلتيه مع عريس المستقبل؟

- كنا نمسك بأيدى بعضنا البعض... ونقبل بعضنا البعض.

- كيف كنتما تقبلان بعضكما؟

- بقبلة على هيئة قمع.

- قمع! ما هذا الذى تقولينه لى؟ اشرحى لى، شرحت له الطريقة، موضحةً له أنها تعرفت عليها بفضل عريسها. بدا ڤيدال مندهشًا للغاية، ولكنه فى ذات الوقت ظل حالمًا بذلك. فطريقة القبلة القمعية هذه، لا ينبغى أن تطبق فى قرية فيفيرول.

- هل ذهبتما إلى أبعد من ذلك؟

- أبعد من ذلك؟

- بمعنى هل مارستما أشياء مخزية أكثر، من تلك التى يحرمها ديننا؟

- كلا يا أبتى. لا أعتقد ذلك.

- أرى أن الوقت قد حان لكى تتما زفافكما. جاء دور باردو، فاعترف بخطاياه حين يغضب، بشراهته فى الأكل، بالكسل، وبالشح. ألح عليه القس قائلاً :

- ألم تنس شيئًا؟

- أعتقد كلا.

- ألم تعرف نساء أخريات قبل خطوبتك؟

- آه... نعم... ربما... فى قرية مارجريت بالقرب من مدينة نييم. أرملة تُدعى كارلوتا، من أصل إيطالى.

- آه من الإيطاليات! لقد قمن بالاعتراف لى عندما كنت فى روما. يا لهن من مذنبات رائعات! وهل علمتك كارلوتا هذه شيئًا مختلفًا؟

- ربما... ربما... لا أعرف.

- ألم يكن هناك، على سبيل المثال، شىء يُدعى القبلة "القمعية"؟

- من المحتمل.

- كم مرة؟

- على مدار ثلاثة أيام... لم أحص المرات.

فُرض على باردو كتكفير عن ذنوبه التسبيح ثلاث لفات من المسبحة. كل واحدة يوميًا.

أخيرًا جاء اليوم المشهود. ارتدت العروس فستانًا لونه أزرق ليلى أو تقريبًا أسود. وضعت على رأسها طرحة صغيرة من قماش الدانتيل، وأمسكت فى يدها باقة من زهور الليلاك والزهور البيضاء، رائحتها قوية للغاية. وبغض النظر عن تزينها المتواضع، فقد بدت

وكأنها ابنة بارون، وليست ابنة حانوتي قبور. فقد رفضت وضع شعر مستعار، وتركت شعرها الكستنائي الطويل ينسدل على كتفيها. أما باردو فقد ارتدى بدلة على الطريقة الفرنسية، وسروالاً من القماش القطني وجوارب ملتصقة من القطن، وحذاء ذا حلقات. عندما أرادت العروس أن تمر من عتبة منزلها الجديد، وجدت بابه مسدودًا بواسطة إكليل من الورد البلدي. توجب استدعاء العريس الذي جاء ومعه مقص، وزجاجة خمر وراح يصب منها للشبان الذين قاموا بوضع إكليل الورود، ثم قص خيطه بعدها. بدأ الموكب في السير: أولاً، اثنان من الموسيقيين وعازف كمان وعازف ربابة. ثم العروس متأبطة ذراع الإشبين. ثم جميع المدعوين، تفوح منهم روائح النعناع وعطر الليمون. وفي ذيل القائمة، العريس ترافقه وصيفة الشرف. وبدأت الموسيقى في العزف!

إننا نقودها، العروس المسكينة، نقودها ببطء شديد.

إننا نقودها عند من يأكل قليلاً.

إننا نقودها عند من يسد الجوع.

ولكي يزيدوا من أجواء البهجة والفرح، راح عمال فيليستن يطلقون في الهواء طلقات من بنادقهم. حمل الأبريشي علبة العطوس (التنشق)، وراح يقدم منها لفافات إلى جميع المدعوين. غمست

السيدات المسنات فيها بعناية أصابع السبابة والإبهام، وألقين بالمسحوق على ظهور أيديهن، وباليد الأخرى يشكلن هرمًا صغيرًا، ورحن يستنشقنه بقوة. أحدث ذلك عطسًا صريحًا هائلاً مما يعتبر فألاً وعلامة على حياة طويلة. ثم راحوا يهنئونه قائلين: فليحفظك اللـه!. أطيب التمنيات... صحة جيدة وعمرًا مديدًا.

من جانبها، راحت وصيفة الشرف توزع الحلوى. من بين حبات الملبس هذه، هناك دائمًا حبة بها مقلب، فبدلاً من نواة اللوز، يوضع قلب فلفل. من يتصادف ويتناولها، يكون أمامه حل من اثنين: إما أن يبصقها وسط غمرة من الضحك والسخرية، أو أن يبتلعها دون أن يُحدث أى علامات تجهم على وجهه، أو بحاجبيه، وفى هذه الحالة تكون صانعة الملبس هى من شرب المقلب. كان أحد أبناء عائلة روسييه - فتى فى الخامسة عشر من عمره - هو الذى وقعت من نصيبه الحبة المزيفة. حاول ابتلاع الحبة ببسالة، ولكن الفلفل صعد إلى عينيه التى سالت منها دموع بحجم حبات البندق. أخذوا يضربونه على ظهره، ثم راحت وصيفة الشرف تواسيه بإعطائه حبات ملبس حقيقية.

راحت موسيقى آلة الربابة وآلة الكمان تعزفان:

دائمًا ما تهتف العجوز صارخة:

سوف ينتهى بنا الأمر كلنا، سوف ينتهى الأمر بنا كلنا!

دائمًا ما تهتف العجوز صارخة:

سوف ينتهى بنا الأمر كلنا، ولن نجد ما يكفينا!

هكذا امتلأت الكنيسة تقريبًا عن آخرها بحوالى مائتين من المدعوين. فى الخارج، ما زالت تدوى طلقات البنادق النارية. استقر العروسان على مقعدين من المخمل الأحمر.

أثناء المراسم، راح الموسيقيون يعزفون واحدة من تلك الألحان المثيرة للأشجان واسمها *"الأسف"* مما جعل الكثير من المدعوين يبكون تأثرًا منصاعين إلى القول المأثور: لا جنازة بدون ضحك، ولا زواج بدون دموع. حتى العروس فرايزى فقد ذرفت هى الأخرى بعض الدموع، فقد تذكرت أمها المسكينة التى كانت تباركها من السماء. أما والدها فقد ظل جامدًا مثل العصا، فبحكم مهنته اعتاد هذا الرجل على المشاعر الأليمة من حوله، فكان لا يتأثر بشدة من أحزان الآخرين. من الآن فصاعدًا سيعيش وحده مع ابنه بنوا. ولكن فرايزى لن تتركهما تمامًا بل ستذهب لرؤيتهما لبعض من الوقت كل يوم.

تبادل كل منهما موافقة الآخر، وهكذا أصبحا زوجين. فى نهاية القداس تمشى طفلان من أطفال جوقة الترانيم بين المدعوين، وهما يحملان صينية عليها كعكة ضخمة مباركة تسمى "القنفذ"، وذلك بسبب النقاط التى تعلو سطحها، ولكن تم تقطيعها إلى شرائح

صغيرة. كان يتناول كل مدعو شريحة منها ثم يأكلها فى خشوع، بعد أن يرشم الصليب على صدره.

بعد ذلك، راح نفس الطفلين ومعهما خادم الكنيسة يقرعون أجراس كنيسة سانت مادلين بقوة. لم تكن هذه سوى البداية، حيث تضاعف بعدها قرع الأجراس، حتى ملأت برنينها المكان وكأنها تغنى وتبارك سعادة باردو وأوفرايزى. تعلق جانبو حبال الأجراس من الصغار وراحوا يتأرجحون بها. مرة أخرى، عبر الموكب أنحاء القرية ماشيًا وراء عزف الكمان وآلة الربابة، حتى وصلوا إلى مزرعة فريسينيه حيث كانت فى انتظارهم وليمة كبيرة نُصبت فى الحظيرة بعد أن زُينت بالمفارش البيضاء المرشقة بالزهور. بدأ تناول الوليمة فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر واستمر حتى هبوط الليل. تلاه العشاء الذى دام حتى الفجر. تخلل الوجبتين مزيد من الرقص والغناء. قرب نهاية الوليمة الأولى، جثم الإشبين الشاب مقرفصًا تحت مائدة الطعام ورفع ثوب العروس، طبعًا بالاتفاق معها، وفك أربطة جواربها الحريرية ثم نهض ملوحًا بها وهو يهتف:

- جوارب السيقان الحريرية! جوارب السيقان الحريرية!

أخذت العروس تقص هذه الأربطة وتقسمها إلى قطع صغيرة وتوزعها على الحضور حيث تجلب الحظ.

غالب المدعوون النعاس فمنهم من نام على الموائد، فراح فيليستن يوقظهم وهو يعلن:

- فلنتذكر المتوفين من كلتا عائلتينا.

رتل الجميع ترنيمتين من ترانيم الصلاة الخاصة بذكرى المتوفين. بعد ذلك واصلوا شرب الخمر والغناء. تفاجأوا ببزوغ ضوء الصباح من حولهم وكانوا جميعًا تقريبًا فى حالة شبه غيبوبة. قاد باردو عروسه الشابة إلى منزلها القديم مرة أخرى، حيث ينبغى عليهم أن يمضيا ثلاث ليال منفصلين: الليلة الأولى مكرسة للسيد المسيح، والثانية لمريم العذراء، والثالثة للقديس چوزيف. فى اليوم التالى ليوم الزفاف المشهود، دُعى جميع الفقراء من رعية القرية للحضور وأكل ما تبقى من ولائم فى فريسينييه. ولكن نظرًا لعددهم الكبير، تحتم تجهيز أوعية حساء جديد.

ووفقًا لعرف قديم، كان لزامًا على العروسين تقديم هدية ما إلى الماركيز، سيد قرية فيفيرول. سابقًا كان يجب على سيد القرية أن يضاجع العروس الجديدة قبل أن تعاشر عريسها، ثم ومع مرور الزمن تم تخفيض هذا العرف القديم إلى هدية عبارة عن دجاجة كبيرة وجبن ريفى.

هكذا ارتدى كل من باردو وفرايزى أبهى ملابسهما، وذهبا وفى أيديهما سلال الهدايا المطلوبة ليصعدا إلى بوابة القصر. استقبلهما الماركيز دى كولومبين بنفسه. كان رجلاً فى منتصف العمر يرتدى ملابس أنيقة، وعلى رأسه شعر مستعار جيد. وكان جالسًا على مقعده بالقرب من المدفأة، ومد يده إلى باردو، العريس الجديد، فقبّل ظهرها. عندما أرادت العروس الشابة القيام بنفس الشيء، نهض الماركيز من على مقعده، وقام هو بتقبيل يدها.

- ها هى عروس جميلة جدًا. قال الماركيز وهو يضحك: ويؤسفنى أن العُرف القديم لم يعد يُطبق.

قدما له الدجاج والجبن، ثم ما هى إلا دقائق قليلة مرت على المقابلة، حتى تمنى لهما الماركيز الكثير من السعادة والعديد من الأطفال، ثم اقتادهما إلى الباب. عندما همت أوفرايزى بالمرور من الباب، شعرت بيد الماركيز وقد وُضعت على أردافها وراحت تتحسسها. تقبلت ذلك على أنه شيء من الكياسة والذوق، مثل كياسة تقبيل اليد.

(١٣)

فى منزل عائلة مونييه الشاسع الواقع أمام "جسر الحجارة"، أصبح لدى عائلة مونييه شخص إضافى. شرعت فرانسواز على الفور لتعليم هذه الشابة التى دخلت منزلها بصفتها زوجة ابنها، ولكى تجعلها حسنة المظهر والتصرفات. كانت أوفرايزى بالفعل تعرف الغزل والخياطة والغسيل والإصلاح والطبخ. علمتها حماتها التطريز وحياكة قماش الدانتيل وعمل الحلويات. وكذلك علمتها القراءة والكتابة، وهو فن يتعلمه المرء بشكل أسرع وهو فى العشرين من عمره عما إذا كان فى الخامسة أو السادسة من عمره، على شرط أن يكون منتبهًا إلى ما يتعلمه.

اعتاد أفراد عائلة مونييه أن يلعبوا لعبة من ألعاب الورق استقدموها من مدينة تيير، واعتاد لعبها على الأخص طلاب المدارس البالغون. تُسمى بالكتاب التمهيدى وبها الحروف الأبجدية. تمثل كل واحدة منها حرفًا من حروف الأبجدية له أربعة أشكال، ويتجلى ذلك فى شكل ناطق: أنف يمثل حرف أ، وبطة تمثل حرف ب، وتيس يمثل حرف ت، وهلم جرا، حتى يد الذى تمثل حرف الياء. تقتضى

القاعدة بأن يضع كل لاعب ورقته على الطاولة، ويليه لاعب ثانٍ ثم ثالث لتشكيل كلمة. تكون هناك جوائز للفائزين وإجبــار للخاســرين على تنفيذ ما يطلبه الفائزون. سرعان مــا تعلمــت فرايــزى هــذه الحروف. فكما كانت بارعة فى أشغال الإبرة، أصبحت بارعة أيضًا فى الكتابة بالريشة، حيث إن الكتابة هى نوع من التطريز.

كان بيير وولداه مثلهم مثل الملاحين، غالبًا ما يسافرون علــى الطريق لصهر الأجراس هنا وهناك مثل الملاحين المسافرين علــى مراكبهم. فقد كانوا يسافرون لصهر الأجراس فى منطقــة فيفاريــه، وفى منطقة ڤيلاى وفى منطقة بوربونيــه ووصــولاً حتــى منطقــة بورجونى، وهكذا انتشر اسم عائلة مونييه بين كل مــن يقــوم بــدق الأجراس. بين كل عملين من أعمال صهر الأجراس، كانوا يعودون إلى منطقة أوڤرنى ومعهم معداتهم، على عربة تــسمى "مــارينوت" تسير على أربع عجلات كانت لهم بمثابة حنطور. أما فــى قــريتهم فيفيرول فكانوا يعودون مرة أخرى ليصبحوا عمالاً.

كان حصاد عام الفيض ١٧٠٨، جيدًا بما فيه الكفاية. لكم كانت المملكة فى أشد الحاجة إلى ذلك، حيث استمر الملك فى شن الحــروب ضد العديد من القوى لا يكاد الناس حتى يعرفوا أسماءها. على الأقــل كانوا يعرفون اسم القائد العام لجيوش الأعداء، بــسبب أغنيــة كــانوا يرددونها ليسخروا منه قائلين: مالبروج ذاهب إلى الحرب،

ميرونتون، تونتون، ميرونتين.

مالبروج ذاهب إلى الحرب،

لا أحد يعلم متى سيعود.

سيعود فى عيد الفصح... إلخ إلخ.

فى شهر أكتوبر، أوت قرية فيفيرول مجموعة كبيرة من السجناء ومهربى الملح والهاربين من الجيش والمجرمين والذين جاءوا من منطقة مولين، متوجهين إلى مرسيليا ليعملوا فى السخرة كمجدّفين على السفن. جميعهم مكبلون بالقيود والسلاسل الحديدية بعضهم ببعض، ويحيط بهم العساكر المدججون بالبنادق والسياط. كانوا نحيفى الأجساد إلى درجة تثير الخوف، وجوههم مليئة بالشعر كالذئاب ويرتدون ملابس رثة. توجه قائد الشرطة إلى القس فيدال يطلب منه أن يجد لهم مأوى حيث المطر يهطل بشدة. تم إيواؤهم فى إحدى الحظائر على فرشة من القش. أثناء الليل، قام خباز القرية بخبز كمية من الخبز من نوعية رديئة لهم. عندما حان وقت عودتهم، رفض اثنان منهم النهوض وبقيا ممددين على الأرض رغم ركل الحراس لهم. أدركوا بعدها أنهما قد فارقا الحياة. قام بوتينا بدفنهما دون نعش ولا مراسم. أما الباقون فغادروا فى طريقهم إلى مرسيليا. بعد ثلاثة أسابيع لاحقة، جاءتهم فرقة جديدة من قطاع الطرق. كانوا

على الأقل ثمانين رجلاً، مدججين بالأسلحة الكثيرة، ويقودون أكثر من مائة حصان محمل بالملح المُهرب، حيث كانوا فى طريقهم لتوصيله إلى منطقة ليون. ولكن الرجل الذى كان يتزعمهم لم يكن ذا مظهر رث، بل إنه بدا كرجل نبيل، واتضح ذلك من قبعته المطرزة بالفضة، وشعره المستعار، وحذائه، وركابه الحديدى الذى يلكز به حصانه. وهكذا أصبح تهريب الملح كمهنة من مهن النبلاء. مر شهرا نوفمبر وديسمبر دون سقوط جليد. ولكن جاءت الموجة الباردة فى أوائل عام ١٧٠٩. فى يوم السادس من شهر يناير، الموافق الأحد عيد الملوك، هبت رياح قوية جدًا وراحت تصفر وتعصف بكل مكان. جلبت معها جوًا قارصًا لدرجة أن كبار السن أكدوا أنهم لم يشهدوا شيئًا مثل هذا من قبل. فى مساء يوم الإثنين، وجد أهالى القرية بحيرة لاليجون وقد تجمد سطحها، حتى إنهم تمكنوا من عبورها على الأقدام دون أن يبتلوا. كان لدى عائلة مونييه ترمومتر لقياس درجة الحرارة من طراز مورين، فلاحظوا أن السائل المركز من الكحول الموجود داخله قد انخفض مستواه حتى كاد يختفى من خزّانه.

تغلغل البرد داخل المنزل، وتجمد النبيذ فى البراميل التى انفجر بعضها، كما توقفت ساعات الحائط، ونفقت بعض الدواب فى الاسطبلات. فقدت الأبقار والخيول والحمير بعضًا من فروة أجسامها، وهكذا أثارت هذه الحيوانات الرعب والشفقة فى آن واحد.

تناثرت فوق الأراضى الطيور النافقة. أدخلت عائلة روسييه نعجاتها وحملانها إلى غرفة كبيرة داخل منزلهم بعد أن حولتها إلى حظيرة، حيث حافظوا فيها على النيران مشتعلة طوال الوقت للتدفئة. فى الكنيسة، تجلط النبيذ فى كأس المباركة، واضطر القس إلى أن يضع مدفأة على المذبح أثناء إقامة القداس. أمر الماركيز دى كولومبين بإشعال نيران كبيرة عامة أمام قصره، والتى جاء حولها عدد من الفقراء والمساكين للتدفئة. فى الغابات تحطمت الأشجار مُحدثة انفجارت مدوية.

تصلبت الأراضى الزراعية حتى عمق ذراع، مما تسبب فى فقدان البذور التى غُرست فى فصل الخريف. أما القمح، والذى كان يبلغ ثمن الجوال منه ثمانية جنيهات، قفز بشكل حاد إلى ثمانية وعشرين جنيهًا. ولنفس السبب، قفز سعر النبيذ من ثلاثة وعشرين جنيهًا للوعاء إلى أكثر من مائة جنيه. وبسبب هذا البرد القاتل، تجمدت جميع المواد الغذائية أو اختفت. اتُخذت مراسيم أصدرها حاكم منطقة أوفرنى، يحض فيها الرعية من الإبرشية على مساعدة الفقراء والرأفة بهم. فى الواقع، كما لو كان أمرًا بأن يُطعم الفقراء غيرهم من الفقراء.

حتى الخبز نفسه ارتفع ثمنه من تسعة ملاليم للرطل إلى ثمانية قروش، أى عشرة أضعاف. بالرغم من أنه كان يحتوى على ردة

أكثر من الدقيق. لهذا احتفظ منتجو القمح به وكأنهم غيورون عليـه، بغرض المضاربة. اضطرت بعض الأسر إلى أكل خبز السرخس، وخبز الفطر وخبز نشارة الخشب. لهذا مات العديد من الأهالى من كثرة البؤس والفقر.

حدث فى قرية فيفيرول ما يشبه الاحتجاج بل انتفاضة ضد سكان القصور، بعد تردد الشائعات التى تقول بأن الماركيز يمتلك مخزونًا مفرطًا من الحبوب والدقيق، بينما يعانى باقى الأهالى من الجوع.

فى يوم الأحد الموافق السابع من أبريل ١٧٠٩، وأثناء القداس راح القس يتلو صلاة "أبانا الذى فى السموات". تأثر المصلون شديد التأثر بكلمات هذه الصلاة حتى إنهم تجمعوا فى حشود واتجهوا إلى قصر الماركيز. هناك، وعند سفح الجدران، أخذوا يصرخون معًا: أعطونا الآن خبزنا اليومى... أعطونا الآن خبزنا اليومى! ظهر الماركيز دى كولومبين فى إحدى النوافذ وراح يخطب فيهم. لكن الحشود كانت عاصفة للغاية حتى بدا صوت الماركيز بعيدًا وبالكاد استطاعوا تمييز بعض الكلمات القليلة: ... لست مسئولاً... توجهوا إلى الله... ابتعدوا من هنا... سوف تدفعون ثمن ذلك غاليًا...

– أعطونا الآن خبزنا اليومى! استمر أهالى فيفيرول فى ترديد نفس العبارة.

بعد لحظات، ظهر من وراء الفتحات الموجـودة فـي أعلـى الجدران عشرات من الجنود المزودين ببنادق، وهم حراس الماركيز. أطلقوا أعيرة نارية في الهواء جعلت كثيرًا من المتظاهرين يراجعون أنفسهم. فلم يكن الوقت قد حان بعد لهجوم سجن الباستيل. هكذا عـاد المتظاهرون من الأهالي أدراجهـم إلـى أكـواخهم وهـم جيـاع. علم الأهالي عن طريق خطب القساوسة أن المجاعة ضربت جميـع أنحاء المملكة. في باريس، كان الناس يموتون جوعًا حتـى بـسهولة أكثر مما في منطقة أوڤرني. فُرضت غرامات على المضاربين الذين كانوا يخسرون، وكان ثلث هذه الأموال يذهب إلى الملك والثلث إلـى أقرب مستشفى من المكان، والثلث إلى من أبلغ عـن المـضاربين. تمردت النساء في ضاحية سان جيرمان. واحدة منهن، وهـي التـي على ما يبدو أنها حرضت الآخرين وقادتهن، تم إلقاء القبض عليهـا من قبل العسكر، وأجبروها على طلب الصفح راكعة على ركبتيهـا قبل أن يطلقوا سراحها. في مدينة ڤرساي، تم توزيع بطاقات تموينية على فقراء محددين تعطيهم الحق في خبز بقيمة خمسة جنيهات لكـل أسرة في الأسبوع.

بدأ الناس يشترون القمح من تركيا ومن البربر (شمال غـرب أفريقيا). ومن أجل المساعدة في دفع تكاليف هـذه الـواردات، قـدم الملك أدوات مائدته الذهبية، وقلده في ذلك بعض أعضاء البلاط مـن

النبلاء. "كل ما كان ثمينًا ويؤخذ فى الاعتبار، تحول خلال ثمانية أيام إلى خزف"[1]. أراد الملك لويس الرابع عشر أن يأكل كل من فى البلاط الملكى ذلك الخبز ذا النوعية الرديئة. بعض رجال الحاشية، والذين لم يسبق لهم أن ذاقوه من قبل، وجدوه رغم كل شىء ألذ بكثير من الخبز الأبيض، وهكذا كان التكفير عن ذنوبهم بسيطًا وسهلاً.

وحتى يحين موعد جمع المحاصيل فى الصيف التالى، لم يتوقف الجميع عن نهب المخابز والأسواق المغطاة والهجوم على قوافل الدقيق أو الكستناء. وأمام كل هذه المحن وهذا الخراب، نظمت الكنيسة صلوات عامة ومواكب دينية، كما أنها خففت من قواعد فترة الصوم الكبير، حيث سمحت حتى فى عيد الشعانين بأكل اللحوم لأولئك الذين لا يمتلكون الخبز.

حتى الذئاب لم تسلم، فكانوا يسمعونها تعوى من الجوع فى الغابات، وفى الليل كانت تقترب من أبواب البيوت لتتشمم وتبحث عن أى فضلات طعام. وكانت تُجهز على الحملان، وتهاجم النساء والأطفال، ودائما تنتقى أكثرهم ضعفًا.

---

(١) كتاب للمؤلف سان سيمون بعنوان: *"ذكريات"*.

لذلك نظم الماركيز خطة للتخلص من هذه الذئاب، ووعد بتقديم مكافأة قدرها عشرة جنيهات عن كل ذئب بالغ مقتول، وخمسة جنيهات عن كل ذئب رضيع. ولكن الأسلحة النارية كانت نادرة كما كان البارود باهظ الثمن. لهذا نصبوا الفخاخ، بما فى ذلك الفتحات والشباك التى لا تكلف شيئًا. كذلك حفروا حفرًا عميقة يبلغ عمقها عشرة أقدام، تعززها العوارض الخشبية والألواح، ويكون جوفها فى الأسفل، أوسع من فتحتها العليا. ثم يغطونها بأفرع أشجار خفيفة؛ وتمويهها بالجليد. فوق الحفر، كان الطعم عبارة عن حيوان نافق، أو، وهذا أفضل، مخاض الأبقار، ذلك الكيس اللزج الذى يسقط من البقرة بعد ولادة عجلها وكانت الذئاب مغرمة به. عند سقوط واحد منهم فى الحفرة، كان يحاول جاهدًا لساعات طويلة القفز خارجًا دون جدوى حتى تخور قواه؛ ويبتلعه الوحل، وكأنه ذبابة سقطت فى العسل. لا يتبقى بعد ذلك إلا حضور ناصبى الفخوخ فيلتقطونه بحبل ذى عقدة متحركة مثل المشنقة.

لم يعان أفراد عائلة مونييه كثيرًا من هذا الشتاء الرهيب، وذلك بفضل مخزونهم من القمح والبطاطس، والخشب والفحم المتقد، والذى استفاد منه أيضا المزارعون. تم إنقاذ جميع المواشى، إلا أن الدواجن نفقت فى شهرى يناير وفبراير، فكانت فرصتهم بأكل طواجن الدجاج كبيرة. وبمجرد حلول شهر مارس، اعتمدوا على

أراضيهم الزراعية على الرغم من العيوب التى طرأت عليها، وهكذا أودعوها الشعير والشوفان والجودار التى خزنوهــا طــوال الفتــرة السابقة.

أما شتاء ١٧٠٩- ١٧١٠، فكان شتاءً عاديًا. من بقى على قيد الحياة راح يشكر السماء على أنه قد نجا. ومــع ذلــك فقــد ابتليــت المنطقة ببلاء آخر: داء الكلب. فقد التقطته كلاب كثيرة فــى قريــة فيفيرول ربما بسبب عض الذئاب لها أثناء فترة المجاعة. تم التخلص منها ولكن قبل ذلك كان لديها متسع من الوقت بدورها لعض الأبقار والخيول والحمير. فكان عليهم ذبح ثم دفن جميع هــذه الحيوانــات. طال داء الكلب عائلة بلاردى، وهى عائلة من المتسولين، ومن أفقــر الرعية، فكانوا يعيشون على التــسول، والــصيد غيــر المــشروع والسرقة. يعيش الأب والأم والجد ومعهم ستة أطفال هم الذين ظلــوا على قيد الحياة بعد أن مات سبعة أو ثمانية آخــرون. ذات صــباح ذهب الجد إلى الغابة والتقط ثعلبًا كان قد وقع فى فــخ مــن الفخــاخ المخصصة للذئاب، وحيث لم يكن قد اختنق تمامًا، غرس أنيابه فــى يد الرجل. قضى العجوز عليه، وحمله إلى منزله بعد أن سلخ فروته. تمتع كل أفراد عائلة بلاردى بوجبة دسمة من هذا اللحم البرى بينمــا تركوا فراءه ليجف فى الشمس. على مدار ثلاثة أسابيع، لــم يحــدث للجد أى شىء غير عادى، كما بدت يده وقد التــأم جرحهــا تمامًــا.

فجأة، بدأ يشكو من صداع فى الرأس، وبعد ذلك جن جنونـــه فــراح يجرى داخل المنزل ويحطم الأثاث ويضرب الأطفال وهو يــصرخ صراخًا وحشيًا بينما سال لعابه من فمه بــشكل مفــزع. باختــصار، أصبح فى حالة مطابقة لمن يعانى من أعراض داء ســعار الكلــب. ولكى يمنعوه من عض الآخرين وبالتالى نشر دائه، لم تكن هناك إلا طريقة واحدة: التخلص منه. تمكن ابناه من الإجهاز عليه من الخلف وقيدا يديه وقدميه. ثم مددوه بين مرتبتين من القش، وجاء جميع أفراد العائلة، رجالاً ونساء وأطفالاً، وأحفادًا، وجلسوا فوقــه كــى يختنــق بأسرع وقت ممكن. قاوم لمدة لا تزيد على ربـــع ســاعة ثــم أســلم الروح. لم يعلق أى شخص من أهالى قرية فيفيرول بشىء على هــذا الحدث فقد اعتبروا ذلك إجراء وقائيًا.

(١٤)

وفى وسط كل هذه المحن التى حلت بالقرية، كان التجهيز لحدث سعيد كبير فى عائلة مونييه يتم على قدم وساق: زوجة باردو الشابة تنتظر طفلاً. أصبحت فرايزى محط اهتمام ورعاية الجميع، فقد عرفت كيف تكتسب مودتهم وحبهم. أوصاها بيير- فيليستن أن تمنحهم حفيدًا ذكرًا جميلاً لاستمرار سلالة عائلة مونييه خاصة وأن جيرمان، ابنه الثانى، قد أعلن لهم ومنذ فترة طويلة أنه لا ينوى الارتباط بامرأة. وإذا ما سُئل عن السبب، كان يجيب بمثل يلوكه السكارى: "إن العربة تدوس على الطريق وتفسده، والمرأة تفسد الرجل والماء يفسد النبيذ".

فى الواقع، كان جيرمان شخصًا صعب المراس، متسلطًا بشكل فظيع، يصب جام غضبه على العمال إذا لم يفهموا أوامره لهم. حتى إنه كان أحيانًا يفقد أعصابه ضد الأشياء، فيركلها بأقدامه حانقًا. لقد كان، كما يقولون باللهجة المحلية فى منطقة ليفرادوا – فوريز، شخصًا نافد الصبر، وتجب دائمًا إطاعته ومهادنته دون الاصطدام

به. لذلك كان من الصعب التصور بأن يقبل امرأة غريبة إلى جواره، أن يضحى من أجلها ويقدم لها تنازلات، وأن يمنحها جزءًا من سلطته. نتيجة لذلك، وضع فيليستن كل آماله فى استمرار ذريته على ابنه الأكبر. حتى إنه اختار بالفعل اسم حفيده الذكر، أميديه، وهو اسم رجالى تقليدى فى عائلة مونتيه مثل بيير وباردو وماتلين. هكذا أدركت أوفرايزى مسئولياتها، وراحت تتساءل بقلق ما الذى يمكنها عمله لكى لا تخيِّب ظن أحد. حولت مخاوفها هذه لياليها إلى كوابيس أقضت مضجعها، فكانت تحلم بأنها أنجبت طفلاً مشوهًا على هيئة وحش له وجه النمس وأقدام ضفدع. فكانت تفز من نومها وهى تتأوه، وتمسك بيد زوجها لتضعها على بطنها:

– تحسس: إنه يتحرك... إنه يركلنى!

– هذا يعنى أنه بصحة جيدة.

كانت تصغى باهتمام إلى النصائح التى تأتيها من كل مكان: من الجيران، من حماتها، من شقيقات زوجها، ومن نساء عائلة روسييه:

– فلتشربى شاى أعشاب الشعير. فلتأكلى نبات الهندباء المطبوخ. لا تنامى على جانبك. إذا ما ألحت عليك الرغبة فى تناول الفراولة، عليك أن تلمسى جزءًا مخفيًا من جسمك، على سبيل المثال،

مؤخرتك، وذلك حتى لا يولد الجنين وبه وحمة. ضعى ثلاث حبيبات من الملح فى الحساء الذى تشربينه. اتلِ صلاة "سيدة الآلام السبعة".

كلما اقترب موعد الولادة، كلما زاد توترها حتى إنها أصبحت ترتجف من فكرة أن يولد الجنين بنتًا وليس ولدًا. كما وعدت أباها وأخاها، كانت تقوم بزيارتهما بشكل منتظم لتتولى شئون المنزل من تنظيف وطبخ. ولكن عندما منعتها حالتها الصحية من الخروج، أصبحت تُرسل إليهما شارلت الطباخة.

عندما حانت ساعة مخاضها اكتفت بمساعدة حماتها فرانسواز المتمرسة. أثناء الولادة، أبقت شمعة مضاءة على المنضدة الصغيرة المجاورة لسريرها وذلك لإبعاد الشياطين. أخيرًا رأى وليدها النور فى السادسة صباحًا مع صياح الديكة، وكان صبيًا. إن ذلك فأل جيد جدًا، فقد جاء إلى الحياة فى الصباح الباكر، وهذا يعنى أنه سيعيش عمرًا طويلاً. ما إن خرج من مشيمته، حتى راح يطلق صرخات الوليد المعتادة، فوضع له فى فمه بضع القطرات من النبيذ الحار الممزوج بالعسل، كوعد بحلاوة الحياة. كما شربت الأم الشابة هى أيضًا قليلاً منه كى تسترد قواها.

لم يكن للطفل الوليد لا رأس نمس ولا أقدام ضفدع. ومع ذلك فقد رأت جدته فرانسواز أن رأسه طويلة إلى حد ما، على شكل ثمرة الكوسة. على الفور، بدأت تدلكه، وكأنها تعيد تشكيله بين يديها مثل

كرة الثلج، مما جعله يصرخ من جديد، فسكبت فى فمه بعض قطرات من النبيذ الممزوج فهدأ. بعد ذلك، لفوا المولود الجديد بشرائط ولفائف، بما فى ذلك ذراعيه وساقيه، فأصبح وكأنه مومياء مصرية. وأخيرًا، أحاطوا وسطه بشريط من قماش الدانتيل، ثم ناولوه لأبيه الذى كان يقف خارج الغرفة فى انتظار انتهاء طقوس الولادة وما بعدها. راح باردو بمزيج من الاستغراب والتأثر يتأمل هذا الكائن الغريب ذا الرأس المتدلى، متسائلاً إذا ما كان هذا فعلاً ابنه.

هتف باردو قائلاً: إنه صورة طبق الأصل من الجدة ماريا. بما فى ذلك التجاعيد التى ترتسم فى جبهته والجيوب التى تحت عينيه. يا إلهى لكم هو قبيح!

طمأنته أمه فرانسواز: سوف يتغير إلى الأفضل فى غضون أيام قليلة.

كف الرضيع عن الصراخ وراح فى سبات عميق. لقد بدأ يدخل عالمًا جديدًا مليئًا بتيارات الهواء، بأصوات وروائح. سيكون ابن صانع أجراس ثم صانع أجراس هو نفسه، ثم أبًا وجدًا لصناع أجراس، وهكذا دواليك وحتى نهاية العالم، طالما هناك أجراس ترن فى أبراج الكنائس. وكإجراء احتياطى، تم وضعه على وسادة صغيرة وجاء جده بيير – فيليستن "ليؤمنه"، ويدهنه بالزيت، فى انتظار المعمودية الحقيقية.

– أعمـــدك باســـم الأب والابـــن والـــروح القـــدس. آمـــين

في وقت لاحق، أيقظه الجوع فناولته فرايزى ثديها لأول مرة فسرى بينها وبينه تيار من الحليب. إنه تيار الحياة الــذى راح يتولـــد بـــين شخصها هي، ويتواصل عن طريق حلمتها مع شخصه الصغير. في هذه اللحظة شعرت بسعادة لا توصف وهو يمتص حليبها.

بعد مرور ثمانية أيام، وبالتحديد في يوم الرابـــع مـــن شـــهر أكتوبر عام ١٧١٠، جاء يوم تعميده الحقيقي في كنيسة سانت مادلين. ها هو الصغير بين ذراعى فرانسواز، جدته وإشبينته، ملفوفًا في شال ثم في طرحة رداء زفاف والدته ومحاطًـــا بجميـــع أفـــراد العائلـــة وبالعمال والخادمات والخدم، توجه المولود الجديـــد محمـــولاً إلـــى الكنيسة، يصاحبه تصفيق المارة. عند الحوض المخصص للمعمودية في الكنيسة، تلقى الرضيع الماء المقدس والملح، واسمه، أميديـــه، أي الذي يحب اللـــه. بعد ذلك مباشرة قرعت الأجراس صادحة بكل قوة لتعلن الحدث الجديد في المملكة.

لدى الخروج من الكنيسة، ترأس الرضيع "احتفال المعمودية": وضعت طاولة أمام المـــدخل، اصـــطفت فوقهـــا أكـــواب الخمـــور والزجاجات وشرائح الكعك المخبوز. كان جميع أهالي قرية فيفيرول مدعوين. وتم توزيع حفنات من الملبس والمكسرات على الأطفـــال. بعد ذلك بقليل، عاد أميديه إلى منزل العائلة وهو يصرخ من الجـــوع طوال الطريق.

بعد بضعة أيام، وبعد أن استردت أمه عافيتها بالكامل، ذهبت إلى الكنيسة وحدها للاحتفال بانتهاء فترة نفاسها المنصوص عليها فى الكتاب المقدس. فبعد أن تدنست بدم نفاسها، تحتم عليها أن تتطهر قبل أن تعود إلى مكانها من جديد بين العباد المؤمنين. أمسكت بشمعة فى يدها، وركعت على ركبتيها، خارج الكنيسة عند المدخل. رشها القس بالماء المقدس، ووضع علي رأسها أطراف وشاحه، وراح يتلو مزمور إله الأرض الذى هو القانون الكامل. بعد ذلك، سُمح لها بالدخول إلى مبنى الكنيسة لحضور القداس.

فى نهاية طقوس التطهير أُقيمت وليمة المعمودية. كان أميديه يصرخ طالبًا إرضاعه كل ثلاث ساعات، فلم يكن يفكر إلا فى النوم وفى ملء معدته. وحتى بلغ عمره ثمانية أشهر، ظل حبيسًا لشرائطه ولفائفه. كانت لفائفه هذه تُغسل جيدًا وتعلق لتجف على حبل ممدد بطول بحيرة لاليجون. فى الأيام المشمسة، كانوا يضعون الطفل أمام باب المنزل، وبالطبع لا يغيب عن عيونهم للحظة واحدة خشية من خنازير المناطق المجاورة والتى يمكنها التهامه إذا ما تركوه وحده فى مواجهتها. كانوا يغطون مهده بغلالة رقيقة لتحميه من الذباب.

عندما بلغ أميديه الصغير شهره الخامس، شعرت أمه بحليب ثدييها وقد انخفض. لحسن الحظ، كان لديها حل بديل. على أحد أعمدة الكنيسة تعلقت صورة للقديسة أجات؛ كانت تحمل طبقًا عليه ما

يشبه بيضتين، وكانتا فى الواقع ثدييها وقد قطعهما عدو الله. تقول القصة المقدسة، إن ثدييها قد نميا من جديد بعد ذلك فيما يشبه المعجزة، رغم أن الفتاة العذراء الشهيدة، لم تكن فى حاجة ماسة إليهما. لذلك كان هناك نوعان من النساء اللائى يأتين للابتهال أمامها: أولئك اللائى يعانين من صدورهن الصغيرة المسطحة، وأولئك اللائى يهدد الجفاف حليب صدورهن. لهذا جاءتها فرايزى وركعت أمام صورتها وأظهرت لها قلقها، ثم دارت سبع مرات حول العمود، وهى شابكة يديها ورأسها منكس. بعد بضعة أيام، استجابت القديسة لطلبها، وهكذا أمكنها رضاعة طفلها لمدة شهرين آخرين. ولكن أميديه الصغير بدا شرهًا فكان عليها أن تعطيه غذاءً مكملاً نصحتها به حماتها: وهو حليب الماعز المغلى، مضافًا إليه الدقيق ومسحوق السكر. وبما أن الملاعق الصغيرة لم تكن موجودة بعد، فقد كانت تغمس إصبعها فى هذه العصيدة وتقدمه له فى فمه. كما كان عليها أيضًا ضبط درجة حرارة العصيدة. إذا كان حارًا جدًا كانت تنفخ فيه، وإذا كان أبرد من اللازم، كان عليها وضع إصبع سبابتها المغموسة بالعصيدة داخل فمها هى كما لو كان فرنًا حتى يسخن قليلاً. فى وقت لاحق، تمت الاستعاضة عن العصيدة وحليب الأم بحساء يتم تسويته بدقة على جمر النار لفترة طويلة، ثم تقديمه له بملعقة من الفضة. فى شهره الثانى عشر، تخلص أميديه أخيرًا من لفائفه، وارتدى فستانًا قصيرًا مثل البنات تاركًا مؤخرته عارية مما

جعله ينثر مخلفاته من حوله، مثلما يفعل الدجاج. لهذا كانت الكلاب تتبعه في كل مكان، لتلعق برازه بألسنتها. من ضمن هذه الكلاب كان هناك كلب يُدعى فريبون والذى أصبح مرافقه والمدافع عنه. كانوا كثيرًا ما يجدون أميديه الصغير نائمًا بين ساقى كلبه فريبون. وحتى لا يوقظه، كان الكلب لا يجرؤ حتى على تحريك ذيله أو هزه رغم أنه كان يحب هز ذيله كثيرًا. فقد كان دائمًا ما يحب هز ذيله لجميع القادمين سواء من يعرفهم أو من يجهلهم. كان يمكن حتى أن يهز ذيله إذا ما أشهرت فى وجهه بندقية.

فى اليوم الذى أتم فيه أميديه عامه الخامس، تخلص أخيرًا من ارتدائه زى الفتيات وارتدى أول سراول له. وهكذا تمكن، برفقة صبيان أكبر منه سنًا، من تعلم تسلق الأشجار، والتأرجح على الفروع وتحديد أعشاش الغربان، وسرقة ثمار الخوخ، وصيد جراد البحر. وأيضًا الركوب على الماعز والخنازير، والتمرغ فى الأعشاب، واللعب بالكرة الصغيرة وتلقفها داخل قفاز، ولعبه بالعظام الصغيرة، والتزحلق على الجليد فى فصل الشتاء. كان الصبيان الأكبر منه سنًا هم أول من علموه، وأعطوه جميع أنواع الدروس:

- إن كلمة (يدوس) ليست كلمة فرنسية... لا يؤكل التوت وهو ما زال نيئًا... لا نقول كرات البلى... ولكن نقول (جوبل)... أراهن أنك لا تعرف طريقة عد الأرقام!

– بل طبعًا أعرف!

– إذا أعطيتك بعض العملات النقدية، أتستطيع عدها؟ مثلاً... عملة واحدة... عملتان... ثلاث عملات... أكمل إذا كنت تستطيع.

– أربع عملات... خما عملات.

– توقف! أعد ما قلته!

– خما عملات.

بسبب أخطائه هذه كان يتلقى ضربات قوية من الحزام. ولكنه لم يجرؤ على التذمر، فقد كان هو من تسبب في ذلك! لقد علمته مثل هذه التجارب ألا يكون متخوفًا. فالمتخوفون لا يحصلون أبدًا على ما يريدون. تمامًا مثل الضفدع الصغير الذى ليس له ذيل لأنه لم يطلب من الله أن يخلقه بذيل.

وهكذا بلغ أميديه الخامسة من عمره فى عام ١٧١٥. وفى خلال هذه الفترة، ولدت له ثلاث شقيقات صغيرات كان عليه تقبلهن، بما أن الله قد وضعهن فى أحشاء أمهن، كما ورد فى صلاة "السلام لك يا مريم". فهو يضع فى أحشاء هذه الأم، صبيًا صغيرًا؛ وفى أحشاء أم أخرى، يضع طفلة صغيرة. علينا إذن أن نشكره فى جميع الأحوال. ونفس الشىء بالنسبة للملعقة الصغيرة، وأسطورة الورود (بالنسبة للبنات)، والكرنب (بالنسبة للصبيان)، وأسطورة البجعات (التى تجلب الأطفال)، كل هذا لم يكن قد تم اختراعه بعد.

كلما تقدم القس ڤيدال فى العمر، كلما ازداد تسلطًا وتمسكًا فيما يتعلق بالوصايا الإلهية. ففى صباح يوم الأحد، وقبل موعد القداس بساعة، كان يجوب شوارع قرية فيفيرول، ويدخل جميع النزل، باحثًا عن كل هؤلاء الذين يتهربون من حضور القداس أو من غير المكترثين، ويطلب منهم تفسيرًا لذلك:

- مرحبًا أيها الأم... لقد صارت لك ثلاثة أيام آحاد متتالية لم أرك تحضرين القداس فيها... فما يحدث؟

كان ينبغى إعطاؤه أسبابًا وجيهة، وخلاف ذلك كان يأمرهم قائلاً:

- ضعى شيئًا على رأسك. فسوف أصطحبك. كما كان يحتك بمن يضبطهم فى الحقول، ومن هم منهمكون فى جمع القش.

- ولكن يا سيدى القس، أنت ترى جيدًا أن العاصفة قادمة. أريد أن أدخل أكوام القش قبل هطول الأمطار.

- إن من سيبلل أكوام قشك قادر أيضًا على تجفيفه... أنت حقًا تمثل قدوة حسنة أمام أطفالك! عد إلى منزلك، وأريد أن أراك ولا محالة فى قداس الساعة الحادية عشرة.

فى الكنيسة، كان القس يصعد بصعوبة إلى المنبر فقد ازداد وزنه أكثر فأكثر بسبب، كما يقول، "فساد" دمه. حتى إنه ما إن يصل

إلى منبره حتى يتحتم على المصلين الانتظار حتى يلتقط أنفاسه. لذا كان عليه أن يدق بيده على سطح منبره لإسكات الهمهمات ثم يبدأ خطبته قائلاً:

- أيها الإخوة والأخوات الأعزاء في المسيح يسوع...

كان صوته أصم، غير مقنع، بحيث لا يستطيعون فهم نصف ما يقوله من كلمات. مما جعل الكثير من المصلين يغفون أثناء خطبته غير المفهومة. بينما كان بعض منهم يواصلون ثرثرتهم. من جديد فيخبط بيده على السور الخشبى الموجود على المنبر، فتسكت الهمهمات. فى يوم لاحظ وجود سيدتين تثرثران معًا، وعلى الرغم من ندائه باستعادة الهدوء، فإنهما واصلتا ثرثرتهما باللهجة المحلية للقرية. فاستشاط غضبًا ومال ناحيتهما، ووبخهما بقوله المثل الريفى القديم:

- عندما يصيح الديك، تسكت الدجاجات.

لم تنبس السيدتان وظلتا متحجرتين فى مكانهما. عندما حان وقت جمع العطاء، وضع القس بعض القطع النقدية البيضاء الكبيرة فى الطبق المخصص لذلك والتى يُقصد منها التبرعات. ولكن المصلين لم يتفهموا ذلك وراحوا يلقون فى الطبق، معظم الأحيان، بقروش صغيرة أو أنصاف القروش، أو حتى ما يعادل ربع قرش ولكنهم لم يلقوا أبدًا بجنيهات. حتى إن البعض منهم اكتفى بتحريك

أصابع يده فى الطبق حتى يوهم الباقى بأنه يضيف نقودًا. لقد كان هذا الطبق تحفة أثرية حقًا، ليس بسبب أبعاده ذات الحجم الكبير، ولكن بسبب نحاسه القيم المتوهج من اللمعان، وكذلك بالصورة المنحوتة التى تزين قاعه: تمثل الرسمة رجلاً بخيلاً، ويتضح ذلك من كيس نقوده الذى يحتضنه بقوة إلى صدره، منقادًا داخل عربة يدوية يجرها الشيطان إلى الجحيم. كان المصلون يفهمون جيدًا معنى هذه الرسومات، حتى وإن كانوا لا يعبأون بها كثيرًا. فقد وجدوا أن الكنيسة تتلقى منهم ما فيه الكفاية من ضريبة العشر التى تُخصم من محاصيلهم وماشيتهم.

لقد كانوا يأتون إلى الكنيسة بدافع التعبد ولكن أيضًا بغرض تمضية يوم أحد جميل يلتقون فيه بالأصدقاء ولشرب النبيذ المقدس فى النزل بعد القداس، ولمعرفة بعض الأخبار عن المملكة وعن العالم. إما من فم القس نفسه، وإما أيضًا عن طريق المعلم كيفييه، خلفًا لوالده، والذى كان مشتركًا فى قراءة الصحيفة الأسبوعية لمقاطعة أوفرنى. فكان يأخذ مكانه جالسًا تحت مدخل الكنيسة المسقوف، ممسكًا بهذه الجريدة ليقرأ لهم على الملأ وعن طيب خاطر.

هكذا أخبرهم فى يوم من الأيام أن فرنسا سوف تعرف أخيرًا السلام بفضل اتفاقيات تم توقيعها مع الأعداء. يومها أشعل الأهالى

المصابيح تعبيرًا عن فرحتهم وعلقوها على الأماكن العالية المحيطة وراحوا يرقصون حول المشاعل ويغنون أغنية "مالبروج ذاهب إلى الحرب".

وفى مرة أخرى، طُلب منهم الصلاة من أجل صحة الملك التى تدهورت وأصبح يعانى من عدد هائل من الأمراض والأزمات. ومع نهاية شهر أغسطس، عرفوا أن الغرغرينا قد بدأت تنهش فى ساقيه. قالت الصحيفة الأسبوعية: "لقد استدعى الملك خليفته بالقرب منه، وهو ابن حفيده، الذى يبلغ عمره خمس سنوات، وألقى عليه هذه الخطبة: "يا عزيزى الجميل، سوف تصبح ملكًا عظيمًا. ولكن سعادتك كلها ستتوقف على خضوعك للرب وعلى الرعاية التى ستوليها لشعبك من أجل التخفيف عنه وعن أعبائه. وهذا يقتضى منك أن تتجنب قدر ما استطعت الحرب فهى خراب للشعوب. لا تتبع المثال السيئ الذى أعطيته لك فى هذا الشأن. فلطالما نظرت إلى الحرب بكثير من الاستخفاف للغاية وتعاملت معها بغرور وخيلاء. لذلك لا تقلدنى وكن أميرًا سلميًا".

عند سماع هذه الكلمات النبيلة انهمرت دموع أهالى قرية فيفيرول رجالاً ونساء على حد سواء.

فى قداس يوم الأحد التالى رتل المصلون صلاة "السلام لك يا مريم" اثنتى عشرة مرة تضرعًا للرب من أجل شفاء الملك. راح

كل منهم يتساءل ما الذى سيحدث لفرنسا المسكينة عندما يحكمها هذا الأمير الصغير جدًا، عجبًا!

بعد بضعة أيام لاحقة، أعلن القس فيدال أخيرًا رحيل العاهل الكهل:

– لقد توفى الملك لويس الرابع عشر... وليحيا الملك لويس الخامس عشر!

الجزء الثانى

(١٥)

بعد ذلك، لم يحدث أى شيء جديد.

ففى قرية فيفيرول وقرية لوبــاردانج وحتــى فــى مزرعــة فريسينييه، لدى عائلة مونييه سواء كانوا مــن المــزارعين أم مــن صاهرى الأجراس، لم يحدث فى حياتهم شىء جديد. لقد خلت حياتهم من الحكايات. بخلاف التغيرات المناخية التى تحدث، والمواليد الجدد فى العائلة وتعميدهم وخطواتهم الأولى وأولى الكلمات التى ينطقــون بها، وأول أحزانهم. والأمراض والحــوادث. والحــروف الأبجديــة والأرقام التى يعلمهم إياها الأجداد. هكذا ترعرع أبناء باردو جنبًا إلى جنب مع أبناء وبنات عماتهم: العمة سيدونى والعمة كونستانس. كما نمت صداقة متينة بينهم وبين أطفال عائلة روسييه ومع غيرهم مــن أطفال القرية مثل: جول ومانيت داراجون، وفرانــسواز شــارفولين وجوزيف بريجول ونيكولا نيكولو وإتيان تافيرنييه وماريوس فارانيا، وجان مارى وجاكلين بيتافى، وغيرهم مــن الــصغار والــصغيرات المشاغبين.

فى الأراضى الزراعية نمت حبوب الجاودار (الشعير) وثمار البطاطس التى خرجت من تفرد قرية فيفيرول بزراعتهـــا، وبــدأت تنتشر فى القرى المجاورة تحت مسمى ثمار الكمأ. كمـــا ازدهـــرت زراعة القرع والقنب، والقلقاس على تربة خصبة وغنية بالأســمدة. أما ورشة صهر الأجراس فلم تعرف نفس الازدهار والنجـــاح. فقــد ظلت عامين كاملين بلا أمر تشغيل واحد. لذا اضطر عمال الورشـــة والذين كانوا يعملون مقابل أجر يومى، أن يعودوا إلى العمـــل فـــى تربية االخنازير ورعى الماعز أو حرق الحشائش الضارة. كان يبدو أن جميع أبراج كنائس المملكة عامرة بالأجراس. ومـــع ذلـــك فقــد راحت عائلة مونييه تبعث برسائل إلى كل إبرشيات فرنسا، بل وإلى سويسرا، وإلى منطقة سافوى وإلى مناطق أخرى... لقــد شـــجعتهم على ذلك تنبؤات أحد العرافين.

لقد كان هذا العراف شخصًا غريب الشكل. كانت لحيته أطول من لحية سيدنا موسى، ويعرج أكثر مما يعرج فولكان (إله النـــار)، يرتدى أسمالاً بالية، ويتسول خبزه اليومى مقابل النبوءات التى يحزر بها لمن يطلبها منه. فى يوم الأحد، كان العراف يتخذ مكانه جالـــسًا على درج مدخل الكنيسة. إذا ما رمى له أحد بعملة نقدية فى قبعتـــه، كان يقول له:

- أتريد أن تعرف... يا ابنى، أو يا ابنتى، ما الذى كتب اللـــه لك فى كتابه؟ إذا ما عرفت، سوف تستطيع أن تحفـــظ نفـــسك مـــن المصائب... خذ هذا.

كان يمد يده منقبضة، ثم يبسطها في يد الآخر بحفنة من حبوب الجودار الممزوجة ببعض قطع الحصى المتعدد الألوان.

- رجهما جيدًا، ثم انشرها هنا أمامي... هنا... على هذه الدرجة الحجرية، افعل ذلك وأنت تفكر جيدًا في مستقبلك. كان كل زبون يركز تفكيره، وهو يضم حاجبيه معًا، ثم ينشر الحبوب كلها على الدرج. وقتها ينحنى العراف فوقها ليدرس توزيع العناصر، ويخبره بتنبؤاته.

كان العراف يعيش مع شقيقه قاتل الفئران، داخل عشة صغيرة في غابة دانسادوس. ولكنه كان أيضًا يتنقل من قرية إلى قرية حاملاً نبوءاته، مما جعل لديه عدد لا بأس به من الزبائن. وفجأة، بدأ ينبئهم بتغيرات كبيرة على مستوى المملكة:

- سيحدث انقلاب في الحكم يطيح بملكنا من على عرشه. وسيزج بقساوستنا في السجن، وستُحطم أجراس كنائسنا بالمطارق من أجل صهرها وتحويلها إلى قطع نقدية. ستتغير فرنسا بالكامل وتتقلب كما قبعتي!

وفي نفس الوقت، كان يقلب قبعته ذات الحواف العريضة إلى الأمام وإلى الوراء، مع ثقب قمتها لإعطاء متنفس لأفكاره. وصلت أصداء هذه التنبؤ إلى بيير- فيليستن، فالتقى بهذا العراف، وقدم له الطعام والشراب، ثم راح يسأله عن موضوع تلك الأجراس المحطمة:

- كيف تعرف تلك الأشياء؟

- أراها فى الأحلام. إن أحلامى لا تخذلنى أبدًا.

- وما الذى تراه بالضبط؟

- أرى رجالاً يصعدون أعلى أبـــراج الكنـــائس ثـــم يحلـــون الأربطة التى تعلقها من قممها ويتركونها لتتـــداعى ســـاقطة علـــى الأرض.

- وما السبب؟

- إنهم لا يحبون اللـــه.

- وفى رأيك متى ستقع هذه الأحداث؟

- خلال عشرين أو ثلاثين أو خمـــسين عامًـــا... لا أعـــرف بالضبط... فهذا لا يظهر فى أحلامى.

مر عامان بعد هذه الواقعة. كان الجميع يعرفـــون أن الملـــك الطفل يتلقى إرشاداته من عمه، الدوق فيليب، ومن معلمـــه الـــدينى الكاردينال فلورى. وبهذا التوجيه الجيد، ما كان على الأمير الـــشاب إلا أن يدير البلاد بحكمة. لهذا أخذ الأب ڤيدال يصلى ويبتهـــل فـــى كنيسته إلى الروح القدس كى يساند الملك الصغير لـــويس الخـــامس عشر بالأحكام والقرارات الصائبة.

تلا ذلك انتشار وباء الحصبة الذى لم تستطع الصلاة تجنيبه. أصابت الحصبة جميع أطفال قرية فيفيرول فغطت البقع الصغيرة الحمراء وجوههم وأجسامهم وبدأوا يرتجفون ويسعلون ويختنقون، وهكذا مات عدد منهم. تمت مكافحة المرض بواسطة علب أدوية أرسلت إليهم من مدينة كليرمون عن طريق المراسل الإدارى بوشييه الذى وزعها على قساوسة الرعية. كانت هذه العلب تحتوى على مسحوق أبيض ينبغى نشره على الأماكن المتهيجة بالاحمرار. بالطبع لم تكن هناك كميات كافية للجميع. كما كان فرانسوا جاشون، أمين مستودعات القرية، يتلقى كل أسبوع رسائل قادمة من كبير مسئولى مكاتب البريد عن طريق ساعٍ يأتى راكبًا على حصانه من مدينة أمبرت. وطبعًا كان هذا الساعى يلفت الأنظار فى كل مرة يأتى فيها.

كان الساعى يعلن عن قدومه بقرع قطعتين خشبيتين (مثل الصاجات) - بان! بان! بان! - بطريقة مثيرة للفضول تمكن السكان الذين يتوقعون رسائل أن يذهبوا عند جاشون. إذا حدث ولم يتنبهوا إلى قرع جرس الساعى، فكان يذهب هو ليبلغهم.

وهكذا، مع بداية عام ١٧١٧، وصلت رسالة من باريس عبارة عن ورقة مطوية على أربع مرات، تحمل طابعًا عليه شعار (رسوم البريد مدفوعة)، مختومة بختم الشمع الأحمر بداخله خيط حريرى مجدول، عليه طباعة غير مفهومة. يقول نص الرسالة ما يلى:

عزيزى السيد بيير مونييه، هل تتذكر المسافر الروسى الذى استقبلته منذ عشرين عامًا بالتمام والكمال، والذى علمته فن صهر الأجراس والمدافع؟ فى الواقع هذا الرجل ما هو إلا قيصر روسيا بيير الأول، والذى جاب معظم بلاد الغرب لتلقى العلوم وتعلم الفنون والتقنيات التى ما زالت ضعيفة المستوى فى بلاده. الآن وبعد أن تسلح بعلم المعرفة فهو حريص على تقديم شكره وامتنانه للفرنسيين والإنجليز والهولنديين الذين استقبلوه من قبل. لهذا سيقوم صاحب الجلالة بيير الأول بزيارة ثانية إلى فرنسا بدءًا من شهر مايو المقبل، بنية مقابلة وشكر هؤلاء الأشخاص وكذلك تقديم تحياته للملك الجديد. سيكون من دواعى سرورنا، يا عزيزى السيد بيير مونييه، أن نراكم فى هذه المناسبة أثناء حفل الاستقبال الذى سيعقد فى قصر ڤرساى يوم الإثنين الموافق العاشر من مايو. وتعتبر هذه الرسالة بمثابة دعوة لك بدخول القصر. سوف يكون لى عظيم الشرف ولا شك أن أقدمك بنفسى إلى جلالة الإمبراطور. وتفضلوا، يا عزيزى السيد بيير مونييه، بقبول فائق الاحترام من شخصى المتواضع الذى سيكون له عظيم الشرف لخدمتكم.

الأمير بوريس إيفانوڤيتش كورابين السفير

فى البداية لم يصدق فيليستن نفسه فراح يقرأ هذه الرسالة الرائعة عدة مرات. راوده إحساس أثناء قراءتها بأنه يسمع من

خلالها صوت الإمبراطور بيوتر ميكايلوف الراعد مثل صوت الغول وضحكاته، وكان قد احتفظ بصورته على بعض القطع المعدنية الروسية. أخذ يستعيد في ذهنه ذكريات الفترة التي أقام فيها الإمبراطور في قرية لوباردانج، حيث تقع ورشة صهر الأجراس الخاصة به. بما فيها، اليوم الذي أعرب فيه الإمبراطور عن رغبته في رفع جرس كرابون وحده، وكيف أفسى في هذه اللحظة فساءً إمبراطوريًا حقًا.

تجمع كل أفراد عائلة مونييه حول الرسالة وراحوا يتفحصونها، ويعلقون على كل مقطع لفظي وحرف فيها. رأى الأغلبية أنه ينبغي على فيليستن قبول دعوة السفير؛ فمن خلالها يمكن أن ينتج شيء مفيد لورشة صهر الأجراس.

- حسنًا. قال فيليستن: ولكني الآن رجل عجوز أبلغ من العمر سبعة وستين عامًا. فمن منكم يرافقني في هذه الرحلة الطويلة؟ بعد المزيد من المداولات الجديدة، رفض شقيقه أنطوان، فلم يتبق أمامه سوى ابنه باردو البالغ من العمر الآن الحادية والثلاثين. هكذا لم يستطع رفض استكمال جولته الصغيرة حول فرنسا.

مع بداية شهر أبريل، كانت جميع التجهيزات والاستعدادات للرحلة قد اتُخذت. سوف يذهبان إلى منطقة فيشي على ظهور

الخيول، وهناك يتركان الخيول فى أسطبل تابع لنزل ثـم يـستقلان عربة تأخذهما إلى باريس ومنها إلى فرساى. ستـستغرق الرحلـة حوالى عشرة أيام ذهابًا، ومثلها فى العودة. باختـصار، ستـستغرق الرحلة فى مجملها حوالى شهر.

هذه العربة – وهى النسخة القديمة مـن الحنطـور -- هـى عبارة عن عربة بأربع عجلات ذات قوائم حديديـة، لهـا عجلتـان صغيرتان فى الأمام، واثنتان كبيرتان فى الخلف، تجرها ستة خيول. ومع كثرة الصياح والشتائم وضربات السوط التى يقـوم بهـا عـادةً حوذى العربة، تحتم وجود حوذيين يتولى أحـدهما قيـادة الفرسـين الموجودين فى المقدمة، بينما يجلس الثانى فى الخلف لقيادة الأربعـة التاليين.

وتتألف العربة نفسها من ثلاثة أجزاء. جزءان أمامى وخلفـى عبارة عن قفصين ضخمين من البوص مخصصين لوضـع الـسلع والأمتعة والبريد، وجميعها تحت إشراف خادم مسلح مهمته حمايتهـا ومنع السرقات أثناء محطات التوقـف للاسـتراحة. وبـين القفـص الأمامى والقفص الخلفى، مقصورة الركاب، ذات النوافـذ المفرغـة، وبذلك فهى معرضة للرياح والغبار والأمطار. فـى الـداخل يتـسع المكان لاثنى عشر شخصًا يجلسون وجهًا لوجه على آرائك محـشوة ويغطيها قماش أزرق كبير. وتتدلى مشدات من الصوف الخشن هنـا

وهناك لكى يتمكن الركاب من الإمساك بها للنهوض. جرت العادة أن تسافر العربة من الفجر حتى هبوط الليل. وكان على كل راكب تدبير طعامه لتناول الغداء، يأكله وهو جالس فى المقصورة. أما أثناء الليل، فيتوقفون فى الاستراحات لتناول وجبة حقيقية ساخنة وللنوم ولتغيير الخيول. لم تكن هناك أى حرية لاختيار النزل الذى يصلون إليه، بل كان عليهم أن يقبلوا بأسعاره وشروطه. هكذا أستعاد باردو ذكريات رحلته الأولى عام ١٧٠٤- ١٧٠٥. تعرف من جديد على منطقة بيلى ذات الطبيعة الجبلية ومنطقة فارين المسطحة، وقصر مدينة مولين وكوبرى الصدقة (لاشاريته) وقناة بريار، وشعر بفخر شديد وهو يُعرف أباه بكل هذه المناطق. سلكوا الطرق غير الممهدة التى تعلوها الأتربة التى تحدها أشجار الحور. وكانا يتحدثان مع رفاق رحلتهما من الركاب الآخرين ليعرفا من هم ومن أين هم آتون، وما الذى يفكرون به وإلى أين هم ذاهبون. ولتمضية الوقت، كانوا يلعبون الأحازير:

- أنا كنيسة بيضاء صغيرة، إذا ما انفتحت أبوابى ولو لمرة واحدة، أبدًا لن تنغلق مرة أخرى. فمن أنا؟

- الجبن؟

- كلا... هل غُلب حمارك؟

- نعم... غلب حمارى.

- البيضة.

ثم راحوا يتأملون معًا المناطق الريفية الجميلة والتى يجهلون أسماءها، والتى تغطيها البرارى أو نباتات القمح الخضراء. فراحت العصافير الصغيرة تزقزق مرحبةً بهم، والكلاب تنبح لهم، ويلعنهم الدجاج وتراقبهم قطعان الأبقار بإعجاب. كانوا يعبرون الأنهار سواء من الأماكن الضحلة فيها أو على القوارب الصغيرة. وعند عبورهم نهر السين فى بلدة مولن على جسرين خشبيين، راح الجسران يئنان بشدة من جميع أجزائهم تحت وقع عجلات العربات أو حوافر الخيول. وأخيرًا، لاحت مدينة باريس فى الأفق بكنائسها وأبراجها التى لا حصر لها. رست العربة عند رصيف "مورفوندو" لتُنزل بضائعها وركابها. غالبًا ما تكون البضائع بحالة سيئة، فإما أن تكون قد انقلبت أو تبعثرت أو نُهبت. ووقف بعض السماسرة يعرض كلٌ منهم على الركاب أن يأتى إلى نزله. استسلم بيير مونييه وابنه باردو لأحدهم الذى قادهما إلى نزله "ولى العهد الصغير"، بشارع كوينكامبوا. طمأنهما مرشدهما: لا تخشيا شيئًا أيها السيدان. فلن يحدث لكما أى مكروه ولن تُقتلا بطريقة أو بأخرى. فأصحاب هذا النزل هم من أشرف الناس.

وبالفعل تعشيا عشاء جيدًا وناما نومًا هنيئًا. فى صباح اليوم التالى استيقظا وهما مازالا على قيد الحياة وفى حالة نشطة تسمح لهما بمواصلة الطريق إلى فرساى. إلا أنهما سألا صاحب النزل لماذا ذكر مرشدهما موضوع القتل هذا.

- هذا بسبب "سيف الغابة"، وهو كباريه كائن فى نفس هذا الشارع، حيث وقعت جريمة به منذ فترة. أحدهم ويُدعى "لاكروا" تم ذبحه على يد الكونت "أنطوان دى هورن"، ابن عم الوصى على الملك، بمساعدة رجل آخر متواطئ معه.

- من هو الوصى؟

- حسنًا! إنه عم ملكنا الصغير!

- يا للمصيبة!

- وقد تم إلقاء القبض على الكونت ووقِّع عليه حكم بالإعدام. هكذا تدخل العديد من السادة النبلاء يتوسطون لابن العم هذا من أجل الحصول له على العفو قائلين له: لا يمكنك أن تترك أحدًا من نفس دمك يموت بهذه الطريقة المشينة. فهل تعرفان بماذا أجاب أبوه الوصى؟: "عندما يكون لدى دم فاسد هكذا، ينبغى علىَّ طرده من جسدى". وهكذا تم وضع أنطوان فى عجلة، ذراعيه وساقيه مكبلين ثم ضُرب حتى الموت، وذلك فى ميدان تنفيذ الأحكام فى باريس (ميدان جريف).

انبهر بيير مونييه فرحًا كيف أن المملكة أصبح لها حاكم عادل، وخفق قلبه بالسعادة عندما فكر بأنه ربما سيستطيع أن يرى بعينيه وصى الملك، هذا الرجل الرائع الجديد بالاحترام فى قصر ڤرساى.

فى ذات اليوم، الموافق الثالث عشر من شهر مايو، استقلا عربة أخرى، والتى غادرت بهما من شارع سانت نيكيس، وانتقلت بهما على مدار ست ساعات ونصف الساعة من التدحرج إلى ڤرساى. كلفهما ذلك جنيهًا واحدًا فقط لكل فرد، كما وجدا مكانًا للإقامة فى النزل يُدعى "سلة الزهور". هكذا أمضيا نهار يوم الرابع عشر فى التنزه بمدينة ڤرساى، ومشاهدة القصر الشاسع عن بعد، وتأمل أسواره الذهبية بإعجاب، وحركة العربات ذات الشعار الملكى ذهابًا وإيابًا، وكراسى الضيوف التى يرفعها الحمالون، وعربات التنقل الصغيرة والتى تسمى "أوانى الغرفة" وأيضًا عربة "كاراباس"، وهى عبارة عن أقفاص كبيرة من البوص تحمل عشرين شخصًا، تجرها خيول لها سروج خضراء، ويزين رؤوسها وذيولها زغب كالريش. يرتدى الحراس الفرنسيون زيًا أزرق وتحته طبقة أخرى حمراء، تزينها شرائط وأزرار بيضاء، وعلى رءوسهم قبعات سوداء مقلصة يزينها شريط ومحلاة ببنادق فى أطرافها حراب. الغريب فى الأمر أن أحذيتهم كانت خفيفة الوزن، ذات نعل رقيق، حيث تدخل

فيها القدم مثل الخف تاركةً الكعب معرضًا للهواء. إنهم حقًا جنود فى غاية النظافة حتى إنهم يبدون كأنهم فى عرض عسكرى أكثر من جنود فى المعركة.

أثار اهتمامهما أيضًا كنيسة نوتردام، التى تتوجها قبة فوقها شمس ذهبية معدنية، حيث كان بها ستة أجراس معلقة فى برجين، ويحمل الستة أجراس الأسماء الستة لأمراء (من أبناء العائلة الملكية). عندما تقرع هذه الأجراس فإنها تعزف بستة ألحان متكاملة: دو، رى، مى، فا، سو، لا، مما كان يمكنها من قرع نغمات متنوعة الإيقاعات. هكذا شرح لهما القس الذى أطلعهما على المكان، ومع ذلك، راح يشكو من عدم ارتفاع البرجين المعلق بهما الستة أجراس بما فيه الكفاية:

- بسبب هذا الارتفاع القصير، وبدلاً من أن ينتشر صوت الأجراس على مساحة شاسعة وفى جميع الاتجاهات، فإن الموجات الصوتية يعود صداها إلى الجدران، مما يهز الكنيسة بأكملها. بمجرد أن نقرع الأجراس، لا نستطيع سماع ترانيم الصلوات. قال فيليستن:
- إذن. فهذه غلطة مهندس معمارى سيئ. - ومع ذلك فقد كان مهندسًا معماريًا عظيمًا، إنه "هاردويون مانسار"، وهو مهندس لملك الشمس الراحل (لويس الرابع عشر).

- إن أكبر العظماء يمكنهم الوقوع فى الخطأ.

سطعت الشمس فى كل مكان، على واجهات أسطبلى الخيول الكبير والصغير، على قضبان أسوار القصر، على لافتات النزل، فى روض الحدائق، على أبواب الكنائس، على بندولات ساعات الحوائط. فى صباح اليوم المشهود، الموافق الخامس عشر، نهضا مبكرًا، وارتديا ملابسهما بعد أن قامت عاملة تنظيف ملابس النزل بتنظيفها، ثم وضعا على رأسيهما الشعر المستعار، وعدل كل منهما من هندامه على أفضل ما يكون. ثم توجها إلى بوابة القصر الرئيسية، ودلفا بدون مشاكل فى أول فناء، وهو شكل هلال ويكتظ بحشد من الناس يرتدون ملابس ملونة، وبدوا جميعًا فى ملابسهم البرجوازية كالأطياف.

عند البوابة الثانية، أوقفهم الحراس قاطعين عليهم الطريق بحرابهم وسألوهم باستخفاف وخيلاء عن سبب وجودهم فى هذا المكان.

- إننا مدعوان من إمبراطور روسيا.

أبرز بيير الرسالة الموقعة من السفير كورابين. قرأها الحارس الأول بصعوبة، ثم مررها إلى الثانى الذى قرأها هو الآخر. رد عليهما الحارس الثانى: إن صاحب الجلالة إمبراطور روسيا. يقيم فى قصر تريانون (أحد ملحقات قصر فرساى). من المقرر أن يُقام

حفل استقباله الرسمى فى الساعة الحادية عشرة. فإما أن تعاودا المجىء فى هذا الموعد أو تصبرا. تستطيعان تمضية الوقت بالتنزه فى الحدائق.

اعتمادًا على هذا الإذن، راحا يصعدان السلم الكبير ذا الدرجات المصنوعة من الرخام الوردى. ووقفا يتأملان بانبهار أمام الأحواض الكبيرة حيث تقذف التماثيل كل مياهها، وراحا يتساءلان عما تمثله تلك التماثيل، والحيوانات الحجرية والوحوش المائية. وكان العديد من الناس يتنزهون حولها. كما شاهدا أيضًا دفينة البرتقال (وهى حديقة خاصة بأشجار الموالح). ووجدا بها، ليس فقط زهور البرتقال التى تزفر روائح عبقة، ولكن أيضًا نباتات مجهولة وضعت لافتة أمام كل منها: شجرة التين الأفريقية، شجرة البن، شجرة الأناناس وأشجار النخيل التى تطرح البلح. بعد ذلك توغلا بين الشجيرات حيث كانت حشود الناس نادرًا ما تقترب منها. عندما مرا بالقرب من صف شجيرات صغيرة من الغار- الكرز، سمعوا أصواتًا. فمالا إلى الجانب الآخر، وهناك تفاجآ بوجود اثنين من رجال الحاشية خلف هذا الساتر المتواضع، يضعان على رأسيهما الشعر المستعار، ويجلسان القرفصاء حيث كانا يقضيان حاجتهما، ولم يتحرجا بالمرة بتبادل الحديث معًا فى أبسط المواضيع(١). من حين

---

(١) كتب سان سيمون فى كتابه يقول: إنه شاهد الملك وحاشيته يضطرون فى بعض الأحيان إلى الفرار من الحدائق "نظرًا للروائح الكريهة الموجودة بها".

لآخر، كان فيليستن ينظر إلى ساعته الكبيرة التى يضعها فى جيب سرواله الداخلى. عندما أصبحت الساعة العاشرة والنصف، عادا أدراجهما تجاه القصر، متتبعين حركة الناس، فعبرا الفناء الرخامى، ثم صعدا الدرج.

وأخيرًا وجدا نفسيهما فى القاعة الكبرى التى تزين جدرانها المرايات الضخمة واللوحات الزيتية، وحيث ينتظر بها مئات المدعوين تحت الأربع عشرة ثريا المعلقة فى سقف القاعة. وبرغم وضوح النهار، راحت آلاف الشموع تحترق فى المشاعل وكذلك فى الشمعدانات المعلقة. افترشت الأرضية الخشبية سجادتان ضخمتان تزينهما شموس ذهبية وأوراق الشجر. على الرغم من مرور عامين على وفاة العاهل الكبير، لويس الرابع عشر الملك الشمس، فإن حضوره كان لا يزال طاغيًا ومشعًا فى أنحاء المكان. كان جميع الحضور يتحدثون معًا كخلية نحل، يضحكون ويتملقون بعضهم البعض. ومع ذلك كان هناك عدد من المدعوين البرجوازيين، يرتدون ملابس متواضعة مثل بيير وابنه، يقفون مبتعدين عند إطارات النوافذ الموجودة فى الجدران.

فجأة، حدث نوع من الهمهمة والجلبة غير العادية قادمة من القاعة المسماة بصالون السلام، ووقع أقدام قوية يرافقها صوت رجل أجش هادر مثل صوت الغول، يلقى بأوامر غير مفهومة. راح

الحاجب الواقف على باب القاعة الكبرى يعلن للحضور بصوت عالٍ وواضح قائلاً:

- صاحب الجلالة بيير الأول، قيصر جميع بلاد روسيا.

ظهر القيصر بقامته الفارعة التى تتخطى رءوس جميع الحضور، فتعرف إليه فيليستن على الفور فهو بيوتر ميكايلوف، تلميذه السابق. لقد لونت العشرون عامًا المنصرمة بشرته فأصبحت برونزية، كما أن شاربه الدقيق أصبح رماديًا. كان يرتدى ياقة من التيل وشعرًا مستعارًا مستديرًا وقصيرًا، بدون أى مساحيق على وجهه، وصديرية لها أزرار ذهبية، بدون أكمام من الدانتيل. تتوسط صدره نجمة سان أندرو. وكانت يحيط به حاشيته من ضباط، ووزراء وأمناء السر والسكرتارية الخاصة وسفراء ومترجمين فوريين. كان يسير محدقًا بعينيه الثاقبتين باحثًا عن وجوه مألوفة. تقدم نحو البرجوازيين الذين انتحوا بجوار النوافذ، وراح يحييهم محتضنًا بعضهم، ومقبلاً البعض الآخر على فمه، وهو يطلق ضحكاته القوية الرنانة، ويربت بقوة وحميمية على ظهورهم، مُحدثًا وقعًا مثل وقع الطبول. راح يتجاذب أطراف الحديث مع بعضهم بلغات مختلفة، فى حين ظل رجال الحاشية الفرنسية واقفين على مسافة، يراقبونه وقد اتسعت عيونهم من الدهشة وأرهفوا سمعهم .

تقدم فجأة فأصبح أمام بيير وابنه، صانعى الأجراس القادمين من أوفرنى. ظل ينظر إليهما مترددًا لبضع ثوان، ثم هتف بسعادة:

- إنه أنت... أنت... فيليستن!

قال فيليستن ثم أكمل: بيير مونييه. فى خدمتك يا مولاى. قال الإمبراطور وهو يشير إلى باردو: وهذا؟

- إنه ابنى باردو يا مولاى.

- باردو! نعم... نعم! باردو الصغير!

- لم يعد عمره أحد عشر عامًا يا مولاى... إنه فى الحادية والثلاثين من عمره الآن.

أمطرهما بالقبلات والأحضان الدافئة وهو يطلق ضحكته الشهيرة. بل كان للاثنين الحق فى تلقى قبلات على الشارب أيضًا.

- أنا (بلغة فرنسية ركيكة)... سعيد للغاية... نعم، نعم... لرؤيتكما من جديد... فيفيرول، نعم، نعم... مع...

- مع السيد ستاروف يا مولاى.

- نعم، نعم... ستاروف... المسكين ستاروف. لقد تم دفنه.

- حقًا؟ نحن مستاءان للغاية.

- ذات صباح، أنا... ضربت ستاروف بشدة. إنه توفى. حقًا أحمق.

أطلق الإمبراطور ضحكته العالية بينما التزم كل من بيير وباردو الصمت.

- أنتما، فى يوم ما، تأتيان إلى موسكو، لصهر الأجراس والمدافع.

ثم جذب الأمير كورابين، أحد سفرائه، وقدمه إليهما. فى تلك اللحظة، علا نفير البوق عاليًا وغطى على جميع الأصوات. سُمع صوت الحاجب عاليًا يعلن:

- صاحب الجلالة ملك فرنسا!

انزاحت الحشود على الجانبين مثلما انشق البحر الأحمر، مما أسفر عن ممر طويل يصل إلى الطرف الآخر من القاعة، حتى قاعة أخرى تسمى "قاعة الحرب". وسط صمت الجميع المفعم بالدهشة، تقدم صبي صغير ذو سبع سنوات إلى الأمام. يضع على رأسه شعرًا مستعارًا مصففًا على هيئة ذيل حصان، يرتدى ثوبًا مزركشًا بخيوط من الذهب والفضة وفوقه مثل الكرافت ذات ثنيات كثيرة من الدانتيل وسروالاً من المخمل الأزرق وجوارب من الحرير الأبيض وحذاء ذا كعب أحمر. يحيط به من جانب عمه الوصى عليه فيليب دى أورليان

وعلى الجانب الآخر القس فلورى. راح يمشى بخطى واثقة تجاه ذلك الرجل الذى ارتفعت رأسه فوق رءوس الجميع، أى الإمبراطور، ثم بدأ يلقى بصوت ملائكى، كلمة مجاملة موجهة له:

- يا ابن العم، إننى أتشرف باستقبالكم فى مملكتى، متمنيًا لكم إقامة سعيدة وأن تعودوا بعدها إلى بلدكم العظيم بذكرى جميلة من ترحابنا بكم، لكى تجمع مشاعر صداقة متينة بين شعبينا. راح الإمبراطور بيير الأول يصغى إلى كلمة الملك الصغير وعلى وجهه ابتسامة كبيرة. ولكن ما الذى شاهده الجميع فور أن انتهى الملك الصغير من كلمته؟ شىء لا يصدق جعل جميع الحضور يحبسون أنفاسهم إلى حد الاختناق. لقد فتح الإمبراطور العملاق القادم من تلك البلاد البربرية، ذراعيه الضخمين وانحنى ممسكًا بالطفل الملكى من تحت إبطيه ورفعه إلى مستوى وجهه، وراح يغمر فمه وخدّيه بعشرات القبل الروسية الشهيرة. حدث ذلك تحت أعين الحضور الذين عقدت الدهشة ألسنتهم، وهكذا ظل القيصر محتفظًا بالملك الطفل بين ذراعيه كما لو كان ابنه وأخذ يدغدغ ذقنه وأنفه بإصبع سبابته. بعد هذه المداعبات، وضعه على السجادة المليئة برسومات الشموس الصغيرة. انضم الملك الصغير لويس الخامس عشر إلى زمرة وزرائه. بدأت همهمات ناقمة تعلو بين الحضور، ولكن وصى الملك الصغير المستشار فيليب راح يصفق بيديه، ففعل الآخرون مثله

حتى أصبح التصفيق عامًا، ولكن صوت التصفيق كان ضعيفًا، حيث كان هؤلاء السادة يربتون بأيديهم – بش! بش! بش! – مما كان يُحدث حركة أكثر منها ضجيجًا.

بالنسبة لبيير – فيليستن فقد تحول من الدهشة إلى الذهول الشديد. فقد راح يتساءل كيف لرجل بمثل هذه الوحشية حتى إنه قضى على مترجمه، أن يُظهر كل هذه الرقة والعاطفة تجاه هذا الملك الطفل.

اتبع هذا اللقاء الغريب بين العاهلين لقاءات أخرى بين الوزراء الفرنسيين ونظرائهم "الروسيين"[١]، أو كما يطلق عليهم البعض بسخرية "صغار الماركيز".

وبعد ذلك دخل بعض عازفي الكمان، ليقدموا فاصلاً من العزف الموسيقى أمام الحضور حتى ينتهى هذا اليوم المهم فى وئام وانسجام.

قرر بيير وباردو مونييه البقاء لثلاثة أيام أخرى فى هذه المنطقة لمشاهدة معالمها وكل ما يثير الفضول بها. تأملا بإعجاب على وجه خاص مضخة مارلى، والتى تضخ المياه من نهر السين حتى مدينة ڤرساى بفضل نظام ميكانيكى رائع. أعلم مسئولو

---

(١) مسمى خاطئ والأصح هو "الروس" (المراجع).

النافورات أفراد أسرة مونييه أن القيصر بيير قد قام بزيارتهم أيــضًا، حيث كان معتادًا على التنزه فى عربة حنطور بسيطة حتى لا يلفــت الانتباه إليه، كى يشاهد الأعمال اليدوية وأعمال الحرفيين.

فى الثامن عشر من شهر مايو، سلكا عكس الطريق الذى قدما منه ليعودا إلى قرية فيفيرول.

(١٦)

بمجرد أن عادا إلى منزل العائلة، كان لديهما الكثير والكثير ليحكوه عما رأياه، وما قاما به.. الكثير من الغرائب والعجائب، حتى إن جيرمان، شقيق باردو والذى لم يكن مدعوًا للسفر معهما، قد هز أكتافه باستخفاف ثم تذمر قائلاً:

– بإمكانهم أن يسردا لنا كل ما يشاءان من حكايات ويخترعا كل القصص... فدائمًا الكاذب الجيد هو الآتى من بعيد. سأله أبوه فيليستن وقد احتدم غضبه: إذن أنت تنعتنا بالكذب؟

– ليس أنا، بل المثل هو الذى يقول ذلك.

قال جيرمان هذه العبارة ثم ذهب للعمل فى الحقول حتى لا يسمع المزيد.

ولكن بعد أسبوعين وصلتهم رسالة مختومة بالشمع الأحمر عن طريق المسئول عن المخازن جاشون لتؤكد صحة ما حكياه:

عزيزى السيد بيير مونييه، يعرب صاحب الجلالة القيصر بيير الأول من خلالى عن بالغ سروره للقائه بكم وبابنكم باردو مونييه ورؤيته لكما وأنتما فى وافر الصحة والعافية. سيكون أيضًا فى بالغ السعادة إذا ما أتيتم فى يوم ما لاستعراض مواهب حرفتكم فى بلاده وسوف يؤمن لكم مقدمًا حمايته الكاملة.

وسوف أتشرف أنا يا سيد بيير مونييه، أن أكون دائمًا خادمكم المطيع، الأمير بوريس إيفانوفيتش كورابين السفير.

بعد أن راجع فيليستن خريطة العالم، قدر المسافة التى تفصل قرية فيفيرول عن مدينة سانت بيترسبرج، عاصمة روسيا، بنحو ألف فرسخ، فهتف قائلاً:

– إذن فلن أقوم بمثل هذه الرحلة غدًا!

ألف فرسخ! إنها أكبر مسافة يمكن قطعها فى العالم، بما أن الناس تقول دائمًا: "إنك على بعد ألف فرسخ من اعتقاد ذلك، أو من التفكير فى ذلك، أو التنبؤ بذلك. ها هو بيير الأول وروسيا يأخذان أماكن بين ذكريات الأشياء الماضية التى يتم سردها فى الأمسيات وهم جالسون حول المدفأة.

فى عام ١٧١٨ طرحت أراضى القرية محاصيل جيدة من الحبوب. ولكن الصيف الذى تلاه كان شديد الحرارة والجفاف حتى إن المروج لم تجن عائدًا يُذكر. ولتعويض تلك الخسارة، قام

المزارعون بتقليم وتشذيب أشجار الحور والرماد التى ما زالت فى كامل اخضارها. لهذا تحتم على الأبقار أن تكتفى بهذا العنصر الخام الممزوج بقليل من القش العادى كغذاء فى الشتاء المقبل. فكل ما يدخل البطن يملؤها.

غادر بيير وابناه بحثًا عن عمل وبالفعل قاموا بصهر جرس فى منطقة بوجلاى، وآخر فى منطقة دوفينيه. ولكن خلال هذه الرحلة حدث لجيرمان تغيير أشبه بالمعجزات.

بينما كانوا يعبرون منخفض فيفارى على ظهور الخيول للعودة إلى منطقة أوفرنى، جاءتهم فتاة خارجة من كوخ حقير وقدمت لهم سلة من الخوخ.

سألها جيرمان بعد أن ترجل إلى الأرض من فوق حصانه : بكم؟

– ثمانية قروش بما فى ذلك السلة. لقد صنعتها بنفسى من أفرع الشجيرات.

أعطاها خمسة عشر قرشًا فقالت له: إن ذلك كثيرًا ومع هذا أخذت النقود، وشكرته ثم طبعت على يده قبلة خفيفة. راح ينظر إليها بتمعن، متأملاً بشرتها الذهبية وعيونها ذات اللون الفاتح، وقرطيها المتدليين والمصنوعين من الحجارة البنفسجية. وقف وهو يحمل سلة الخوخ، وهى ممسكة بالخمسة عشر قرشًا. لم يصعد على حصانه

مرة أخرى بل راح ينظر إليها وهى تنظر إليه. أما أبوه وأخوه فتقدما إلى الأمام على جواديهما.

- ما اسمك؟ سألها جيرمان

- بترونى.

- بت... ماذا؟

- بترونى.

- أيوجد حقًا مثل هذا الأسم: بترونى؟

- كما ترى.

- عندنا فى منطقة أوفرنى، لا يوجد اسم بترونى... أما إذا أخذتك إلى هناك، سيصبح هناك واحد.

ابتسمت الفتاة فى تواضع. قضم إحدى ثمار الخوخ، ولكنه فى الواقع ود لو أنه يقضم وجنتيها. إن فتاة مثلها تقبّل يده لا يمكن إلا أن تكون زوجة مطيعة وخنوعًا.

أضاف جيرمان قائلاً: أنا صانع أجراس. أقوم بصهر الأجراس فى قرية فيفيرول. لقد عدنا أنا ووالدى وشقيقى من بلدة دوفينيه، حيث قمنا هناك بعملنا على خير وجه. كم عمرك؟

- ثمانية عشر عامًا.

- وأنا فى الثلاثين... هل ترغبين فى أن تكونى زوجتى؟

- هل ثمار خوخى لذيذة؟

- إنى أسألك إذا ما أردت أن تكون زوجتى.

- ولكننا لا نعرف بعضنا البعض.

- لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك... ولهذا فسوف أعود إليك لاحقًا لكى نتعرف إلى بعضنا البعض أكثر ووقتها تعطينى ردك.

حيّاها بوضع يده على قبعته، ثم صعد على سرج جواده ولحق بأبيه وأخيه. راحوا يأكلون الخوخ فى الطريق. عندما وصلوا إلى نافورة، توقفوا ليغسلوا أيديهم بعد أن التصق بها عصير الخوخ اللزج. لقد كانت بائعة الخوخ تعيش ليس ببعيد عن تورنون، وهى مدينة جميلة تقع على ضفاف نهر الرون، تحيط بها مزارع الكروم والبساتين.

عاد أفراد عائلة مونييه الثلاثة إلى فيفيرول. منذ ذلك الحين تحولت مشاعر جيرمان تحولاً تامًا، وهو العدو اللدود للزواج، فقد سيطرت على رأسه فكرة واحدة وهى: أن يعود إلى فيفاريه ويبحث عن فتاة الخوخ ويقنعها بأن تصبح من سكان أوفرنى. هكذا تم زفافهما فى شهر سبتمبر من عام ١٧٢٠.

في شهر يوليو من العام التالي رُزقا بأول طفـل لهمـا وهـو صبي أسموه ماتلن، مصغر لماتيو. كما كان يأمل جيرمان، فقد وجد في زوجته بترونى امرأة مطيعة على الدوام. على الأقل أمام الناس. فإذا كان لديها بعض التحفظات عليه، كانت تنتظر المسـاء، حينمـا ينغلق عليهما باب غرفتهما ويصبحان منعزلين عن العالم وراء ستائر سريرهما.

كان عام ١٧٢١، هو عام لا ينسى أيضًا بسبب وباء الطاعون الرهيب الذى انتشر مرة أخرى، في مقاطعة بروفانس الجنوبية. لقـد كان أسوأ الأوبئة التى حلت عليهم. لقد بدأ الوباء ينتشر فى مرسـيليا عن طريق مركب آتية من مدينة سميرنا (أزميـر حاليًـا)، محملـة بمختلف أنواع الحرائر والأقطان والمواد الغذائية الشرقية المختلفـة. وأيضًا كان عليها خمس جثث لأشخاص ماتوا بوباء الطاعون.

وبدلاً من أن يرفضوا إنزال بضائع هذه المركب، أخذ تجـار مرسيليا هذه الحمولة وكأن شيئًا لم يحدث، وقد بيعت هذه البضائع فى الأسواق دون أى انتظار أو تأخير. كانت النتيجة أن انتشر الوباء فى كل مكان مسببًا مقتل خمسمائة شخص كل يـوم. افترشـت الجثـث شوارع المدينة بعد أن رفض الحانوتية المعتادون جمعها. وافق فقـط على القيام بهذه المهمة الرهيبة عدد قليل من العبيد، فـى مقابـل أن يُعتقوا إذا ما ظلوا على قيد الحياة. تسبب الوباء أيضًا فـى مجاعـة

واسعة النطاق فى مقاطعة بروفانس وفى وادى نهر الرون. أرسلت جميع أنحاء المملكة مساعدات لإغاثة المناطق المنكوبة. أمر حاكم مدينة كليرمون ممثليه وموفديه بشراء الآلاف من الماشية والأغنام وكذلك الحبوب المتاحة. أرسل كل هذا إلى المناطق التى اجتاحها الوباء، وبهذا جلب كثيرًا من المال على المزارعين. استفادت منطقة ليڤرادوا فوريز من هذه الصفقة. وفى نفس الوقت، خضعت كل الطرق لتفتيش صارم من الشرطة. فجميع المسافرين القادمين من المناطق الجنوبية كان يجرى حجزهم فى الحجر الصحى التابع لمستشفيات مدن تيير، أمبر، أرلانك وكونلا.

ومن ثم بدأ الوباء يخف تدريجيًا حتى اختفى شيئًا فشيئًا. انخفضت أسعار الحبوب والماشية من جديد، وأصبح التنقل حرًا وبلا قيود.

ولد أطفال وكبروا، بينما مات آخرون. أنجب جيرمان وبترونى شقيقين وأربع شقيقات لابنهما الأكبر ماتلن، ولكن الشقيقين توفيا بعد أشهر قليلة من ولادتهما.

فى عام ١٧٣٠ أغمض بيير - فيليستن البالغ من العمر ثمانين عامًا، عينيه إلى الأبد، وخلد إلى النوم فى الرقعة الأرضية التى ينتظره فيها العديد من أفراد عائلة مونييه المتوفين تحت ظل برج

جرس كنيسة فيفيرول. جاء كل أهالى المقاطعة إلى جنازتـــه، بمـــن فيهم سيد المقاطعة الجديد ويُدعى چوزيـــف مونتيجـــو، كونـــت دى بوزول، مفتش عام سلاح الفرسان الملكى.

منذ ذلك الحين، تربع باردو على رأس سلالة عائلة مونييـــه. فبعد أن وصل إلى مرحلة النضج التام، وجد أن الوقت قد حان لعمل لوحة زيتية له كى يضيفها إلى معرض لوحات أسلافه. لذلك، وبعـــد أن تلقى النصح من الكونت دى بوزول، استقدم رســـامًا مـــن ليـــون متخصصًا فى فن البورتريه، وهو من أصل بلجيكى ويُدعى فان دير هيدين. استقر هذا الرسام ليقيم مع العائلة لمدة شهر ونصف الـــشهر حتى ينتهى من هذا العمل الفنى.

أخذ يرسم باردو، نموذجه، وهو يرتدى زيًا برجوازيًا بسيطًا، وسروالاً من التفتاه أصفر اللون وجوارب قطنية، ويضع على رأســـه شعرًا مستعارًا قصيرًا، وفقًا لموضة تلك الفترة. ويمـــسك فـــى يـــده اليمنى بلفة من الورق نصف مفتوحة يمكن للمرء من خلالها أن يميز رسمًا تخطيطيًا لجرس.

من فوقه تبدو السماء مليئة بالغيوم منذرة بالعواصـــف، وفـــى الخلفية ينتصب برجان توأمان من أبراج أجـــراس الكنيـــسة، علـــى

الأرجح هى كنيسة سان بونيه. كان وجهه مبتسمًا، وترتسم بين حاجبيه تجعيدتان فقط، وتظهر بشرته البيضاء يشوبها قليلا من الشحوب بسبب ذقنه النابتة.

فى بعض الأحيان كانت بناته يأتين لحضور جلسات رسمه وامتثاله بلا حراك أمام الرسام، ليجلسن القرفصاء وراء مقعده، تداعب كل منهن الأخرى بالقرص أو بالدفع، ثم يكتمن ضحكاتهن بأيديهن. لقد وافق السيد فان دير هيدين على حضورهن جلسات الرسم، قائلاً بأن ذلك يضفى جوًا من المرح ينعكس على وجه باردو، نموذجه. وهذا هو ما قام به الرسام العظيم ليوناردو عندما رسم ابتسامة موناليزا ديل چيوكوندو.

فى بعض الأيام، كان الرسام الهولندى يدعى أنه يفتقر إلى الإلهام. أو أن إضاءة المكان لا تلائمه، وهكذا كانت الجلسة تؤجل لحين آخر، وكان الفنان يذهب للتنزه فى المناطق الريفية لكى ينتعش ويلهم نفسه. يبقى الوضع هكذا حتى تصبح الظروف مواتيةً مرة أخرى. كان لابد له من فترة تبلغ خمسة وأربعين يومًا لاستكمال اللوحة. أبدى الرسام ملاحظته قائلاً: يمكننى، أن أعمل فى هذه اللوحة لشهور، وسوف أجد بها مئات التفاصيل لتغييرها. ولكن لابد أن أعرف كيفية وضع اللمسات الأخيرة.

أخذت العائلة بأكملها تتأمل اللوحة بإعجاب فيما عدا جيرمان، ربما بدافع الغيرة، فقد تجرأ على القول إنه لا يجد أن اللوحة تشبه أخاه كثيرًا. احتج الرسام فان دير هيدين واقترح عمل اختبار بواسطة كلب.

- هل لديكم كلب صغير؟

- لدينا كلب متوسط الحجم يُدعى باباو.

وضع الرسام لوحته على اللوحة الخشبية متكئة على مقعد وطلب من باردو مغادرة الغرفة. تم إحضار الكلب باباو ووضعوه أمام اللوحة ثم ابتعدوا جميعًا لمراقبة رد فعله. لم يكن الكلب باباو من سلالة كلاب معروفة، فروته داكنة اللون، ولهذا أطلقوا عليه هذا الاسم الذي يعنى: الشيطان الأسود. فى البداية تفاجأ من قطعة الأثاث غير العادية هذه، فتأملها بلا مبالاة ، ثم راح يدور حولها. "يا إلهى"! أخذ جيرمان يدعو بينه وبين نفسه آملاً أن يتبول الكلب على اللوحة! ولكن على ما يبدو أن هذا لم يكن هدف الكلب. فبعد تردد طويل، بدأ الكلب يتشمم اللوحة، ثم راح يلعقها. صفق فان دير هيدين مُحدثًا ضجة وهتف قائلاً:

- كما ترون، من الواضح أنه تعرف على سيده! فى الواقع، بدأ باباو يلعق سطح اللوحة بأكملها، بل وقف على أقدامه الخلفية لكى يصل إلى أبراج الأجراس.

قال جيرمان: يا إلهى! لقد أحب طعم ألوانــك الزيتيــة التــى تجهزها ببياض البيض وهو مولع بذلك. كما أنه من الواضح أنه لــم يُظهر أية عاطفة تجاه اللوحة... انظر... إنه لم يهــز حتــى ذيلــه. ظل الأمر عند هذا الحد. قبض السيد فان دير هيدين أجــره مقابــل اللوحة التى أضيفت إلى معرض أسلاف العائلة واستقرت بها كلوحة جميلة الشكل.

انصرم عام ١٧٣٠، تصاحبه النهاية الحزينة للعراف، رجــل النبوءات. لقد عثر عليه الحطابون مشنوقًا من رقبته فى أحــد أفــرع شجرة من أشجار غابة "لاليس". فى البداية ظنوا أنه تمثال أو خيــال الظل الذى يوضع ليبعد طيور البوم. ثم تيقنوا من أنه المشعوذ لــيس إلا، بل وجدوا قبعته ملقاة على الأرض. حملوه وعادوا به إلى قريــة فيفيرول، وسألوا القس عما ينبغى عمله حيال هذه الجثة، فما كان من القس فيدال العجوز إلا أن أعرب عن سخطه قائلاً:

- إن الكنيسة تدين الانتحار رسميًا. فاللــه وحده هــو الــذى يعطينا الحياة لذلك له الحق فى أن يأخــذها منــا وقتمــا شــاء. إذن ستخضع هذه الجثة للعقوبة المنصوص عليها فى القــوانين الكنــسية. أول هذه القوانين هى السياج (الصينية). إلى ذلك اليوم، لم يكن أهالى فيفيرول يعرفون إلا صوانى الجبن. بأمر من القس، قام النجار بعمل صينية ذات حجم جيد، مكونة من نقالتين متوازيتين يربطهمــا معًــا

مضفر من البوص. يوضع المشنوق فوقها، مكبلاً بالحبال، رأسه إلى أسفل وقدماه إلى أعلى. يُربط حمار فى هذه الصينية التى تشبه الطبلية وبهذا الشكل، تم اقتياد جثة العراف فى جولة بجميع طرقات قرية فيفيرول أمام أعين الأهالى المرتعبين. كان لهم الحق فى سبِّه وإهانته ورشقه بالحجارة. لم يفعل أحد منهم أى شىء من هذا القبيل. بعد جولته هذه، تم نقله إلى المقابر. ولكن القانون الكنسى يمنعه من المرور عبر أبوابها، لهذا تم رميه من فوق الجدار، وبعدها تم دفنه فى المدافن الخاصة بالملعونين.

(١٧)

لم يبد ماتلن الشاب، ابـن جيرمـان وبترونـى، أى اهتمـام بالبرونز أو الحديد أو الأخشاب أو بكل ما هو يعمل ميكانيكيًا. فرؤية تلك النيران فى ورشة صهر الأجراس، والمعادن المسالة، والـوهج الذى تُحدثه، كانت تمثل له رؤية الجحيم. وهى تعج برجال وجوههم سوداء بفعل النيران والوهج الذى أمامهم، أيديهم صـلبة ومتـسلحون بالمعازق أو بالمعاول أو الحراب. وفى وسط الورشة يقف بـاردو، رئيس الشياطين، وجيرمان، الشيطان الثانى. وفى يوم مـن الأيـام، احترق أحد العمال ذو لحية طويلة وشعر كثيف، فاشتعل ككتلة مـن القش. فيما بعد خضبوا وجهه وجسده بزيت الفجل، ولكن وجهه ظل مشوهًا بطريقة مروعة.

- كم يبلغ عدد الشياطين؟ هكذا سأل ماتلن القس فيـدال بعـد انتهاء درس الدين.

راح رئيس الرهبان يتصفح مرجعًا غليظ الحجم كى يرد عليه. ثم قال له:

- وفقًا للمتخصصين فى ذلك، فإنـــه يوجـــد ســـبعة ملايـــين وأربعمائة وخمسة آلاف وتسعمائة وستة وعشرون شيطانًا، كبارًا أو صغارًا، فكلهم ملاعين.

ورغم هذا النفور من جانب ماتلن فإن ابن عمه أميديه، وهـــو أكبر منه بعشر سنوات، حاول أن يحببه فى البرونز:

- فى يوم من الأيام، ستتولى أنا وأنت تركة آبائنا. إن مهنتنـــا هذه البالغ عمرها الآن ثلاثة قرون، لا يجب أن تندثر، فهى واحـــدة من أجمل المهن على الإطلاق. ولا تنس أن الأجراس لها مهمتـــان: أنها تنادى على الرجال وتنادى على الملائكة.

ولكن الشاب ماتلن لم يُبد أى اهتمام إلا لكل مـــا تمنحنـــا بـــه الطبيعة. كان قادرًا على البقاء ساعات طويلة ملقى على بطنـــه فـــى البرارى، يراقب ما تفعله الخنافس الكبيرة والنمل والجنـــدب والبـــق الأحمر، ويشاهد العشب وهو ينمو وكيف تتفتح براعم الزهور البرية. كان يستيقظ ليلاً لكى يستمع إلى غناء طائر الشحرور الأسود والـــذى كانت الأمطار تجعله يصفر محتجًا. كان يراقب أيضًا بنظارة مكبـــرة تصرفات السناجب، والنمس البـــرى ذا الفـــرو والطيـــور بمختلـــف أنواعها. أما الطيور الخضراء فكانت تتناحر لاصقة حوصلتها أمـــام حوصلة نظيرتها وهما يرتفعان معًا فى الهواء. وكذلك طائر كاســـر

الجوز، الذى يكسر حبات البندق والجوز بمنقاره. وأيضًا طائر الرفراف الصياد الذى يغلق أجنحته ثم يغوص تحت سطح جدول النهر ليصطاد السمك الصغير.

على مدار موسم كامل، راح ماتلن يراقب بشغف طائر الأخطب، وهو طائر عنيف جدًا وخبيث جدًا رغم جماله: فهو يسلخ ضحاياه بمنقاره مثل، الجعارين والذباب الأزرق والدبابير والجراد، ثم يخزقهم على أشواك أفرع الورود البرية، ليكوّن منهم مخزونًا للأيام العجاف. مثلما كان يفعل المزارعون بتعليق لحم خنازيرهم فى حزم على جدران غرف المعيشة فى منازلهم.

سأله عمه باردو: إلى ماذا سيقودك شغفك بالحيوانات هذا؟

- أريد أن أصبح طبيبًا للحيوانات.

- طبيب للحيوانات؟ هذه مهنة لا وجود لها. فالراعى يعالج أغنامه، ومربى الأبقار يعالج أبقاره.

- سوف ينتهى بك الأمر أن تصبح متسولاً! هكذا انفجر فيه جيرمان بعصبية: سوف تتسول خبزك مثل عائلة بلاردى. إنها عائلة بلاردى التى حدث ذات عام أن قتلت كبيرها خنقًا بين طبقتين من المراتب بعد أن أصابه داء السعار. إنهم متسولون محترفون. ما إن يهل فصل الربيع وتتفتح أولى زهور البنفسج، حتى

يذهب الأب والعم وأولادهما الأربعة إلى الريف ممسكين بعصيّهم ذات المقابض الحديدية وأجولتهم، وهم يرتدون ملابس رثة، ويضعون عصابات على أعينهم. ثم ينتشرون في جميع الاتجاهات، وهم يمدون أيديهم أو قبعاتهم للناس في الموالد والأسواق، وأمام أبواب الكنائس. في بعض الأحيان كان عليهم التناحر من أجل المنافسة، مما كان يُفسر سبب حدوث جروح في وجوههم، أو تورُمات واضحة للغاية. كانوا يدقون على أبواب المزارع المنعزلة متحدين أنياب كلاب الحراسة الموجودة بها. لم يجرؤ أحد على صدهم، فعلى الأقل كانوا يعطونهم أطباقًا من الحساء. ولكنهم كانوا أيضًا يجمعون قطعًا صغيرة من المال ويعودون به إلى فيفيرول مع قطع الجليد الأولى التي تُنذر بقدوم فصل الشتاء. إذا حدث وتجرأ أحد ليشتكيهم، كان الأب يهز أكتافه باستخفاف قائلاً:

- هناك أناس أشد بؤسًا منا.

كان التسول في هذا الزمن البعيد، طريقة متداولة لكسب العيش. حتى إن بعض القرى في منطقة أوفرني كان سكانها كلهم تقريبًا من المتسولين. على الأقل كانوا مُسجلين تحت هذا المسمى في سجلات الضرائب فكانوا يعفون منها. لم يتعامل ماتلن مع أي من أفراد عائلة بلاردى، ولكنه من ناحية أخرى، كان يحب الاختلاط بأولاد العمال في قرية فريسينييه وأولاد عائلة روسييه. كان أول

صديق له هو كلودوس، بينما كان أبواه يطلقان عليه كلوديوس. كانت له أعين سريعة الحركة وضحكة عالية. كانا يلعبان معًا بقطع الخشب والحجارة وروث الأغنام. كانا يمزحان مع الماعز، فيرقدان تحتها ويرضعان من ضروعها، مثل قصة ريموس ورومولوس الذئبة الرومانية. هكذا نشآ معًا. كان الأب روسييه يعطى كلاً منهما عصا فى نهايتها نصل، ويطلب منهما الذهاب لقطع النباتات الشائكة الموجودة فى حقول القمح. كانا يندسان ما بين أعواد القمح بقدر ما يستطيعان، ثم وبضربة حادة، يقطعان الأشواك.

فى يوم ما كانا عائدين من حقول القمح عندما مر بالقرب منهما القس الشاب لكنيسة فيفيرول. فبدأ الحديث معهما قائلاً:

- متى سأراكما فى دروس الدين داخل الكنيسة؟

أجابه ماتلن قائلاً:

- قريبًا... عندما يرسلنى والدى.

سأل كلوديوس: وأنت؟

لم يرد عليه كلوديوس. كرر القس الشاب سؤاله مرة واثنتين وأخيرًا هتف قائلاً:

- إن هذا الولد حقًا أصم وأبكم!

تبادل الصبيان النظرات، وبدت عيونهما متسائلة، فهما لم يفهما شيئًا.

راح القس الشاب يشرح لهما: إن الأصم الأبكم. هو الذى لا يسمع شيئًا ولا يتكلم أبدًا. لابد وأنه يتواصل مع الله دون الحاجة إلى رجل دين مثلى كوسيط.

ها هو ماتلن قد اكتشف ذلك لتوه، فلهذه اللحظة لم يكن قد أدرك أن صديقه به هذه العيوب. فالأطفال لهم اللغة الخاصة بهم، بل إنهم قادرون على التعبير بكل ما يشعرون به بدون كلمات. لقد وجد ماتلن أن الحساء ألذ وأفضل لدى عائلة روسيبيه بالخبز الأسمر، مقارنةً بالحساء الممزوج بالخبز الأبيض الذى تقدمه أمه بترونى.

– أنت إذن تتضور جوعًا فى منزلكم يا سيدى الصغير المسكين! هكذا أعرب عن دهشته ماريوس روسيبيه جد كلوديوس، ثم أردف قائلاً: ويبدو لى أيضًا أنك خُلقت لتعمل فى الحقول وليس فى مجال الميكانيكا... سوف تصبح مزارعًا جيدًا.

كانت هذه هى الحقيقة العارية.

فى المساء، كان ماتلن يحب أيضًا أن يأتى ليحضر جلساتهم الساهرة، وليستمع إلى قصة بدء الخليقة، التى يحكيها عامل الزريبة الكهل باللهجة المحلية:

- فى قديم الأزل، كان الرب وحده بدون عائلة ولا نساء ولا أطفال. فشعر بالضجر. قال لنفسه يومًا: "لابد وأن أفعل شيئًا لكسر هذا الملل". وهكذا بدأ يخلق العالم. أولاً، خلق الزمن وصنع منه كمية كبيرة. ثانيًا، راح ينظر أمامه، فلم ير إلا الظلام الحالك فى كل مكان، وكل هذه الهاوية فأمر: "فلتضئ!". على الفور، رأى ضوءًا قويًا للغاية حتى إنه كاد يعميه. وبهذه الطريقة، خلق الرب الصباح والظهر وبعد الظهر والمساء والليل. بعد ذلك خلق الأرض والماء والغيوم والمطر. كان يراقب كل هذا، ثم فرك رأسه، وقال لنفسه وهو يمسك بلحيته "عجبًا! يبدو أن كل هذا النظام يعمل بشكل جيد! لا ينبغى علىّ أن أتوقف فى منتصف العمل".

هكذا بدأ يخلق أشجار التفاح والكمثرى وأشجار الكرز، ثم الطيور والأغنام والماعز والقواقع والأسماك. بدأت كل هذه الكائنات سواء كانت مواشى أم حيوانات أخرى تدب فيها الحركة وتصدر أصواتًا وترعى وتتكاثر. بعد ذلك خلق الشمس والقمر والنجوم. ثم راح يتأمل بإعجاب وراحة كل هذا الجمال من حوله. وأخيرًا، خلق الإنسان بشعره وعينيه ومؤخرته وكل ما يتعلق به. وبما أن الرب قد عرف الضجر والوحدة، فها هو يخلق للإنسان رفيقة جيدة وجعلها شريكةً لحياته، تعد له الحساء وترفئ له حذاءه. استغرقه كل هذا العمل الشاق ستة أيام متتالية. فى اليوم التالى، تمدد وخلد للنوم فى ساعة القيلولة اللطيفة، وكانت مصادفة حسنة حيث كان ذلك اليوم هو يوم الأحد.

فى معرض بلدة سان بارتيليمى، ظهر رجل فريد من نوعــه. يرتدى جراميق بيضاء (كساء للساق من الجلد) حتى ركبته ويرتــدى قبعة بها شريط وضعت به أربع ريشات من ريش الإوز، ويمسك فى يده مجموعة من الكتب المربوطة معًا بــدوبارة، وراح يهتــف فــى الناس قائلاً:

- من يحتاج إلى معلم مدرسة؟ أنا أدرس القــراءة والكتابــة والحساب واللغة اللاتينية. ولهذا السبب فأنا أضع أربع ريــشات فــى قبعتى. سأضع نفسى فى خدمة من يدفع لى أربعة جنيهات أجرًا فــى الأسبوع.

فى بعض الأحيان، كان يتوقف عن الكلام ليفتح كتابًا من كتبه غلافه من الجلد الأحمر، ليقرأ مقطعًا منه كى يُظهر لهم مدى معرفته وخبرته. وكما بدا أن ما من أحد يرغب فى توظيفه، خفض أجره إلى ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه، ثم خفضه إلى ستين قرشًا. ولكن معظم جموع الناس من حوله لم يهتموا بالمرة لا بالقراءة ولا بالكتابة. فقــد كانت هذه الأشياء من اختصاص الموثقين والقــساوسة. فــى هــذه اللحظة رأى االناس الرجل الصنديق (النقيب) يتقدم. كان الأهالى قــد اختاروه ليدافع عن حقوقهم أمام أسيادهم من اللوردات. وقد انتخبــوه برفع قبعاتهم من بين مجموعة صغيرة من "النقباء".

وهؤلاء ينتخبون بدورهم ممثلاً لهم لكى يتحدث باسم الجميع.
فى ذلك العام، كان الوصى الذى يمثلهم يُدعى جان رود، وهو أحد الحرفيين الأكثر ثراء فى المنطقة. تقدم من الرجل ذى الريش وقال له:

- أتقبل بخمسين قرشًا فقط لتعليم القراءة والكتابة والحساب؟
رد عليه بنبرة متضايقة: أنا لا أقبل شيئًا ممن يحدثنى بصيغة "أنت"!

- أنا أعرض على حضرتك خمسين قرشًا فى الأسبوع للتدريس بدون اللغة اللاتينية. سوف يقتصر عدد طلابك على خمسة وعشرين طالبًا يعطى كل منهم لك قرشين كل يوم اثنين.

- فلتسمح لى أن أعتبر...

جذب قبعته ووضعها أمام عينيه، وراح ينظر بتمعن ثم رفع يده قائلاً:

- موافق!

شبّك كل منهما إصبعه البنصر وهو يهتف قائلاً:

- اتفقنا!

- اتفقنا!

وهكذا استقر المعلم سيرميون للتدريس فى قرية فيفيرول، وهو أصلاً من مدينة ليون، خلفًا لبروفيسور كهل، نسى أهالى القرية أن يحلوا محله بمعلم آخر منذ أربعين عامًا. ولكن غياب معلم عن القرية على الأقل لم يكن مشكلة بالنسبة لبنات العائلات الميسورة، لأنهن كن يترددن على دير راهبات أورسولين.

أما مدرسة البنين فكانت تحتل منزلاً من طابق واحد، أمام الكنيسة الصغيرة لرهبان "البينيتون" ذوى الزى الأبيض.

كانت المدرسة تشمل ملحقًا يصلح لمبيت حصانًا وأيضًا لمخزن أخشاب. أما الفصل الدراسى فكان متصلاً بمسكن المعلم، كما هو حاصل فى مبنى الكنيسة المتصل بالغرفة الخاصة بالقسيس. كانت هناك مدفأة واحدة هى التى تدفئ الغرفتين. فى البداية كان لابد من اختيار الخمسة والعشرين طفلاً الذين سيكون لهم شرف الالتحاق بالتعليم. فراح النقيب يتنقل من عائلة إلى أخرى، حيث وجد بعض الصعوبات فى العثور عليهم بسبب القرشين اللازم دفعهما كل يوم اثنين. على الأقل كان ماتلن مونييه من ضمن هذه المجموعة المختارة وليس صديقه كلوديوس، فهو غير قادر على سماع أى شيء.

كانت المدرسة تفتح أبوابها فى الساعة الثامنة صباحًا، وتغلقها فى الثامنة والنصف. إذا حدث وجاء أحد بعد ذلك الموعد فلا يتم استقباله. أما الخروج ففى الساعة الحادية عشرة. ميعاد فتح الأبواب الثانى هو بين الساعة الواحدة بعد الظهر والواحدة والنصف. فى

المساء تقفل المدرسة أبوابها فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى فصل الشتاء، وفى الساعة الخامسة فى فصل الصيف. يجلس الخمسة والعشرين تلميذًا على أرائك بدون ظهر. أما الأريكة الموجودة بنهاية القاعة، بأظلم منطقة فيها، فكانت للمصابين بالحكة الجلدية، فكانوا يمضون وقتهم فى الهرش. كان كل تلميذ يضع على ركبتيه لوحًا مصقولاً يكتب عليه الحروف الأبجدية بقلم من الفحم. ولكنهم كانوا يتعلمونها أولاً عن ظهر قلب، كما يتعلمون ترتيل الصلوات فى الكنيسة. فكانوا ينطقون هبوطًا وصعودًا، ثم يبدأون فى التدوين على اللوح الأردواز اللامع.

من حين لآخر، كان المعلم سيرميون يترك الفصل الدراسى ويذهب لمراقبة ما كان يطهوه فى وعاء طبيخه. فتملأ رائحة الكرنب الفصل، ثم يعود وفى يده الملعقة الطويلة التى قلّب بها طبيخه. وبنفس الملعقة يضرب على رأس المشاغبين من التلاميذ. بعد شهرين من هذه التمارين، كان يقوم بتوزيع أوراق مطالعة مطبوعة بحروف ضخمة وعليها أمثال مأخوذة من كتاب سليمان: إن السمعة الطيبة أفضل من ثروات كبيرة؛ والمحبة أفضل من الذهب والفضة.

الابن العاقل هو مسرة لأبيه، أما الابن الأحمق فمرارة لأمه. لا تُحجموا عن معاقبة أولادكم، لأنكم إذا ما ضربتموهم بالعصا المرنة، فلن يموتوا بسبب ذلك.

كان المعلم سيرميون يطبق هذا المبدأ الجيد: ولهذا كان يحتفظ بمجموعة من العصى معلقة فى سقف الفصل الدراسى، وكان يتناولها فى كثير من الأحيان.

كان التلاميذ يقرأون هذه النصوص فى آن واحد، فكان ذلك يُحدث همهمة عامة يضيف إليها المعلم صوته هو الآخر. أما من كان منهم لا يعرف فك الخطوط، كان يكتفى فقط بإصدار حرفى / م.. ....م.. ن.. م.. ن... وبذلك يتلاشى صوته داخل صوت المجموعة. بعد هذه القراءة الجماعية، كان المعلم يأخذ منهم الأوراق. كان الأسبوع يبدأ بجمع رسوم التدريس فيقدم كل تلميذ القرشين. وإذا ما حدث ونسيهما أحدهم، كان المعلم يطرده فى الحال، ولا يسمح له بدخول الفصل بعد ذلك إلا إذا عاد ومعه الأجرة المطلوبة. لم يتمتع تلاميذ المدرسة بأى عطلات رسمية باستثناء أيام عيد الميلاد وعيد الغطاس وعيد الفصح، ولكن المدرسة كانت تصبح نصف فارغة فى فصل الشتاء، عندما تملأ الثلوج الطرقات. ونفس الشيء فى فصل الصيف: فقد كان على الأطفال حراسة قطعان المواشى والغنم والمشاركة فى جمع التبن وحصد المحاصيل. أما سكان القصر فكان لديهم مدرسوهم الخصوصيون.

وفى يوم السبت، كان المعلم سيرميون يقدم جائزة الشرف لأكثر التلاميذ استحقاقا عن الأسبوع الفائت. وكانت الجائزة عبارة

عن ميدالية نحاسية مرسوم على جانب منها يمامة منبسطة الأجنحة، وعلى الجانب الآخر صليب ومعه مقولة : صلوا وأنتم تعملون (باللغة اللاتينية). وكذلك اليمامات الصغيرة التى تمثل الروح القدس والتى يقومون بصهرها بالعشرات والعشرات فى بلدة بووى - سانت مارى وفى أورياك. فقد كان المعلم سيرميون يقوم بلضم هذه الميداليات فى الشرائط، ثم يضعها حول رقبة التلميذ الفائز والذى يكون من حقه ارتداؤها ستة أيام تالية.

مرت أسابيع دون أن يحظى ماتلن بشرف تعليق شريط الروح القدس. ثم مرت بعدها أسابيع أخرى.

كان والده يصيح فى وجهه غاضبًا فى كثير من الأحيان:

- هل ستصبح حمار العائلة؟ ومع ذلك كان ابن عمه أميديه يساعده على قراءة هذا أو ذاك من الكتب الموجودة فى مكتبة العائلة. ولكن رأسه كانت مليئة بالطيور والجندب وصراصير المزارع، أما الحروف والخطوط فلم تجد لنفسها مكانًا فى رأسه.

ثم حدث شيء فى غاية الغرابة. ذات مساء يوم من أيام السبت عاد ماتلن من المدرسة وشريط ميدالية الصليب يتدلى من رقبته! ضمته أمه بترونى إلى صدرها والدموع تترقرق فى عينيها. ابتسم أبوه وتمتم ببعض كلمات قليلة أبدى فيها رضاه. فى يوم الأحد الذى

تلاه، ظل المتفوق الجديد يتبختر فى جميع أنحاء المنزل لكى يُظهر للجميع ميداليته، وحتى لقطع الأثاث والمرايات.

فى صباح يوم الإثنين عاد ماتلن إلى المدرسة وهو مازال يرتدى ميدالية الروح المقدسة حول رقبته، حيث كان من حقه ذلك. فعل نفس الشيء يومى الثلاثاء والأربعاء. ولكن فى يوم الخميس تغير كل شيء، حينما أبلغ أحد فاعلى الخير جيرمان أن ابنه ما هو إلا مخادع، وأن هذه الميدالية قد فاز بها تلميذ آخر الذى، وبحكم الصداقة التى بينه وبين ماتلن، وافق على إعطائها له، حيث لن يفوز بها أبدًا، وما إن يخرج ماتلن بها من منزل عائلة مونييه حتى ترجع الميدالية إلى عنق صاحبها، وتعود الأمور إلى مجاريها. لم يتنبه المعلم سيرميون إلى هذه الحيلة وهذا التبادل.

جن جنون جيرمان عندما علم بهذه التفاصيل. فتناول نبوتًا غليظًا وراح ينتظر عودة ابنه بالقرب من الباب. عندما رأى ماتلن أباه فى هذه الحالة، فر هاربًا إلى إحدى الغرف واندس تحت سريرها. دخل جيرمان الغرفة وراح يحسسس بالعصا تحت السرير قائلاً:

- أيها الألعبان! يا مزيف العملات! اخرج!

كان ولابد من تدخل الأم، التى راحت تتوسل إليه بأنها ستتولى أمره. لمدة شهر كامل، لم يتبادل الأب والابن نظرة واحدة.

(١٨)

بدأ عام ١٧٣٢ بداية سيئة جدًا، فقد وقع حادث مؤسف لماريوس روسييه، عامل الحظيرة الكهل في مزرعة فريسينييه، عندما ركلته بقرة في صدره أثناء حلبه لها. فسقط إلى الخلف على فرش القش. لم يشعر به أحد، وحيث إن لم يره أحد عائدًا من الحظيرة، ذهب ابنه لتفقد الأمر فوجده هناك فاقد الوعي. نقله إلى المنزل بمساعدة شقيقته جانيت ووضعاه في سريره. وأعطياه بعض قطرات ماء الحياة في فمه، وهو علاج ممتاز. وفعلاً، بعد برهة من الوقت أفاق لوعيه، وبدأ يسعل وهو يضع كلتا يديه على معدته. بعدها تقيأ سائلاً لزجًا ممزوجًا بالدم. هكذا وافته المنية وكان عليهم دفنه. وورث عنه ابنه الأكبر جانفييه إدارة مزرعة فريسينييه واستئجارها من عائلة مونييه حيث ظلت عائلة روسييه تديرها على مدار خمسة أجيال كاملة.

كانت عائلة مونييه تشعر بارتياح بالغ لامتلاكهم هذه المزرعة الكبيرة، حيث باتت مهنتهم كصانعي أجراس مقلقة وغير مستقرة بشكل متزايد. في فصل الربيع من ذات العام، غادر أميديه في جولة

كبيرة بحثًا عن عمل. بعد ستة أشهر من السفر على ظهر الخيل في جميع أنحاء المملكة، عاد صفر اليدين. لقد احتلت الأجراس أماكنها في جميع أبراج كنائس فرنسا. إلا إذا كان هناك منافسون لهم قد سحبوا البساط من تحتهم وسرقوا منهم عملهم: مثل عائلة هارفارد من بلدة ڤيلديو – ليه بوال، وعائلة بوليبه من بلدة مان، وعائلة جرانييه من بلدة هيريبيان.

– لم يتبق لنا، هكذا استنتج باردو: إلا صهر الأجراس الصغيرة وأجراس الأبواب، والأجراس الصغيرة التي تصدر رنينًا حادًا... أو ربما صهر القدور والأواني والملاعق.

وحتى هذا النوع من الأدوات، لم يكن له الكثير من الاستخدام حيث إن معظم سكان المملكة يطهون الأكل في قدور فخارية ويشربون الحساء بملاعق خشبية. هكذا فقدت ورشة صهر الأجراس في لوباردانج الحركة التي كانت دائمًا تموج فيها، وألسنة اللهب والدخان المتصاعد، وأصبحت مهجورة وكئيبة. إلى أن جاء يوم...

ذات صباح في قرية فيفيرول، كان باردو يرتب بعض أوراقه القديمة، فوقعت عيناه على رسالة مازالت عليها علامات لخمسة أختام مكسورة من الشمع. قرأ الرسالة من جديد وتذكر رحلته إلى ڤرساي.

(القيصر بيير الأول) سيكون سعيدًا إذا ما أتيتم يومًا لممارسة مواهبكم فى بلاده، وسوف يؤمن لكم حمايته الكاملة.

لكم حلم بهذا الموضوع طويلاً. راح يتأمل خريطة العالم الموجودة عنده، ويعيد من جديد قياس الألف فرسخ التى تفصل منطقة أوفرنى فى فرنسا عن روسيا، ثم راح يحسب الوقت الذى ستستغرقه العربة لقطع هذه المسافة. إن العربة تستغرق حوالى أسبوع من مدينة كليرمونت كى تصل إلى باريس، وهذه المسافة تبلغ تقريبًا مائة فرسخ. ولكنها عادةً ما تسير ثمانى ساعات فى اليوم، ثم تتوقف طويلاً فى كل استراحة لكى تسمح للركاب وسائقى العربة أن يستريحوا ويستعيدوا قواهم. أما لو كان حنطور خاص يجر عربة خفيفة سيارة تحمل ثلاثة ركاب فقط سيسمح بقطع اثنتى عشرة ساعة يوميًا.

بعد أن قام بعمليات جمع وضرب وطرح وقسمة، اقتنع صانع الأجراس باردو أن باستطاعته الوصول إلى مدينة سان بطرسبرج فى أقل من ستين يومًا. باح إلى كل أفراد عائلته بمشروعه هذا:

- شهران للذهاب! وشهران للعودة! هكذا قالت له النساء محتجة ثم سألن: وكم من الوقت تنوى البقاء هناك؟

- هذا يرجع إلى العمل الذى سنجده هناك ونقوم به. ولكن قد نبقى هناك لمدة عام.

صرخ الجميع صرخات فزع.

– إن بقاء منزلنا هنا يستحق التضحية. كما أننا سنتمتع بحماية القيصر أثناء وجودنا في موسكو.

– ربما قد مات ودفن هذا القيصر!

– لا أعتقد أنه قد تخطى الستين من عمره. فإمبراطور مثله محاط بالحاشية والأطباء، لا يمكنه أن يموت في مثل هذه السن. ولسوف نعود من هناك متوجين بهالات المجد، مما سيجعل الطلب علينا أكثر من منافسينا. إن عائلة مونييه صناع أجراس منذ أكثر من ثلاثة قرون، فلا يمكنها أن تتخلى عن تراثها هذا. فهل لديكن حل أفضل؟

كلا، لم يكن لدى أي من النساء حل آخر. من الذي سيغادر؟ هو، باردو، وابنه أميديه وشقيقه جيرمان. من الذي سيدير المزارع والورشة خلال هذا الغياب الطويل؟ العم أنطوان، رغم بلوغه الرابعة والسبعين من عمره، وسيساعده في ذلك ماتلن، رغم أنه في الثالثة عشر فقط من عمره، وكذلك ستساعدهما الزوجات والبنات. بالطبع ستذرف هؤلاء النساء الكثير من الدموع، ولكن سينتهي بهن المطاف إلى الإذعان للأمر.

هكذا أمضوا فصل الشتاء كله فى التجهيز لهذه الرحلة. كان بيوتر ميكايلوف ومساعده المترجم قد حكيا لهم كيف يعيش الناس فى موسكو. الشتاء هناك قارص للغاية حتى إنه يجعل النار تتجمد فى المدافئ. أما حرارة الصيف فهى مرتفعة جدًا وأكثر مما فى مدينة كليرمون التى تعتبر كمقلاة للزيت بالنسبة لمنطقة أوفرنى. لهذا ينبغى أخذ ملابس تناسب جميع الفصول. كما يجب أخذ الكثير من المؤن الغذائية للرحلة، بما فى ذلك لحم الخنزير المقدد المملح والذى يمكن تخزينه لمدة عام كامل. ولو كان باردو قد أطاع والدته، لكان قد ملأ العربة بالطعام.

- سوف تكون معنا نقود لنشترى بها ما يلزمنا من طعام.

- وإذا ما هاجموكم قطاع الطرق؟

- سوف نحمل معنا ما نرد به عليهم.

قصد باردو بذلك ثلاثة مسدسات بكل منها ماسورة مزدوجة ومسدسين آخرين ليوضعا فى رقبة الحذاء، وقد تم تصنيعها فى بلدة سانت إتيان.

من بين الستة خيول الموجودة فى أسطبل الخيول الذى يمتلكونه، وقع اختيارهم على أصغر جوادين عمرًا والأكثر نشاطًا وحيوية، أحدهما مهرة عمرها ثلاث سنوات وتُدعى "كومت"، والثانى

ذكر مخصى ويُدعى "دراجون". قاموا بتعزيز العربة وأضـافوا لهـا سقفًا، وبطنوا حواف عجلاتها ومحاورها بالحديد. فى يـوم الحـادى والعشرين من شهر مارس عام ١٧٣٢، قام أفراد العائلة بأكملها، بمن فيهم الخدم وعمال الحظائر، بحضور قداس تشفعى فى كنيسة سـان مادلين بقيادة القس فيدال لمباركة العربة وطاقمها والرجال. وتبـادل الجميع العناق والقبلات ثم انطلقت العربة فى طريقها، بينما راح من بقوا يلوحون لهم بالمناديل وقد تبللت وجوههم بالـدموع. كـانوا قـد قاموا بدراسة المسار الذى سيسلكونه فى رحلتهم بمساعدة الكونت دى بوزول الذى يمتلك خرائط لجميع أنحاء أوربا. وعندما وصلوا إلـى بلدة سان بونيه لو شاتوه، تعرف باردو على المجمع الكنسى وتـذكر الأربعين جثة الجالسين فى القبو انتظارًا أن يكتشفهم أحد حتى ينـالوا فى النهاية مدفنًا مشرفًا.

بدت سانت إتيان، وهى بلدة كبيرة يروى مزارعها نهر صغير يسمى فوران، تحيط بها سبعة تلال مثل مدينة روما، ولكن جميعهـا تقريبًا تقع خارج محيطها، وتحيط بها مـزارع الكـروم والبـساتين. ارتفعت فيها الأبراج هنا وهناك، ليس لتحصين البلدة ولكـن لتأكيـد الطموح السيادى لمن بنوها. كانت منازل من الحجارة البيضاء تحيط بالمرج الذى يُقام عليه السوق الكبير، كما لو كانت جزيرة خـضراء بين ذراعى نهر صغير.

وكان الرجال يرتدون هناك قبعات زرقاء صغيرة وسـراويل سوداء وجوارب صوفية ونعلاً خشبية. كان البعض منهم يعمل في استخراج الفحم من الآبار الأرضية ويضعونها في براميل ويجذبونها إلى السطح بالحبال، ولكن الكثير منهم كانوا يعملون في تصنيع أدوات المائدة كما في مدينة تيير. يقومون بعمل سكاكين يُطلقون عليها اسم (أوستاش)، وأيضًا السيوف والحراب، وبنادق الصيد وكذلك بنادق الحرب.

بينما ترتدى النساء أغطية رأس تتدلى حتى الآذان ويربطنها بعقدة بيضاء تحت الذقن؛ وكن يعملن في أشغال الإبرة ويصنعن الشرائط.

هكذا سلك رجال عائلة مونييه الثلاثة الطريق الملكي رقم (ستة وثمانين)، متجهين إلى مدينة ليون، العاصمة القديمة لفرنسا والتي أصبحت مجرد عاصمة لصناعة الحرير والطباعة. كانت هذه المدينة منغلقة بين جدران متهالكة، ومنحسرة بين نهرين يعجان بالصنادل والمطاحن العائمة، وهكذا كانت هذه المدينة المنخفضة تزدحم بالحوارى الوعرة، تحدها على الجانبين منازل ذات طابقين فقط بنيت بالطمى المجفف. تعلوها أيضًا أبراج الكنائس والأديرة التي لا حصر لها وكذلك المستشفيات. على الضفة اليمنى من نهر السون، تقع كنيسة سان بول وكاتدرائية سان جان التي جلبت إليها عائلة

مونييه مرة من ذات المرات جرسًا، وكذلك كنائس سان چورج وسان چو وسان إيرينيه التى تقع صعودًا ناحيـــة هــضبة ڤورڤييــر حتـــى الكنيسة المكرسة للعذراء.

إن ليون كما تشتهر بكونها مدينة التّجار، هى أيــضًا مدينـــة المتعلمين. فأغلبية العمال الــذين يعملــون فـــى صـــناعة الحريـــر يستطيعون التوقيع بأسمائهم. وتتمتع مطابع المدينة بسمعة رائعة على مستوى بلدان قارة أوروبا بأكملها. إنهم خلفاء إيتيان دوليـــه والـــذين تملكوا ورشة طباعته فى شارع ميرسيير بعد أن شنقه الباريـــســـيون لنشره حوارًا لأفلاطون ينفى فيه وجود الروح.

استقبل صديق إسبانى يستورد النحاس، يُدعى الـــسيد بولمـــار سكان ڤيڤرول المذكورين. وشرحوا له الهدف من زيارتهم لموسكو.

– هل تتحدثون اللغة الروسية؟

– كلا... ولكن القيصر يتحدث بعض الفرنـــسية ودائمًـــا مـــا يرافقه مترجمون.

– واللغة الألمانية؟

– لماذا؟

– سيتحتم عليكم عبور أراضٍ لا يتحدث أهلها إلا اللغة الألمانية.

فى الواقع لم يخطر على بالهم أبدًا مثل هذا الموقف المحـــرج، ظنًا منهم أن اللغة الفرنسية هى لغة عالمية. ولكــى يــسدى إلـــيهم بخدماته، ذهب السيد بولمار إلى حى المطابع واشترى لهــم قاموسًـــا صغيرًا للغة الألمانية، كتبه ر.پ. ويلدون، ونشرته المطبعـــة التـــى يمتلكها جان مارى بروسيه الأب والابن فى ليـــون، شـــارع ســـان دومينيك، بعد أن منحه الملك حق الموافقة والامتياز.

– من خلال هذا الكتاب ستتمكنون من التواصل مـــع ســـكان مقاطعات بافاريا وساكسونيا وپروسيا وحتى فى الألزاس.

– فى الألزاس؟! كيف ذلك؟! أليست هذه المقاطعة فرنسية؟

– نعم... بدون شك، ولكن هذا فى الآونة الأخيرة فقـــط. أمـــا معظم سكانها فلا يزالون ينطقون بلكنة غريبة.

– ما معنى هذا؟

– إنهم يتحدثون الألمانية، أو شيئًا من هذا القبيـــل. وعنـــدما يتصادف أن يتحدثوا بالفرنسية، فإنهم ينطقونها بشكل ســـيئ للغايـــة حتى يكون من الصعب فهمهم.

هكذا حمل الثلاثة مسافرين من عائلة مونييه هذا الكتاب الثمين وانطلقوا صاعدين وادى نهر السون الذى امتلأت منحدراته بمـــزارع الكروم. كانت القرى الواقعة فوق هذه المنحدرات معظمهـــا منـــازل

فقيرة، يغطى القش أسقفها بينما علت من خلفها الجبال الموحشة وعلى قممها الجليد.

كان الجوادان يسيران من اثنتى عشرة إلى ثلاثة عشر ساعة يوميًا بلا جهد يُذكر. بل يحدث أحيانًا أنهما يركضان بخفة فى المنحدرات مما يجعل العربة تقز وترتد فوق المطبات الوعرة من الطريق.

وبين الحين والآخر كان يستوقفهم حراس الطرق الراكبون على جيادهم وهم يرتدون قبعات زرقاء طويلة ومسلحون بالسيوف والبنادق وأحذية ذات رقبة (مثل أحذية القراصنة). كانوا يتحققون من أنهم لا يحملون أى ملح أو تبغ أو أقمشة مطبوعة، ومن ثم يسمحون لهم بالمغادرة دون أن يسألوهم عن أسمائهم أو الهدف من رحلتهم. وفى نهاية كل مرحلة من رحلتهم، كانوا يتوقفون للراحة فى النزل، وفى بعض الأحيان ينامون على مراتب من القش مخرقة، ثلاثتهم على نفس الفراش، ولكن الطعام كان يُنسيهم هذه المنغصات. كان زبائن النزل يلتفون حول مائدة طعام واحدة حيث يتراوح عددهم بين خمس عشرة وعشرين شخصًا أتى كل منهم بظروف مختلفة فيحكى كل منهم قصته ولا يصغى بالمرة إلى حكايات الآخرين:

– قلت له: "يا إلهى... سيدى! إنك تبدو لى شخصًا غير نزيه!".

- لقد شفيت لتوى من مرض النقرس، وكنت أجد صعوبة كبيرة فى وضع قدم أمام الأخرى.

- إن تجارتى فى جلود الأبقار والعجول مزدهرة إلى حد ما والحمد لله.

- هل تعلم بماذا أجابنى؟ "وأنت أيضًا!".

- فى بلدتنا، نأكل البطاطا مع الخردل.

- عادةً لا يأخذ المرء ما يكفى من الاحتياطات... فأنا أرتدى حزامًا وشريطًا ليمسكا بالبنطلون.

- ماذا تريدنى بأن أرد عليه؟

- من صنع هذا الجبن قام بتمليحه مرتين.

فى مدينة ماكون، قدموا لهم عصيدة تتألف من أى شىء منقوع فى مرقة نبيذ أحمر ذى نكهة خاصة. وفى منطقة "كومتيه" أكلوا الطبق التقليدى، وهو عبارة عن نوع من الجبن اللدن، حارة بعض الشيء، مما جعلهم يأسفون على الجبنة اللذيذة التى كانوا يأكلونها فى منزل العائلة فى قرية فيفيرول.

استمر الطقس الجيد فى صالحهم حتى وصلوا مدخل سهل منطقة الألزاس. ولكن ما إن وصلوا إلى هناك حتى أجبرهم المطر على رفع

غطاء سقف العربة. أعطتهم تصاميم المنازل ولهجة سكان المنطقة انطباعًا بأنهم قد عبروا الحدود بالفعل وتقدموا نحو بلاد غريبة.

وصلوا إلى بلدة صغيرة، على ما بدا لهم ووفقًا للخريطة فهى بلدة هوشتاد، إن لم تكن بلدة لوتزباخ. وكما كان من الصعب عليهم الخروج من العربة فى ذلك الجو الممطر الرطب، فقد فكروا فى شراء مظلة. فراحوا يبحثون في القاموس المحمول عن كلمة مظلة بالألمانية حتى وجدوها: "Regenschirm". باتت المشكلة بعد ذلك هى العثور على بائع مظلات.

فهاموا على وجوههم فى البلدة، متوقفين أمام المحلات وراحوا يتفقدون بأعينهم محتوياتها. وسمعوا المارة وهم يتحدثون معًا وينادون على بعضهم البعض ويضحكون، وكل هذا بلغتهم الخاصة غير المفهومة. وأخيرًا، توقفوا أمام بازار يحمل يافطة بالحروف القوطية من الصعب قراءتها، مكتوبًا عليها "هانز أم شنوكلوخ[1]"، لابد وأنه اسم مالك البازار. يعرض مجموعة من القبعات والأحذية والعصى والمظلات.

– ها نحن قد وجدناه. قال باردو وهو يتنهد.

---

(١) "جان فى ثقب البعوض" وهى الكلمات الأولى لأغنية شعبية فى منطقة الألزاس.

جذب باردو فرامل العربة فتوقفت ثم قفز منها إلـى الأرض. عندما دفع باب المحل، دق فوق رأسه جرس صغير فأحدث رنات متناغمة جدًا. تقدم نحوه رجل عجوز يرتدى نظارة صغيرة بدون إطارات توضع على الأنف، وبالأحرى كان يبدو أنه ساعاتى، ثم حيَّاه وراح يسأله بلغته المحلية. أجابه باردو بكلمة: Regenschirm (مظلة) التى كان قد التقطها من القاموس.

ولكن لعدم درايته بالمرة للحروف الأبجدية الألمانية، فقد نطقها "Réjane Chirme " كرر الساعاتى دون أن يفهم: "Réjane Chirme "؟

راح باردو يمثل له بحركات فتح وإغلاق مظلة فوق رأسه، وهو يشير إلى المطر المتساقط فى الخارج.

- يا إلهى! تقصد مظلة! (باللغة الألمانية).

هكذا عرض عليه العديد من المظلات اختار باردو منها أكبرها والقادرة على أن تظلل تحتها ثلاثة أشخاص من منطقة أوفرنى. لم يبد التاجر أى تحفظ فى قبول نقوده الفرنسية. بعد هذه المدينة المجهولة الاسم، واصل باردو مونييه وابنه وشقيقه رحلتهم فى اتجاه الريح، مع نية الوصول إلى مدينة ستراسبورج، حيث إنها قريبة شيئًا ما من نهر الراين حتى يتمكنوا من عبوره. كان السهل مليئًا بزراعات مجهولة بالنسبة لهم فى قرية فيفيرول ولكنهم تعرفوا

منها على حبوب الشعير والذرة والتبغ. الأولى تُستخدم لإعداد البيرة، والثانية كغذاء للإوز، والثالثة تنتج التبغ.

وقد رأوا أمام الأبواب، الرجال جالسين يستمتعون بأشعة الشمس الحانية، وهم يدخنون غليونات طويلة من الخزف، مزودة بغطاء، وتزينها الشرابات والحبال الصغيرة.

إنهم يأكلون طبق الـ(شوكروت) وهي وجبة أساسها رقائق الكرنب المفروم بدقة ومخمر في محلول ملحي. لقد اندهش باردو وابنه وشقيقه من هذه الوجبة ولكنهم وجدوا هذه المادة لاذعة وذات نكهة غنية، وعادةً ما تُؤكل مع النقانق المدخنة، وبالتالي راحوا يرددون المثل الشائع في منطقة أوفرني : خُلق العالم بأسره من أجل الناس، وخُلق الناس لكي يسكنوا هذا العالم. أما الجوادان كومت ودراجون فظلا يتغذيان جيدًا على الشوفان والقش، وبالتالي لم يشعرا بالوحشة أو بالحنين لبلدتهما.

لقد وجدوا مدينة ستراسبورج مدهشة أكثر من طبق الشوكروت بأسقف منازلها المزينة بالبلاط الوردي، والتي عششت عليها طيور اللقالق في أوكار من الأغصان، ضاربة بمناقيرها، محدثةً نفس الضجيج الذي تُحدثه النواقيس بالكنيسة يوم الجمعة العظيمة. ذات السهم الوحيد الموجود في كاتدرائيتها، حيث بُنيت ببرج واحد. في الداخل، يعلن الظهر عن موعده باستعراض من

الساعات الفلكية: المسيح يبارك الحواريين الذين يمرون أمامه، زئير الأسود، صياح الديك ثلاث مرات، أما المـوت (عزرائيـل) فيقـرع الجرس اثنتى عشرة ضربة. فهى تعلن عن اليوم والأسبوع والموسم وموقع الشمس والقمر والنجوم.

غادروا هذه المدينة العظيمة فى الثانى عشر من شـهر أبريـل وعبروا نهر الراين على جسر عائم من المراكب، ودخلوا إلى مدينـة بادن، والتى من أول وهلة تبدو كنسخة متطابقة من الألزاس الفرنسية. نفس السهل الذى تغطيه مزارع القمح والشعير، وكذلك تلال الكـروم، وحتى نفس أشجار الصنوبر فى الغابة السوداء والتى تسقط جـذوعها بعد قطعها لتطفو حتى تصل للنهر. إلا أن الناس هنـاك كـانوا أكثـر جدية، وجميعهم معتنقون الديانة الكاثوليكية، كما يكنون احترامًا كبيـرًا لأميرهم الذى يطلقون عليه مارجراف (محافظ المنطقة بالألمانية).

جميع النزل هناك تعلق يافطة عليها حـرف دبليـو ثلاثـى: Wein، Wurst، Weck، أى بالألمانية: النبيذ والنقانق والخبز. وهى ثلاثة عناصر غذائية لا يرفضها أبـدًا بـاردو ولا ابنـه أو شـقيقه. ساروا بمحاذاة الكتل الجبلية للغابة السوداء، حتى وصلوا إلى منطقـة فُوتمبرج. تميز طبيعة هذه المنطقـة تلالهـا المنحـدرة وغاباتهـا المزروعة. يعيش دوق هذه المنطقة فى مدينة شـتوتجارت، ولكنـه أيضا حاصل على لقب كونت مدينة مونبليار، والتى يستقدم منها كل ساعات الحائط بالدوقية الخاصة به.

ألقوا بالكاد نظرة على قصر "العُزلة" ثم توجهوا إلى مدينة نورمبيرج والتى قيل إنها تشتهر بصهر البرونز، مما انتزع منهم كل الآمال فى العثور على أى عمل هناك. ومع ذلك فقد استقبلهم محافظ مدينة سان سبالد الذى يتحدث اللغة الفرنسية بصعوبة، وأخذهم فى جولة لزيارة مجموعة من أفران التدفئة من الخزف، وهى إحدى مفاخر المدينة. لقد كانت مدينة جميلة جدًا، بما فيها من ميادين مليئة بالزهور، ومنازلها المصنوعة من الأخشاب المقوسة، حيث تبرز طوابقها العليا إلى الخارج، كما أن واجهاتها مزخرفة فتبدو مثل بندول الساعات السويسرية. فى تمام كل ساعة، كانوا ينتظرون رؤية الطائر الخشبى الذى يخرج من الساعة ليقول بشكل متناغم:

- كوكو! كوكو! كوكو!

ولكن لم يكن يخرج من هذه المنازل إلا المدخنون الذين يرتدون القبعات السوداء الطويلة.

دخلوا إلى مدينة مجديبورج فى منطقة بروسيا، وهناك تعرفوا على نماذج لنصفى الكرة الأرضية الموجودة فى مبنى البلدية العام. وهناك أُعيدت على مسامعهم تجربة عمدة المدينة الفيزيائى أوتو ڤون جوريك. تأملوا نصفى الكرة الأرضية المعدنيين، وعلى قممهما حلقة كبيرة، وموضوعين كلٌ منهما أمام الآخر يشكلان كرة أرضية مجوفة

من الداخل بنصف قطر حوالى قدم. كما توجد مضخة من الكاوتشوك، والتى اخترعها العمدة جوريك نفسه، تقوم بشفط الهواء الذى تحتويه هذه الكرة الأرضية لتثبيتها معًا. ثم تم استقدام جوادين للجر تتصل سرجهما بالحلقات عن طريق سلاسل معدنية. كما كان يفعل الجلادون فى الماضى عندما كانوا يريدون تقطيع أوصال أحد المحكوم عليهم بالإعدام. ألهب قائدا الجوادين ظهريهما، فجذبا بكل عضلاتهما وقفزا على أقدامهما الخلفية بشدة وهما يدقان الأرض بحوافرهما من فرط الحنق. ومع ذلك لم ينفرج نصفا الكرة الأرضية عن بعضهما البعض.

(١٩)

وصلوا إلى مدينة برلين يوم عيد القيامة، وهى المدينة الرئيسية لمقاطعة براندابورج، وهى أراضٍ تابعة لبروسيا. وهى تقع فى وسط سهل رملى موحل وقاحل، تشقه شبكة من القنوات والأنهار الصغيرة. يعيش بها العديد من الفرنسيين البروتستانت بعد أن طُردوا من مملكة فرنسا بسبب الاضطهاد البابوى (الكاثوليكى) لهم. كانوا يسكنون حى "موابيت" تقريبًا بأكمله والذى يقع شمال منطقة (لاسبرى)، ويمارسون هناك أكثر المهن المربحة ويحظون باحترام الجميع.

تزوج كثير من هؤلاء الرجال الفرنسيين من فتيات برلين. وهكذا تم السماح لباردو وابنه وشقيقه وكذلك خيولهم أن يقيموا فى نزل "الملك الشمس هوف" كما هو مكتوب على لافتته للسخرية من الملك. يُدعى صاحب المكان هير مونييه (وينطقها الألمان: Moïnir) وهو أصلاً من مدينة نيم الفرنسية، وكان يحلو له أن يختال بين زبائنه متنكرًا فى زى الملك لويس الرابع عشر، ويرتدى باروكة ضخمة ويمسك بعصا تشبه عصا رقيب أول فى الجيش، ويضع على

وجهه مسحوق الدقيق، وتتدلى قلادة تلمع بشدة على بطنه. يناديه زبائنه الفرنسيون بـ(مولاى) و(صاحب الجلالة). أما سكان منطقة بروسيا الأصليون فكانوا يأتون إليه لتناول يخنة لحم الخنزير مع الفاصوليا البيضاء، وأيضًا كفتة سمك الحوت. كما كان يتردد على بيته أيضًا أصدقاء مجريون وروس ونمساويون وبوهيميون. وكأن جميع بلدان أوربا ترسل له بسفرائها.

أما المناطق المحيطة بالنزل فكانت تعج بالحياة فهو حى جديد. من وقت لآخر، تمر على الحى دوريات جنود من الحرس فى طريقهم صعودًا إلى قلعة سبانداو. يرتدون زيًا أزرق له قلابات وياقة حمراء، وفوقه صديرى وسروال أصفر وجراميق بيضاء (من الساق إلى القدم). كانوا جميعًا عمالقة فارعى القامة، ويزيد من طولهم قبعات مدببة، وهى قلنسوات تبدو على واجهاتها لوحة مثلثة لأسلحة رقيب الملك: نسر له أجنحة منبسطة؛ وهكذا تتعدى أطوال الجنود سبعة أقدام[١].

بدت السعادة واضحة على وجه الهير ميونييه عند استقبال مواطنيه الأصليين، حتى ولو كانوا من طائفة دينية مختلفة عن طائفته. بعد أن خلع زيه التنكرى، راح يتحاور معهم حول هذا البلد

---

(١) أكثر من مترين وعشرين سنتيمترًا.

البعيد، والذى هجره منذ حوالى نصف قرن تقريبًا، ولكنه لا يزال يتحدث اللغة الفرنسية بلكنة منطقة لانجدوك (جنوب غرب فرنسا). ومع ذلك فإن زوجته وأبناءه لا يتحدثون إلا اللغة الألمانية. سألهم الهير ميونييه: وكيف حال فرنسا؟

- يحكمها الآن ملك شاب فى الثانية والعشرين من عمره. أجابه باردو:

- وهل له مشورة صائبة؟

- أنا واثق من ذلك فهو يسترشد بالكاردينال السيد فلورى، معلمه السابق. وليس بوسع الكاردينال إلا أن يُسدى بنصائح جيدة ومشورة صائبة.

هتف الهير البروتستانتى: آى! آى! ثم أكمل: لولا كرادلة ملك الشمس، لما كنت قد غادرت مدينتى "نيم". وكيف أحوال الصفقات، والزراعة، والصناعة والتجارة؟

- ليست على ما يرام، وعلى الأخص فى منطقتنا، فنحن نعمل فى صهر الأجراس. ولهذا السبب فقد تشجعنا بفضل القيصر بيير الأول، وها نحن فى طريقنا إلى سانت بطرسبرج عسانا نجد عملاً هناك.

هتف الهير ميونييه: ماذا! لقد مات هذا القيصر منذ ستة أو سبعة أعوام!

- مات قيصرنا؟ لم نكن نعلم عن ذلك شيئًا. ولكننا لدينا خطاب توصية كتبه سفيره الأمير كورابين.

- فى هذه الحالة إذن...

- ولكن كيف لهذا الرجل أن يموت وهو فى كامل قواه البدنية وبالكاد فى الستين من عمره؟

- انتظروا حتى هذا المساء فسيأتى صديق روسى إلى هنا ليتعشى وسوف يخبركم بكل شىء.

دقت جميع أجراس برلين معلنة عن قيامة المسيح. وراح باردو يصغى بأذنه الخبيرة إلى هذه النغمات المجيدة، فوجدها بلا أى عيوب، بل شعر بشىء من الإحباط لكونه لم يشارك فى صنعها. وجدوا بعض الصعوبة فى العثور على كنيسة كاثوليكية. أشار لهم الناس إلى واحدة خارج المدينة، بالقرب من شارلوتنبرج. ذهبوا إليها ليستمعوا إلى قداس عيد القيامة، ولكنهم لم يتناولوا من خبز القداس، حيث لم يدلوا باعترافاتهم للقس.

فى ذات المساء، تجمع حوالى عشرين شخصًا حول المائدة الرئيسية لملك الشمس هوف. من بينهم، رجل يُدعى ديمترى فيدوروفيتش أوشاكوف، والذى جلس على يمين باردو وابن وشقيقه. قال إنه مهندس معمارى من موسكو ولكنه منفى هنا فى برلين، وعلى استعداد للرد على أسئلتهم، حيث إنه يتحدث اللغة الفرنسية بشكل جيد جدًا.

كانت الوجبة وفيرة وممتعة، ملائمة ليوم العيد تمامًا. في النهاية، وضعت في منتصف المائدة كعكة على شكل شجرة تُسمى بومكوشن، وهي مخروطية الشكل ومدببة في نهايتها، يقارب طولها حوالي ذراع وترتفع حتى السقف. مصنوعة من عجينة البسكويت وتغطيها طبقة ثلجية من السكر والشوكولاته. راحت فراو ميونييه (زوجته) تقطع هذه الكعكة بيد واثقة من قمتها إلى شرائح رقيقة. حصل كل مدعو على نصيبه من الكعكة وأخذ يأكلها بخشوع واحترام، ويرتشف معها بعض جرعات من مشروب الكيرش (مشروب كحولي من الكرز) الذي يأتي من الغابة السوداء. في نهاية هذا الاحتفال، اجتمع أوشاكوف مع باردو وابنه وشقيقه على انفراد حول الموقد الخزفي.

– ترى ما هو سبب موت القيصر المسكين بيير الأول؟

– يقول البعض إن زوجته كاترين وضعت له السم، وهو الذي قد توجها بنفسه كإمبراطورة، ولذا كانت تتطلع إلى الاستيلاء على عرشه. ولكن البعض الآخر يؤكد أنه قد مات فعلاً بسبب انحصار في البول نتيجة لخرّاج في المثانة كان يسبب له آلامًا لا تطاق، مما كان يدفعه إلى موجة من الهذيان لا تتوقف تقريبًا.

استمر احتضاره حوالي ست عشرة أو سبع عشرًا ساعة حتى مات بين ذراعي زوجته.

استمع باردو وابنه وشقيقه إلى هذه القصة بجزع وألم عميقين. لقد سلبتهم وفاة القيصر بيير أكبر نفوذ كان سـيحميهم. حتـى إنهـم فكروا جديًا أن يعودوا أدراجهم إلى أوفرنى. ومع ذلك، لكـونهم قـد قطعوا بالفعل ما يقرب من نصف المسافة التى تفصلهم عن روسـيا، فإن فكرة عودتهم إلى فيفيرول كانت تملؤهم بالارتباك، خاصة وقـد تصوروا أنفسهم مثل الكلاب المهزومة، تعود وذيولها بـين أرجلهـا. فأخذوا يسألون أوشاكوف عن المزيد:

– ومن الذى يحكم الإمبراطورية فى الوقت الحالى؟ بلا أدنـى شك أليكسيس، بن بيير؟

تفاجأوا لرؤية المهندس المعمارى وهو ينفجر ضاحكًا لـسماع هذه الكلمات، حتى اهتز كتفاه وبطنه.

– ألكسيس؟ ابن القيصر؟

– الأبناء يخلفون الآباء.

– ألا تعلمون إذن ما الذى حدث له؟

– نحن لا نعرف شيئًا... فأخبار روسيا لا تصل بالمرة إلـى أوفرنى.

استمر ديمترى فيدوروفيتش فى كشفه للحقائق المروعة:

- أدان القيصر بيير الأول ابنه الشاب ألكسيس بحجة أنه قد تآمر عليه وخانه، ومن ثم حكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم بيديه.

- ما هذا الذى تقوله!

- وبضربة سيف قاطع.

- بضربة ماذا؟ وهل حضرت. تنفيذ هذا الحكم؟

- كلا ولكن نقله لى فقط بعض الأصدقاء. قام القيصر أولاً بجلد ابنه التعس بالسوط، قبل أن يقطع رأسه. عُرضت جثة ابن القيصر على عامة الشعب فى نعش مفتوح، بينما تم تعديل وضع رأسه فوق جثته بشكل جيد جدًا حتى إن مكان القطع بات غير مرئى. هكذا مكث لمدة أربعة أيام فى الكاتدرائية قبل أن يُدفن فى القلعة. أكمل المهندس المعمارى سرده، مشيرًا إلى أن بيير ليس أول قيصر يقوم بقتل واحد من أولاده، فقد كان ذلك نوعًا من التقاليد لدى هؤلاء الملوك. فمن قبله، على سبيل المثال، القيصر إيفان الرهيب الذى كان قد اعتاد، على الرغم من ورعه الشديد، على ذبح الباباوات المتمردين، وقد قام بضرب ابنه ضربة قاضية على رأسه بعصاه الحديدية. استمع باردو وابنه وشقيقه إلى هذه الحكاية، وقد عقد الذعر ألسنتهم. صمت ديمترى للحظة جعلتهم يسبحون مع أحاسيسهم من جراء تلك القصة، ثم ابتسم ابتسامة غير متوقعة أضاءت لحيته.

– ربما ما قلته لتوى لا يتفق بالكامل مع الحقيقة، فأنا لــم أر بعينــى رفات ابن القيصر. إن بعض أصدقائى يدّعون بأنه قد انتهــى نهايــة أخرى. يقولون إنه تلقى حكم الإعدام بالإجماع من قبل محكمة مــن الأساقفة والجنرالات شكلها بيير خصيصًا. أمــا القيــصرة – وهــى الزوجة الثانية لبيير – فقد توسلت إلى القيصر أن يخفــف العقوبــة، وأن يُسجن ألكسيس فى دير حتى نهاية عمره ولكن بييــر رفــض. عندما تم إعلام الأمير علنًا بعقوبة الإعدام، سقط مغشيًا عليه من فرط الصدمة بل فاجأته أزمة قلبية كان قد ورثها عن أبيه. وهكذا مات فى حضور جميع أفراد الحاشية فى اليوم التالى من القبض عليه. ها هما إذن القصتان اللتان حُكيتا عن نهاية هذا الأمير المتمرد. ولا يمكننــى أن أؤكد حقيقة هذه أو ذاك. ولكن، لكونى تقربت أكثــر مــن مــرة للإمبراطور بيير ألكسيفيتش، فإننى أميل لقصة قطع رأس الأمير. أما حاليًا فالعرش فى يد ابنة أخيه، وتُدعى آنا إفانوفنا، وعمرهــا تــسعة وثلاثون عامًا. إنها امرأة مخبولة تركت كل السلطة لعشيقها إرنــست فون بيرين ولفيفه المفضل، وكلهم من أصل ألمانى.

– إن هذه المرأة المجنونة تعيش فى سانت بطرسبرج داخــل قصر كأنه حديقة حيوانات، فهو ملىء بالقردة والجمــال والببغــاوات ووحوش بشرية من أقزام وعمالقة، ونــساء لهــن لحًــى، وحــدباء وآخرين من المشوهين بدنيًا وعقليًا. يقوم بحمايتها طاقم مــن أفــراد

الشرطة الشرسين، فهم يقومون بتعذيب من لا يعجبها أو يقومون بترحيله إلى سيبيريا. وبما أنى وقعت شخصيًا فى زمرة المغضوب عليهم، فقد فضلت أخذ زمام المبادرة باللجوء إلى برلين، تحت حماية الملك فريدريش ڤيلهلم.

راح باردو وابنه وشقيقه ينظر كل منهم للآخر بأسف: أهذا إذن ما كانوا يسعون وراءه فى روسيا: أميرة مجنونة؟! أوضح لهم المهندس المعمارى ديمترى أنه لا ينبغى عليهم الذهاب إلى سانت بطرسبرج، وهى العاصمة الرسمية للإمبراطورية، ولكن إلى موسكو فهى العاصمة الدينية والمدينة المقدسة.

- ستجدون بها ثلاثمائة وخمسين كنيسة، كبيرة كانت أم صغيرة. وبالتالى فمن المؤكد أنكم ستجدون أيضًا ما تستغلون فيه مهاراتكم.

فى تلك الليلة، أرقت مضجع الشاب أميديه مونييه رؤى مليئة بالكوابيس. رأى فيها ذلك القيصر الرهيب، والذى طالما ما تحدث عنه أفراد عائلته أمامه، رغم أنه هو نفسه لم يره أبدًا إلا من خلال رسم وجهه الجانبى المحفور على العملات المعدنية التى كان قد أهداها إياهم القيصر حينئذ: رآه ممسكًا بسيفه الحاد، وراح يقطع رؤوس أصدقائه ومعارفه؛ ثم يعلقها بعد ذلك فى نوافذ قصره لتجف كما تفعل النساء فى قرية لوباردانج عندما يعلقن الجرار فى نوافذهن لتجففها.

(٢٠)

واصلوا رحلتهم "فى اتجاه شروق الشمس، وهو ما لا يخطـئ فيه المرء أبدًا"، كما أوصاهم المهندس المعمارى أوشـاكوف. فمـن مدينة براندينبرج البروسية، وصلوا إلى مملكة بولندا. كانـت هـذه البلاد قد خرجت لتوها من حرب طويلة مع مملكة الـسويد، وتـشهد على ذلك قراها المدمرة ومنازلها المحترقة. لم يكن أحد يعرف مـن الذى يحكم هذه البلاد حيث يتنازع على عرشـها أميـران، أحـدهما تدعمه روسيا والنمسا، أما الثانى فتدعمه فرنسا وإسبانيا. فى الواقـع أن السلطة الحقيقية كانت فى أيدى أمراء يُطلق عليهم ڤويڤود لـديهم جيشٌ من موظفى الجمارك ومأمورى الضرائب ومحصلى الرسـوم على الطرقات، حيث كانت وظيفتهم الوحيدة هى تحصيل الرسوم من المارة على كل جسر أو طريق حجرى أو عنـد حـدود الڤيـوڤودى (بمعنى المقاطعة).

كان ريف هذه البلاد مسطحا بلا أى جبال أو هضاب، مليئًـا بالمستنقعات وأرضه موحلة، وبالتالى فمعظمه بـور وغيـر قابـل للزراعة، ترعى به الخيول. أما المنازل الريفية فمبنية مـن الألـواح

الخشبية، يغطيها القرميد والخشب، وأمام كل منها زمرة من الأطفال الشقر، ينبشون فى الأرض مثل الدجاج. على مرمى البصر رأوا حديقة عامة يتوسطها قصر بُنى هو الآخر ومُغطى بالألواح الخشبية. دخل باردو وابنه وشقيقه إلى مدن لم يعرفوا حتى اسمها، وبالتالى ارتكبوا فى بعض الأحيان أخطاء جسيمة. فمثلاً، اعتقدوا فى يوم ما أنهم فى مدينة وارسو، بينما اكتشفوا بعد ذلك أنهم فى مدينة ڤلوكاڤيك التى تقع شمال وارسو بحوالى أكثر من كيلو متر. وجدوا صعوبة بالغة فى الاستعلام عن الطرق، كونهم لا يفهمون كلمة واحدة فى اللغة البولندية، واكتفوا بتكرار اسم المدينة التى يفكرون فى الذهاب إليها على المارة؛ وحتى كانوا ينطقونها بطريقة خاطئة. فكان من يرد عليهم من المارة ينخرط فى وصلة من الكلام ليس لها أى جدوى حيث لن يفهموا منها شيئًا. فكانوا يكتفون بمراقبة حركات رأسه وذراعيه وهى تترجم: إلى الأمام، إلى الخلف، إلى اليمين، إلى اليسار، إلى أعلى، إلى أسفل.

أما محصلو رسوم الطرقات فكانوا يعرفون تمامًا كيف يتفاهمون معهم عندما يطالبون بالدية، فهم يقومون بفرك إصبعى الإبهام والسبابة كل منهما ضد الآخر، ويكتبون المبلغ المطلوب على لوحة خشبية، وذلك بعملة الماركات وكسورها مما كان يتطلب منهم عمليات تحويل صعبة.

ذات مرة فى إحدى هذه المدن الغامضة، وجدوا أنفسهم تائهين فى وسط سوق يُباع فيه كل شىء. يرتدى الرجـــال قفـــاطين خـــشنة وقبعات من الفراء. البعض منهم لا يبيع أى شىء، بل يعزف علـــى آلة الكمان أو يرقص بحيوية شيطانية. سرعان ما التفوا حول بـــاردو وابنه وشقيقه وراحوا ينظرون إليهم بفضول، ويطرحون عليهم أسئلة لا يستطيعون الرد عليها فهم لم يفهموها. هنا غيّر اللفيف مـــن لغتـــه وراح يتحدث إليهم باللغة الألمانية ثم الروسية وأخيرًا بالفرنسية.

- نعم، أجابوا عليهم: نحن قادمون من فرنسا ومتجهون إلـــى موسكو.

- إذن مرحبًا بكم فى جماعتنا.

- فى ماذا؟

- فى جماعتنا اليهودية إذا كنت تفضل هذه الكلمة.... فى حى اليهود، فنحن يهود.

فى الواقع لم يكن باردو يعلم شيئًا عـــن اليهـــود إلا "النـــشيد الحزين لليهود الهائمين" الذى كانت جدته ماريا تغنيـــه لـــه بـــصوت ملىء بالشجن على صوت طقطقة الإبر:

"هل هناك شىء على وجه الأرض

أكثر غرابة من هذا البؤس الكبير الذى يعيشه اليهودى

المسكين المشتت؟

أكثر من قدره التعس

الذى يبدو مؤسفًا ومحزنًا.

إنه إسحاق لاكوديم

وهو الاسم الذى أعطى لى...

ولدت فى القدس

تلك المدينة ذات الشهرة العالمية.

نعم، هذا أنا يا أبنائى

أنا اليهودى المشتت الهائم على وجهه.

ولكن لماذا هذا الشتات اللا نهائى؟

حيث يأتى يسوع فى يوم ما ليطرق بابى دون جدوى. فلم أفتح له الباب

فليأخذنى الشيطان إلى الحجيم على فعلتى هذه

لذا فقد حان دورى الآن، أن أكون وحدى هائمًا، دون مأوى".

ها هو الآن باردو مونييه قد وجد نفسه وسط يهود يرحبون به. قدم لهم أحدهم ثلاث تفاحات، بينما قدم آخر قطعًا من الكعك

الصغير مُحلى بالعسل. وقدم لهم ثالث مشروبًا ساخنًا، وهو نوع من مشروب الأعشاب يطلقون عليه "تشاى".

- هل أعجبكم المشروب؟

- إنها المرة الأولى التى نتذوقه فيها.

- كيف ذلك! إنه شاى! ويشربونه فى باريس. أنا واثـق مـن ذلك.

- لسنا قادمين من باريس... فـى منطقتنـا، أوفرنـى، هـذا المشروب غير معروف.

عندما فهم الآخرون معنى رده، انفجروا ضاحكين. كمـا لـو كانوا يتساءلون: من أين أتوا هؤلاء البرابرة الذين لم يشربوا "التشاى" من قبل؟ شعر باردو ببعض الضيق فقال لهم:

- يمكننى أن أعدد لكم مائة مادة غذائية من منطقتنـا والتـى ربما تجهلونها هنا: البطاطس، الجزر، القلقاس، حساء الكرنب، نقانق لحم الخنزير، كعك الفواكه، الفطائر الرقيقة، زيت الجـوز، فطيـرة التفاح، حساء البنجر، والجبن الريفى لمدينة أمبرت، وحساء الحليـب الطازج...

- سامحونا... فنحن شعب يضحك كثيرًا... فالإنسان بحاجة إلى الضحك كما هو بحاجة إلى الضوء. فما رأيكم فى شاينا؟

- إنه يخلو من النكهة شيئًا ما، ولكنه يروى العطش أيضًا. عرضوا عليهم شرب فنجان شاى آخر ولكنهم رفضوا بأدب. بعد فترة من الوقت، وبعد أن عبروا الحى اليهودى، خرجوا من المدينة مندهشين من هذا الكم من المرح الذى يسيطر على اليهود، إخوة لاكوديم. ولكن لماذا يتحتم أن يتشابه كل اليهود؟ وهل أهالى فيفيرول يتشابهون هم أيضًا؟

ذات مساء وبينما كانوا على مشارف مدينة بياليستوك، عبروا غابة من أشجار "البتولا" عندما وجدوا أنفسهم مُحاصرين بدستتين من قطاع الطرق المسلحين بالرماح والشوك والعصى. صرخوا فيهم بعبارة لابد وأن معناها هو: "إما كيس نقودكم أو حياتكم!". وبدون تردد، جذب جيرمان مسدسه ذا الماسورتين والذى كان يحتفظ به مخفيًا فى رقبة حذائه، وسرعان ما قام شقيقه بعمل نفس الشيء وصرخ قائلاً:

- تراجعوا عن الطريق! وإلا أطلقت النار!

متأخرًا قليلاً عنهما، قام أميديه بجذب مسدسه هو الآخر. فى لحظة واحدة، حسبوا حسبتهم فوجدوا أن لديهم ست رصاصات فى

مواسير مسدساتهم المزدوجة، وبالتالى سيتمكنون على أحسن حال من قتل ستة من المهاجمين، بعدها سيجدون أنفسهم عزل وتحت رحمة ثمانية عشر آخرين. لا يعلمون كيف كانت ستمضى الأمور لو لم يكن أميديه، الذى ألهمه الله، قد ضرب الجوادين بسوطه. فى لحظة واحدة، اصطدم الجوادان بهؤلاء المجرمين فترنحوا ساقطين وممددين على الأرض وابتعدوا عنهم.

وبينما كان قطاع الطرق البولنديون يرشقونهم بوابل من الحجارة واللعنات. بعد أن رأى جيرمان أنه لم تعد هناك أى خطورة منهم، صوب عليهم بمسدسه، وأطلق طلقتين أصابتا اثنين منهما فانقلبا على ظهريهما مترنحين. وقبل أن يتخذ مقعده من جديد، راح يتشمم بتلذذ دخان البارود الصادر من مسدسه.

بعد انطلاقهم بحوالى مسافة كيلومتر، هدأت الخيول من سرعتها لتجرى بإيقاع أكثر هدوءًا. هنأ باردو ابنه على تصرفه بهذه الحكمة والذكاء لمثل هذا الموقف:

- لولاك، لكانت رحلتنا انتهت فى هذه الغابة.

ولكنهم لم ينتهوا من مخاطر الطريق. ففى اليوم التالى، وبينما كانوا يعبرون غابة أخرى من غابات "البتولا" بسرعة هادئة، رأوا قطيعًا من الذئاب يخرج فجأة من بين الأشجار وبدأ فى ملاحقتهم، ثم

راح يجرى إلى جوارهم محاولاً عض عجلات العربة. أصيب الجوادان كومت ودراجون بالذعر، وراحا ينهبان الأرض نهبًا وكأنهما سيطيران. فاضطروا إلى قتل بعض منهم وتخويف الباقى. أخيرًا، أذعنت الذئاب وتقهقرت عائدة داخل الغابة.

ذات مساء، وجدوا مأوى فى نزل على بابه يافطة مرسوم عليها زهرة من زهور الهندباء تصاحبها كلمتان فرنسيتان: فندق مُجهز. وهكذا استقبلوهم باحترام هم وخيولهم.

قبل تناول وجبة العشاء، طُلب منهم أن يشربوا وهم واقفون كئوسًا صغيرة من الفودكا ألهبت أفواههم. بعد برهة من الوقت، قدموا لهم حساء البنجر الأحمر ولحمًا بقريًا مقددًا على شكل مكعبات مقطعة إلى شرائح رقيقة، كما لو كانت كتابًا؛ مدسوسًا بين صفحاته الفطر المفروم وفتات الخبز. أما طبق الحلو، فوجئوا عندما رأوا كومة هرمية من قطع الكعك الصغير منثورًا عليها مسحوق السكر المبلور. نفس هذه الحلوى موجودة فى منطقة ليفرادوا ويُطلق عليها اسم "الفطائر المقلية"، أما هنا فاسمها فاقوركى. ثم شربوا ما يُسمى "ميود"، وهو مشروب كحولى بطعم العسل.

فى الليلة التالية، راحوا فى سبات عميق، ولكن قبل الفجر، استيقظ باردو حيث كان يريد قضاء حاجته. فمد يده تحت فراشه فوجد الوعاء الذى كان يبحث عنه. هذا الوعاء والمخصص لقضاء الحاجة كان له غطاء بمفصلات مثل المحبرة.

بعد أيام قليلة، غادروا هذه البلاد التى اشتهرت غرفها "بالأوعية ذات الغطاء" متجهين إلى موسكو.

عبروا المزيد من السهول والجبال والترع والأنهار بعد أن نالت منهم الكثير من الأمطار والثلوج، وكادت أن تجرفهم رياح عتيدة عاصفة. هكذا مروا تحت سماء سوداء أحيانًا ورمادية أحيانًا وزرقاء أحيانًا، بل وأحيانًا متعددة الألوان وسلكوا مسارات وعرة متكسرة. وخاضوا مستنقعات انغرست فيها عربتهم فجذبهم منها بصعوبة بالغة مزارعون ملتحون يُطلق عليهم "الفلاحين الروس" فلم يعرفوا حتى أن يقولوا لهم شكرًا باللغة الروسية. هكذا صمدت العربة بشجاعة أمام هذه الاختبارات العسيرة. لحسن الحظ، لم يكن بالعربة أى مساعدين لامتصاص الصدمات خلال الألف فرسخ التى قطعوها من الطرق. لم يكن عليهم إلا مرة واحدة تغيير محور العجلات الخلفية، مما أعاق تحركهم لمدة يومين فى قرية من القرى البيلورسية (روسيا البيضاء). لقد أظهر الحداد الذى قام بتصليحها مهارة كبيرة، فقد قام بعمل محور متطابق مع الذى انكسر.

كانت اللغة التى يتعاملون بها مع هؤلاء الرجال هى لغة الصم والبكم. ثم، تدريجيًا، تعلموا بعض الكلمات من اللغة الروسية:

(Spassiba[1] Pajalasta[2] Skolka[3]! Kharacho[4]! Fpériot[5] Nazat[6]! وعلى وجه الخصوص تعلموا اسم المدينة التى سيذهبون إليها، فهى ليست موسكو، ولكن موسكوفا. وكما كانت الحال فى بولندا، فإن المنازل الريفية كانت مصنوعة من الخشب، ولكنها مكدسة الجذوع، ومحشوة بالألياف، بواسطة طبقتين تفصل بينهما طبقة من أوراق نبات السرخس المجففة. كما أن نوافذها صغيرة كتلك التى فى أوفرنى. وبداخل كل منزل لا توجد إلا غرفة واحدة، كما أن الأرضية مكسوة بالطين الحرارى. وكانت قطعة الأثاث الرئيسية فى المنزل هى: مدفأة كبيرة فوقها نوع من الألواح المسطحة، ينام عليه المزارع الروسى هو وزوجته. أما بقية أفراد الأسرة فينامون على الأرض، فوق كومة من الفراش أو فى الخلف داخل مخزن الغلال.

وكان الطفل الرضيع يوضع فى مهده الذى يعلق فى السقف بحبل طويل حتى يمكنهم جذبه وأرجحته عن طريق ذلك الحبل.

---

(١) شكرًا.
(٢) من فضلك!
(٣) كيف؟
(٤) جيد!
(٥) إلى الأمام!
(٦) إلى الخلف!

وفى ركن من أركان الغرفة، توضع أيقونات (رسومات دينية على الخشب) تمثل السيدة العذراء والقديسين وتحيط بها الشموع المضاءة. وكل من يدخل إلى المنزل عليه أن يحييهم بالركوع بركبة واحدة أمامهم ورشم الصليب من اليمين إلى اليسار على عكس ما هو حاصل عند الكاثوليك فى فرنسا.

فى فصل الربيع البارد هذا، كان الرجال والنساء لا يزالون يرتدون ملابس شتوية ثقيلة. يرتدى الرجال على رؤوسهم قبعات من الفراء، ويرتدون سترات رمادية يحدها حزام على الوسط مثل الرهبان فى فرنسا، وينتعلون صنادل مصنوعة من اللحاء ومضفرة بها. أما النساء فوجوههن مستديرة ومحمرة البشرة، وعلى رءوسهن أغطية معقودة تحت الذقن. ما إن يتواجه باردو وابنه وشقيقه مع هؤلاء الفلاحين الروس، حتى كانوا ينطقون بكلمة استفهامية:

- Niemz؟

وقف أفراد أسرة مونييه الثلاثة يحكون رءوسهم متسائلين عما كانت تعني هذه الكلمة. ولكن يبدو أن الروس كانوا يطرحون سؤالهم بطريقة اعتيادية وتأكيدية، جعلت الثلاثة مسافرين يلحظونها على الفور:

- نعم، نعم، Niemz.

لقد اكتشفوا فقط أن مفرد هذه الكلمة الجمــع هــو Niémetz وقدموا لهم شراب الــ"كواس"، وهو مشروب كحــولى ســبب لهــم الإسهال. وكذلك ذاقوا الشاى الروسى. وتعلموا أن يرشموا الــصليب على صدورهم من اليمين إلى اليسار بثلاثة أصــابع ملتــصقة أمــام الصور المقدسة. ولكى يشرحوا سبب ذهابهم إلى موســكوفا، كــانوا يرسمون بإصبع السبابة هيئة جرس على الطاولة ويقولون بالروسية:

- Kolokol؟ (جرس).

- نعــم... نعــم، kolokol. دينــغ، دونــغ! دينــغ، دونــغ!

وهكذا كان الفلاحون الروس يردون بابتسامات سعيدة، وهم مقتنعون بأن هؤلاء الزوار سيدخلون المدينة المقدسة للعمل كقساوسة مسئولين عن قرع أجراس الكنائس. وافقهم باردو علــى ذلــك. ولاحــظ أن الفلاحين الروس لا يجذبون حبل الجرس بحركة صــعودًا ونــزولاً، مثلما كان يفعل خادم الكنيسة فييت، ولكنهم كانوا يحركونهــا بــشكل أفقى، مما كان يملأها بالذبذبات.

ظلوا يسيرون لأيام وأيام. عند مدخل كل مدينة وكــل قريــة، كانوا يمرون تحت تمثال للعذراء أو لقديس فى المنطقة معلــق فــى سلك مخترق الشارع من منزل إلى آخر. إذا أرادوا أن يسألوا أحــدًا عن طريقهم، كان يكفى أن يقولوا:

- موسكوفا؟

إلى الأمام، يسارًا، يمينًا، إلى أسفل، إلى أعلى.

وفى كثير من الأحيان كان يجيئهم هذا الرد التساؤلى:

- Niemetz؟

- دا، دا، Niemetz. (نعم، نعم، نياميزى).

ذات صباح، وبنفس الطريقة التى رأى بها الصليبيون مدينة القدس من بعيد، حينما كانوا على وشك غزوها، لمح الثلاثة مسافرين، عند خط الأفق، ملامح المدينة المقدسة. حيث ارتفعت أبراج كنائسها الثلاثمائة والخمسون نحو السماء، مربعة الشكل وذات قمم مدببة، ومعظمها على شكل بصلة، وتنتهى بصلبان تتدلى منها سلاسل معدنية. ولا شك أنها ترمز إلى أن المسيح قد جاء إلى الأرض لتحرير الناس والعبيد من الشيطان ومن الخطيئة. سرت فى أجسادهم رعشة خفيفة وهم يتقدمون نحو المدينة، وراحوا يتساءلون كيف ستستقبلهم هذه المدينة فى نهاية هذه الرحلة التى قطعوا خلالها ألف فرسخ. لقد كان جواز سفرهم وتصريح دخولهم إلى المدينة هو الرسالة التى وجهها إليهم الأمير كورابين الذى ربما يكون قد مات ودُفن مع سيده، القيصر بيير.

ولكن كلما تقدموا نحو المدينة، كلما سمعوا أصوات أجـراس كنائس متناغمة ترتفع وتتزايد كما لـو كانـت تـدق لهـم مرحبـة بوصولهم.

سأل جيرمان: فى أى يوم نحن؟

راح شقيقه باردو يراجع التقويم الجيبى الذى كان يـضع فيـه علامة حمراء كل ليلة:

– إننا فى يوم السبت الثامن والعشرين من شهر يونيـه، يـوم القديس أيرينيه، أسقف مدينة ليون.

– وهل هذا اليوم عيد؟

– كلا إنه يوم عادى.

مروا من تحت أحد تماثيل القديسين التقليديـة المعلقـة فـى الشارع الذى كانت تصطف على جانبيه محال تجارية، وكان منهـا محل يعرض حبلاً مزدوجًا معلقًا عليه يافطات تُظهر طريقـة تعلـم الحروف الأبجدية الروسية التى اخترعها القديس سيريل. ومحل آخر لحلاق عرفوه من خلال فرشة الحلاقة الموجودة به، كما عرفوا محل صانع الأحذية من فردة حذاء ذى رقبة يعرضها، ومحل آخر يمتلـئ بزجاجات الفودكا التى تحمل النسر الأسود، شعار الدولـة الروسـية التى تحتكر بيع "الفودكا". فى كل مكان، رأوا الناس يمـشون وكـلاً

منهم يمسك بشمعة فى يده ومتجهين إلى الكنائس. والبعض الآخر منهم يصعد داخل عربات تجرها خيول تحمل فى رقابها قلادات على شكل قوس رومانسيكى (نوع من التصميمات).

قال جيرمان: لابد وأنك قد أخطأت يومًا واحدًا من التقويم. لسنا يوم السبت بل الأحد. كما ترى فالناس كلها ذاهبة إلى الكنيسة. توقفوا هم أيضًا على درج إحدى هذه الكنائس ذات القباب المصممة على شكل بصلات. بينما ظل أميديه باقيًا فى العربة ليحرسها، تقدم أبوه وعمه من الباب الأمامى الكبير للكنيسة التى وجدوها تعج بالمصلين وبالباباوات وبالشموع وبالتماثيل التى ترمز إلى القديسين. دق جرس الكنيسة فوق رءوسهم، تحت قيادة صبى عمره عشر سنوات يرتدى رداءً أحمر. وقف الشقيقان يتأملان وقد فغر كل منهما فمه من الدهشة: فى الواقع كان الحبل لا يصعد ولا ينزل، ولكن الصبى الروسى كان يحركه ذهابًا وإيابًا، إلى الأمام وإلى الوراء... إلى الأمام وإلى الوراء، ولذلك لم يكن الجرس يتحرك بأكمله، ولكن فقط الحبل الموجود داخله. ينبغى عليهما أن يأخذا ذلك فى الحسبان عند تنفيذ أعمالهما المستقبلية.

إنه لبلد غريب يذهب فيه الناس إلى القداس فى يوم السبت العادى، وبالتالى لا يبتهجون فى يوم الأحد بالمرة، ولكن فى يوم السبت. وأيضًا فهم يرشمون الصليب على صدورهم من اليمين إلى

اليسار. وبالتالى فإن أجراسهم تظل بلا حـــراك فـــى أبراجهـــا، ولا يمكنها فى عيد القيامة أن تطير مرفرفة فى السماء لتقابل الملائكـــة. لم يبق الأخوان مونييه داخل الكنيسة لحضور القداس الموسكوفى فقد كانت لديهما أمور أخرى ليقوما بها مع أميديه الشاب. لذلك عادا إلى العربة، وبدأوا ثلاثتهم فى رحلة البحث عن نزل ليقيموا فيه.

(٢١)

لقد كانوا يعتقدون أنهم قد وصلوا موسكو، ولكنهم في الواقع ما زالوا في أحد ضواحيها المجاورة، سمليانويجورد، أو "مدينة الأرض"، تحيط بها أسوار قلعة قديمة استلهمت منها اسمها. كان الكثير من المنازل مبني أيضًا من الطين أو الأدوبي (خشب محشو بالألياف). ومن بينها منازل لديها حدائق دون أسوار حولها، من الواضح عدم الاعتناء بها كثيرًا.

أطلعوا صاحب النزل على الرسالة "جواز سفرهم" ولكن الرجل هز رأسه سلبًا بمعنى أنه لم يفهم شيئًا. وضعوا أصابعهم على النسر الأسود المزدوج الرأس، الموجود تحت التوقيع، وراحوا يكررون أمامه:

- كورابين... الأمير كورابين.

تمتم الرجل من خلال لحيته قائلاً: "كورابين... كورابين" ثم ضرب على جبهته وكأنه تذكر شيئًا وقال هاتفًا:

- دا! دا (نعم، نعم)! كنياز كورابين... كنيــاز كــورابين! كولومنيسكوى!

أشار بإصبع السبابة فى اتجاه شمس الظهيرة قائلاً:

- كولومنيسكوى!

كتب الكلمة على قطعة من الورق المقوى، وأشار مرة أخرى تجاه الأفق الجنوبى. وها هم يغادرون من جديد وفى أيــديهم قطعــة الورق المقوى ويسلكون طريقًا معبدًا. مروا بقرى تقع علــى طــول برك يسبح فيها البط، وراحت الكلاب تركض وراء عربتهم، ويحييهم الفلاحون الروس فراحوا يسألونهم عن الطريــق الــذى ينبغــى أن يسلكوه بوسيلة الصم والبكم. بعد حوالى ساعة من العــدو الخفيــف لجواديهما بالعربة، لمحوا مجموعة مدهشة من الكنائس ذات اللــونين الوردى والأبيض، مرتفعة فوق تل، وقد بدت وكأنها متحدة معًا فــى اجتماع، وسفوحها مبللة فى نهر صغير يعج بالقوارب. أعلى كنيــسة فيها يرتفع برجها إلى عباب السماء على شكل هرمــى مبنــى مــن الطوب الأرجوانى، قدر باردو ارتفاعه بحوالى ثمانين مترًا. كانــت حول هذا البرج، أبراج أخرى أقل ارتفاعًا، علــى قممهــا بــصلات ذهبية. كان جموع رجال الدين من ذوى اللحــى والــشعر الطويــل يهيمون من كنيسة لأخرى وهم يتجاذبون أطراف الحديث تحت ظــل

الأشجار التى تحد جانبى الشارع. لم يعرف باردو ولا ابنه ولا شقيقه إلى من يوجهون الكلام، بل أصابهم الارتباك من فرط جمال تلك التصميمات المعمارية وشعروا بالخزى من عربتهم الموحلة، ومن جواديهما المنهكين، ثم توقفوا تحت شجرة زيزفون تتطابق مع الموجودة فى منطقة لوباردانج وسرعان ما راح جواديهما كومت ودراجون يرعيان من الأعشاب التى تحتهما.

نزل باردو من مقعده فى العربة، واقترب من راهب ذى رداء أسود، وخلع قبعته الطويلة وثنى ركبته كما سنحت له الفرصة ورأى الناس يفعلون ذلك، ثم سأله:

– من فضلك: كنياز كورابين؟

رد عليه رجل الدين بالاستفسار المعتاد:

– نيامتز؟

– دا، نيامتز. كنياز كورابين؟

وكما جرت العادة، انخرط الرجل الروسى فى خطبة طويلة من الكلام لم يستوعب منها باردو إلا الإشارة إلى اتجاه ما وكلمة: دياكوفو.

هكذا سلكوا الطريق إلى دياكوفو. إنها قرية جميلة منازلها ملونة سواء باللون الأصفر أو الأخضر. وعلى مرمى البصر، ظهر قصر مبنى من الخشب والطوب تحيط به القضبان الحديدية وعلى بوابته أسدان حجريان، وهو محل إقامة الأمير كورابين. هكذا وصلوا إلى الهدف المنشود من رحلتهم بعد أن قطعوا ألف فرسخ. تنتمى قرية دياكوفو بأكملها إلى الأمير كورابين، سواء أرضها أو ما تطرحه من نباتات وخضراوات. فالحقول والمراعى والغابات والبرك ومنازل الفلاحين وكذلك مئات المزارعين الذين يعيشون فيها، جميعهم ملك له. عند البوابة، يوجد شعار يتمثل من خلال دب متوج. من خلال القضبان، رأى باردو وابنه وشقيقه أطفالاً يلعبون فى الحديقة مع كلاب سلوقية (مخصصة للصيد). ما إن استشعرت هذه الكلاب وجود غرباء، حتى هرعت ناحيتهم وهى تنبح، لكى تحييهم أكثر مما كانت ترغب فى عضهم. لقد كان ذلك بمثابة جرس الإنذار. اقترب الخدم بدورهم وهم يرتدون شعرًا مستعارًا، ثم الأطفال الذين راحوا ينظرون إليهم بأعين متسعة ومستديرة كالأقمار. وجهوا إليهم سؤالاً غير مفهوم:

– Machtanguin nachtanga؟ (ماذا تريدون)؟

– إننا نرغب فى رؤية الأمير كورابين.

- Machtango machtangouri؟ (من أين جئتم)؟

- لقد جئنا من فرنسا حيث التقينا به من قبل في قصر ڤرساي.

- Machtangouine machtampimpon؟

هتف أحد الأطفال قائلاً:

- إنهم فرنسيون!

أخرج باردو الرسالة "جواز السفر" من حافظة أوراقه وعليها النسر الأسود ذو الرأسين. تأمل الخدم الرسالة ثم راحوا يتناقشون فيما بينهم " machtangouinesque" (بلهجتهم المحلية)، ثم أشاروا لهم أن ينتظروا، بينما توجه واحد منهم إلى داخل القصر. في أثناء الانتظار، أراد الفتى الصغير الذي يتحدث الفرنسية أن يتباهى بإظهار معرفته بها، فراح يسرد أمام الزوار أساطير "لا فونتين" (من تلك التي يحكونها للصغار):

"وقف السيد الغراب معلقًا فوق الشجرة ... بعد أن غنى طائر الزيز... راح الخروف يطفئ ظمأه...".

عندما وصل إلى العبارة الأخيرة، كان الخادم قد ظهر عائدًا. فتح لهم البوابة، فدخلت العربة متدحرجة فوق ممر رملي تحده من الجانبين مروج خضراء شاسعة، فبدت وكأنها لوحة زيتية رسمها

"لونوتر" (بستانى الملك لويس الرابع عشر)، وسارت حول بركة ثم توقفت أمام درج ضخم. من خلفه، بدا القصر وكأنه يشكل مجموعة من الأعمدة مثيرة للإعجاب، وكذلك شرفات ونوافذ مستديرة ومربعة ومستطيلة الشكل.

- Machtanguette، قال لهم الخادم مشيرًا بإصبع سبابته فاتضح لهم أن المعنى المقصود هو: "اتبعونى".

وهو ما فعلوه ثلاثتهم، وكل منهم ممسك بقبعته فى يده. أرشدهم إلى صالون رائع الفخامة، ويبدو ذلك واضحًا من ثرياته وبُسُطه وأثاثه ولوحاته التى يمكن مقارنتها، وعلى نطاق مصغر، بتلك التى فى قصر فرساى، وقد احتفظ باردو بها فى ذاكرته كما لو كانت أمس. ظلوا واقفين للحظة، لا يعرفون إلى ماذا ينظرون من روعة كل ما حولهم.

فجأة انفتح بابٌ ذو ضلفتين. ورأوا خادمًا آخر يدفع شخصًا جالسًا على كرسى متحرك ذى ثلاث عجلات - أو "المؤخرة الصغيرة" - التى يستخدمها فى فرنسا بعض المعوقين الأثرياء، والتى يطلق عليها أهالى أوفرنى بلهجتهم العامية "عربات اليد". ها هو الأمير كورابين جالس على الكرسى، متراجع بظهره إلى الوراء على بعض الوسائد، وذراعاه ممددان على مسندى الكرسى. لم يعد أنيقًا أو

وجهه مجملاً بالبودرة ولا متأنقًا كما كان فى قصر فرساى عام ١٧١٧، بل أصبح كهلاً نحيل الجسد، معاقًا وكأنه ليس سوى ظل باهت لذلك الرجل الذى سبق وعرفه.

ومع ذلك فقد ابتسم، فارجًا عن فم يفتقر لنصف أسنانه، ومد يده التى ترتجف، وهتف باللغة الفرنسية التى يتحدثها بدون أى لكنة غير أنه ينطق حرف (ر) واضحًا بشكل طفيف، كما يفعل فى فرنسا أهالى منطقة بوربونيه وبيرى وبورجونى:

- السيد مونييه... بيير، أليس كذلك؟

- باردو من فضلك... بيير كان اسم والدنا الراحل... ها هو أخى جيرمان وابنى أميديه.

هكذا قال باردو وفى نفس الوقت تناول يد الأمير الممدوة إليه وقبلها كما كان يرى الروس يفعلون فقلده أخوه وابنه.

- حقًا أنت السيد باردو مونييه... لقد تذكرتك جيدًا... لم يزحف إلى وجهك خط واحد من التجاعيد... ليس مثلى!

- أوه! يا سيدى... أعتذر بشدة. أيمكننى أن أناديك بـ(سيدى)؟ - فى فرنسا، يقولون (صاحب السعادة). إذا كان ذلك يناسبك... - يا صاحب السعادة، قريبًا سأصبح رجلاً عجوزًا، فأنا أقترب من عامى الخمسين.

- وهكذا إذن رحل عنكم بيير المسكين؟

- نعم يا صاحب السعادة، منذ عامين.

- إن القيصر بيير الأول - أو كما نسميه هنا بيير الأكبر - قد رحل عنا أيضًا للأسف. إنه لخسارة فادحة لروسيا، أمنا المحبوبة. أما الآن فنحن تحت حكم آنا إيفانوفانا. لن أقول عنها شيئًا فأنا لا أعرفها جيدًا حيث تعيش فى سانت بطرسبرج أكثر مما تعيش فى موسكو. ولكننا نتراسل أحيانًا.

أوضح له باردو سبب قيامه بهذه الرحلة التى قطع خلالها أربعة آلاف فرسخ وهو ندرة فرص العمل التى تعانى منها مهنته فى قرية فيفيرول؛ وأمله فى إيجاد فرص عمل فى روسيا. وأضاف بتواضع: نحن أيضًا نعلم كيف نقوم بصهر المدافع. سأله كورابين عن أخبار فرنسا وعن الملك لويس الخامس عشر وعن الدين، وعن الصناعة والتجارة. أجابه مونييه حسب ما لديه من معلومات. بعد ذلك تجرأ وطرح عليه بدوره هذا السؤال:

- يا صاحب السعادة... لماذا أنت على هذا الكرسى؟ هل أنت متوعك صحيًا؟

قال صاحب سعادته وهو يضحك متهكمًا: هذا أقل ما يمكننا قوله. فساقاى مشلولتان... أعتقد أنه بلاء عنيد ومزمن. فى البداية،

فقدت القدرة على استخدام قدمى. شعرت وكأنهما قد تغطيتا بطبقة من الجليد، ثم بدأت ترتفع تدريجيًا حتى جمدت ساقى، ووصلت إلى ركبتى، ثم تمكنت من فخذى. أعلم جيدًا أن هذا الصعود لم ينته بعد. عندما يصل إلى منطقة الصدر والقلب، سأصبح رجلاً ميتًا. حتى هذه اللحظة، فإن رأسى وأعضائى العلوية ومعدتى تعمل بشكل جيد. لقد ارتكبت الكثير من الحماقات والمعاصى فى شبابى وخاصة بالنصف السفلى من جسدى. إن هذه الأجزاء من جسدى هى التى أراد الله أن يعاقبنى بها فى المقام الأول(١).

رشم الأمير علامة الصليب على صدره من اليمين إلى اليسار، فقلده الخادم الذى يقوم بدفع كرسيه المتحرك، وكذلك قلده الفرنسيون الثلاثة.

- والآن يا أصدقائى الأعزاء، ماذا الذى تنوون عمله؟

- أولاً... سنبحث عن نزل لنقيم به انتظارًا لتوافر فرصة عمل، وإذا لزم الأمر سنقوم ببيع العربة التى جئنا بها وأيضًا الخيول. قال صاحب السعادة: هذا أمر غير معقول!

- عفواً؟

---

(١) يمكن الافتراض أن الأمير كورابين كان يعانى من تصلب فى أجزاء عديدة من جسده.

- لقد قطعتم مسافة أربعة آلاف فرسخ حتى تأتوا إلى منزلي هنا... فهل تعتقدون بأني سأترككم تقيمون في نزل؟ فلتبقوا معي هنا على الرحب والسعة.

- ولكن... يا صاحب السعادة... من المحتمل أن نظل هنا سنة... وربما أكثر!

- فلتبقوا كما يحلو لكم من وقت.

- أوه يا صاحب السعادة! ماذا عساى أن أقول... كيف أعبر لك عن...؟

- لا تقل شيئًا. لو كان القيصر بيير الأكبر لا يزال على قيد الحياة، لكان وافقني على كلامي هذا. إن منزلي فسيح كما ترى ونعيش به أنا وأسرتي والخدم، ولا يتجاوز عددنا أربعين فردًا. لذلك لن يمثل وجود ثلاثة أشخاص أي مشكلة.

انحنى باردو على يد الأمير كورابين وغمرها بالقبل تعبيرًا عن امتنانه وشكره.

قال الأمير المعاق بلهجة احتجاج: كفي... كفي. فقط ادع إلى اللـه أن لا تتجمد أطرافي بشكل سريع... وأن أتمكن من الصمود على الأقل في فترة وجودكم معنا.

- سوف ندعو ونصلى لك ليلاً ونهارًا.

- باستا، باستا! (هذا يكفى، هذا يكفى) كما يقول الإيطاليون.

كانوا على وشك الاستئذان منه بالانصراف، ليتبعوا الخادم الذى راح الأمير يوجه له بعض التعليمات عندما تجرأ باردو مرة أخرى وقال للأمير:

- يا صاحب السعادة... هل لى أن أطلب منك شيئًا صغيرًا؟

- تفضل.

- فى أى يوم نحن؟

- أى يوم؟! إننا فى يوم الإثنين الموافق الخامس عشر من شهر يونيه عام ١٧٣٢.

- الـ... خامس عشر من يونيه! أنا لا أفهم شيئًا يا صاحب السعادة. فالتقويم الذى معى لا يقول نفس الشىء. وقد طالعته هذا الصباح.

انفجر الأمير بولس إيفانوفيتش كورابين ضاحكًا وقال:

- إننا لا نستخدم نفس التقويم هنا... فتقويمنا متأخر عن تقويمكم بثلاثة عشر يومًا. فيوم الإثنين االخامس عشر من يونيه عندنا يعادل الأحد الثامن والعشرين عندكم. والسبب فى ذلك هو أن

كنيستنا، التى لا تعترف بالبابا كسلطة عليا، تـرفض التغييـر فـى التوقيت الذى فرضه البابا جريجورى السابع. ولهذا فقـد احتفظـت كنيستنا بالتقويم القديم الذى وضعه يوليوس قيصر، ونحن متمـسكون جدًا بهذا الانفصال. لابد وأن تعتادوا على تقويمنا هذا. يقـول أحـد الأمثال التى لدينا هنا: "يجب أن يعتاد المرء على كل شـىء، حتـى الجحيم". سوف تسمعون أمثالاً أخرى كثيرة، فأنتم فى بلاد الأمثـال. هكذا ضحك من جديد، على الرغم من أسنانه المتآكلة.

- كلمة أخرى أخيرة لو سمحت لى يا صاحب السعادة.

- تفضل..: على الرحب والسعة.

- كلما رغبنا فى التحدث إلى الناس هنا، فإنهم يردون علينـا بكلمتين: Niemetz، Niemz. أود أن أعرف معناهما.

- إنهما يعنيان ثلاثة أشياء: ألمان وغرباء وبكم. لقـد اعتبـر شعبنا كل الأجانب ألمانًا. وأنتم على سـبيل المثـال مثـل هـؤلاء الأجانب، عادة لا يمكنهم التحدث باللغة الروسية، كما أن نفس الكلمة تُعنى أيضًا "الشخص الأبكم". ولا شىء غريب فى ذلك، ففى جميـع لغات العالم توجد كلمات عديدة كل منها يعنى عدة أشياء.

وجدوا خلف المبنى الرئيسى لقصر الأمير الملحقات الصغيرة والتى يسكن فيها الخدم. كل من هذه الملحقات مصبوغ بلون مختلف:

أخضر وأصفر ورمادى وأزرق... كان الملحق الأخضر هو المتـاح ولذلك سكن به أفراد عائلة مونييه الثلاثة فى ذات اليوم. وقد وجـدوا به كل ما هو ضرورى للمعيشة: غرفتين صغيرتين للنوم وموقدًا من الفخار وأدوات مطبخ، ومنضدة وكراسي وخزائن للملابس، وكـذلك صلبانًا عليها المسيح المصلوب، وأيقونات. حتى إنه كانت هناك مرآة وكانت تعتبر شيئًا نادرًا وثمينًا فى ذلك الوقت بين بـاقى الأشـياء. وخلف كل ملحق، كان هناك مخزون من جذوع الحطب جاهزة فقـط على التقطيع بالمنشار.

أما جواداهما - كومت ودراجون - فقد تم إيواؤهما بالمثل فى أسطبلات الأمير، وهكذا اختلطا مع بـاقى جيـرانهم مـن الخيـول الروسية رغم كونهما غريبين عنها.

وعندما كان يحين موعد كل وجبة، كان يقرع جرس فيتجمـع كل الخدم بمن فيهم وصيفات الغرف ومسئولو أسـطبلات الخيـول، والمساعدون والبستانية فى غرفة الطعام المعدة لهم. وكان كبير الخدم ميليوكوف يقوم بدعوة أفراد أسرة مونييه الثلاثة لكى ينضموا إلـيهم. مما جعلهم يفهمون أن صاحب السعادة لـم يـستقبلهم فـى قـصره كضيوف شرف، ولكن كخدم بسطاء. هكذا اتخـذوا أمـاكنهم علـى الآرائك الموجودة أمام مائدة الرجال، فى حين تجلس النـساء علـى مائدة أخرى. قدم لهم الطهاة طبق البورتش، وهو عبارة عن حـساء

اللحم والخضراوات والفجل الأسود والرنجة المقلية، والجبن الأبيض المملح. كما كان يوجد خبز الجاودار (الشعير) لمن يشاء. أما المشروبات فكانوا يقدمون الماء والشاى.

كان يسود فترة تناول الطعام صخب عارم، فكل واحد وواحدة منهم يصرخ متحدثًا بصوت عالٍ كى يسمعه الآخرون. وكانت تتخلل هذا الضجيج ضحكة نسائية من حين لآخر. لذا اضطر أفراد أسرة مونييه أن يتحدث كل منهم فى أذن الآخر لكى يسمعوا بعضهم. ومع ذلك فلم يتجاهلهم رفقاؤهم على المائدة بالمرة. فقد كانوا يوجهون إليهم الكلام بطريقة ودية للغاية، ويربتون على أكتافهم بشكل أخوى، ويُرينهم كيفية تناول الطعام، ويعلمونهم كلمات جديدة مثل: Dastatatchna! Syr. Khlep.

فى نهاية الوجبة، يمسح كل خادم فمه بظهر يده، ثم يتجشأ دون أى تحرج للتعبير عن اكتفائه ورضاه.

(٢٢)

بين مئات الكنائس التى تزدان بها مدينة موسكو والضواحى القروية المحيطة بها ، هكذا قال الأمير بولس إيفانوفيتش كورابين: بالتأكيد هناك العشرات والعشرات منها التى لا يعمل بها أى جرس. سوف أكتب رسالة إلى الباباوات والأساقفة، ولننتظر الإجابة. على مدار بضعة أيام، لم يجد أفراد أسرة مونييه شيئًا يفعلونه سوى التنزه واكتشاف المدينة المقدسة. بهرهم التصميم المعمارى لكاتدرائية باسيل لو بينورروه، فهو عبارة عن تراكم من أشكال الفواكه والخضراوات والبصل واليقطين وثمرة شجرة الأرز والخرشوف والكرات والجزر، وكل تصميم منها فوقه قبعة فى شكل هرمى، مرصعة بالذهب والمينا والطوب والخزف. قيل لهم: إن هذا المبنى غير المعقول، قد بُنى على شرف ناسك مجنون يُدعى فاسيلى كان يمضى وقته فى اصطياد الذباب وأكله نيئًا. ومع ذلك ففى هذا المعبد تتم مراسم تتويج القياصرة.

تحتل الكاتدرائية المذكورة تقريبًا وسط "كراسنايا بلوشتاد"، أى الميدان الجميل بالروسية. ولكن على مقربة منها تنتصب منصة الإعدام، كما لو كانت تحذيرًا:

فهى منصة لمحكمة دائرية طالما أعطى الأمـر مـن فوقهـا القياصرة إيفان الرهيب وبيير الأكبر وآنا إيفانوفانا بتنفيذ العديد مـن أحكام الإعدام أو حتى نفذوا بأنفسهم الحكم فى العديد من معارضيهم. وكان دم المعدومين يتدفق فى قناة تصريف تصب بدورها فى نهـر موسكوفا.

على مقربة من هذا المكان يقع باب "المخلص" الذى يوصـل إلى قلعة الكرملين. وكان يحيط بها جدار حجرى تتوّج أعلاه فتحات على شكل تعشيقات مستطيلة، ويحيط به أيضًا تسعة عـشر برجًـا. ينطوى مبنى الكرملين على ثلاث كاتدرائيات أخرى وثلاث كنـائس عادية وسبعة أو ثمانية قصور ومـسرح وثكنـات جنـود وحـدائق ونافورات ومنازل خاصة ومساكن لإقامة رجال الحاشية.

ولكن المشهد الأكثر غرابة بالنسبة لأسرة مونييه كان مـشهد الشارع والميادين والأسواق التى تزدحم ببائعى كل الرمـوز الدينيـة من أيقونات وشموع ومسابح وكتب، وكذلك يبيعون فاكهـة اليقطـين (قرع العسل) والخيار والبنجر، وأيـضًا القبعـات وأنـواع الخمـار والملابس المستعملة والأحذية المستعملة. ورأوا عجوزًا على عربـة صغيرة يجذب دلوًا يسبح فيه سمك الشبوط. وعلى جانـب الطريـق اصطفت نساء يجلسن على أوانٍ من الحديد يحكمن أغطيتهـا لكـى يحافظن على الحساء الذى بداخلها ساخنًا، ثم يبدأن فى عرض سلعهن على المارة:

- لابشا! لابشا!

إذا ما تقدم منهن زبون، يقمن من فوق الأوانى الكبيرة ويرفعن أغطية الآنية ويصببن له مقدار ملعقة كبيرة يشربها الزبون وهو واقف فى نفس الصحن.

وصاح بائع سجاد قائلاً: شوروم بوروم!

وراحت بائعة الخبز تعرض ما لديها داخل سلة: "kalatch" (خبز)، يبلغ ثمنه ربع كوبيك (يعادل القرش)، وهو عبارة عن قطع صغيرة من الخبز على شكل أقفال لها مقابض، يشتريها عادة أصحاب الأيدى المتسخة.

وهناك بائع "طيور الحرية" يعرض طيوره السجينة مطالبًا بمبلغ من المال نظير فتح قفص الحمام السجين. فيدفع له الهاوى الثمن المتفق عليه ثم يقوم بتقبيل الحمام على مناقيرها وبعدها يفتح يديه لتنطلق الطيور محلقة فى السماء لترسم كلمة "مى" أو السلام. يراقب الجمهور المشهد وهو فى غاية الاندهاش. ولكن على مسافة أبعد قليلاً، تترك الحمائم المروّضة أنفسها ليمسك بها ابن مربى الطيور فيعيدها إلى أقفاصها.

رأوا أيضًا فى هذا السوق بائعى كلاب وقطط، وكذلك أطفال حفاة الأقدام يجرون كالأرانب وقد سرقوا ثمار التفاح من البائعين.

ويقف المتسوّلون فى كل زاوية من زوايا الشارع، فهم إما كتع وإما عرج، أو فاقدو البصر أو يستندون على عصى. وكذلك الحواة ومن يقومون بالألعاب البهلوانية ومروضو الدببة. وأيضًا رجال دين وراهبات يرتدين أثوابًا طويلة بيضاء أو سوداء. وكذلك عربات حنطور فخمة تجرها ثلاثة خيول فى المقدمة ويجلس بها الأسياد الوجهاء ذوو الشعر المستعار وسيدات يرتدين أثوابًا أنيقة ذات طبقات كثيرة ويتعلق بمؤخرة العربة خادمان يقومان بالحراسة. هكذا أخذ أفراد أسرة مونييه يتجوّلون من شارع إلى شارع، وهم حريصون على تذكر الطريق الذى سلكوه بالضبط لتفادى سؤال المارة بسبب مشكلة اللغة. اشتروا رغيفًا من الخبز دون أن يضطروا إلى التحدث مع البائع، وقطعة من النقانق، وجلسوا يتعشون فى الهواء الطلق متكئين بظهورهم إلى جدار مغسلة. ثم عادوا إلى القصر ليلاً منهكين وراحوا يعربون عن تقديرهم للطعام الذى يقدمه الأمير لخدمه.

كان الأمير يطلب من ضيوفه الفرنسيين الثلاثة من حين لآخر أن يأخذوه فى نزهة حول حديقة قصره. وكانوا يدفعونه على كرسيه المتحرك، مارين به من الظل إلى النور. أحب الأمير المُعاق أن ينخرط معهم فى أحاديث مطولة يحكى فيها بسعادة عن السفارات التى ترأسها، وعن إقامته فى باريس ولندن وروما ومدريد، حيث

كان كل علية القوم هناك يتحدثون بلغة ملك الشمس (لــويس الرابــع عشر). أثناء التنزه كان الأمير يداعب كلبًا صــغيرًا يــضعه علـــى ركبتيه كي يدفئهما. أما الفرنسيون الثلاثة فلم يكن لديهم الشيء الكثير ليقولوه. فقد جاءوا من قرية بلا تاريخ وبلاد ســعيدة. كـــان الكلـــب الصغير يطلق نباحًا قصيرًا من حين لآخر تعبيرًا عن مشاركته فـــى الحوار. وفى بعض الأحيان، كان الأمير يصاب بالإرهاق من كثـــرة التحدث أو من الاستماع فيغفو نائمًا. وفى يوم من الأيام شعر صاحب السعادة بالنعاس، وراحت رأسه تميل للأمام، فما كان منه إلا أن قال لهم مداعبًا:

- يا أصدقائى: أنتم تقومون بصهر الأجراس، أما أنـــا فـــأقوم بقرعها (إشارة إلى رأسه التى تتمايل من النعاس).

كان مسرورًا من نفسه للغاية حتى إنه ظل يكرر لهم فى كثير من الأحيان:

- خذونى إلى مكان جيد فى الظـــل، فـــسوف أقـــوم بقـــرع الأجراس.

فى كل مرة كان الأمير يردد فيها هذه الدعابات السخيفة، كان أفراد أسرة مونييه يضطرون للضحك، فهو الـــذى يستـــضيفهم فـــى قصره ويطعمهم طعامًا جيدًا.

لم يطق أفراد أسرة مونييه أن يبقوا عاطلين عن العمل في انتظار رد الباباوات (الأرثوذكس) والأساقفة، فطلبوا بأنفسهم أن يعملوا في القصر. فما كان من رئيس الخدم ميليوكوف - الذي يرتدي زيًا أزرق وحزامًا أحمر - إلا أن عهد إليهم بأعمال الأسطبلات والحدائق، وأيضًا في نشر جذوع الأشجار. سعد رئيس الخدم بأعمالهم وقدم لهم شكره وامتنانه اللذين حرص الأمير أن يقوم بترجمتهما لهم بالفرنسية.

كانت أسرة الأمير كورابين تتألف من ثلاثة أبناء وست نساء: زوجته وبناته وزوجات أبنائه ونفس العدد من الأولاد ما زالوا متصنّعين ومتعالين. ومعلمة فرنسية استقدمها لهم الأمير من منطقة سافوا، تُدعى لويز، تقوم بتدريسهم اللغة الفرنسية. وفي بعض الأمسيات، كان أفراد أسرة مونييه يهربون من العمل وتلك الحالة التي تشبه العبودية، حيث كان الأمير يدعوهم للجلوس في أحد صالونات القصر فكانت لحظات فريدة يحتسون فيها الشمبانيا ويأكلون ال krendelj (حلوى روسية). تقوم إحدى الآنسات بالغناء بمصاحبة إحدى أخواتها بالعزف على البيانو، فتشدو بأغنية فرنسية عتيقة ولكنها مليئة بالرومانسية والعاطفة:

"هذه السماء لا ترحم

فهى صارمة وتعنفنى بشدة

حتى إن أتعس الناس يعتبرون سعداء مقارنة بى

هيهات أن يعود إلىّ الماضى الجميل فهو يعذب فكرى

فماذا لدى الآن بعد أن فقدتك وفقدت ذكرياتى؟".

ذلك الصوت وتلك الموسيقى وتلك الكلمات الحزينة ذكرت باردو بأغنية مايل تورنبيز ابنة كاتب عدل قرية "سانت أنتم" التى جاءت لزيارتهم بغرض إغوائه تعشمًا فى خطبته. راح باردو يتساءل: لماذا يصر الشعراء الفرنسيون دائمًا على كتابة كلمات بهذه الدرجة من القتامة. أثارت هذه الأغنية مشاعره كما تتأجَّج صلصة البشامل فوق النار موقظة كل أحاسيس الحب تجاه زوجته وأولاده الذين تركهم فى فرنسا. شعر بدمعة تتساب على خده، بعكس أخيه جيرمان الجالس على مقربة منه، فقد كان بارد المشاعر، ويتمتع بشخصية أقوى، لذا راح يستمع إلى هذه الكلمات الحزينة وكأنه يستمع إلى صرير الباب.

كانت لويز، الفرنسية الشابة القادمة من منطقة سافوا فى فرنسا، قد بدأت العمل فى خدمة الأمير منذ ست سنوات، حيث كان يقوم بزيارة هناك، فتعرف إليها فى مدينة سان جان دو موريين.

وتنتمى لويز إلى عائلة كثيرة الأفراد، مؤلفة من اثنى عشر شقيقًا وشقيقة.

وحيث إن الأمير كان فى حاجة إلى معلمة لأطفاله، كما فتنته عيونها العسلية وأنفها الدقيق المدبب، وبقع النمش المنتشرة على بشرتها وتواضعها ومعرفتها الجيدة باللغة الفرنسية، هكذا استقدمها مع حقائبه، بعد أن دفع لوالديها مقدمًا يعادل مبلغ مائة وعشرين قطعة من العملة النقدية لتورينو (مدينة فى إيطاليا). سعدت لويز بلقاء مواطنى بلدها فرنسا، على الرغم من أن منطقتها ساقوا تقع تحت حكم ملك جزيرة سردينيا الإيطالية. ولكن هؤلاء كانوا من سكان الجبال مثلها.

أباحت لهم لويز: إن أكثر شىء أفتقده هنا، هى الأبقار... لكم كنت أحب مشاهدة الأبقار فى مراعينا... أحب أن أدللها وأربت عليها وأحلبها وأتحدث إليها.

لم تكن لويز تعرف بعد متى ستتمكن من العودة إلى بلادها. كانت تتلقى أنباء من أهلها فى فرنسا عن طريق الرسائل البريدية ويبدو أنهم لم يكونوا يرحبون كثيرًا بعودتها، فهى بعيدة عنهم ولكنهم يعيشون فى رغد بفضل المال الذى ترسله إليهم. سألها باردو: ألا تفكرين فى الزواج؟

هزت لويز رأسها نفيًا وابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

- أنا فى الثلاثين من عمرى وقد تخطيت سن الزواج.

فى بعض الأيام، كان أفراد أسرة مونييه، وبدلاً من تناول الطعام فى مطعم الخدم، كانوا يشترون بعض الخضار واللحوم والفاكهة من السوق ويقومون بطهوها كما اعتادوا فى منطقة أوفرنى فى بلادهم. فقاموا بدعوة لويز على حسائهم الممزوج بالخبز والكرنب، ولكنها لم تستطع قبول دعوتهم قائلة:

- ينبغى علىَّ أن أظل بجوار تلاميذى فى أوقات تناول الوجبات فهذا جزء من التزاماتى. وأنا آسفة كثيرًا على عدم قبول دعوتكم.

فى يوم وجد أميديه نفسه إلى جانب لويز فى حديقة القصر، وقد اتكأ كل منهما على سور الحوض الذى يسبح فيه سمك الشبوط، وعن دون قصد، وضع يده على يدها. شعر بها وقد ارتجفت ولكنها لم تقاوم كثيرًا فى سحبها فأمسك هو بها. ظلا هكذا لفترة طويلة بلا حراك، صامتين، كما لو كان كلٌّ منهما سجين الآخر. فى النهاية خلصت يدها من يده ودون أن تنظر إليه قالت وكأنها توجه كلامها إلى الأسماك:

- كلا... هذا غير ممكن... فأنا أعرف كم عمرك... أتعـرف أنت كم عمرى؟ أنا أكبر منك بعشر سنوات؟

رد عليها أميديه وهو يوجه كلامه هو الآخـر إلـى أسـماك الشبوط:

- لا يبدو عليك هذا العمر.

- بل إنى بلغت الثالثة والثلاثين.

- هذا لا يهمنى!

- لا تقل ذلك... فعندما يبلغ عمرك الأربعـين، سـأبلغ أنـا الحادية والخمسين... إذن سأكون امرأة طاعنة فى السن. الرجـال يحتفظون بشبابهم لفترة أطول منا. إنها عقوبة أوقعها اللـه علـى جنسنا نحن النساء تعود إلى خطيئة بداية الخليقة. حواء كانت مذنبـة أكثر من آدم. وغير ذلك فإن والدى وإخوتى وأخواتى وبنات وأبنـاء أعمامى فى احتياج شديد لى. ورغم كل ذلك فأنا أشكرك... على أنك فكرت فىّ كامرأة لك. ولكن هذا غير ممكن.

جذبت من طرف كم رداءها منديلاً من القماش القطنى، ودست به أنفها المدبب ثم نفخت بشدة، ثم مسحت عينيها. فى النهاية راح كل منهما ينظر إلى الآخر حيث بدت ابتساماتهما كما لو كانت نظـرات تجهُم.

بعد أسابيع من الانتظار تلقى أفراد مونبيه، صناع الأجـراس، أمرًا بالشغل. كان عليهم الذهاب لإعادة صنع جرس به شرخ فى دير الثالوث سان سيرج دى سيرجيڤو، التى تقع على بعد حوالى سـبعين فرسخًا شمال موسكو. كان مكانًا للحج يتردد عليه الكثير من الرجال والنساء من جميع انحاء روسيا لتأدية الصلاة عند ضـريح مؤسـس الدير، ويشرب الماء المقدس من نافورة يقال إنها تصنع المعجـزات. وقد ندد كل من ذهب إلى هناك بالترف المبالغ فيه الذى يعـيش فيـه رهبان الدير: العدد الذى لا يحصى من الخدم والعبيد الذين يقومـون بخدمتهم، القباب الضخمة الملونـة بـالأزرق والـذهبى، كاتدرائيـة الدورميسيون، الأعمال الفنية واللوحات المعلقة والتى تـصف حيـاة القديس، الأيقونات الحجرية، العدد الكبير لرجال الدين الذين يعيشون هناك ونوعية ملابسهم.

هكذا غادر ثلاثتهم: باردو وشقيقه جيرمان وابنه أميديه بلـدة دياكوڤو.

هتف الأمير قائلاً لهم وهو جالس علـى كرسـيه المتحـرك: فلتعودوا وقتما تشاءون! ستكونون دائمًا على الرحب والسعة.

هكذا أيضًا تم إخراج الجوادين كومت ودراجون من خمولهما فى ظل الأسطبل فشعرا بالفرحة وانطلقا يرمحان وهما يجران العربة على الطريق الذى أصبح صلبًا من شدة الجفاف. تصاعد الغبار الذى

تخلفه العربة وراءها، فكسا أوراق أشجار الحور التى تصطف على جانبى الطريق. حدث هذا فى بداية شهر أغسطس عام ١٧٣٢، حيث سلطت الشمس الحارقة أشعتها على سهول الريف الروسى. حتى إنهم استطاعوا رؤية الهواء الساخن المتصاعد من سطح التربة وكأنه بخار. ومع ذلك قاومت أشجار البتولا فى الغابات مقاومة جيدة هذا القيظ، وواصلت قلوب أوراقها الرقيقة التحرك مع أدنى نسمة هواء. وراحت طيور السمان المرقطة تحلق طائرة حول الأشجار ذات النقط الحمراء. وتوقفوا عند ينابيع ماء ليشربوا منها هم وخيولهم، حيث كانت هناك بعض النساء فرحن يسألنهم إذا ما كانوا ألمانًا – أجانب – بكمًا.

بعد أن أخطر الأمير عن قدومهم فى رسالة، استقبلهم "الأرشمندريت" فى دير سيرچيوڤو وهو الحاكم المهيمن على المدينة. بدا الرجل من مظهره وقورًا للغاية، طويل القامة وهزيلاً، أحدب الظهر إلى حد ما، كما أنه يتحدث الفرنسية بطريقة مفهومة:

– إن الجرس، موضوع النقاش، وقع فى يوم من برجه وانكسر، فنحن نستقبل هنا الكثير من الخطاة.

هناك ثمة اعتقاد روسى يقول بأن معدن الأجراس تخترقه الخطايا التى يعترف بها الخطاة للقس، بنفس الطريقة التى تمتص بها الإسفنجة الماء عند اغتسالنا.

بمساعدة العبيد المخصصين لخدمتهم، قام أفراد أسرة مونييه بحمل الجرس المكسور، وقطعوه إلى أجزاء صغيرة. بعد ذلك قاموا بعمل الحفرة التى سيتم بها صهر الجرس الذى سيحل محله، ثم توجهوا إلى الأراضى المحيطة وراحوا يغترفون من التربة الدهنية، وقاموا بعمل قالب الفرن بجميع ملحقاته. بينما جلب لهم العبيد الحطب وروث الخيول. هكذا سار كل شيء وفقًا للتقنيات القديمة. كانوا يتناولون وجباتهم فى مطعم الرهبان وينامون فى ثلاث غرف خاصة، ويقوم بإيقاظهم فى الليل الجماعة التى من شأنها أن ترتل صلاة الصبح. سارت الأمور على هذا المنوال لمدة شهرين، عاشوا خلالها حياة الرهبانية، وذلك أمام أعين "الأرشمندريت". إن هؤلاء السادة الذين تخلوا عن كل ترف الحياة، فى ذات الوقت كانوا يتمتعون بكل ما هو لازم: حدائق الزهور وبساتين الخضراوات والبركة التى تعج بالأسماك، والمناحل، والغابات، والمواشى التى تدر الحليب والصوف، وفرن للخبز، ونبيذ منطقة "كريميه" أو القوقاز الذى يوجد فى قبوهما. وفوق كل ذلك مائتا خادم يسهرون على راحتهم. ناهيك عن الهدايا التى لا تحصى ولا تُعد التى قدمها لهم الخطاة الذين يطلبون المغفرة.

لقد كان الكهل الجليل الذى يدير المكان يتمتع أيضًا بلقب "ستاريتز" أي "أحكم الحكماء". فى كل يوم، يزوره خطاة فى قاعة

الاستقبال بحثًا عن راحة بالهم، وكذلك المرضى سواء جسمانيًا أو روحيًا، وأيضًا الأميون والمتعلمون الذين كانوا يأتون بحثًا عن حل لكربهم: مثلاً إذا كان عليهم التصرف فى هذا أو ذاك، إذا ما كان عليهم قبول مصالحة عائلية، إذا ما كان عليهم الاعتراف للشرطة بجريمة ارتُكبت فى الخفاء من قبل؟ لقد كان الخوف من نار الآخرة يعذبهم أكثر من خوفهم من القضاة. لقد كان "ستاريتز" الحكيم يرفع الحجر الجاثم على صدورهم فيعودون وقد هدأت أنفسهم. كان الأمر يستحق النقود التى كانوا يدفعونها له، والتى كانت تُخصص لتلبية احتياجات الدير ولإغاثة الفقراء.

فى أيام الآحاد الروسية، كان أفراد أسرة مونييه الثلاثة يحضرون قداس كنيسة الثالوث سان سيرچ الذى تلمع فيه مصابيح حجر البلق اللامع. خلف الأيقونات، كان ينتصب المذبح متفردًا كما لو كان الرب الأوحد، وكأنه جدار من النار والذهب. تتألف الحشود الكبيرة التى تحضر القداس عادةً من الخدام والخادمات، ترتعش شفاههم بالترتيل بشكل مستمر، جميعهم واقفون وكلٌ منهم يمسك بشمعة فى يده، والبعض الآخر يمسك بطبق به كعكة أسطوانية الشكل كما لو كانت قطعة من الجبن.

كانت هذه الكتل البشرية تتحرك حركة دائرية بطيئة: كان كلٌ منهم يحاول جاهدًا أن يدور حول لوحات القديسيين المعلقة على

الجدران والتى تحيط بها قطع نحاسية كلٌ منها علـــى شـــكل هـــلال ومصابيح صغيرة، وعلى شكل حلى، فكانوا يركعون أمامها. ولكـــن معظم هذه اللوحات كان مثبتًا على حائط الأيقونات مما منع المصلين من رؤية الهيكل.

وكان منحوتًا على الباب الرئيسى، والذى يُسمى الباب الملكى، مشهد التبشير (الملاك جبريل عندما أعلن إلى مريم العـــذراء بأنهـــا حامل) يحيط به كُتَّاب الأناجيل الأربعة. وفى الوسط لوحـــة للمـــسيح على عرشه وعلى يمينه السيدة العذراء وعلى يساره القديس يوحنـــا المعمدان. وعلى الجانبين يتقدم الحواريون وكذلك قديـــسون آخـــرون مثل: القديس سيرج المتنصر والقديس نيكولا حـــامى روســـيا وهـــو الأكثر تبجيلاً، فهو من ينبغى أن يكون خليفة الرب نفسه إذا ما شعر بأنه قد أصبح طاعنًا فى السن.

كل هذه الأيقونات كانت تطالع الحشود بأعين ثابتة خالية مـــن التعبير، ورءوسها منكسة تجاه أجسادها المصنوعة سواء من الـــذهب أو الفضة أو الفضة المذهبة.

وعند قاعدة أحد أعمدة الكنيسة، أمام البابا الذى كـــان واقفًـــا، راح طابور من الطالبين التوبة ينتظرون دورهـــم للاعتـــراف. فـــى الواقع لم تكن بالكنائس الروسية مقاعد أو غرف للاعتـــراف. لهـــذا

يتقدم أول من فى الطابور ويضع إصبعين من أصابع يده على كتاب كبير للإنجيل موضوع على منضدة صغيرة، وذلك كدليل على أنه يقول الحقيقة. يقف أمامه "الأرشمندريت" وبالطبع هو الذى يدير الحوار المتكرر دائمًا:

- هل كذبت؟

- يا أبتى... لقد أخطأت.

- هل حدث وسرقت فى بعض الأحيان؟

- يا أبتى... لقد أخطأت.

- هل ارتكبت فاحشة؟

- يا أبتى.... لقد أخطأت...

يغفر البابا لطالب التوبة بأن يغطيه بضلفة من ضلفتى عباءته بينما يُقبل التائب كتاب الإنجيل الموضوع على المنضدة. ومن ثم يأتى من يليه! تتبخر كل هذه الخطايا إلى أعلى حتى تبلغ الأجراس، فتتفاعل وتندمج مع مكوناتها وبالتالى تُثقل من أوزانها. هكذا أمضى أفراد أسرة مونييه سبعة أسابيع فى بلدة سيرچيوفو، كانت بالنسبة لهم هى الأكثر سخونة خلال ذلك العام. بعد ذلك، وبناء على توصية من الحكيم ستاريتز، توجهوا إلى بلدة روستوف الواقعة على ضفاف

بحيرة نيرو، حيث كان فى انتظارهم عمل من نفس ظروف العمل السابق. وهناك حرصوا على القيام بعملهم على أكمل وجه، وبهذا نالوا رضا من طلبوا منهم هذا العمل.

كان فصل الخريف الروسى قد بدأ يحول أوراق أشجار اللـيم والبتولا إلى اللون الأصفر عندما عاود صانعو الأجراس الثلاثة أدراجهم إلى قرية دياكوفو حيث استقبلهم الأمير كما لو كانوا أولاده الضالين.

قال لهم ميليوكوف رئيس الخدم: لقد وصلتم بالضبط فى اللحظة التى سنبدأ فيها جمع محصول التفاح.

يمتلك الأمير كورابين بستان فواكه به مائتا شجرة تفاح، ولهذا تم إرسال جميع العاملين فى القصر لقطف المحصول. حرص رئيس الخدم على أن يشترك أفراد أسرة مونييه معهم فى جمع المحصول، وطلب من لويز أن تترجم لهم بعض التوصيات الخاصة بذلك: لقطف التفاحة، لا يجب جذبها من أعلى، ولكن يجب ثنيها وقطع ذيلها. إذا ما تعسر ذلك، عليك بقصف هذا الذيل بظفر إصبع الإبهام. رد باردو: نحن نعرف كيف يُقطف التفاح، ففى بلادنا، نمتلك أيضًا بستانًا لأشجار التفاح.

بعد ذلك يجب تصنيفها فى سلال وفقًا لألوانها ووضع الثمار الفاسدة والتى بها دود وغير الصالحة أو مجعدة القشرة فى سلال

أخرى تُخصص بعد ذلك لعمل عصير التفاح والكومبوت و"كـــواس" (مشروب كحولى شعبى هناك). تُقلب كل ثمرة مـــن هـــذه الثمـــار، ويُفحص سطحها بالكامل. أحيانًا وأثناء قطفهم للتفاح كـــانوا يجـــدون مجموعة من الخنافس تعشش فى تجويف جذع الشجرة، وقد تخدرت أطرافها إلى حد ما بسبب اقتراب الطقس البارد. كانوا ينفخون عليها كى يجبروها على التحليق مبتعدة، فهذه الحشرات اللطيفة كانت، كما عهدها باردو منذ طفولته، ترافق العذراء القديسة مريم فـــى لهوهـــا. وكانوا يرسلون أفضل ثمار المحاصيل إلى السوق لتُباع هناك. أمـــا المتوسطة الجودة منها فيُبقونها على فرشة من القش داخـــل مخـــزن مخصص حتى فصل الربيع التالى.

أثناء عملية القطف، كثيرًا ما كانت يد أميديه تلتقى بيد لـــويز فكانا يتحسسان بعضهما البعض ويتداخلان معًا. ولكن الأمر لم يكـــن يتعدى المداعبة، مثل لعبة "اليد الساخنة". إذا ما سعى أميديه أن تلتقى عيناه بعينى لويز، كان يراها تهز رأسها نفيًا ببطء، مع ابتسامة خفيفة تعنى بها: "مستحيل، مستحيل". حاول أن يبوح برسالة ســـرية إلـــى الخنافس ومع ذلك لم يتغير شىء.

مع قدوم فصل الشتاء الروسى، غطت الثلوج كل شىء لتحوله إلى اللون الأبيض، ليضىء الليل بوميضه الفوسفورى الرقيـــق. فـــى كل صباح، كان الأمير يقوم بقياس درجة الحرارة بـــالترمومتر مـــن

ماركة "رياومور" المثبت فى الحديقة. ولكن بالطبع كانت هناك علامات أخرى يمكن من خلالها قياس درجة الحرارة. ماذا إذا ما نتج بخار من جراء التنفس؟ معناه أن درجة الحرارة أقل من سبع درجات. ماذا لو التصقت الأصابع الرطبة على مقابض الأبواب؟ معناه أن درجة الحرارة تعادل ست درجات تحت الصفر. ماذا لو شعرنا داخل الأنف بالإبر الثلجية؟ معناه أن درجة الحرارة تعادل خمس عشرة درجة تحت الصفر. ماذا لو علت الرموش واللحية قشرة من الصقيع؟ إذن فالقياس يكون عشرين درجة تحت الصفر. أما إذا تبلور بخر التنفس؟ معناه ثلاثين تحت الصفر. لقد حان إذاً الوقت لارتداء الأحذية ذات الرقبة المحشوة، والسترات المبطنة بفراء الغنم. تجمدت الترع والأنهار حتى أمكن التزحلق على أسطحها بأحذية ذات نعل حديدى.

جاء موعد عيد الميلاد (السابع من شهر يناير حسب التقويم الفرنسى) فتم الاحتفال به بصورة رائعة ولكن بدون إقامة قداس منتصف الليل مثلما يحدث فى فرنسا، فهم يقيمون قداس منتصف الليل فقط فى عشية عيد القيامة. ودون مغارة ترمز لمهد المسيح الذى تحيط به تماثيل الحيوانات الأليفة المصنوعة من الصلصال. والسبب فى ذلك أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت ترفض هذه البدع الطائشة القادمة من الغرب.

لقد كان المصلون يتناولون الخبز والخمر. فيقدم القس لهم رقائق من الخبز غارقة فى النبيذ بملعقة من الفضة. كانت هذه الرقائق أكبر حجمًا وسمكًا من تلك التى تُقدم أثناء القداس فى كنائس فرنسا، كما يُطلق عليها اسم "بروسفور" وهى مصنوعة من خبز عجنته وطهته أرامل البطاركة، ويُطلق عليهن اسم "بروسفورنيا". ففى يوم السادس من شهر يناير يقومون بمباركة المياه. وعلى الرغم من درجة الحرارة السيبيرية القارصة، فإن موكبًا دينيًا توجه إلى ضفاف نهر موسكوفا الذى تجمد سطحه. تم عمل فتحة كبيرة فى الجليد بضربات من العصى الكبيرة. فبارك الأسقف الماء والأسماك، ثم أقام قداسًا جماعيًا فى الهواء الطلق وقرعت جميع الأجراس فارتفع رنينها فى كل مكان.

حضر أفراد أسرة مونييه هذا العرض المدهش: فرأوا رجالاً من مختلف الأعمار يخلعون ملابسهم ثم يلقون بأنفسهم فى هذه الفتحة. بعد أن يبقوا فيها لبضع ثوان، يخرجون منها وقد احمر لون بشرتهم فأصبحوا مثل جراد البحر المسلوق فيهرع إليهم أفراد أسرهم لفرك أجسامهم ولفها بالأغطية ثم يناولونهم زجاجات صغيرة من الفودكا يشربونها على الفور. راح باردو يتساءل: إذا ما حاول الاستحمام هنا، فلابد وأنهم سيُخرجونه من الماء وهو عبارة عن رجل مثلج. هناك مقولة تؤكد ذلك: "الصحة للروسى هى الموت للأجنبى".

تعرف أفراد أسرة مونييه على بطريرك قرية دياكوفو ويُدعى ألكسندر أداموفيتش كازاريفسكى. وكان يعول أسرة مكونة من زوجة وثمانية أبناء، منهم ثلاثة صبيان سلكوا بدورهم المجال الكهنوتى. وعلى الرغم من راتبه الذى يتلقاه من الدولة والقرابين التى يقدمها له الأهالى ورعية الإبرشية، فإنه لم يفلح فى إطعام العشرة الأفواه الموجودة فى أسرته ولا العيش بطريقة كريمة. تتدلى لحيته وشعره الرمادى الأشعث المهمل على ردائه الكهنوتى الأبيض، وهو واسع لدرجة أنه يتسع لرجلين من نفس حجمه. ومع ذلك، كان يبدو بشكل أفضل أثناء طقوس الصلوات التى تُقام فى الكنيسة، حيث كان يرتدى الزى الكهنوتى ذا الشرائط على الجانبين والعباءة الخفيفة، ويرتل النصوص المقدسة باللغة السلافية (سلوفاكيا حاليًا)، كانت جموع المصلين تقدره حيث تعتبره المتحدث باسم الرب.

هكذا اقترب من أفراد أسرة مونييه، ومد لهم يده اليمنى فقبلوها ثلاثتهم، فقال لهم إنه سعيد باستقبال (الألمان- البكم - الغرباء) فى كنيسته. حتى إنه قدم لهم هدية عبارة عن ثلاث أيقونات لتوضع فى الجيب، وأوصاهم أن يحملوها دائمًا أثناء تنقلهم، ثم أضاف وهو يبتسم:

- إذا لم تجلب لكم الخير، فعلى الأقل لن تضركم... وإذا ما سمحتم لى، فسوف أحضر لكم أيقونة أكبر حجمًا لكى تبارك وتحفظ

منزلكم. فى نفس اليوم وكان الأحد، زارهم البطريرك الهزيل فى ملحقهم الأخضر التابع لسكن الخدم خلف قصر الأمير، وهو يحمل لوحة (أيقونة) عليها صورة للقديسة نوتر دام دى فازان. علقها بنفسه على الجدار وهو يؤكد لهم أنه قد رسمها ولوّنها بيده. وعلى سبيل الشكر منهم، دعوه لتناول العشاء معهم. وبعد أن تجرع بشجاعة كأسًا صغيرًا من الفودكا، تشرف باكتشاف الأطباق المطهوة على طريقة منطقة أوفرنى بفرنسا. اعتذر لهم بسبب شهيته الكبيرة والتهامه للطعام، وراح يتحدث عن مصادر دخله المحدودة ذاكرًا العشرة أفواه التى عليه إطعامها. أخذ يُعدد أفراد أسرته واحدًا تلو الآخر: زوجته آن، ابنته الكبرى بولين، أول أبنائه الصبيان إيفان، ابنه الثانى، يورى... إلخ. شيء آخر يقوم به الروس على عكس الفرنسيين: عندما يقوم بعدِّ أفراد أسرته، بدأ بأصابع كفه منبسطة ثم راح يطوى كل إصبع الواحد بعد الآخر بدءًا من إصبع الخنصر.

- ولهذا يجب علىّ أيضًا التقاط كل كسرة خبز تلوح أمامى وأستفيد بها. فكما يقول المثل: "إذا كنت تحب طبق الأومليت (البيض المقلى)، فلا تتردد فى لحس الطاسة".

- نحن أيضًا على هذه الحال فى منطقة أوفرنى بفرنسا.

هكذا ضحكوا جميعًا.

قام الفرنسيون الثلاثة بدعوته مرة أخرى على العشاء، بعد أن قاموا بطبخ وتحمير ديك مخصى يبلغ وزنه أربعة وقيات. ووضعوه فى منتصف الطاولة، أمام أعين "صاحب النحافة" البطريرك الهزيل، التى اتسعت من الدهشة واستثارت رائحته الشهية فتحات أنفه فقال:

- ولكن... ولكن... ألا تعلمون أننا فى منتصف الصيام الكبير لعيد القيامة؟ لذا لا يمكننى أكل اللحوم ولا الزبـــدة ولا البـــيض ولا الجبن.

بدا الإحراج واضحًا على وجوه مضيفيه وقـــال لـــه بـــاردو:
- نرجو المعذرة... فموسم صيام عيد الفصح عندنا فـــى فرنـــسا لا يتوافق تقويمه مع تقويمكم... لابد وأننا قد ارتكبنا خطأ فى التـــاريخ. جذب البابا لحيته مفكرًا بعد أن تعرض لهذا الإغراء الرهيـــب، وراح يتساءل إذا ما كان ينبغى عليه أن يتحول إلى المـــذهب الكـــاثوليكى الغربى بصفة مؤقتة. ثم أغمض عينيه، وأخذ يصلى متوســـلاً إلـــى الرب عز وجل أن يلهمه الصواب، ثم فتحهما من جديـــد. ثـــم راح يرشم الصليب من اليمين إلى اليسار على الديك، ثم أعلن قائلاً:

- أنت من الآن جذر بنجـــر، باســـم الأب والابـــن والـــروح القدس... آمين.

وهكذا، أمكنه أن ينهل من هذه الوليمـــة دون أن يرتكـــب أى معصية بعد أن تحولت إلى خضار؟

(٢٣)

بعد أن قابل باردو مواطنته لويز القادمة من منطقة سافوا على انفراد، حكى لها عن هذا التحول وأعرب لها عن دهشته الشديدة فقالت له:

- كما هى الحال فى فرنسا، فهنا يوجد صنفان من رجال الدين داخل المذهب الأرثوذكسى: أصحاب السلطة العليا من رجال الدين وكبار الأساقفة ثم الأساقفة، وكبار رجال الدين، ثم التصنيف الثانى والأقل أهمية ويتكون من: أصحاب السلطة المتوسطة والبطاركة والشمامسة. ومن يندرجون تحت التصنيف الأول لا يمكنهم الزواج، وتحاك ملابسهم كلها بخيوط الذهب. أما من يندرجون تحت التصنيف الثانى فيجب على كل منهم أن يتزوج، وأن يُطعم أسرة، وأن يُدير مدرسة لتعليم دروس الدين، وأن يرعى المرضى. وجميع من يندرجون تحت هذا التصنيف بؤساء وحالتهم المادية مزرية، ولذا فعليهم أن يمارسوا حرفة يدوية بجانب عملهم حتى يزيدوا من رواتبهم الهزيلة.

- إن هذا يحدث أيضًا فى فرنسا... ولكن هناك على الأقل القساوسة ليس من حقهم الزواج وتكوين أسرة.

- هل تعرف قصة البطريرك ماروبيسكى؟

- كلا... لا أعرفها.

هذا الرجل كان فى نفس الحالة من البؤس التى يعانى منها زميله بابا قرية دياكوفو وربما أكثر. هذا على الرغم من أنه كانت لديه ابنة واحدة هى دونتشيا، ولكن هذه الفتاة كانت لها تطلعات الأميرات. والأكثر من ذلك أنها انخرطت فى علاقة حب مع كاتب المحكمة فيدييف. لقد كان هذا الشاب يعيرها روايات مترجمة من اللغة الفرنسية مما ملأ رأسها بالأوهام. لم يكن رافضًا فى اتخاذها زوجة شرعية له، ولكنه كان يرى أن خطيبته حتمًا لن تُقدم على الزواج منه وهى خالية الوفاض. ولهذا وضع حدًا أدنى لمهره مقداره مئة روبل. من أين عساها أن تجلب هذا المبلغ؟ كان والدها يعمل فى نسج الصنادل من زعف أشجار الزيزفون فى مقابل عشرة كوبيك لكل زوج (يعادل الكوبيك القرش فى روسيا) ويستغرق منه ذلك ثلاثة أيام من العمل. قام الأب بعملية حسابية فوجد أن الأمر سيستغرق منه عشر سنوات لكى يجمع المائة روبل.

اجتاحت دونتشيا حالة من اليأس والبكاء وراحت تقول إنها ستموت من الوهن والكآبة، وإنها ستظل حبيسة فى منزل أبيها مثل العصفور فى قفصه.

- إنى أحبك بأقصى ما يمكنه رجل تجاه امرأة. هكذا أقسم لها كاتب المحكمة فيدييف ثم أكمل لها موضحًا: ولكنك تعلمين أن راتبى لن يسمح لى أبدًا أن أعاملك كما تستحقين... ومن هنا تأتى الضرورة القصوى للمهر.

هددت دونشيا والديها بالهروب مع عشيقها إذا لم يعطها أبوها مبلغ المهر المطلوب. وأنها ستغادر هى وهو على نفس الجواد إلى بلاد بعيدة تجهل حتى اسم دولة روسيا على الخريطة. وعندما احتج أبوها مبررًا موقفه بفقره وقلة حيلته، اقترحت عليه قائلة:

- فلنبع إذن بعض الأشياء. فمثلاً بماذا تنفع تلك الحلى النفيسة المتكومة فوق الأيقونات، أو على المذبح وفى كل الكنيسة؟ تلك الأجراس الذهبية والشمعدانات الفضية، وقبعة الفضة المطلية بالذهب الموجودة على رأس صورة القديس باسيل؟

- ماذا تقولين؟! ألا يكفيك أنك تريدين أن تُفلسى أباك وأمك! بل تريدى أيضًا أن تنهبى الله والقديسين! يا لك من فتاة جائرة! سوف أقوم بالإجراءات الضرورية كى تمضى باقى حياتك سجينة فى دير الراهبات!

وبينما كان البطريرك - صانع الصنادل - يهدر غضبًا من جراء هذا الحوار مع ابنته، جاءه أحد الزبائن يدق على باب منزله.

كان أحد المزارعين الروس الفقراء الذى تتأهب زوجته وتُدعى أناستازيا لتضع أول مولود لهما. طلب من البطريرك بتواضع شديد وهو يمسك بغطاء رأسه فى يده، أن يأتى معه إلى منزله كى يبارك الطفل لحظة ولادته، ويؤكد أنه سيقوم بدفع اللازم فى حدود إمكانياته.

ولكن البطريرك، فى ذلك المساء بالتحديد، كان مزاجه عكرًا ولا يسمح له بالخروج، حيث أنهكته صراعاته الأسرية. ولكن المزارع أصر على موقفه فحاول البطريرك إرضاءه بأقل التكاليف مقترحًا عليه الترتيب التالى:

- مد لى بغطاء رأسك وافتحه عن آخره ولسوف أملأه لك بالتبريكات. عليك أن تحمله عائدًا ولتحرص أشد الحرص ألا ينقلب منك على الجهة الأخرى. ما إن تصل إلى منزلك، تقلبه لتنتثر التبريكات فوق زوجتك. لن يكلفك ذلك إلا عشرة كوبيك بدلاً من الروبل الذى أتقاضاه عادةً كأجر.

وافق المزارع وغادر وهو نصف راضٍ، حاملاً معه غطاء رأسه المليء بتبريكات من الدرجة الأولى.

مرت ثلاثة أيام وإذا بالمزارع يعود للبابا من جديد وهو يحمل خبرًا مفجعًا:

- على الرغم من تبريكاتك، فقد ماتت زوجتي أناستازيا أثناء الولادة.

قال البطريرك ماروبيسكي: يا إلهي! إذن فقد جئت لي يومها بعد فوات الأوان... ولهذا لم تُحدث التبريكات أي أثر.

- ومع ذلك فقد دفعت لك عشرة كوبيك ثمنًا لها!

- سوف أقوم بخصمها لك من مصاريف الجنازة. هكذا دار حديث مطولٌ بين الرجلين، فالجنازات تنقسم إلى فئات عديدة: تتوقف مثلاً على نوعية النعش، بزينات من مشدات الورود إما بستائر أو بدون ستائر، بموسيقى أو بدون موسيقى. ولكنهم لم يتمكنوا من التوصل إلى اتفاق. ومن ثم فقد استرد المزارع العشرة كوبيك وقرر تصنيع النعش بنفسه ودفن زوجته وحيدًا في حديقة منزله. هناك ستكون بصحبة البازلاء والخيار والورود والقرنفل، مما سيسمح لها أن تصبر انتظارًا إلى يوم القيامة.

وبدأ حفر القبر بين شجرتين لثمار الكمثرى. غير أنه عندما وصل إلى عمق معين، اصطدمت مجرفته بشيء صلب إلى حد ما. كان هذا الشيء عبارة عن لوح خشبي فجذبه ليجد تحته جرة فأزاح التربة من فوقها وحملها إلى داخل منزله. قلبها على المنضدة فماذا سقط منها؟ كنز! مئات من القطع الذهبية والفضية! ترى من الذي

دفنه فى هذا المكان؟ لا أحد يعلم! ربما أحد اللصوص الذى فكر فى وضع غنيمته فى مكان آمن قبل أن يتم القبض عليه وإعدامه. أو ربما أحد البخلاء الذى أراد تحاشى إغراء الاقتراب منها وبالتالى صرفها. هتف المزارع: "أشكرك يا رب"! إنه لأسعد يوم فى حياتى!".

فكر أولاً كيف يمكن أن تستفيد زوجته المسكينة أناستازيا من هذه الثروة المفاجئة. لابد وأن تُقام لها جنازة فخمة. هكذا جرى عائدًا إلى البطريرك ماروبيسكى، وأعرب له عن خطته الجديدة:

- أريد لزوجتى نعشًا من أجود أنواع الخشب وبه مشدات الورد وستائر، كما تصاحبه الموسيقى وجميع المراسم.

- كيف ذلك؟! قال البابا متفاجئًا: بالأمس لم تكن تريد أى شىء، والآن تريد كل شىء!

- لقد حدثت أشياء يا أبتى.

- أى أشياء؟

بعد قليل من الأسئلة الفضولية والإلحاح، حكى المزارع للبابا عما اكتشفه بين شجرتى الكمثرى. اتفق الرجلان على سعر مراسم دفن فاخرة. عندما عاد البطريرك ماروبيسكى إلى زوجته وابنته، لم يستطع مقاومة أن يحكى لهما عن ضربة الحظ والثروة الهائلة التى

نزلت على المزارع وأصبحت ملكه. ضربت ابنتــه دوتــشيا علـــى جبهتها قائلة:

- ها هى الفرصة وقد جاءت إلينا لتخرجنا من محنتنا! ها هى السماء ترسل لنا المهر اللازم لزفافى! إن هذا المزارع لم يقم بعمـــل أى شيء كى يستحق هذا الكنز. فليس من العيب أبدًا أن تأخذ الكنيسة وراعيها جزءًا من هذا الكنز.

- كيف هذا؟ أتريديننى أن أذهب لأقتل أحد أبناء هذه الإبرشية لكى أستولى على غنيمته؟! كلا... فرغم كل شيء لا تــزال هنـــاك أمور لا يمكن للبطريرك أن يفعلها!

راحت الفتاة تفكر، ثم ضربت على جبهتها مرة ثانية وقالت:

- فلنزج بالشيطان فى الموضوع. إن مزارعينا يثيرون دائمًــا كثيرًا من الحكايات حوله وكأنه قديس الإرهـــاب... فلنـــستغل هـــذه المشاعر: لتتنكر أنت فى زى إبليس وبذلك يمكنك الحصول على كل شيء.

وفعلاً كانت لديهم فروة تــيس فـــى مخـــزن الحطـــب كـــان البطريرك قد ضحى به قبل أسابيع قليلة، وقاموا بوضع لحمـــه فـــى مخزن اللحوم المملحة. عُلقت الفروة على مسمار لتجـــف، وكانـــت مكتملة الشعر والقرون والذيل والحوافر. كانت تفوح برائحـــة نتنـــة،

ولكن المزارع ولا شك لن يلحظ ذلك فهو نفسه نتن. في البداية اعترض البابا على هذا التنكر وهذه المهزلة، ثم رضخ في نهاية الأمر كالمعتاد. هكذا أسرعت زوجته وابنته وتناولتا فروة التيس ليضعاها على ظهره، ثم راحت كل منهنا تعدلها عليه قليلاً خاصة في منطقة الخصر والكتفين حتى أصبح في النهاية الشيطان بعينه. في نفس ذلك المساء، عندما حان منتصف الليل تقريبًا، ذهب البطريرك ماروبيسكي وهو يرتدي فروة التيس إلى منزل المزارع. واستطاع أن يلمح المزارع من خلال النافذة الضيقة وعلى ضوء وهج شمعة، واقفًا بجوار نعش زوجته ومنهمكًا في عمل أكوام من الذهب والفضة. حتى إنه سمعه يضحك بهدوء ويتحدث إلى نفسه قائلاً:

- ها! ها! ها! من يصدق أن كل هذا ملكي! حتى أنا نفسي ما زلت أجد صعوبة في تصديق ذلك!

رد عليه البابا من وراء الباب، بعد أن ضخّم صوته وجعله عميقًا وهادرًا بقدر المستطاع:

- كلا... ألبتة! إن هذا الكنز ملك للشيطان!

فز المزارع في مكانه من المفاجأة، ثم فرك أذنيه وقال لنفسه:

- لقد هُيِّئ لي أني سمعت شيئًا ما... لابد وأنها الريح.

- كلا... إنه الشيطان... ها! ها! ها!

انفتح الباب فجأة فانطفأت الشمعة مع تيار الهواء الداخل، وإذا بالشيطان في شكل التيس يثب حول المنضدة، في حين ارتعب المزارع وانكمش في نهاية الحجرة ملتصقًا بالجدار وهو يحتضن بين ذراعيه الجرة التي ما زال بها نصف الكنز.

- أنت... أنت... لم تدق الباب قبل دخولك! تلعثمت الكلمات على شفتي المزارع من فرط فزعه.

- أنا لا أدق الأبواب أبدًا. فكل بيت من البيوت هو بيتي. إن هذا الكنز ملكي. في يوم من الأيام كنت في عجلة من أمري فدفنته في حديقتك على أن أعود في وقت لاحق لأخذه، وها هي اللحظة قد حانت.

- لقد كنت أعتقد... لقد كنت أعتقد...

- لا تعتقد شيئًا، فالفلاحون لا يفكرون. وعلاوة على ذلك، فهذه الأموال لن تنفعك في شيء. فأنت لا تعول أحدًا عليك إطعامه سوى نفسك، وثمرة قلقاس واحدة في اليوم تكفيك. ليست لديك ابنة عليك أن تزوجها، وأن توفر مهرًا لها، أليس كذلك؟ إنك لرجل محظوظ! في هذه اللحظة بدأت مفاوضة بينهما:

- يُقال إنك تبحث عن الأرواح لتزهقها... ألا يمكنك أن تكتفى بأخذ روحى؟ سأتركها لك عن طيب خاطر إذا ما تركت لى الجــرة.

- هيهات! إن روحك بائسة... هزيلة! بل إنها بخسة الثمن! إن لــدى الكثير من الأرواح المماثلة لروحك، وأود أن أبيعهــا مــن جديــد. فجحيمى امتلأ بالكامل، ولم أعد أعرف أين يمكن أن أحرق الأرواح الجديدة. هيا! كف عن هذا الجدال وأعد لى كنزى.

- بحق اللـــه... خذ... خذ ما هو على المنضدة واتــرك لــى الباقى!

- لا تكفر! وكف عن ذكر اللـــه! أنا أريد كل شيء!

- اترك لى خمسين قطعة فقط!

- كلا

- إذن اترك لى عشرة!

- سوف أترك لك قطعة واحدة فقط، وبهــذا تكــون شخــصًا محظوظًا كونى شيطانًا طيبًا. ها! ها! ها!

فى نهاية هذه المساومة، وضع البطريرك جميع أكوام القطــع المعدنية فى الجرة، وترك على المنضدة قطعة واحدة من فئة خمــسة روبل، ثم غادر متدثرًا بظلام الليل. كان الجليد يتساقط علــى شــكل

رقائق كبيرة، ومع ذلك فقد شعر بحرارة جرة الكنز جاثمة على صدره مثل السخان. هبت الرياح وراحت تصفر فى أذنيه وبدا أمامه الطريق بلا نهاية. أخيرًا وصل إلى منزله فدفع الباب ورفع الجرة بين يديه كما لو كانت قربانًا مقدسًا وهتف قائلاً:

- ها هو ذهب المزارع!

عندما قلب الجرة على المنضدة، راحت زوجته وابنته تتحسسان الكنز، تمسكان بالقطع وتقبلانها وتطلقان صيحات فرح معربتين عن سعادتهما، وقد بدت كل منهما فى خضم نشوتها.

- والآن، قال الأب: خلصونى من هذا الجلد ذى الرائحة النتنة.

سارعت كل منهما تفك عنه الفروة، ولكن كلما جذبتا الوصلات التى تربطه، كلما صاح الرجل متأوهًا وهو يقول:

- آى! آى! أنتما تؤلمانى! لا تجذبا! آى! آى!

- ولكن يجب أن نجذب كى نرفع عنك الجلد.

- آى! آى! إن الألم رهيب! إنه... يسلخنى! إنه يسلخنى! إنى أحترق! أحترق من رأسى حتى قدمى! آى! آى! ما هذا الذى يحدث لى؟!

إن ما حدث له أن جلد التيس قد التصق بجلده. أو بمعنى أدق، أصبح بديلاً لبشرته. ما حدث له أيضًا بعد ذلك بوقت قصير أنه فقد القدرة على الوقوف على قدميه، بل اضطر إلى السقوط على يديه وساقيه مثل ذوات الأربع. وفى نهاية أطرافه، نمت أربعة حوافر منقسمة لتحل محل يديه وقدميه فأصبح فعلاً تيسًا حقيقيًا. وعندما أراد أن يحتج للمرة الأخيرة، لم يتمكن إلا من الصياح ب:

- ماءءء... ماءءء... ماءءء

اختتمت لويز الفرنسية حكايتها وهى تقول:

- ها هو ما يكنه الشعب الروسى من احترام تجاه بطاركته.

(٢٤)

فى ربيع عام ١٧٣٣، تم استدعاء أفراد أسرة مونييه للتوجه إلى نائب البابا فى العاصمة موسكو "للقيام بعمل فى غاية الأهمية"، وهكذا دخلوا مبنى الكرملين من خلال باب "المخلّص". كانت هذه القلعة التى يحدها من الجانبين نهرا موسكوفا ونيجلينايا، عبارة عن مدينة داخل مدينة بما فيها من متاجر ومساكن وقصور. فى الماضى البعيد تعرضت كل هذه المنطقة إلى حريق هائل. فقد رأى الجميع فى العهد السابق، إيفان الثالث – جد إيفان الرهيب – وهو يندس بين رجال الإنقاذ ويحاول تدبر الأمر بالدلو الملىء بالماء والفأس لقطع "الديك الأحمر" أو النار التى راحت تلتهم المنازل. وفوق قمة كل برج كان ينتصب نسر ذو رأسين، رأسٌ متجهة نحو التتار والأخرى نحو الغرب. استمر مبنى الكرملين فى حالة إنشاء ثم هدم ثم أُعيد بناؤه على مدار سنوات.

داخل قلعة الكرملين، رأوا شيئًا مثيرًا للفضول: القيصر بوتشكا، أى إمبراطور المدافع. وهو عبارة عن مدفع هاون يبلغ وزنه ثمانين ألف رطل، كما يبلغ قطره المستدير أربعًا وثلاثين بوصة،

وبسبب ضخامته، لم يطلق أبدًا قذيفة واحدة. تُرك هذا المدفع الهائل وسط الأنقاض مهجورًا، فكان الأطفال يلهون به فرحين فإما يركبون فوقه وكأنه حصان أو يختبئون فى فوهته. لقد قام صاحب السعادة فلاديمير إينوزيكوف باستدعاء أفراد أسرة مونييه عن طريق خطاب وجّهه لهم ففتح أمامهم جميع الأبواب. هكذا استقبلهم فى قصره المسمى "تيريم". لقد كان رجلاً رائعًا، تزين وجهه لحية شقراء ويضع على رأسه قلنسوة أسطوانية الشكل قمتها أعرض من قاعدتها. كما يرتدى درعًا صدريًا عليه الحمل المقدس وصليب من الذهب راحا يتأرجحان قليلاً على صدره. وتكشف ابتسامته عن أسنان بيضاء مثيرة للإعجاب كما كان صوته نابضًا بالحياة. كان يقف إلى جواره مترجم، وبفضله أمكن للمحادثة أن تتم:

- بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لإعلان القديس فلاديمير راعيًا لروسيا، وبموافقة صاحبة الجلالة والعزة القيصرة آنا إيفانوفانا، فقد اقترحت أن نقوم بصهر جرس ذى أبعاد ضخمة جدًا. دعونا نطلق عليه إمبراطور الأجراس أو القيصر كولوكول، كما هو حاصل مع إمبراطور المدافع، القيصر بوتشكا. لقد قدر المصممون المعماريون حتمية بلوغ وزن هذا الجرس، لكى يتجاوز كل الأجراس الموجودة فى العالم، أربعمائة أو خمسمائة ألف رطل.

وأضاف "أيها السادة الفرنسيون: بالطبع لدينا صاهرو أجراس، ولكن الأمير كورابين أبلغنا عن وجودكم بالقرب من أبواب موسكو، وأثنى على جهودكم الرائعة ومهارتكم فى فن صهر الأجراس. إن روسيا ترغب فى استغلال أكبر الفنانين وأفضل الأيدى العاملة فى هذا المجال. لقد أخبرنا أيضًا بأعمالكم فى العديد من الإبرشيات فى أنحاء متفرقة من روسيا. ولكى نقوم بعمل جرس بهذه الضخامة، سوف يلزمنا العديد من الأيدى العاملة والعديد من الرءوس المفكرة. وبناء على توصية الأمير، فقد قبلنا تعيينكم لدينا فى هذا العمل، حيث إن كل شخص له خبرة يمكنه أن ينقلها وأن يعلم شيئًا لزملائه".

تحددت بعد ذلك شروط تعيينهم: فهم سيقيمون ويأكلون داخل مبنى الكرملين طوال الفترة المحددة لصنع الجرس، والتى قُدرت بحوالى عام، وسيحصل كل من ثلاثتهم على راتب قيمته اثنا روبل لكل يوم عمل. بعد حسبة بسيطة، رأوا أن المبلغ الإجمالى الذى سيعود عليهم بعد أن ينتهى المشروع: ما يعادل ستة آلاف جنيه فرنسى.

فكر أفراد أسرة مونييه مليًا فيما عُرض عليهم. بالطبع لم يكن المبلغ ثروة طائلة. سألوا من الذى سيكون مسئولاً عن المشروع:

– سوف تعملون تحت إدارة معلمين متمرسين فى صهر الأجراس من مدينة موسكو، هما الأخان إيفان وميخائيل موتورين.

- إذن، لن نكون إلا أيدى عاملة؟ سأل ثلاثتهم.

- يتقاضى العامل هنا خمسة كوبيك (قروش) وطبقى حساء يوميًا. وفى بعض الأحيان، لا يحصل على شىء سوى طبقى الحساء.

هكذا أخذوا يفكرون مليًا فى هذه الصفقة من كل جوانبها: إنها تمثل لهم عامًا من العمل المضمون، وبالطبع تجربة جديدة سيكتسبونها، فلن يحدث فى يوم من الأيام أن تتاح لهم فرصة العمل فى مثل هذا التصميم العملاق. كما أن استضافة الأمير لهم لن تستمر إلى الأبد. هكذا انتهى بهم الأمر أن وافقوا.

تم استدعاء سكرتير قام بتحرير العقد على ورقة بيضاء وطبَّق بها الأصول المراعاة ثم ترجمها لهم المترجم. ثم رأوا أن عليهم قراءة نص العقد رغم اختلاف اللغة، وهكذا راح كل فرد من أسرة مونييه يمرر عينيه فوق السطور غير المفهومة، ثم أضاف عليها توقيعه. باركهم نائب البابا فور توقيعهم للعقود.

حتى إيواء جواديهما تم التخطيط له... ولكن كومت ودراجون ظلا جوادين فرنسيين من منطقة أوفرنى بشكل عنيد، ورفضا إطاعة الأوامر إلا تلك التى كانت تُملى عليهما باللغة الفرنسية. تم إيواؤهما فى أسطبلات البابا السابق، والذى أقاله القيصر بيير

الأكبر. أما أسيادهما، الفرنسيون الثلاثة من أفراد أسرة مونييه، فقد تمت استضافتهم في إحدى ثكنات الجنود. في كل صباح كانوا يستيقظون على صوت البوق. ثم يتناولون وجباتهم مع الجنود.

في اليوم التالي من وصولهم، تعرفوا إلى الأخوين موتورين: إيفان الصغير وميخائيل الكبير، اللذين كانا يختلفان عن بعضهما البعض اختلافًا شاسعًا. فالأول نحيف ذو شعر غامق وبشرة داكنة وشارب وشعر أشعثان، كما أنه كث الحاجبين. أما الثاني فشعره أحمر، ممتلئ الجسد ومرح الشخصية. بدآ حديثهما مع الفرنسيين أولاً بكلمات الترحيب وتناولا معهم العديد من كئوس الفودكا الصغيرة الممزوجة مع الأعشاب.

أُقيم أول اجتماع عمل بينهم حول مائدة مستديرة مغطاة بالتصاميم والأقواس والبوصلات. جاء الأخوان موتورين برفقة ستة آخرين من المتخصصين. وراحوا يتحدثون جميعًا في نفس الوقت مما جعل مهمة المترجم صعبة للغاية لترجمة الكلمات المختلفة والتي ضاع جزء منها وسط هذه الفوضى. بل يبدو أن الثمانية رجال الروس كانوا ينسون في كثير من الأحيان وجود الفرنسيين وسطهم. وافترقوا بعد ساعتين من المحادثات المستمرة.

في وقت لاحق، اجتمع الأخوان موتورين وأسرة مونييه على انفراد. هنا نجح باردو في طرح بعض الأسئلة البسيطة عليهما:

- فى أى برج سوف ينبغى تعليق الجرس قيصر كولوكول؟

- ليس لدينا بعد بـــرج بالمـــساحة والـــصلابة الكافيـــة كـــى تحتويه... لهذا سنقوم ببناء برج خاص له وبحجم مناسب.

- وأين سيتم بناؤه؟

- إلى جانب كنيسة إيفان الأكبر، أمام كاتدرائية العذراء. فهذه الكنيسة حتى اليوم هى التى تهيمن على ثلاثمائة وخمـــسين كنيـــسة أخرى فى موسكو. إن جرسها هو الذى يعطى إشارة البدء ليلة عيـــد القيامة لتقرع أجراس كل كنائس المدينة. عندما يُعلق جرس القيـــصر كولوكول فهو الذى سيعطى إشارة باسكال (البدء فى القرع).

- وما هى نوعية البرونز التى تخططون لصهر الجرس بها؟

- لدينا مناجم فى منطقـــة الأورال ســـوف تمـــدنا بالنحـــاس والقصدير اللازمين.

- وماذا ستكون مهمتنا نحن، كصاهرى أجـــراس فرنـــسيين؟ بدا الإحراج واضحًا على وجهى الأخوين موتورين، ثم تولى ميخائيل الرد قائلاً:

- سوف تساعدوننا وتقدمون لنا المشورة فى كل مكان نحتاج فيه إلى خبرتكم. أبدًا لن يكون العدد أكثر من اللازم عنـــدما يكـــون العمل ضخمًا. لدينا مثل يقول: "كلما قلبنا الحساء، كلما أعجب القـــط

أكثر". أطلق الاثنان ضحكات رنانة. تحتم على أفراد أسرة مونييه أن يرضوا بهذا التشبيه.

فى وقت لاحق، تعرفوا إلى بارتولوميو راسترلى، وهو فنان إيطالى قادم من منطقة فلورانسا ويعمل فى روسيا منذ سنوات، ويتحدث الفرنسية قليلاً. لقد تم استقدامه هو الآخر للعمل فى بناء جرس القيصر كولوكول فيما يتعلق بتصميم الديكور. كان عليه أن يرسم على جسم الجرس الخارجى القيصر ألكسيس ميخايلوفيتش، والد بيير الأكبر، وهو يمسك الكرة الأرضية فى يده اليسرى والصولجان فى يده اليمنى، وبجواره القيصرة آنا إيفانوفانا وعلى رأسها تاج من الزهور.

سعد راسترلى جدًا وهو الذى يبلغ الستين من عمره، بمقابلة أشخاص من أوربا الغربية، رغم عدم معرفتهم بمنطقة توسكانيا فى إيطاليا بالمرة. ولكن على الأقل فهم يشتركون معه فى نفس الذوق تقريبًا وفى وضوح المنطق، وفى نفس الطريقة التى يعدون بها على الأصابع بدءًا من إصبع الإبهام المنبسط. كما أنهم يكنون نفس الاحترام لسلطة البابا والقديسين غير المعروفين بمدينة موسكو مثل: أنطوان دى بادو الذى يعمل على إيجاد الأشياء المفقودة؛ ويعين كاترين التى تحمى الفتيات اللائى لم يتزوجن بعد؛ وفنسنت صديق الكرامين، وفرانسوا: مخترع نموذج مغارة ميلاد المسيح. تتهد

راسترلى بحزن وهو يقول: لن أرى إيطاليا فى حياتى مرة أخرى. ثم أضاف: حتى أطفالى أنفسهم روس من رءوسهم حتى أخمص أقدامهم.

كان بين الإيطالى القادم من توسكانيا والفرنسيين القادمين من أوفرنى، شعور مشترك بالغربة وألم المنفى. فى ذلك المساء، كتب باردو رسالة إلى قرية فيفيرول منتظرًا من أهله الرد عليها. الواقع أن الرسائل التى أرسلها لهم من قبل لم يكن بها أى بصيص من الأمل، وذلك بسبب عدم التأكد من العنوان الذى يسكنون فيه نظرًا لتنقلهم الكثير فى الفترة الأخيرة. والآن كم ستستغرق هذه الرسالة من الوقت لكى تصل إلى هناك؟ شهرًا؟ شهرين؟ فهى تقبع فى قاع القطار فى عربات البريد التى لا تتجاوز سرعتها مئة وخمسين كيلومترًا فى اليوم. ها هو الثمن الذى يدفعه من يرحل مسافة ألف فرسخ بعيدًا عن أوطانه.

بدأ فريق صناع الأجراس الروس فى عملهم دون أى تسرُّع. وفقط لاحترام شعرهما الأشيب وليس لكونهما فرنسيين، تمت ترقية باردو وجيرمان إلى رتبة مشرفين. وهكذا أصبح تحت تصرفهما ثلاثون عبدًا يعطونهم الأوامر بالإشارات والإيماءات. وفى بعض الأحيان، كان العمال يأبون أن يفهموا هذه الأوامر فيتحتم استدعاء المترجم. أما أميديه، الذى لم يتعد الثالثة والعشرين من عمره، فقد

انخفضت رتبته إلى رتبة أنصاف العبيد، وكان عليه إطاعة أوامر الأخوين موتورين.

كان الأمر الأكثر إلحاحًا هو ضرورة بناء كوخ من الألواح الخشبية حتى يحتمى داخله العبيد من العمال فى الأيام الممطرة، ولكى يتناولوا طعامهم أيضًا. وكانت وجباتهم تتألف من الخبز الجاف وثمار اللفت النيئة. كان المرَّهفين بينهم يشقونها من الوسط ويبشرونها إلى شرائح صغيرة بحد السكين، ثم يفرشون قطع الخبز بهذا المهروس. أما إذا كانت الثمار شديدة الصلابة، فكانوا ينقعونها فى الماء لتليينها. وفى كل مساء، يتلقى كل منهم مبلغ الخمسة كوبيك (قروش) كأجر يومى، ثم يعودون إلى منازلهم أو إلى مأواهم الليلى.

ويُطلق على هؤلاء الرجال (كريبوستنى)، وهم عبيد جاءوا من المناطق الريفية بأمر من أسيادهم لكى يتكسبوا فى المدينة نقودًا كافية لإعتاقهم. ولكن هذه الحسبة كانت تضيع هباء، وبالتالى لا أمل فيها، حيث كانوا يعربدون ليلاً سواء بشرب الخمر فى الحانات أو فى بيوت الدعارة فينفقون بها ما تكسبوه نهارًا. لدرجة أنهم كانوا يعودون فى نهاية الليل إلى بيوتهم بدون أى نقود تُذكر. بل إنهم كانوا غالبًا ما يصابون بمرض معد من تلك الأمراض اللعينة وسرعان ما كانوا ينقلونها إلى زوجاتهم، أما أبناء مونييه الثلاثة فكانوا يتمتعون بميزة مشاركة جنود الخيالة غداءهم فى ثكناتهم.

بعد إقامة الكوخ الخشبى بدأ العبيد فى حفر الأرض بقلعة الكرملين، حيث كانت الأرض ذات طبيعة فخارية كما يرغب الصنّاع. وصل عمق هذه الحفرة إلى حوالى خمسة أمتار. ومع ذلك لم تكن التربة كافية لبناء فرن. لذا تحتم الذهاب لجلب المزيد من الطين من منطقة على مسافة ساعتين ركضًا على الحصان من مدينة موسكو. حيث يتم استخراج الطين من تبة تطل على نهر صغير يُسمى نهر "كلاسميا" والذى كان قد انجرف بالكامل بسبب حمولة الطين والطمى به. لقد كان هذا الفرن المخصص لإنتاج خمسمائة ألف رطل من البرونز ضخمًا إلى درجة أنه يتسع لمنزل ريفى بأكمله، وأيضًا ملحقاته من حظيرة ومرعى الخنازير.

استغرق تجهيز الفرن ستة أشهر بدءًا من تشكيل قوالب الطوب المخصص لبناء جدرانه، ثم تجفيفها فى الشمس، ثم وضعها الواحدة فوق الأخرى، ثم حشوها، ثم تسويتها بواسطة نيران داخلية لمدة ثلاثة أيام متتالية.

وفى كل مساء كان أفراد أسرة مونييه يجتمعون فى غرفتهم الصغيرة، ليتحدثوا بشوق وحنين عن بلادهم ومنطقتهم أوفرنى فيساعدهم ذلك على قتل الوقت ومرور الأيام والأسابيع. كان أميديه يرسم لهم منازل قريتهم فيفيرول وقرية لوباردانج، وذلك بما له من ذاكرة قوية فى الخطوط والأشكال. وكذلك كان يرسم وجوه أحبائهم

من أفراد عائلتهم على أوراق المسودات الخاصة برسم النماذج. بعدها يقوم بتعليق كل تلك الرسومات بمسامير على جدران الغرفة لتشكل إطارًا من الحب. كان كل من ثلاثتهم يتناوب على استرجاع جزءًا من ذاكرته ليحكيها للآخرين. أثار باردو ذكريات جده آن، ووالده فيليستن الذى كان يتمتع بقوة جسمانية هائلة لدرجة أنه فى يوم من الأيام، عندما كان مراهقًا، قام بحمل جميع إخوته وأخواته على ظهره، فى حين راحت أصغرهم سنًا تزقزق كالطائر قائلة:

- وأنا أيضًا! وأنا أيضًا!

فراح يحكى لهم عن جولته التى قام بها فى جميع أنحاء فرنسا. وكيف نال عضوية جماعة الرفاق الكاثوليك وهو يسير على ركبتيه، وكيف تمت تسميته باسم ليڤرادوا. وأخذ يُذكر ابنه بتفاصيل عن طفولته كان أميديه نفسه قد نسيها منذ زمن بعيد:

- عندما كنت طفلاً صغيرًا، لم يكن بإمكانك الخلود إلى النوم إلا إذا قبّلتك فى مهدك. ولهذا كنت أصعد إلى الطابق العلوى وأطبع قبلة على جبهتك وأضع يدك فى راحة يدى. بعد برهة من الوقت، كنت أشعر بها وقد لانت، فأسلمك إلى السيدة العذراء.

ولكن فى بعض الأمسيات، كنت أكتشف أنك قد رحت فى سُبات عميق رغمًا عنك. ولأثبت لك أننى قد صعدت إليك أثناء نومك، كنت أضع على وسادتك، بجوار رأسك ورقة من أوراق

الشجر التى أقتطفها خصيصًا من الحديقة، سواء مــن أوراق شــجرة الليلك الأرجوانى أو أوراق شجرة الكاسى، أو أوراق شجرة الميليــسا ذات عطر الليمون. كنت تجدها فى صباح اليوم التالى عندما تصحو، كدليل على محبتى لك.

ابتسم أميديه وهو يستمع إلى ذكريات تدليله المنسية. بالطبع لم يكن ماضى طفولته يحتوى على أشياء لطيفة فقط:

- فى أكثر من مرة، وأثناء لهوك مع صبيان قرية فيفيــرول، كنت تنهمك للغاية فى اللعب حتى تداهمك آلام البطن فجــأة. فكنــت تعود إلى المنزل وملابسك متسخة تمامًا وتمشى منفرج الساقين، وقد سال على جواربك البراز. وقد قامت خادمتنا "شارلت"، التى كانــت تتولى مهمة نظافتك، بتأليف أغنية لهذه المناسبة:

"ها هو أميديه الصغير وقد تبرز فى سرواله الداخلى

ها هو وقد لوث ملابسه كلها فأصبحت جافة

ينبغى علىّ أن أقوم بتنظيفه".

انفجر ثلاثتهم ضاحكين. ها هو الآن أميديه يبدو بهى الطلعة، ونظيفًا للغاية، كما أنه دائمًا ما يرتدى أزهى حللــه يوم الأحد، ولهذا صعب عليه التصديق بأنه كان قذرًا بهذا الشكل فى طفولته. أما عمه جيرمان، الذى لم يكن لطيفًا بطبيعته، كان ينادى على أميديه من حين

لآخر مطلقاً عليه اسم: أميرديه (وهو معنى يقترب من كلمة براز باللغة الفرنسية).

وعن نفسه، لم تكن لدى جيرمان ذكريات يحكى عنها، كما لو كان الماضى كله قد انمحى من ذاكرته. لهذا كان باردو فى بعض الأمسيات يحاول أن ينعش له ذاكرته فكان يقول له:

- هل نسيت القطة الصغيرة التى كنت تمسكها من ذيلها ثم تغمر رأسها فى الماء وأنت تقول: "لكى أجعلها تشرب"؟. ذات مرة خدشتك بمخالبها فما كان منك إلا أن حاولت أن تلقيها فى النار لولا أننا منعناك عن ذلك.

راح العم جيرمان يضحك على هذا المزاح، معللاً ذلك بعدم الإدراك الكافى لطفولته، ولهذا كانت تصرفاته قاسية فى بعض الأحيان.

تحت نوافذ الثكنات، كانوا يشاهدون الجنود أثناء تدريباتهم تحت قيادة مدربين ألمان. كما أن رتبهم كانت تحمل أسماء ألمانية مثل:

"أوتروفيزير"، "فيلدفيبل"، "فييرويركير". كما رأوهم وهم يقفزون على خيولهم ويطلقون صيحة الحرب قائلين: جيك! جيك! (هيا بنا).

كان من الصعب تخيل أى قوة من قوات الأعداء يمكنها مقاومة هذا الكم الهائل من الشياطين المكتسحة كالانهيار الجليدى.

(٢٥)

فى كنيسة "خلع رداء المسيح" ولأنها كانت أصغر كنيسة من الكرملين، فقد قام الفرنسيون الثلاثة بحضور قداس عيد القيامة بها. يبدأ أسبوع الآلام من يوم أحد السعف السابق لأحد القيامة. وفى قرية فيفيرول، جرت العادة أن يبحث الأهالى عن أغصان صغيرة من فروع أشجار البقس، أما التى يمسكها الأطفال فتكون مزينة بثمار متدلية تصلح للأكل. وكانت كل هذه الخضرة تعطر الجو وتملأ أرجاء الكنيسة برائحة حلوة مسكرة. وفى طريق العودة بعد انتهاء القداس، كانوا يعلقون الصلبان وعليها المسيح مصلوبًا، ومن حولها تلك الأغصان الصغيرة المباركة لكى تبارك المنازل وتحميها من البرق والحرائق. وفى حالة حدوث عاصفة رعدية، كانوا يشعلون أحد هذه الأغصان فى المدفأة. أما فى موسكو، فتحل محل أغصان شجر البقس، أغصان شجر الصفصاف وتزينها زهور صغيرة تشبه ذيول القطط الصغيرة. بعد التبريكات، توضع تلك الأغصان فى المنزل لتزين الأيقونات العائلية.

بدأ عيد القيامة مساء يوم السبت بقداس منتصف الليل. في كنيسة "الخلع"، كان المصلون متكدسين لدرجة صعُب معها التنفس. كانت هذه الحشود الروسية ترشم الصليب باستمرار، ثم يركعون على ركبهم، ثم يقفون، ثم يقبّلون الأيقونات. بعد ذلك تنطلق جوقة من كورال الرجال بالترتيل بصوت هائل رائع أدهش الفرنسيين الثلاثة بشدة حتى إنهم شعروا بأرضية الكنيسة تهتز تحت أقدامهم من فرط قوة الصوت. وقف البابا وراء المذبح وهو يرتدى زى الكاهن لهذه المناسبة[1] والوشاح، وراح يؤدى إيماءات الطقوس، بينما أخذ الشمامسة يلوحون من حوله بمراوح من الفضة. بدت الجموع وكأنها بحيرة من الشموع المتوهجة. وامتزجت رائحة البخور مع الرائحة الرقيقة لدخان الشموع المتصاعدة. وراحت الجموع تهتف بلا توقف (بالروسية):

- يا إلهى ارحمنا!

ثم حان وقت توزيع النبيذ وخبز التناول. ازدادت حماسة الجميع فقد اقتربت اللحظة المهيبة. لقد تخطت الساعة منتصف الليل وذاب الجزء الأكبر من الشموع.

فجأة التفت القسيس إلى الجموع. بدا وكأنه نبى بشعره الطويل ولحيته الرمادية. ورفع ذراعيه نحو السماء وأطلق صيحة عميقة... صيحة فرح:

---

(١) التونية (المراجع).

- المسيح قام!

رددت من ورائه الجموع هاتفة بصوت ضخم هز الكنيسة برمتها:

- بالحقيقة قام!

سمعوا الصيحة الهائلة وهى تشق طريقها عبر باب الكنيسة، وتتمدد لفترة طويلة فى الخارج، من ميدان إلى ميدان ومن شارع إلى شارع:

- لقد قام! لقد قام!

بكى الرجال والنساء من الفرحة بينما وجم الأطفال وقد ارتعبوا من هذه الحماسة المفاجئة وتشبثوا بسيقان أمهاتهم. وفى نفس الوقت، راح الجميع يقبلون بعضهم البعض ثلاث مرات على الفم وعلى الخدين. ومع قبلات وتهانى عيد القيامة هذه، راحوا يتبادلون البيض وقطع الكعك. استمر الشمامسة فى التلويح بمراوحهم حول البابا. ولمعت أرضية الكنيسة من كثرة الشموع الممتزجة بالشحم الحيوانى التى ذابت فوقها. قرعت جميع أجراس الكنائس الثلاثمائة والخمسين بتناغم وبكل قوة.

فى قاعة طعام ثكنات الجنود تم الاحتفال بقيامة المسيح بتناول الخبز والخمر. اتخذ الفرنسيون الثلاثة أماكنهم بين الضباط الروس الذين راحوا يشربون النخب فى صحة أشياء لا حصر لها:

- فى صحة فرنسا! فى صحة الملك لويس الخامس عشر! فى صحة الجيوش الفرنسية! فى صحة الصداقة الفرنسية - الروسية! فى صحة نساء فرنسا! فى صحة جميع النساء! فى صحة القيصر كولوكول! فى صحة الغائبين! فى صحة الحاضرين!

ثم جاء بعد ذلك العديد من المقبلات والوجبات الخفيفة الساخنة والباردة: (الكافيار)، والأنشوجة وعش الغراب وشرائح الرنجة المدخنة وكبد الدجاج والنقانق ولانشون رأس الخنزير "السيرڤيلا" والفجل الأسود والجمبرى. بعدها جاء دور الخنازير الرضيعة ذات الأفواه المفتوحة جزئيًا وبين فكي كلٍّ منها بيضة ملونة. يليها لحم الضأن المقطع إلى أرباع، وكرات اللحم الصغيرة مجهولة النوع، ثم شرائح اللحم البقرى المشوى المحشوة بلحم الخنزير المدخن. كل هذا قُدم على أطباق يفترشها الكرنب والبازلاء والفاصوليا البيضاء. وفى النهاية، "لاباسخا"، وهى كعكة هرمية الشكل مليئة بالفواكة المسكرة.

لم يكن يوم عيد القيامة إلا يومًا لقرع الأجراس، حيث إنه فى ذلك اليوم يحق لكل فرد أن يذهب ويتعلق فى الحبال ويهز القارع الموجود داخل الجرس. يتطاير الحمام فزعًا فملأ السماء برفرفة أجنحته البيضاء. ويزور أهالى موسكو بعضهم البعض لتبادل التهانى ويقومون بتهيئة خيولهم فيضفرون ذيولهم بدقة، ويشذِّبون حوافرها ويصبغونها باللون الأسود اللامع، ويضعون على ظهورها السروج

بعد تلميعها بالشمع. وأيضًا عند أبواب المنازل، يقبل الناس بعضهم البعض. وعلى نواصي الشوارع، يقف عازفو الربابة التي تشبه آلة الكمان، ويديرون المانيفلة الموجودة بها لتصدر الموسيقى ليلتف حولهم المارة ويعطوهم بعض الصدقات.

ما إن انتهى وقت الاحتفال بالعيد حتى شرع صاهرو الأجراس في عملهم من جديد. في بعض الأحيان كانت تنشأ بعض الخلافات بين باردو والأخوين موتورين. ولكن باردو كان من الذكاء والحكمة بما فيه الكفاية كي لا يعارضهما هكذا في وجهيهما. كان إذا لاحظ خطأ واضحًا، يعمل على أن يكتشفاه هما بأنفسهما. على عكسه، كان جيرمان، ولكونه نافد الصبر دائمًا، يصرخ موجهًا شتائم بلهجته المحلية. لم يفهم الروس شيئًا من هذا السباب كما عجز المترجم عن ترجمته. فكانوا يكتفون بالضرب على جبينهم ويبتسمون ابتسامة ساخرة.

ومع بداية شهر نوفمبر، كان الفرن الهائل قد انتهى بناؤه. ولم تمنعهم الثلوج التي غطته من إشعال النار الهائلة داخله كي تساعد على تسويته. جذبت الأبخرة المتصاعدة من هذا الوعاء الهائل حشودًا من الأهالي الفضوليين. وبعد ذلك غطوه بالقش ليحموه من الصقيع انتظارًا لعودة فصل الربيع.

ولكى يستفيدوا من هذا الفصل الميت من السنة، راح أفراد أسرة مونييه يتنزهون معًا فى المدينة المقدسة التى غطتها الثلوج. كانت الزلاجات تُحدث على الثلوج نفس الهدير الذى تُحدثه قباقيب الجليد، أو صليل السلاسل، أو رنين الأجراس الصغيرة. فى حى تروبنايا تمنح العاهرات أنفسهن مقابل عشرين كوبيك. وبالنسبة لحى خيتروفكا فيعج بالسكارى والبلطجية. أما الجزء الشرقى من المدينة فيتجمع فيه أصحاب المهن اليدوية والحرفيون. وعلى مرمى البصر، تعلو الأديرة المحصنة. هناك يوزع الرهبان مقدارًا من الحساء على الفقراء والمساكين. ومن هناك يبدأ الطريق الفظيع المؤدى إلى سيبيريا.

خلال فصل الشتاء (١٧٣٤، ١٧٣٥)، أصيب الشاب أميديه بالسعال. ولم يكن هناك أى نوع من التدفئة فى غرفتهم. كان البرد قارصًا حتى إنهم كانوا يجدون فى كل صباح وعاء البول ذا الغطاء الموجود داخل غرفتهم وقد تجمد، بالضبط كما يتجمد سطح نهر موسكوفا. لهذا طالب باردو بآنية كبيرة وموقد ليُستغلا كمدفأة. فجلب لهم الجنود واحدة ووضعوها لهم فى الغرفة مع عمل ثقوب فى الجدار لتخرج الأبخرة منها. ظل الشاب أميديه يرتجف تحت أغطيته فقام أبوه باردو باستخدام وسيلة علاج قديمة مستقدمة من منطقتهم، أوفرنى فى فرنسا، وذلك بدعك صدره وظهره بالفودكا، نظرًا لعدم

توافر ماء الحياة. لم يفارق الأب حافة سرير ابنه الذى راحت أسنانه تصطك ببعضها البعض.

أتى إليهم قسيس الجنود، بزعم أنه طبيب أيضًا، لفحص الابن ومعه مترجم. بعد أن قام بفحصه، هز رأسه بطريقة تعنى: "إنه حالته فعلاً خطيرة". ومع ذلك فقد أخرج من حقيبته قنينة زجاجية صغيرة مليئة بسائل شفاف وعليها ورقة لرمز دينى وقال:

- فلتسقه من هذا الماء أربع مرات فى اليوم، ولتبقه فى الدفء.

- على ماذا يحتوى هذا الماء؟

- إنه الماء المقدس الذى باركه أسقف كنيستنا. فلتضع على صدره، بشكل دائم، صورة العذراء الأيبيرية هذه، فقد اشتُهر عنها شفاؤها للمرضى.

وقام برشم الصليب على المريض، ثم حيَّاهم وغادر المكان. بعد أسبوعين، خبت الحمى وتعافى أميديه.

قبل القيام بصهر الجرس، فكروا أولاً فى بناء برج ليوضع الجرس داخله. فرسم الأخوان موتورين شكلاً يشبه البرج مصنوعًا من القواطيع الخشبية المتداخلة ويبلغ ارتفاعه عشرين ذراعًا، كما يعلو قمته سقف هرمى. سوف يتم رفع القيصر كولوكول بواسطة

مجرى مائل وسوف تجذبه عشرون رافعة متصلة ببعضها البعض. وسوف يبلغ سمك كل كابل من الكابلات التى تجذبه ذراعًا كاملاً.

وعلى الفور، بدأ صناع حبال مدينة موسكو فى العمل. سيستغرق بناء هذا البرج مدة شهر وأربعين نجارًا، وسيكون موازيًا لبرج جرس إيفان العظيم دون أن يتخطى نصف ارتفاعه. تم تثبيت الروافع على الأرض، والتى يبلغ طول كل منها حوالى عشرين قدمًا بدءًا من قاعدتها، ثم تم وضعها الواحدة تلو الأخرى على شكل نصف دائرة. استغرق ذلك شهرًا آخر.

خلال هذه الفترة، كان العمل جاريًا لعمل قالب الجرس داخل حفرة بعمق خمسة عشر قدمًا. وكذلك تم صب نواة الجرس الحجرية والجرس المزيف الذى سيتم كسره فيما بعد. كما جلب الجنود روث الخيول لعجنه وعمل الطبقة الطينية فوق النواة. وقام الفنان الإيطالى بارتولوميو راسترلى بوضع رسومه التزيينية من الشمع والتى تمثل القيصر ألكسيس ميخايلفيتش والقيصرة آنا إيفانوفانا. وعلى الحافة السفلية لكساء الجرس الخارجى، نحت الأخوان موتورين توقيعاتهما. احتدمت بينهما وبين أفراد أسرة مونييه مناقشة ضارية حيث طالب فيها الفرنسيون إدراج أسمائهم هم أيضًا على كساء الجرس البرونزى. رفض الأخوان موتورين وهما يقولان:

- بالنسبة لنا لم تكونوا سوى مشرفين.

- لقد جئنا إلى روسيا بناء على توصية من القيصر بيير الأكبر وسفيره الأمير كورابين. ولقد سعدتم كثيرًا عندما وافقنا على أن نمدكم بخبراتنا.

فى نهاية الأمر، تم قبول توقيع أسرة مونييه على الجرس، باللغة الفرنسية، ولكن بالحروف السيريلية[1]، ومن الداخل حيث لن يتمكن الكثير من الناس من رؤيتها: باردو مونييه، صانع أجراس من فيفيرول.

خلال صيف عام ١٧٣٥، جاءت اللحظة الحاسمة للمشروع. كالمعتاد، تحتم أن يُصهر الجرس على مرة واحدة وفى يوم واحد. تم ملء الفرن بخمسمائة وخمسين ألف رطل من البرونز القديم والنحاس والقصدير. ومن تحته تم إضرام نيران هائلة أشبه بنيران الجحيم. احمرّ لون المعادن ثم تحول إلى الأبيض ثم بدأت فى الانصهار. فى الوقت المناسب، وبعد التشاور مع باردو، أعطى ميخائيل موتورين أمره برفع الغطاء المصنوع من عجينة الصلصال التى تشكل قالب الجرس. انفلت البرونز من محبسه وسال فى المجرى، ليغوص فى

---

(١) نسبة إلى القديس سيريل مخترع تلك الأبجدية ذات العلاقة بالأبجدية السلافية القديمة. (المراجع).

القالب ويملأ الفراغ الذى تركه الجرس المزيف. تصاعد الهواء ومعه الأبخرة من خلال الفتحات المخصصة لذلك. فى أقل من ساعة، كانت عملية الصب قد تم إنجازها. وهكذا ولد القيصر كولوكول فى الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ١٧٣٥، وهو اليوم الموافق ليوم القديس بارتيليمى، مما أسعد بشدة الفنان الإيطالى بارتولوميو راسترلى.

بعد ذلك كان من الضرورى تركه ليبرد ثم بدأوا يدعكونه كما لو كان حصانًا متقطع الأنفاس بعد ركضه لمسافة طويلة. تدخل الفنان الإيطالى مرة أخرى لإزالة الأزيز والبقايا وليضع لمساته الأخيرة من الحلى التى نحتها على سطح الجرس. فقط كان تاج الجرس وقبته هما اللذان يتخطيان فوهة الحفرة الهائلة. ولكن ذلك لم يمنع من تدشينه فى حضور جميع رجال الدين لمدينة موسكو، وكذلك الإمبراطورة وهى فى ذات الوقت أشبينة الجرس، والتى حضرت خصيصًا من مدينة بطرسبرج، وسط احتفالية موسيقية تنشد فيها جميع أجراس المدينة المقدسة. وكان عرض للقبعات والأيقونات والصلبان، حتى كان كل هذا البريق من الذهب والفضة والأحجار الكريمة سببًا فى الإساءة للأعين من فرط وهجها. نزل العبيد الذين قد شاركوا فى مشروع صب الجرس، إلى الحفرة وراحوا يقبلون البرونز الخارجى. عند صعودهم مرة أخرى، حصل كل منهم على جائزة خاصة مقدارها روبل. وأقيمت

وليمة كبيرة فى قصر تيريم تجمع فيها كل أصحاب النفوذ والسلطة. ظل شىء واحد فقط تعين القيام به، وهو ليس بالشىء الهين: يجب تعليق الجرس حول رقبة القط.

تم لف القيصر كولوكول فى عدة طبقات من الجلد، ثم بالحبال. وتحت قيادة ميخائيل موتورين بدأت العشرون رافعة فى الدوران.

هكذا أخذ إمبراطور الأجراس فى التزعزع فى حفرته. ثم بدأ يصعد ببطء وهو يحرث فى طريقه فوهة الحفرة التى بدت وكأنها نصف فتحة. لامس الجرس الألواح الخشبية المغلفة بالشحم الحيوانى للمجرى المائل كى يساعده على الانزلاق. وقفت حشود أهالى موسكو، عن بُعد حيث يمنعهم جنود الجيش من الاقتراب، وقد لجمت هذه المناورات ألسنتهم من الدهشة والإعجاب. وواصل الجرس انزلاقه صعودًا، تجذبه الكابلات العشرون. فزت الغربان مرفرفة من أعشاشها وراحت تنعق فوق القباب البصلية الشكل لكنيسة إيفان العظيم. بعد ثلاث ساعات من الجهود، لم يتعد القيصر كولوكول خلالها إلا نصف المسافة فقط، وبدا وكأنه سلحفاة ضخمة سُحقت تحت درعها الصدفى. وازدادت حماسة الحشود تدريجيًا. وفى بعض الأحيان، كان العشرة آلاف فرد من هذه الحشود يطلقون صيحات كأنهم يودون بها أن يساعدوا الجرس فى حركته قائلين:

"هيا! هيا! ارتفع!".

انتهز بعض النشالين الفرصة ليفرغوا جيوب هذه الحشود الغفيرة. عُلم لاحقًا أن سبعة وسبعين ساعة يد وثماني وأربعين مطواة، واثنتي عشرة مسبحة وثمانية مناديل وثلاثمائة وتسعة وأربعين كيس نقود قد تم سلبها أثناء العرض.

وأخيرًا، وصل الجرس إلى قمة البرج وسط تصفيق حاد من الجماهير. في أعلى قمة البرج، كان أفراد مونييه الثلاثة في انتظاره ومعهم عشرات العبيد وراحوا يعملون على تثبيته في مكانه الصحيح، وتخليصه من الروافع والكابلات، وتعليق القارع داخل جسم ناقوس الجرس.

كانت الشمس على وشك الغروب فيما وراء غابات "كلاين"، عندما قرع صوت القيصر كولوكول المعدني لأول مرة. كانت نبرة الصوت قوية وعميقة، تتردد من حولها مجموعة من النغمات الفرعية. أحدث الرنين الجميل وقعه على الجماهير فتأثروا حتى أعمق أعماقهم. راح الجرس يصدح معربًا عن التقوى المتأججة لدى الشعب الروسي، وعن امتنانه للقديس فلاديمير الذي دشن الجرس، وعن يقينه بقيامة المسيح. علا هتاف الناس وتهليلهم بشكل رائع فارتفع من شدته إلى السماء. وعندما نزل معلقو الجرس من أعلى

برجه، أمسكت بهم الآف الأيدى، وراحت تقذف بهم فى الهـواء ثـم تتلقفهم من جديد على الطريقة الروسية والتى كـان القيـصر بييـر الأكبر يطبقها على باردو وجيرمان عندما كانا طفلين.

وراحت النساء تقبل أيديهم وأطراف ملابسهم. استغل النشالون الفرصة وسرقوا مائة واثنتين وعشرين محفظة أخرى وثمانية عـشر قفلاً، وست عشرة كسارة بندق وعشر مسابح.

(٢٦)

تلقى ثلاثة أفراد أسرة مونييه رواتبهم المستحقة: خمسة آلاف ومائتى روبل عن عامين وخمسة أشهر من العمل، أى ما يعادل خمسة عشر ألف جنيه فرنسى وهو مبلغ أكبر من الذى كانوا يتوقعونه. ذهبوا إلى نائب البابا فلاديمير إينوزكوف ليبدوا له عن مخاوفهم إذا ما قاموا بحمل مثل هذا المبلغ الكبير وقطعوا به مسافة ألف فرسخ، عابرين خلالها خمسة أو ستة بلاد على طرق ينتشر فيها قطاع الطرق. كان الحاكم رجلاً خبيرًا بالشئون المالية، لذا قال لهم وهو يملِّس على لحيته:

– إذن يكفى أن أبدل لكم المبلغ بخطاب اعتماد باسمكم. هناك العديد من البنوك هنا فى موسكو، يمكنها أن تتولى عملية التحويل إلى بنك فرنسى قريب من منطقتكم، نظير رسوم متواضعة. فلتحتفظوا فقط بقليل من النقود تكفى لتغطية تكاليف رحلتكم. هكذا ذهبوا إلى بنك كوميسيو فراتيلى لومبارديك، وعهدوا إليه بنقودهم بالعملة الروسية (روبل). سلمهم مسئولو البنك إيصال ائتمان مكتوبًا باللغة الروسية والفرنسية والإيطالية، وسيكون مدفوعًا بالعملة

الفرنسية فى فرعهم لبنك كوميسى فراتيلى الكائن فى مدينة ليون، شارع لامونييه، بالقرب من رصيف سيليستن. سوف يكلفهم ذلك رسوم تحويل قدرها اثنان فى المائة.

هكذا ودعوا العبيد الذين ساعدوهم فى بناء الجرس، وكذلك ودعوا الجنود والأخوين موتورين. وبعد ذلك ودعوا الأمير كورابين وقبلوا يديه المتصلبتين. وهناك فى القصر، سنحت الفرصة لأميديه أن يرى المعلمة لويز الفرنسية.

حدث ذلك ذات مساء فى ساعة الغسق، تحت أشجار البتولا الموجودة فى حديقة القصر. وكانت لويز جالسة هناك على إحدى الأرائك الحجرية عندما ركع أميديه أمامها على ركبتيه وتجرأ وعرض عليها هذا الاقتراح السافر:

- تعال معى إلى فرنسا ولنتزوج هناك.

هزت لويز رأسها نفيًا وهى تضع إصبعين من أصابعها على شفتيه وكأنها تُسكته ثم قالت:

- انظر لى مليًا... انظر إلى شعرى... لقد بدأ المشيب يدب فيه... عادةً ما تقوم سيدات قصر الأمير كورابين عندما يتقدمن فى السن بتخبئة شعرهن الأشيب تحت باروكات، أو بصبغة قشر الجوز. شعر أميديه بقلبه يعتصر ألمًا وحسرة من أجل هذه الثمرة الجميلة

التى حُكم عليها بالجفاف، بعد أن اقتُطفت وهى فى أوج نضارتها. مالت لويز ناحيته فجأة وأحاطت وجهه بين يديها، وقبّلت شفتيه قبلة طويلة. ولا شك أنها أول قبلة حقيقية لها... والأخيرة... قبلة قوية جدًا... قبلة كما لو كانت بقوة الفودكا. ولكن عندما نهضا من على الأريكة ليعودا إلى القصر، مشيا بوقار وكلٌ منهما يمسك بيد الآخر، كما لو كانا أخًا وأخته.

شق أفراد أسرة مونييه طريقهم على عربتهم التى يجرها الجوادان كومت ودراجون، عائدين إلى فرنسا وذلك فى اليوم الموافق الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ١٧٣٥، الذى يعادل الثامن والعشرين حسب التقويم الغربى. استغرقت رحلة العودة حوالى شهرين ونصف الشهر. حالفهم الحظ فى عبور المستنقعات والغابات البولندية بدون أن تنغرس عربتهم فى الطين. فى الواقع لم يتعرضوا لهجمات منهم إلا ثلاث مرات حيث كان قطاع الطرق يفرون هاربين عندما يشعرون بالطلقات النارية تصوب عليهم. وأحيانا كان حراس نقاط الحدود والجمارك يوقفونهم فيضطرون لرشوتهم ولكن بمبالغ ضئيلة، متظاهرين بأنهم رحالة بؤساء.

حتى وصلوا أخيرًا فى يوم إلى بلدهم المحبوب الذى تتردد فيه كلمة (نعم) بالفرنسية.

مروا فى طريقهم بمدينة ليون، حيث توجهوا إلى مكتب الإخوة الشركاء كوميسيو، وأبرزوا لهم خطاب الاعتماد، فتسلموا مبلغ أربعة عشر ألفًا وسبعمائة جنيه وبعض القروش. فى أسواق بلدة كرابـون يُباع زوج من الثيران بخمسة وسبعين جنيهًا بينما يُباع المنزل بمبلغ يتروواح من ستة آلاف إلى اثنى عشر ألف جنيه حسب مساحته وأهميته. لقد أمن لهم المال الروسى سنوات عديدة من الرخاء. ولكنهم عادوا من روسيا والمجد يملأهم أكثر ما ملأوا جيوبهم بهذه الأموال. ففى كل مرة يرن فيها جرس الكرملين البرونزى: القيصر كولوكول، سينشر فى جميع أنحاء الكون اسم عائلة مونييه، صانعى الأجراس من قرية فيفيرول.

اقتربوا من منطقة أوفرنى مع حلول منتصف شهر يناير ١٧٣٦. كانت الثلوج قد كست الجبال والسهول فتحتم عليهم فى كثير من الأحيان التخلى عن مسار الطريق الملكى، بعد أن غمرتهم قطع الجليد، لاجئين إلى طرق أطول ولكنها أكثر أمانًا وأفضل. شاهدوا بكثير من التأثر أسوار بلدة فوريز وقمة "بيير سيرأوت". تحتم عليهم أن يمروا ببلدة "آندرزيو" حيث عبروا نهر لالوار بين كتل الجليد الطافية، على صندل لنقل الركاب يحركه حبل تقويه طبقة من الزفت وتقيده رافعتان ممسكتان به من على الضفتين. بعد ذلك مروا بكنيسة سان- بونيه لو شاتو ذات البرجين. والتى ما زال الموتى الموجودون

بها يتعذبون وحتمًا لم يقم بزيارتهم أحد، حيث يجب أن يكون ضـــئيل الحجم كى يستطيع المرور من شق الحائط الـضيق. فـــى قـــريتهم، فيفيرول، لم يكن بانتظارهم أى شخص. هكذا وصـــلوا فـــى ســـاعة متأخرة من الليل فلم يسترع وجودهم أحد إلا الكلاب. شم جواداهمـــا كومت ودراجون رائحة أسطبلهما القديم فراحا يركضان بسرعة وهما يجران العربة بعد أن كانا يسيران بهدوء. بل إنهما أخـــذا يـــصهلان بسعادة. "ها هم وقد قاموا برحلة سالمة" وبسبب تأثير فصول الـــشتاء التى قضوها فى روسيا، فقد عاد الجوادان إلى فرنسا وقـــد أصـــبحا ملبدين بالشعر كالدببة.

حتى هم أنفسهم أحسوا بعبق الهواء المحيط بمنطقتهم أوفرنى: الدخان المتصاعد بسبب حرق أشجار التنـــوب ورائحـــة الزرائـــب وحظائر الأغنام النفاذة وحموضة الحليب المتخمر.

عبروا على الجسر المسمى بجسر الحجـــارة. وجـــذبوا حبـــل الجرس الصغير الموجود فى مدخل المنزل. كيف يمكنهم وصف هذه اللحظة؟ كيف يمكنهم أن يصفوا صرخات الفرح التى تعالت ودمـــوع السعادة التى انهمرت واستقبال أفراد عائلتهم لهـــم، حتـــى الكـــلاب والقطط والطيور؟ هكذا وجد باردو وجيرمان زوجتيهما من جديـــد. كان أميديه هو الوحيد الذى شعر بالوحشة والحزن بعـــض الـــشيء حيث احتفظ فى قلبه بذكرى قبلة الفودكا.

أُضيئت جميع مصابيح ومشاعل المنزل واستمر الاحتفال حتى الساعات الأولى من الصباح. لم ينزعج أهالى قرية فيفيرول من الجلبة التى أحدثها الاحتفال، بل جاءهم العديد من الجيران ليهنئوا صانعى أجراسهم على عودتهم الحميدة.

- هل مر كل شيء على ما يرام؟ راحوا يسألونهم مستفسرين.

- بشكل رائع.

- دون حدوث مكروه من أى نوع؟

- لم يحدث شيء خطير.

- هل عملتم بشكل جيد؟

- يمكننا قول ذلك.

- هل ربحتم الكثير من الأموال؟

- يمكننا قول ذلك أيضًا.

كان من دواعى سرور أهالى فيفيرول وابتهاجهم أن يعلموا بأن صانعى الأجراس قد عادوا سالمين، وهكذا راحوا يرددون المثل الشعبى الخاص بمنطقتهم، أوفرنى والذى يقول: تمنِ الخير لجارك، فسيعود عليك ذلك بشيء جيد.

عندما اختلا باردو وزوجته أوفرايزى إلى أنفسهما قبل حلـول الصباح بقليل فى غرفتهما، احتضنت أوفرايزى زوجها بين ذراعيها، كما لو كانا زوجين شابين فى ليلة عرسهما، وبكل سذاجة قالـت لـه متنهدة:

- أرجو أن تسامحنى.

- أسامحك على ماذا؟

- على أننى قد ذبلت خلال السنوات الـثلاث التـى تغيبـت فيها... على أنى لم أعد فرايزى الشابة التى عهدتها... على التجاعيد التى ظهرت فى وجهى... لقد أصبحت عجوزًا بشكل فظيع... هـل تعلم كم عمرى الآن؟

- يا إلهى! نفس عمرى: خمسون عامًا.

- اغفر لى إذن.

- هيا... كفى عن هذا الهراء! ما زلت جميلة كما كنت فى أيامنا الخوالى. ولكن إذا كنت فعلاً بحاجة لتسامحى، فها أنا أعطيك إياه.

- هل النساء الروسيات جميلات؟ كيف تبدو؟

- لا أعرف. فأنت من يشغل تفكيرى. تجرعت كلماته وكأنها تشرب كأسًا من الشمبانيا.

لم يتبق لهم إلا أن يقضوا الشتاء المنصرم فى هدوء وسكينة. ينعمون بالدفء بالقرب من حرارة جمرات المدافئ، فى أحضان بعضهم البعض. ولكن كان عليهم جميعًا أن يحكوا ما حدث طوال الفترة الماضية! بدءًا من مغادرتهم فرنسا وعند منطقة الألزاس الواقعة على الحدود مع ألمانيا، ثم ويرتمبرج، ثم بروسيا (ألمانيا حاليًا)، ثم بولندا، ثم موسكو. والأمير كورابين ورجال الدين ذوى الملابس السوداء ورجال الدين ذوى الملابس البيضاء، ثم الإمبراطورة، ثم الجرس قيصر كولوكول. والمرض الذى لحق بأميديه وكيف شفاه الماء المقدس. ومن ناحية أخرى، ذلك الانتظار الذى بدا بلا نهاية، تقريبًا بدون أى أنباء جديدة وقد راحوا يتساءلون ما إذا كانوا سيعودون يومًا أم لا، وما الحال التى سيكونون عليها. والأحداث التى مر بها أهالى فيفيرول من زواج ومواليد جدد وحوادث ووفيات. ستلزمهم سنوات وسنوات حتى يفرغوا من سرد كل تلك الوقائع.

ملأت عليهم تلك الحكايات أمسياتهم حول المواقد، حيث يقومون بشىّ الكستن كما فى حكاية (القرد والقطة). كانوا يأتون بحبات الكستن من منطقة فيفارى. وقد صاحبت سرد حكاياتهم طقطقة إبر النساء اللائى يحكن الدانتيل. شرح لهم باردو كيف أن العبودية مازالت موجودة فى روسيا، بينما اختفت تقريبًا هنا فى منطقتهم

أوفرنى، وحل محلها استئجار الحقول أو نظام المشاركة بالمزارع الأجير. ولهذا شعروا جميعًا بالغبطة وذاقوا حلاوة كونهم ينتمون إلى مملكة فرنسا الرقيقة.

كلف باردو أحدهم بطباعة منشورات على ورق فاخر من بلدة أمبرت تحمل العنوان التالى:

"باردو مونييه صانع أجراس، قرية فيفيرول. مزود الأجراس لصاحبة الجلالة إمبراطورة روسيا".

وتحت هذه الكلمات، صورة لجرس مرسوم عليه امرأة على رأسها تاج. ثم تحتها قام بتأليف السطور التالية والتى طلب من ماتلن، ابن شقيقه، كتابتها مائة مرة، حيث إنه يمتلك أفضل خط يد على مستوى العائلة:

"يشرفنى أن أقوم بتبليغ جميع إبرشيات وأسقفيات مملكة فرنسا ونافار وغيرها من البلدان الأخرى أننى عدت لتوى من رحلة طويلة استمرت ثلاث سنوات في موسكو، العاصمة الدينية لدولة روسيا، وهناك كلفنى صاحب العزة نائب البابا فلاديمير إينوزكوف ببناء القيصر كولوكول، أكبر جرس فى العالم، حيث يبلغ وزنه أربعمائة وستة وثلاثين ألف رطل (حسب وحدات الوزن الباريسية). ولقد تلقيت مقابل هذا العمل وافر الامتنان وخالص التهانى. وتبعًا لذلك،

فأنا حريص على وضع خبرتى فى خدمة الإبرشـيات والأسـقفيات السالف ذكرها، وذلك لجميع الأعمال من نفس الطبيعة أو ذات طبيعة مشابهة، مثل صهر المدافع أو الأسلحة أو زهر الحديـد المـصبوب والتماثيل والحلى من البرونز والنحاس والحديـد وصـب المعـادن الأخرى. كذلك ترميم الأجراس وأبراجها والتى يتم تنفيـذها حـسب القواعد الفنية. فأنا أنتمى إلى عائلة من صناع الأجراس تحترف هذه المهنة منذ أكثر من ثلاثة قرون".

تم إرسال هذه المنشورات عن طريق البريد العادى إلى جميع مقاطعات المملكة.

قالت فرايزى لباردو وهى تتنهد: أتعشم ألا تأتى لنـا طلبـات التشغيل سريعًا، فقد أتيت لتوك من السفر ولن تغادرنا بهذه السرعة!

توافق يوم القديس چوزيف مع حلول موسم الربيع، الذى جاء فى موعده المحدد، معلنًا قدومه بتغريد طائر الـسنونو، والعـصافير الصداحة والصفراوية، وكذلك تفتحت البراعم وزهور البنفسج. فكـر باردو فى الروس، فلابد وأنهم فى هذه الأثناء ما زالوا منكمشين فـى بيوتهم الخشبية من فرط البرودة القارصة.

وأثناء انتظار طلبات التشغيل، كرس أفراد عائلة مونييه جميع جهودهم ووقتهم للزراعة، بل لم يترددوا عن شمر سواعدهم للعمـل

فى الحقول بأنفسهم. رآهم فلاحو القرية وهـم يقـودون المحـراث، ويقطعون الأشجار يدًا بيد مع عمال اليومية الزراعيين. وحسب مـا أعلمنا به تاريخ المنطقة، فبعد أن تولى القنصل شنشياتوس منـصبه فى مدينة روما، لم تعجبه الحال السياسية هناك، فاستقال وعاد لحراثة حقله فى قريته بإيطاليا.

وها هو الملك لويس الخامس عشر يُبلغ شعبه أنه فى حاجـة إلى جنود للدفاع عن مصالح حماه فى دولة بولندا. لقد تجاهل بـذلك النصائح التى أسداها إليه ملك الشمس (لويس الرابع عشر) وهو على فراش الموت.

لطالما هزأ أهالى قرية فيفيرول من بولندا.

وهكذا طُرحت الملصقات وعُلقت فى كل مكان، تحض جميـع الرجال الذين تقع أعمارهم بين الثامنة عشر والخمسين عامًـا علـى الوجود فى يوم وساعة محددتين فى المبنى العام للبلدة، وذلك لتسجيل أنفسهم. تحتم على اثنين من عائلة مونييه الذهاب إلى هناك: جيرمان، البالغ من العمر تسعة وأربعين عامًا، وابن شقيقه أميديه البـالغ مـن العمر ستة وعشرين عامًا. ترأس السيد بوير ديلاسال، موفـدًا مـن حاكم المنطقة، عملية الفرز وإعلام من وقع عليهم الاختيار:

– سيقع الاختيار على من تبلغ أطوالهم خمـسة أقـدام علـى الأقل، معافِى الأجساد والعقول؛ ومن هم عـزاب أو أرامـل بـدون

أطفال، ومن ليسوا قساوسة ولا صيدليين أو أطباء، أو موظفى فـى مكـاتب البـريد أو فـى مجال الأوراق، أو الموثقين (كُتاب العدل) أو القضاة أو مأمورى الضرائب (المُحضرين) أو من يعولون أسرهم أو يعملون كخدم لا غنى عنهم. ويمكن لأى ممن يقع عليهم الاختيار أن يدفع ضريبة نظير إعفائه أو يقوم بترشيح بديل عنه يدفع له مبلغًا. تم إبعاد خمسين رجلاً من المائة المتقـدمين وكـان مـن ضـمنهم جيرمان. شارك فى فحص المتقدمين أحد ممثلى إبرشية كنيسة سانت مادلين. راح يصف المتقدمين كلاً حسب دوره، لاصقًا إيـاه بحـائط عليه خط يوضح نهاية الخمسة أقدام. تخطوا جميعًا هذا الحد فيما عدا اثنين تم إعفاؤهما. أما الباقون فتم تدوين أسمائهم على سجل.

- ها أنتم وقد تحدد اختياركم، وبالتالى فأنتم قـادرون علـى الخدمة فى الميليشيات الملكية. هكذا قال لهم المـأمور ثـم أضـاف موضحًا: ولكن ليس فى الحال... ستكون أمامكم مهلة شهرين لتجدوا خلالها بديلاً أو عقبة تمنعكم من الخدمة. فإمـا أن تتزوجـوا أو أن تعملوا كخدم لا غنى عنهم، أو أن تعملوا كقساوسة، وإلا فـسأقودكم بنفسى إلى مدينة كليرمونت لإدراجكم فى كشوف المسجلين.

- أنا لست معافى الجسد تمامًا. قال أميديه محتجًا: فقد كـدت أن ألقى حتفى الشتاء الماضى بسبب نوبة سعال ألمت بى.

احتج شاب ثانٍ: أما أنا فأعرج بقدمى اليسرى.

احتج ثالثًا: وأنا فقدت إصبعين مـن أصـابع يـدى اليمنـى.

- سوف يحدد أطباء مدينة كليرمونت بأنفسهم حالة كل منكم وما إذا كان مؤهلاً أم لا.

كان ذلك بمثابة مخاوف جديدة لعائلة مونييه. فقد كانوا يعلمون أن العديد من الرجال الذين يندرجون فى الميليشيات لا يعودون ألبتة، أو يعودون بعاهات. كما أن إيجاد شخص بديل كان شيئًا نادرًا ومكلفًا للغاية. بالنسبة للشاب أميديه، كان أفضل حل له هو الزواج وبسرعة. تحدث إليه والده بهذا الشأن ولكن أميديه ظل مفكـرًا دون إبـداء أى رأى، فهو ما زال مـتأثرًا بتلك الأحاسيس والعلاقة المستحيلة التـى مر بها بقصر الأمير كورابين فى قرية دياكوفو.

- هل سبق أن أثارت فتاة إعجابك؟

- بلى... كلا، كلا.

- إذن فقد حان الوقت أن يحدث لك ذلك.

فى صباح يوم الأحد التالى، وأثنـاء القـداس الكبيـر لقريـة فيفيرول، أمضى أميديه وقته يحملق فى الآنسات اللائى لديهن فرص فى الزواج. وكأنهن تائهات بين جموع المـصلين، تحـت الإضـاءة الخافتة للشموع، ولهذا وجد صعوبة فى النظـر بـشكل جيـد إلـى

مظهرهن وتصرفاتهن. فى لحظة الخروج من الكنيسة، تمكن من تفحصهن بشكل أفضل. اختار منهن أربعًا. بدت اثنتان منهن فى غاية الفقر، ولكن بالطبع ليس أفقر من والدته، ابنة الحانوتى. راحت الثالثة تنظر إليه دون أى تحرج. أما الرابعة، فقد شعرت بأعين تراقبها فأسدلت جفونها، مما منعه من معرفة لون عينيها. فى الواقع أنه انجذب إلى هذه الفتاة بسبب هذا الخجل وبسبب أنفها المدبب الذى يشبه إلى حد ما أنف لويز الفرنسية التى تعمل فى قصر الأمير كورابين.

رآها مرة أخرى يوم الأحد الذى تلاه فأخفضت عينيها من جديد. علم من خلال أصدقاء له أن أمها تعمل طباخة عند الكونت دى بوزول؛ وأنها تُدعى أماندين. "أوه! تقريبًا مثل اسمى" هكذا قال لنفسه: أماندين وأميديه... سنكون معًا زوجين جميلين! مر عليه الأسبوع وهو يتساءل كيف يمكن أن يتحدث معها ويفاتحها فى الموضوع.

فى يوم الأحد الثالث، ذهب إلى القداس وهو يخبئ خلف ظهره باقة من زهور الليلاك. أقام صلاته تفوح من حولها رائحة الزهور. وما إن انتهى القس من الصلاة حتى كان أميديه مع أوائل من خرجوا من الباب وراح ينتظرها تحت مدخل الكنيسة المسقوف. ما إن ظهرت حتى اقترب منها ومد لها يده بباقة الزهور دون أن ينبس

بكلمة واحدة. اضطرت أن ترفع عينيها لكي تشكره على الزهور، فرأى لونهما الأزرق الداكن المائل إلى اللون البنفسجي كلون التوت البري.

لقد لاحظ الجميع هذه اللفتة والتي تعني تصريحًا بالخطوبة. ولكن كان عليها أن تبدي إشارة بالقبول.

ترددت أماندين في البداية وتضرج وجهها باللون الأرجواني حتى خلف أذنيها، وقد شعرت بلهيب في داخلها ومائة تساؤل فضولي تود لو أن تطرحه. لقد كانت تعلم – في قرية فيفيرول – ومن يمكنه تجاهل عائلة مونييه؟ هذا الشاب الشاحب إلى حد ما، والذي لم يرفع عينيه من عليها منذ ثلاث صلوات قداس. أخيرًا ابتسمت له، ودست أنفها المدبب الرقيق في باقة الزهور تتشممها. ظلا واقفين هكذا وجهًا لوجه بينما راحت جموع المصلين تتدفق خروجًا من الكنيسة، فالتفوا من حولهما كما تحيط أمواج النهر بالصخور. عندما لم يتبق أحد منهم بدأ أميديه الحديث معها قائلاً:

– أنا أُدعى أميديه مونييه، في السادسة والعشرين من عمري.

– وأنا أماندين فيليول... في التاسعة عشر من عمري.

– هل تريدين أن تكوني زوجتي؟

– أود بالفعل، إذا ما وافق والدي على ذلك.

بالطبع وافقا. بعد ذلك، سارت الأمور بشكل سريع للغاية، حيث كان يجب تسوية كل شيء فى غضون الفترة المنصوص عليها من قبل المأمور.

هكذا انضمت أسرة جديدة إلى منزل عائلة مونييه المطل على جسر الحجارة.

بعد عدة أسابيع قليلة من حفل الزفاف، جاءت الفرصة للذهاب وإعادة صب جرس كنيسة سان ميشيل فى مدينة ديچون بعد أن أصبح رنينه غير صالح. بدأ باردو وأميديه وجيرمان يستعدون للرحيل. أرادوا أن يأخذوا معهم ماتلن، بن جيرمان، فقد غدا شابًا يافعًا فى السادسة عشر من عمره، مفتول العضلات والأعصاب. ولكنه رفض القيام بهذه الرحلة على الرغم من غضب أبيه، مؤكدًا لهم من جديد شعوره بأنه قد خُلق للعمل فى الحقول، وليس للعمل فى صهر البرونز.

قال لهم:

- لا يجب أن تطلبوا من شجرة التفاح أن تطرح خوخاً. ومن جديد اضطرت والدته بترونى أن تحول بينه وبين أبيه حتى تمنعهما من التشابك بالأيدى.

أذعن أميديه لفكرة تركه لزوجته الجديدة أماندين بصفة مؤقتة. هكذا غادر الرجال الثلاثة على ظهور خيولهم. وشعر جيرمان بقلبه وقد امتلأ بالغل.

(٢٧)

عادوا إلى قريتهم فى شهر أكتوبر وهم محملون بسلال العنب الذى تشتهر به مقاطعة بورجونى. والسبب أنه، وبعد أن انتهوا من مهمتهم فى صهر الجرس، ألح عليهم القائمون على المكان بالبقاء لبضعة أيام للمشاركة فى موسم حصاد العنب. وعلى مشارف قرية فيفيرول، بدأت أوراق قمم أشجار الزان تأخذ لونًا بنيًا وهكذا هبت فى مواجهتهم هذه الرياح الآتية من جنوب البلاد حاملة معها الفطر المتساقط من الأشجار، ولهذا السبب يُطلق عليها رياح الفطر.

وفى خلال فترة غيابهم، لم يُضع أحد من أفراد عائلة مونييه وقته هباء. فقد قاموا بتخزين (القش بالأجران)، وبحصد محاصيل القمح واللفت اللذين تم غرسهما. كذلك نمت ثمار البطاطس وتضخمت تحت أغطيتها. أما أماندين فراحت بدورها تعد كل ما هو لازم لاستقبال أول طفل لها. بدأت رءوس ثمار الكرنب الأبيض تستدير وتأخذ شكلاً مفلطحًا، التفاح مكدس بانتظار المعصرة، وكذلك جفت ثمار القرع وهى معلقة على حواف النوافذ، واحمرّت حبات القنب. وقام ماتلن بجز فراء النعاج وخصى عشرات من ذكور الخراف الشابة.

وكما يحدث عند كل عودة لهم، تعالت صيحات الفرح والعناق وأُريقت المشروبات الكحولية.

ولعدم وجود شيء أفضل يقومون به بعد عودتهم، راحوا يصنعون الأجراس الصغيرة التي تُعلق في رقاب الأغنام أثناء رعيها، ليبيعوها لاحقًا في معارض وأسواق البلدة. كان هذا العمل يسترعي اهتمام ماتلن إلى حد ما بسبب حبه للأغنام، ولهذا وافق أن يتبع أباه إلى ورشة صهر الأجراس في قرية لوباردانج.

ولكن هذا لم يمنع المشادات الكلامية بين الأب وابنه بشكل يومي. فكان جيرمان، الأب، يرمي ابنه ماتلن بتعليقات لاذعة على سبيل المزاح ولكنها لم تكن تُضحك أحدًا:

- ليس هناك شيء أسوأ من الشخص الكسول عندما يشرع في العمل... فعلى رأي المقولة "إن العامل الرديء يشكو دائمًا من الأدوات التي يستخدمها في عمله"... عندما تأخذ كفايتك من الراحة، نادِ عليَّ كي آتي لمساعدتك... فهناك أناس يعيشون على قفا غيرهم.

لم يستطع باردو أن يمنع نفسه من التحدث إلى شقيقه الأصغر بهذا الشأن، فقال له:

- لماذا تعامل هذا الفتى بهذه الطريقة السيئة؟ أليس هو ابنك؟

- لا يتراءى ذلك لي كثيرًا حتى إنني بدأت أشك في ذلك.

- لا تقل هذا الهراء. أنت لست برب عمل جيد. تحدث إليه بشيء من الحنان وسوف ترى كيف ستتغير الأمور إلى الأفضل.

ولكن كما يقول المثل: من الصعب على القنفذ ألا يبرز أشواكه. ولهذا رأى باردو أنه من الأفضل أن يتحدث إلى ابن أخيه بدوره فقال له:

- أنت تشبه أباك كثيرًا من ناحية الشخصية مهما اعتقد هو عكس ذلك. وكما يقول المثل : شيء صلب أمام شيء صلب يصنعان جدارًا سيئًا. فكل منكما سليط اللسان مع الآخر. أنا واثق من أنه يكن لك محبة كبيرة. ولكنك لا تكف عن مضايقته في كل لحظة. لا تنس أنه يتعين عليك طاعته كما تعلمنا في دروس الدين: "أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي منحك الرب إياها. نكس مانلن رأسه إلى أسفل وعض على شفته بندم، ولكنه لم يعد عمه بشيء.

ضرب المنطقة وباءٌ جديد: الجدري. من أصابهم هذا الوباء ولم يموتوا منه، ولكنه ترك على وجوههم آلاف التجاويف الصغيرة، كما لو كانوا قد تلقوا بها شحنة من الطلقات النارية الصغيرة. قام بنوا بوتينا، شقيق أوفرايزي، بدفن عشرات الأشخاص وهو يشعر ببالغ الرضا. لقد بدا وكأنه محصن بمناعة ضد جميع الأمراض:

- ماذا كان سيفعل هؤلاء المرحومون كي يدفنوا أنفسهم، لو حدث ومت أنا نفسي؟ هكذا راح بنوا يتساءل. لهذا بدا بنوا وكأنه شخص محصن لا يموت أبدًا.

نصح الطبيب الوحيد الموجود فى المنطقة، ويُدعى نوريسون، الأهالي بلف مرضاهم فى قطع من القماش المنقوعة فى السائل المستخرج من عشب ذنب الفرس. وعلى الرغم من ادعائه بدراسة الطب فى مدينة مونبلييه، كما كان يبرز شهادته كدكتور عن طيب خاطر إلى جميع الناس، فإن زبائنه كانوا قليلين، ولكي يستطيع العيش اضطر للعمل أيضًا في خصي الخنازير وكذلك في خلع الأسنان. فعادةً ما كان مرضاه يرفضون أن يدفعوا له أجره إلا بعد أن يشفوا. والأكثر من ذلك، أنهم كانوا يتظاهرون في بعض الأحيان بأنهم لم يشفوا تمامًا حتى يتم إعفاؤهم من دفع أجرته. وهكذا كان يضطر أحيانًا لمطاردتهم في الحقول حيث يراهم وهم يحرثون أو يقلِّبون أو يحفرون التربة بالمحراث بهمة فيقول لهذا أو ذاك منهم:

- لا تنس أن تسدد لي أجرتي.

- ما زلت أشعر ببعض الآلام.

- لا يبدو ذلك واضحًا!

استعانت به عائلة مونييه حيث أصابهم الوباء هم أيضًا جميعًا ما عدا أوفرايزى. ولا شك أنها كانت تتمتع هى الأخرى كشقيقها بنوا بحصانة استثنائية. وبالتالى تمت معالجة المرضى منهم بضمادات منقوع ذنب الفرس. واتباعًا لنصيحة باردو، أضافوا إلى الكمادات أيضًا الماء المقدس. وهكذا نجوا من هذا الوباء دون أضرار أخرى سوى بعض العلامات على خدودهم. ثم انقشع الوباء عن البلاد مع بداية عام ١٧٣٨.

وعلى الرغم من أن قرية فيفيرول لم تكن واقعة بالمرة على طريق رئيسى، فإنها شهدت مرور العديد والعديد من أنواع البشر عليها. فقد مر عليها الفقراء ذوو الأقدام التى يعلوها الغبار، والحجاج والمتسولون وجامعو الأقمشة والأدوات القديمة، ومن يقومون بإصلاح أوانى الطهو، وجامعو ثمار القنب، وحائكو الملابس، ومن يقومون بحفر الأراضى، والعرافات، والموسيقيون، والمبشرون بالدين، والهاربون من أحكام بالسجن، وقائدو البغال، والحطابون الذين يستخدمون المناشير، ورعاة قطعان الغنم والمواشى. اتضح أن مملكة فرنسا كانت تتألف من شعب فى حالة حركة دائمة. فها هى جحافل من الرجال تقبل، وكأنهم قطعان من الغنم فى المراعى، يتكسبون رزقهم بأرجلهم.

وكذلك كان هناك الكثير من الأجانب. فالإيطاليون الذين ينطقون الفرنسية بلكنة غريبة، وكذلك السويسريون، أما الإسبان فينطقون بحروف غريبة، وأيضا أهالى منطقة (بو)، وأهالى منطقة ليموج. فى بعض أيام السوق، كانت اللغات تتداخل معًا كما يحدث فى برج بابل.

حضر إلى المنطقة ضابط جيش برتبة رقيب مسئول عن التجنيد. يضع على رأسه قبعة طويلة تحدها الخيوط الفضية ويزيد من هيبته شاربان عظيمان، ويرتدى زيًا أبيض له أزرار صفراء وسروال ضيق يرتسم تمامًا على ساقيه وحذاء كأحذية الفرسان، وعصا فى يده، وصعد على منصة وراح يعرض عليهم صورًا مرسومة لحياة الفارس اليومية الرائعة:

– يمكنكم رؤيته هنا وهو فى ثكنات بلدة مونفيران بالقرب من مدينة كليرمون وعند سفح جبل بووى دى دوم. وحين ينام فى غرفة مع اثنين من رفاقه... وهنا كان يتناول وجبة فى مطعم الثكنات مكونة من حساء ولحم وخضار وجبن وحلوى... وهنا يمكنكم رؤيته وهو يتدرب على المبارزة، وهو يشهر سيفه فى وجه منافسه، وهو يتعلم كل المناورات الرباعية والثلاثية، وكذلك الخدع والهجوم والصد. ها هو يقتحم مدينة الأعداء بعد معركة ساخنة للغاية. "انظروا كيف أصبح محط إعجاب الشعب المهزوم. الجميع معجب

به وخاصة السيدات اللائى يرحبن به مبتسمات، ويلقين عليه الزهور والقبلات. ها هو الآن يتلقى راتبه من قائده: انظروا جيدًا إلى المنضدة وعليها العملات المعدنية بمختلف فئاتها. ها هو الآن وقد أصبح طاعنًا فى السن، يرتدى الجراميق البيضاء (مثل الجوارب من القدم إلى الركبة)، وهو يقيم فى نزل المعاقين وكبار السن، وهو يحكى لأحفاده عن حملاته وفتوحاته... ها هو من جديد".

كانت جموع أهالى قرية فيفيرول تصغى إليه وتطلق صيحات الدهشة والإعجاب من آن لآخر! شمر الرقيب عن ساعده ليريهم الندوب المجيدة وراح يشرح كلاً منها بفخر:

- هذه الندبة، فزت بها فى موقعة فونتنوى... وهذه فى موقعة مالبلاكيه... وهذه الثالثة فى مالوترو... أيها الشباب: من كان منكم يرغب فى الخروج من حظيرتكم هذه، هيا سجلوا أنفسكم فى كتيبة الفرسان التابعة لمقاطعة أوفرنى. سوف يحصل كل منكم على زى جديد تمامًا. بالإضافة إلى خمسة قروش وثمانية ملاليم عن اليوم الواحد فى أوقات السلم، وستة قروش فى أوقات الحرب. عند الترقى إلى رتبة عريف، ستحصلون على ثمانية قروش، وأحد عشر قرشًا عند الترقى لرتبة رقيب. بالإضافة إلى ذلك، وهذا أمر طبيعى، ستحصلون على الغذاء والمأوى. وستنالون أيضًا شرف خدمة الملك، والمشاركة فى انتصاراته بجميع ميادين القتال فى قارة أوربا.

وأشار بطرف عصاه إلى لوحة القماش المرسوم عليها السهول والمدن والجبال. ثم فجأة، ابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان حادة كأسنان الذئب، وقد رفعت خطاطيف شواربه إلى أعلى:

- إذا كان هذا الأجر لا يكفيكم تمامًا، سوف تحصلون أيضًا على غنائم الأعداء. على الجبن من سويسرا وهولندا، وعلى النقانق من بروسيا. بل وأيضًا، إذا ما فهمتمونى جيدًا، على جميلات مقاطعة بيمون (فى إيطاليا) ورائعات ولاية بافاريا (فى ألمانيا)، والإسبانيات المتأججات. ثقوا فى خبرتى... لن تشعروا بالملل!

سأله أحدهم ما الذى ينبغى عمله لكى يتقدم بالانضمام فقال له:

- بكل بساطة أن تؤكد لى فقط أنك قد تخطيت الثامنة عشر عامًا وتوقع لى. إذا كنت لا تعرف الكتابة، فيكفى أن ترشم الصليب. كما أنك لست مجبرًا على إعطائى اسمك الحقيقى. فلتسمِ نفسك كما يحلو لك: لافيولت، لافون، روبيكون أو شانتميرل. ومن الغد، تستطيعون الصعود إلى عربتى وسأقوم بنقلكم بنفسى إلى ثكنات مونفيران. تنتمى الكتيبة إلى الماركيز دى كليرمون تونير، الذى سيقوم باستقبالكم شخصيًا.

فى نفس ذلك اليوم، والذى كان يوافق يوم الأحد، بعد أن حضر جيرمان صلاة المساء فى الكنيسة مستفيدًا بما تبقى من ضوء النهار، ذهب ليمارس الصيد غير المشروع فى غابة الكونت.

لم يستخدم بندقية، فهى واضحة للغاية، وكبيرة الحجم جدًا وتعوق الحركة، وتُحدث ضجيجًا عاليًا، كما أنها كانت مقصورة على النبلاء، ولهذا فقد أخذ معه المسدس فهو يسهل إخفاؤه. إنه نفس المسدس ذى الماسورة المزدوجة الذى سمح له من قبل بالدفاع عن نفسه فى روسيا وبولندا ضد قطاع الطرق والعصابات أثناء سفرهم على الطريق.

وكانت هذه الغابة تُسمى دانسادوس بسبب أسطورة: يُقال إنه فى بعض ليالى الشتاء، يمكن رؤية رقص الجنيات والجان فى ضوء القمر وهى تغنى قائلة:

"تربص هنا، وتربص هناك!

هيا بنا نرقص فالقمر الليلة ساطع!

لف هنا، ولف هناك!

فلنطرح بمؤخراتنا على الأرض".

لم يكن جيرمان قد قابل من قبل تلك الجنيات مع أنه يهوى الصيد ليلاً. ومع ذلك فقد كان يعرف الممرات التى تمشى بها الحيوانات الكبيرة ذات الوزن الثقيل كالخنازير البرية والغزلان والوعل. وراح يتوغل ما بين الأحراش، فهو قادر على الانتظار لساعات حتى يفوز بحيوانه البرى. تجاهل الخنازير البرية فهى

خطيرة للغاية، وكذلك تجاهل الذئاب والثعالب حيث لا قيمة لهـــا إلا فى فرائها، بل كان يأمل فى هذا اليوم بغزالة أو وعل. وعندما يصبح الحيوان فى نطاقه، وقتها لن تفوته طلقة مسدسه. ومباشرة بعد ذلـــك، سينحنى جيرمان مجهزًا عليه ثم يطلق عليه رصاصة الرحمة، حيث إنه ليس من سمات الدين المسيحى ترك أى كائن حى يتألم بـــلا داع. بعدها سيقوم بحمل الحيوان على كتفيه فى جنح الليل. وعلـــى مـــدار الثمانية أيام السابقة، ظل أفراد عائلة مونييه يتناولون ولائم من اللحوم البرية.

لمرات عديدة، عرض جيرمان على ابنه أن يرافقه ولكن ماتلن كان دائمًا ما يرفض. لم يكن رفضه بسبب تقززه من صيد الحيوانات بقدر ما كان متخوفًا من الانفراد بأبيه. فليس هناك بينهما شيء ليقال، بل لا يوجد بينهما حوار مشترك.

لهذا كان جيرمان هناك وحده، ممدًا على بطنه ومسدسه فـــى يده. كانت لديه القدرة على الرؤية فى الظلام مثل القطط. ولكن لسوء الحظ وفى هذا المساء، لم يكن هناك أى حيوان بـــرى، فيمـــا عـــدا الحيوانات الصغيرة مثل الأرانب والقنفذ والنمس، وجميعها لا تستحق البارود الموجود فى الطلقة. سمع بومة وقد راحت تطلق نعيقها:

- هووو - هووو - هووو!

تململ جيرمان من كثرة الانتظار. راح يفكر في حاله فوجد أن لا شيء ألبتة يشعره بالرضا في هذا العالم. لا عمله كصانع أجراس والذي أصبح نادرًا جدًا، ولا في الزراعة التي لا يميل إليها كثيرًا، ولا زوجته بترونى فهي باردة ومشاكسة، ولا في وضعه كأخ أصغر والذي حرمه من أمل أن يكون في يوم ما رب العمل في ورشة صناعة الأجراس. يا للحظ السيئ! هكذا قال لنفسه: أن يكون له ابن واحد مقابل أربع بنات. يبدو أن ذلك قد أصبح تقليدًا لدى عائلة مونييه. وبالإضافة إلى ذلك، فابنه هذا لم يحدث أبدًا أن اتفق معه في أي شيء. "رغم أنه عندما كان طفلاً صغيرًا، كنا متفاهمين للغاية. كنت أحمله على كتفي، ويقودني هو بجذبي من أذنيّ. فما الذي فرق بيننا؟ ولا شك تردده على عائلة روسييه هذه وصداقته الوطيدة بابنهم الأصم الأبكم والذي يعتبره أخًا له. لابد وأن أتولى أمر هؤلاء الشريرين".

غلب النعاس جيرمان فنام ثم استيقظ بعد ذلك بعدة ساعات، رطب الجسد بسبب حبات الندى، وقد تغطى بالدود البزاق والقواقع الصغيرة. نهض ونفضها عن جسمه ثم مشى وسط بهيم الليل حتى وصل إلى قرية فيفيرول مع الخيوط الأولى لضوء الفجر. دخل المنزل فوجد أفراد العائلة وقد التفوا حول مائدة الطعام يتناولون حساء الصباح. بعد أن وضع بندقيته وقبعته على خزانة خشبية، اتخذ مكانه على الأريكة إلى جانب الآخرين، في مواجهة ابنه ماتلن.

- ها أنت! هتفت بترونى قائلة: لقد ظننا أنك قد تُهت فى الطريق!

- هل جلبت صيدًا ثمينًا؟ سأله باردو.

- لا شيء ألبتة... فلم أر حيوانًا أكبر من حجم الأرنب.

بالطبع لم يبح لهم بأنه قد غلبه النعاس ونام تحت الأشجار المتشابكة، ولكن أيًا منهما لم يندهش من هذه العودة فى الصباح الباكر فقد اعتادوا على ذلك. ففى أغلب الأحيان كان يعود من الصيد صفر اليدين. بعد أن امتلأت سلطانيته بالحساء الذى راح الدخان يتصاعد منه، غمر ملعقته بها، بينما كان الآخرون على المائدة قد انتهوا من الحساء وبدأوا يتناولون لحم الخنزير المقدد والجبن الريفى، وساد الصمت فلم يسمعوا إلا أصوات تأجج اللهب داخل المدفأة ودقات عقارب ساعة الحائط.

عندما انتهى جيرمان من تناول الحساء، تناول قارورة النبيذ الموضوعة فى منتصف المنضدة، وصب قليلاً منها فى سلطانيته على طريقة طبق "الشاردو" (سلطانية من النبيذ بها قطع من الخبز) التقليدى للقرية. شربه ثم طرقع بلسانه. راح ابنه ماتلن، الذى يجلس فى مواجهته، يراقبه دون أن يفتح فمه، بل ابتسم فقط ابتسامة خفيفة بجانب شفتيه. نظر جيرمان إليه مباشرة فلم يخفض الشاب عينيه.

- ما الذى يجعلك تبتسم؟

- أنا؟ لا أبتسم... أنا... أنا...

- لدى أخبار جيدة. هكذا قاطعهما باردو ليُبعد العاصفة التى شعر بقدومها: لقد تلقيت رسالة من مدينة بواتيه. إنهم بحاجة لنا هناك. تُسمى الكنيسة الموجودة هناك نوتردام - لاجراند. قال شقيقه جيرمان: بواتيه؟ هل هى بعيدة؟

- ليس أبعد من مدينة ديچون... سيستغرقنا ذلك ثلاثة أشهر من السفر والعمل هناك.

أحكم جيرمان على قبضتيه ووضع كلاً منها داخل الأخرى ثم طقطق مفاصل أصابعها. هذه الإيماءة كانت دائمًا تعرب عن عصبيته المعتادة. ثم وجه كلامه إلى ابنه قائلاً:

- فى هذه المرة سوف أصطحبك معى.

- يمكنك أن تأتى معنا. قال له ابن عمه أميديه بإصرار وأكمل: سوف تكون هذه فرصة لك للتعرف على منطقة جديدة فى البلاد.

ولكن ماتلن هز رأسه نفيًا دون أى تبرير، فضغط جيرمان على فكيه وقال له:

- عندما أقوم بربطك فى حصان العربة مثل قطعة النقانق، وقتها ستأتى معنا.

- لن آتى معكم بالمرة... كلا ثم كلا.

- كيف هذا كلا ثم كلا؟ ماذا كلا ثم كلا؟

- لا داعى للصراخ!

- وهل أنا أصرخ بحق الجحيم؟

- على العكس! أنت تتكلم بهدوء!

- لماذا لا تأتى؟ برر موقفك ولو لمرة واحدة! برر موقفك!

- ليس لدى وقت.

- ليس لديك وقت؟ ماذا تعنى بذلك؟

- هذا يعنى أننى مرتبط.

- مرتبط؟ أين؟ كيف هذا؟

- لقد سجلت نفسى فى كتيبة فرسان مقاطعة أوڤرنى وقمت بالتوقيع على ذلك. وسأرحل غدًا إلى مونفيران.

ساد صمت رهيب كاللحظات الوجيزة التى تفصل ما بين وميض البرق والرعد. ضرب جيرمان بقبضتى يديه على المائدة

بعنف، اهتزت له الأوانى الموجودة عليها. صاحت النساء: آى! آى! هوّنا على أنفسكما! قال جيرمان راعدًا وكأنه لم يسمعهن:

- ها أنت إذن! بينما تزوج ابن عمك هربًا من الميليشيات، ها أنت تتطوع بها عن طيب خاطر! حتى إنك لم تبلغ الثامنة عشر بعد!

- أوه! سأتمها خلال ثلاثة أشهر فقط.

سُمع صوت نحيب: إنها أماندين فيليول تبكى وقد غطت وجهها بين يديها ما إن علمت بأن أميديه قد تزوجها فقط لكى يهرب من الميليشيات. اصطحبتها أوفرايزى إلى خارج الغرفة ومشت فى أعقابهما جميع النساء الموجودات لكى يتركن الرجال يتحدثون فيما بينهم.

صرخ جيرمان: إنك ابن منحرف وعاق! يا لك من ابن حرام! أنت لن تغادر غدًا! سأقوم بحبسك وأغلق عليك الباب بالمفتاح! ولسوف تأتى معنا إلى بواتيه، شئت أم أبيت! فأنا أبوك الذى يأمرك وعليك أن تطيعنى!

- لقد سئمت من وصاياك وطغيانك. واتهامك لى بالكسول الذى يأكل من عرق غيره. ولهذا السبب أدرجت نفسى فى الميليشيات. لقد سئمت من أجراس فيفيرول وأجراس لوباردانج.

ولهذا سأذهب إلى أبعد ما يمكننى ولكن بدونك. فأنا أريد أن أغزو قارة أوربا كلها!

- طغيان. أنا؟ طغيان؟ أوه! ماذا تقول بحق الجحيم!

رفع جيرمان مونييه يده لكى يصفع ابنه على وجهه، ولكى يثبت له ولو لمرة واحدة أنه ليس طاغية. تقهقر الابن إلى الوراء لتفادى الصفعة فنزلت فى الفراغ. جُن جنون جيرمان، فراح يتناول كل ما تقع عليه عينه من أطباق المائدة التى كانت تحوى الخبز والجبن والكمثرى وأخذ يرمى بها ابنه المتمرد. أسرع باردو ناحية أخيه، وظل يهتف قائلاً: "توقف! توقف! وأمسك به ليحاول منعه وأيضًا لينقذ أدوات المائدة التى راحت تتساقط على الأرض. ولكن جيرمان دفع أخاه دفعة عنيفة جعلته يقع متدحرجًا بين قطع الأثاث. وقف باقى الموجودين على بعد وقد شلت الدهشة حركتهم، غير قادرين على التصرف أو إلى من ينحازون.

لم يتبق على مائدة الطعام غير إبريق النبيذ. استغل ماتلن فترة الهدوء الوجيزة هذه، وسارع بتناول إبريق النبيذ وألقى به بدوره، فأصاب أباه فى وسط جبهته. انفجر الإبريق دافقًا بكل ما به على وجه جيرمان فأعمى عينيه، ثم سقط على الأرض متناثرًا إلى ألف قطعة.

نهض جيرمان من على الأريكة وقد اجتاحه غضب عارم وراح يبحث حوله على مقذوفات أخرى. لم يجد على قطعة الأثاث إلا قبعته ومسدس الصيد الخاص به. تناول المسدس بطريقة غريزية، ورفع اللسان الذى يغلقه بإبهامه ثم ضغط على الزناد فخرجت الطلقتان معًا فى نفس الوقت.

دوى صدى الطلقتين فى جميع أرجاء المنزل. ساد الصمت وعلا الدخان ورائحة البارود.

ما زال جيرمان قابضًا بيده اليمنى على المسدس فراودته فكرة أن يوجهه إلى رأسه لينسفها ولكن ذلك كان مستحيلاً: لقد أطلق الرصاصتين الموجودتين به.

عادت النساء صارخات بعد سماع الطلقات. ها هو ماتلن ممدد على بلاط أرضية الغرفة وسط قطع الخبز والجبن، وقد انكمش جسده، وراح صدره ينزف الدم. مال باردو عليه ووضع ثلاثًا من أصابعه تحت ذقنه، ليتفقد نبضه. رفع رأسه ونظر إلى شقيقه الأصغر وقال له:

– لقد مات.

(٢٨)

تعالى العويل والبكاء في المنزل. تخلص جيرمان من أدوات وملابس الصيد الخاصة به. لم يقم بحلاقة ذقنه ولكنه ارتدى أزهى ملابسه: سترته الداكنة اللون الثقيلة وقميصًا ثقيلاً خشنًا، وسرواله وجواربه الحريرية البنية اللون. هكذا بدون أن يضع قبعة على رأسه ولا شعرًا مستعارًا، بل بشعره المكشوف، ذهب لمقابلة الكونت دو بوزول لكي يسلم نفسه إلى العدالة. على بوابة القصر وعند الشباك الخاص بالحرس ظهر حارس شاب بادره قائلاً:

- من أنت؟ وما الذى ترغب به؟

- أنا جيرمان مونييه، صانع أجراس، ومورد لحساب إمبراطورة روسيا. أرغب في التحدث إلى سيادة الكونت.

- سوف أبلغه بذلك.

انغلق الشباك ليظل جيرمان وحده، فراح يتأمل الباب ويعد المسامير ذات الرءوس الماسية المستخدمة في لحامه. كان قد اقترب من المسمار رقم مائة عندما انفتح الباب مواربًا وظهر الحارس الشاب ليقول له:

- تفضل سأقوم بمرافقتك.

عبرا فناء القصر معًا، ثم صعدا درجًا من الجرانيت، بعده مشيا في ممر حتى وصلا إلى باب غرفة كان مفتوحًا بالفعل: هتف الكونت من داخل الغرفة: تفضل بالدخول يا سيد مونييه. لم ينظر جيرمان إلى أي شيء من حوله بل ثبت نظره على سيادة الكونت دي بوزول بباروكته القصيرة وحلية الدانتيل المتدلية على صدره. نهض واقفًا عندما اقترب منه جيرمان لتحيته، وتقهقر الحارس إلى الوراء مثل جراد البحر. لم تكن هذه الموضة الإنجليزية للمصافحة بين الرجال قد انتشرت بعد على نطاق واسع في فرنسا.

حيا كل منهما الآخر بانحناءة من رأسه. ظل جيرمان متصلبًا في مكانه، وقد ضيق على قبضتيه.

- ما سبب زيارتك السعيدة لي يا سيد مونييه؟

- سيدي... لقد جئت إليك هنا لكي تلف بحبل المشنقة حول رقبتي.

- عفوًا؟

- أنا أستحق الإعدام شنقًا. لقد قتلت ليلة أمس ابني ماتلن بطلقتين من مسدسي. فلتأمر بشنقي في أقرب وقت ممكن، من فضلك.

وضع السيد دى بوزول يده على جبهته وقد بدا غير مصدق لما يسمعه. ومع ذلك واصل جيرمان اتهامه لنفسه بعد برهة وجيزة من الصمت:

- كان من الممكن أن أشنق نفسى بنفسى. ولكن أولاً: منعتنى العائلة بأكملها عن ذلك ونصحونى قائلين: "فلتذهب وتسلم نفسك للعدالة". وثانيًا: كان من الممكن أن تصبح جريمة ثانية تُضاف إلى الأولى. ولهذا السبب يا سيدى الكونت، أتيت لأضع نفسى بين يديك.

- ما هذا. ما هذا الذى تقوله لى يا سيد مونييه؟

- الحقيقة العارية يا سيدى الكونت.

- تفضل بالجلوس من فضلك. ولتحك لى. هذا أمر لا يُصدق. رجل مثلك. عائلة مثل عائلتكم. معروفة فى فيفيرول منذ... منذ...

- منذ ثلاثمائة عام يا سيدى الكونت. قبل ذلك كانت عائلتنا تعيش فى الظل.

- يا إلهى! يكاد يكون لديكم نفس سمعة العائلة الطيبة التى لدينا!

لاحظ الكونت دى بوزول وجود بقعة زرقاء على جبهة جيرمان، فسأله عن السبب.

– ليس ذلك بالأمر الهام... لقد خبطت رأسي في حائط منزلي.

– قل لي ما الذي حدث مع ابنك؟

– الذي حدث أن الشيطان ركبني. في صباح أمس كنا ملتفين حول مائدة الطعام، الأسرة بأكملها، نحتسي الشوربة. وقعت مشادة كلامية بيني وبين ابني، فقدت على إثرها أعصابي وملأني الشيطان بالغضب، تناولت مسدسي من على قطعة الأثاث دون تفكير. أطلقت عليه الرصاصتين الموجودتين داخله في نفس الوقت فسقط ابني صريعًا... أنا أستحق الشنق.

– ألم يمنعك أحد؟

– لقد حدث ذلك بسرعة كبيرة! لم أدع متسعًا من الوقت لكي يمنعوني.

نهض السيد دي بوزول من مكانه، وراح يمشي في الغرفة ذهابًا وإيابًا، من نافذة إلى أخرى وهو ينظر إلى الخارج ثم عاد ناحية جيرمان الذي كان جالسًا دون حراك وعيناه مثبتتان. لقد جرت العادة، عندما يُقاد إليه أحد المجرمين، فهو يدافع عن نفسه بمرارة، مؤكدًا أن لا لوم عليه. ولذا كان يتوجب إخضاعه للاستجواب، وأحيانًا يضطرون إلى التضييق على ساقيه في الآلة الخانقة للتعذيب

لكى ينتزعوا منه الاعترافات. أما جيرمان مونييه فكــان مــن نــوع آخر: لقد اعترف بكل شىء على الفور، بل ويطالب باتخــاذ أقــصى عقوبة ضده. هذا شىء لم يره من قبل.

قال الكونت: فلنر. أنت لا تخبرنى بكل شىء... من أجــل أن تُقدم على هذا الشىء الرهيب، فلابد وأن ابنك قد تفوّه بأقوال أو ارتكب أفعالاً بشعة. فما الذى دفعك إلى هذا الغضب الجامح؟ - الشيطان... إنه الشيطان. ظل جيرمان يردد ذلك وهو يهز رأسه نفيًا.

- ما سبب المشاجرة بينكما؟

- لا أتذكر. هذا ليس بالشىء المهم.

راح بوزول يتمشى من جديد ذهابًا وإيابًا وهو يدمدم قائلاً: "لا أفهم... أنا لا أفهم..." هكذا قال وهو يضرب على جانبى ذراعيه.

- لابد إذن من سماع الشهود. واصل الكونت بوزول.

- لا داعى إلى شهود طالما أنى معترف بجريمتى. فليــتم إذن إعدامى وخير البر عاجله.

- هذه أمور تتخطى حدود مهاراتى. يجب أن أقوم بنقلك إلــى مدينة كليرمون، وهناك ستمثل أمام ملازم الشرطة الذى ســيحاكمك. هز جيرمان كتفيه بلا مبالاة: فكل شىء أصبح لديه سواء.

هكذا تم إيداعه فى عربة برفقة حارسين بعد أن تم إعفاؤه من تكبيل معصميه بالكلبشات بما أنه لم يُظهر أى نية للفرار.

لقد كان ملازم العدالة "شاستيلوكس" على وشك تسوية قضية هامة. مثلت أمامه الفتاة جاكيت هوجونين، والتى تعمل كبائعة زهور بعد أن ضُبطت متلبسة تبيع أشياء محظورة. بل الأكثر أنها ممنوعة، وقفت أمامه الشابة الجانية. أحاطها من الجانبين اثنان من مفوضى الشرطة، وهما يمسكان فى أيديهما أداة الاتهام وهى عبارة عن باقات من الزهور الجميلة تربطها حلقة من البوص، وهى من النوع الذى ينمو فى حقول القمح. احمر وجه الفتاة من الخوف والخجل، ونكست رأسها وهى تتساءل عما سيحدث لها وبدت وكأنها على وشك البكاء.

- من أين اقتطفت تلك الزهور؟ سألها ملازم الشرطة بطريقة قاسية.

- هناك حيث... حيث تنمو يا سيدى.

- ماذا يعنى هذا؟

- عند حافة حقل القمح، بالقرب من قرية چيرزا.

- عند الحافة أم داخل حقل القمح؟

- عند الحافة يا سيدى... أقسم بذلك أمام القديسة العذراء.

- سواء كانت عند الحافة أم فى الداخل، ألا تعلمى أنه ممنوع قطف الزهور؟ لقد تلقينا شكاوى عديدة من أصحاب حقول القمح هذه. إنهم يتهمونكم أنتن، بائعات باقات الزهور، بالتغلغل إلى أعماق حقولهم وإلحاق خسائر كبيرة بها. ولهذا السبب فقد اتخذ سيدى المحافظ قانونًا بمنع بيع هذه الزهور فى مدينتنا. ومن يخالف هذا القانون يعاقب بدفع غرامة خمسين جنيهًا. ألم تكونى على علم بذلك؟

- لا أعرف يا سيدى... لا أعرف شيئًا.

قررت جاكيت هوجونين أن تذرف الدمع، فجذبت طرف مريلتها لكى تمسح بها وجهها. إن مبلغ خمسين جنيهًا يعادل قطف وبيع خمسمائة باقة زهور التى تبلغ قيمة الواحدة منها قرشين.

ولكنها ومنذ أن وعت على هذا العالم، فقد باعت بالكاد مائة أو مائتى باقة. فهل أضرت بحقول القمح، وهى التى من فرط نحافتها يمكنها أن تسقط واقعة بين أعواد القمح مثل الفأر؟ لذا راحت تبكى على مدى الظلم والقوانين التى يضعها الناس. فبدلاً من أن تجلب إلى أسرتها بضعة قروش تتكسبها من قطف هذه الباقات، فسوف تتسبب فى إفلاسها. الأكثر من ذلك أنها لم تحسب الوقت الذى كانت تقضيه فى قطف زهور العنب البرى، ولا الألم الذى عانت منه بسبب

أشواك هذه الزهور وأشواك زهور البنفسج التى تنمو عادة بالقرب منها، كما أنها تأتى يوميًا مشيًا على الأقدام من بلدة جيرزا إلى مدينة كليرمونت.

أمام كل هذه الدموع، شعر رجال العدالة الثلاثة بالحرج الشديد. خاصة المفوضين اللذين ما زالا يمسكان باقات الزهور بين أيديهما. فى نهاية الأمر، اتخذ الملازم العام شاستيلوكس قراره وقال لها:

– كم يبلغ عمرك أيتها الفتاة؟

– أربعة عشر عامًا.

– اسمعى جيدًا: إذا ما أرسلت بك إلى المحكمة العليا، سوف تُحسم قضيتك فى لحظة: غرامة خمسين جنيهًا. لهذا السبب، ورفقًا بسنك الصغيرة، سأكتفى اليوم بإنذارك. ولكنك لن تتلقى إنذارًا ثانيًا. ففى المرة الأولى نغفر، ولكن فى الثانية نعاقب. لذلك عدينى بشدة ألا تذهبى مرة أخرى لقطف زهور من حقول القمح. عدينى بشدة وأنت تنظرى لى جيدًا ومباشرة فى عينى.

– سيدى: أنا أعدك بشدة.

– أقسمى بذلك.

– أقسم بذلك أمام القديسة العذراء.

– إذا لم تبق على وعدك، لن يكون أمامك سوى دفع الغرامة. وإذا لم تدفعيها، سوف تذهبين إلى السجن. أفهمت ذلك جيدًا يا جاكيت هوجونين؟

– نعم يا سيدى... لقد فهمت جيدًا.

– إذن لن أقول لك إلى اللقاء.

– كلا يا سيدى... ليس هناك "إلى اللقاء".

قامت بإمساك طرف تنورتها وأحنت ركبتها انحناءة صغيرة لتحيّيه. همت بالمرور من الباب عندما نادى عليها وهو يشير إلى خمس باقات التى مازالت فى أيدى مفوضى الشرطة وقال لها:

– والزهور الخاصة بك؟

– حسنًا... يا سيدى... أنا أهديها لك.

– كلا يا فتاة... أود فعلاً أن آخذها، ولكننى سأدفع ثمنها لك. أعطاها عشرة قروش. قام بوضع الزهور على مكتبه وهو يقول لنفسه: "سأقدمها لمدام شاستيلوكس". ثم قال لنفسه مرة أخرى، وهو يشعر بارتياح لا حدود له: "أنا إنسان طيب... بالفعل طيب جدًا".

أشرق وجهه وكأن مصباحًا داخليًا قد أضاءه. بدا مفوضـــا الـــشرطة الواقفان فى غاية الدهشة بسبب وداعته وسماحته.

عندما أقبل الحارسان الخاصان بالسيد دو بوزول وهما يقودان جيرمان مونييه، أدرك السيد شاستيلوكس أن هذه القضية ليست قضية زهور بالمرة. بشعره المشعث وخديه المسودين بسبب ذقنه التى لــم يحلقها منذ خمسة أيام، وقميصه الــذى امــتلأ بالثنيــات وســرواله المترهل، فهم الملازم أن الرجل الذى اقتادوه إليه ما هــو إلا زعــيم عصابة قطاع طرق. ولكى يقوما بتطبيق اللوائح، فقد كبل الحارسان معصميه بالكلبشات قبل أن يقوداه إلى مكتب الملازم. ها هو الملازم العام، والذى خرج لتوه من المشاعر الرقيقة التى كانت تملأه، يحاول بقدر الإمكان أن يجعل نظرته حادة وباردة وقال:

– ما نوع هذا الرجل الذى تقودانه إلىّ؟ ما تهمته؟

– جريمة عائلية.

– هل قتل أباه؟ أم أمه؟

– كلا يا سيدى، لقد قتل ابنه بطلقتى مسدس. ها هو الــسلاح. قام الحارس بوضع المسدس أمام الملازم. راح شاستيلوكس يتفحص بذعر تلك الأداة ذات المقبض الخشبى المزين بحروف محفورة عليه، وماسورتيها اللامعتين فعن طريقهما تُرتكب أبغض وأبشع الجــرائم.

هذه هى حال مهنة ملازم الشرطة : عليه النظر فى قضايا مثل قضية الزهور، والتى تُعتبر هفوة بسيطة، وبعد ذلك عليه تحمل عبء رؤية مخلوقات ليس بها من صفات الإنسان إلا الشكل والاسم.

- هل أخضعتموه للاستجواب؟

- لا فائدة فى ذلك يا سيدى. لقد اعترف بكل شيء، ويطالب بشنقه.

راح الملازم ينظر إلى القاتل، فاستشف من مظهره أنه شخص ميسور ولكن نظرته صارمة، بل وحشية ووجهه شاحب. بل إنه واحد من هؤلاء الأشخاص الذين يكره المرء أن يلتقى بهم أو يصادفهم ليلاً فى زاوية منعزلة من زوايا الغابة.

- ما اسمك؟

- السيد جيرمان.

- ما مهنتك؟

- صانع أجراس.

- كم عمرك؟

أخذ جيرمان يفكر قبل أن يعلن له قائلاً: كنت سأتم الخمسين من عمرى فى غضون ثلاثة أسابيع.

- كيف ذلك: "كنت ستتم"؟ سوف تتم خمسين عامًا، أليس كذلك؟

- كلا، كنت سأتم.

- ماذا يعنى ذلك؟

- هذا يعنى أننى رجل ميت... أننى أصبحت ميتًا بالفعل... بل لم يعد لى وجود.

زمّ فمه فأحدث ثنايا بدت كما لو كانت ابتسامة هازئة. قال له السيد شاستيلوكس بطريقة جافة: سوف تعيش بما يكفى من الوقت حتى تتلقى عقابك.

- هذا هو كل ما أطلب.

- احك لى كيف حدث ذلك.

- ليس لدى شىء لأقوله.

- انتبه... فلدينا طرق قادرة على جعلك تتحدث!

من جديد هز جيرمان أكتافه باستهزاء. يا لها من قضية غريبة يعترف فيها الجانى بجريمته ويطالب بالعقوبة، ولكنه لا يريد أن يدلى بأى تفسير تحت أى ظرف من الظروف، بل راح يردد دائمًا وقبل أن يسأله أحد عن أى شىء بتبريره الوحيد: الشيطان.

وضعوه فى الحبس الانفرادى.

مرت ثمانية أيام وهو لا يزال يرفض تقديم أى توضيح ومع ذلك فقد كان يقبل الماء والخبز اللذين يُقدمان له كل يوم. نمت لحيته بطلاقة فأصبحت مرعبة وذات لون رمادى.

قال له السجان معربًا عن دهشته: أنت تطلب الإعدام شنقًا. إذن تريد الموت ومع ذلك تتناول الطعام!

- بالضبط... فأنا لا أريد الموت جوعًا أو عطشًا، ولكن أريد الموت شنقًا. أريد أن أشعر بحبل الجلاد وهو يلتف حول رقبتى ليقصفها.

كان يمضى أيامه ممددًا على اللوح الخشبى الموجود فى الزنزانة، وهو عاقد يديه على صدره فى نفس وضع الميت داخل نعشه. هباءً ما حاول الحارس أن ينتزع منه بعض المعلومات حول جريمته.

جاء لزيارته راهب ينتمى لطائفة أوجستين الكاثوليكية، وهو ملحق لخدمة السجون. تحدث إليه بلطف، مقترحًا عليه الإدلاء بالاعتراف الدينى:

احتج جيرمان السجين: أنا لا أستحق أى عفو أو حل من الإثم الذى ارتكبته.

- أنت مخطئ يا بنى، فرحمة اللـــــه واســـعة بـــلا حـــدود وستحصل عليها إذا ما أعربت عن خالص أسفك وندمك على خطئك.

التزم جيرمان بالصمت.

- أنت بالفعل نادم على الجريمة العائلية التى ارتكبتها، ألـــيس كذلك؟

التزم جيرمان بالصمت.

- عليك أن تبذل قليلاً من الجهد يا بنى. ليس مـــن الـــصعب القول، إذا ما تعتقد ذلك فعلاً : يا إلهى... إنى لنادم على جريمتى من كل قلبى...

- يا إلهى... إنى لنادم على جريمتى من كل قلبى.

- وأناشد رحمتك الواسعة.

- وأناشد رحمتك الواسعة.

- آمين.

- آمين.

- حسنًا فعلت يا بنى. والآن حدثنى عن ابنك.

كان ذلك أمرًا صعبًا... فما يُطلب منه كثيـــر. ردد الراهـــب عشر مرات بلطف:

"أخبرنى عن ابنك". ولكن فى نهاية الأمر، تدفقت الكلمات من فمه. فى البداية قطرة قطرة ثم تدفقت كخيط رفيع متصل. شرح لـه جيرمان كيف غاص منهمكًا فى عمله كصانع أجراس حتى إنه انشغل عن ابنه فبالكاد كان يراه وهو يكبر. فهو بالكـاد يتـذكر التفاصـيل الصغيرة لحياتهما معًا. تذكر ذات مرة عندما وقع ابنه ماتلن فخرجت عظام ذراعه فاضطر لتجبيرها عن طريق (الحكيم) الذى يسكن قرية إيجليسول.

اعتاد ابنه فى صغره أن يقضم أظافره. وكعلاج لذلك طلَت له أمه بترونى أطراف أصابعه بصبغة مستخرجة من الصبار تجلبها من الصيدلى. كان من المفترض أن تثير اشمئزازه مرارة هـذه المـادة، ولكن ما حدث هو العكس: لقد استهواه طعم هذه الـصبغة "صـبغة الصبار الداكنة"، فراح يقضم أظافره أكثر من أى وقت مضى. وهكذا بات متمردًا على كل ما يريده أبوه وأمه من صغره. نشأ بعيدًا عـن أجواء الأجراس. كان يريد أن يصبح طبيب حيوانات، وهى مهنـة لا وجود لها. كانت عيناه لا ترى ولا تهتم إلا بالزراعة، وبالتربة التـى تنفتح لتقلب وتُسمد بأطراف المحراث المدببة، وبسنابل القمـح التـى تترعرع ثم تصبح ناضجة، وبتعانق المناجل التـى يحـصدون بهـا المحاصيل، وبجز فراء الأغنام.

قال له الراهب أوجستين: يجب على المرء، أن يقبل الطفل كما يرسله الله له، وليس عليه أن يحاول إعادة تشكيله على الصورة التى يرغبها. ترى ما المشكلة التى كانت بينك وبين ابنك؟

- ليس بالشىء الخطير. ببساطة لم يعرف أىٌّ منا الآخر بشكل جيد، ولكننا كنا سنعرف بعضنا البعض تدريجيًا وعلى نحو أفضل لو لم يكن الشيطان قد اندس بيننا.

اقترح عليه الراهب أوجستين أن يستعين بمحامٍ.

- محامى؟ لماذا؟

- لكى يدافع عن قضيتك. ولكى يجنبك عذابات أنت فى غنى عنها.

- أى عذابات؟

- إن عقوبة من يقتل أحد أفراد أسرته هى قطع اليد. بعد ذلك تُغمى رأسه داخل كيس، ويُقاد إلى مكان شنقه. ثم...

من جديد، هز جيرمان رأسه: فأى عقوبة لن تكون قاسية عليه.

(٢٩)

كانت المحكمة العليا التى مُثل أمامها جيرمان تتألف من سبعة قضاة يرتدون ثيابًا حمراء وغطــاء رأس مربــع الــشكل. وكــانوا يجتمعون فى القصر الذى يُطلق عليه القصر الملكى، على الرغم من أنه لا يستحق كثيرًا هذا اللقب فليس به شىء جميل بخــلاف زهــور الزنبق التى تزين أعلى واجهته. يقع هذا القصر بين الكنيسة الكبيــرة وكنيسة نوتردام دو بور. كان الــضباط الــذين يجتــازون بوابتــه البيضاوية يمرون من تحت تمثال "مينرفا" إلهة الحكمة وهى جميلــة الشكل ولكنها مرتفعة بشكل أكثر من اللازم، كما أنها بعيدة جدًا عــن مرمى البصر. كانت قاعات المحكمة موحشة وباردة وعاريــة مــن قطع الأثاث، كما أن قطع بلاط أرضيتها مفككة: هكذا كانت العدالــة معرضة فى كل لحظة للتعثر. بل كان هناك خطر للتهاوى فى أحــد تلك الكهوف العميقة التى تنزل إلى عدة مستويات، وهى تشكل شبكة معقدة من السراديب تحت الأرض.

كان مبنى السجن يختبئ وراء القصر الملكى، ولكنه متصل بــه من خلال ممرات وسلالم مظلمة. سمع المذنب جيرمان مــن زنزانتــه

صوت رنين جرسين كبيرين معلقين في واجهة أبراج كاتدرائية صعود العذراء، والتي تمنع بشكل غريب سقوط الأمطار عليها. هذان الجرسان كانا يحميان بشكل ما المدينة من العواصف والبرق. سُجلت على ناقوسيهما حروف محفورة تقول: (فلتحفظنا وتنجّينا من البرق والعواصف). كان رنين، أحد الجرسين قاتمًا كئيبًا بينما الثاني هادئ وصافيًا، وكانا يقرعان معًا كما لو إنهما أبًا وابنه. وكان هناك جرس ثالث، أصغر سنًا، يقرع وكأنه يغنى كل ساعة في قمة "لاباييت"[1]، وهو البرج الشمالي، وقد سُمى هكذا فيما مضى حيث كان هناك حارس يصعد إليه ليراقب على مرمى البصر بعيدًا. كان جيرمان مونييه وبحكم مهنته يعرف عن ظهر قلب كل أجراس منطقة أوڤرني.

استجوبه هؤلاء السادة من هيئة المحلفين، فرد عليهم بنفس الرد الذى أدلى به من قبل، معترفًا بجريمته ومطالبًا بتوقيع العقوبة عليه.

- إننا لا نستطيع أن نفرض عليك العقوبة وننطق بالحكم بدون الاستماع إلى شهود الإثبات وشهود النفى. هكذا قالت له هيئة المحكمة: هل كنت وحدك مع ابنك ماتلن عندما ارتكبت جريمتك هذه؟

---

(١) أى المخفر. (المراجع).

- بل كان هناك أخى باردو وأميديه ابن أخى وعمى أنطـوان وأولاد عمى فيليب وليونارد.

وبالتالى تم استدعاء جميع هؤلاء الرجال بينما أُعيد جيرمـان إلى زنزانته، حيث راح يُمضى أوقاته فى التفكير وهو يـشبك يديـه ويستمع إلى أصوات أجراس مدينة كليرمون الأربعـين. كمـا كـان يستمع إلى هديل الحمام الذى كان يأتى إلى حافة نافذة زنزانته. قـام الراهب الأوجستينى بزيارته مرة أخرى وراح يحدثه من جديد عـن رحمة اللـه. وافق جيرمان على الاعتراف الدينى وفقًـا للطقـوس الدينية المتبعة.

- والتكفير عن ذنبى؟

- سوف يسرده القضاة عليك. ليس لـدى مـا أضـيفه بهـذا الشأن... فأنا أسامحك (قالها باللغة اللاتينية).

بل وافق جيرمان أيضًا على (التناول من الخبز المقدس). وبعد أن تركه الراهب، ظل متمددًا لساعات طويلة، وقد شعر بجسد المسيح يدخل إلى جسده، ويذوب فى دمه ويكـافح الـسموم التـى غرسـها الشيطان به.

ذهب أفراد عائلة مونييه الذين تم استدعاؤهم من قبل المحكمة من قرية فيفيرول إلى بلدة أمبرت ليستقلوا عربة الحنطور من هنـاك

إلى مدينة كليرمون. وتشتهر بلدة أمبرت بكنيستها الجميلة سان جان. أما بخلاف هذا فلم يكن من حولها إلا قرية كبيرة قذرة مليئة بالأبقار والخنازير ودخان كثير متصاعد هنا وهناك يصعُب إطفاؤه، بسبب الحرائق التى كان البروتستانت قد أشعلوها فى وقت الحرب ضد الكاثوليك، وهكذا أصبحت أسوار القرية عبارة عن العديد من الأنقاض.

غادرت العربة بهم فى الساعة السادسة صباحًا وأوصلتهم بعد اثنتى عشرة ساعة من الطريق إلى مدينة كليرمونت، ووقفت بهم فى مكان يُطلق عليه ميدان "أن- چود". وهو عبارة عن ساحة كبيرة مستطيلة ومتربة، تزين منتصفه نافورة. وقد وجد به آل مونييه نزلاً ليقيموا به اسمه الـ"إيكو". هطلت الأمطار طوال الليل.

وفى صباح اليوم التالى، توجهوا إلى "القصر الملكى". عند تقاطعات الطرق، وعلى أبواب الكنائس، احتشد المتسولون بعيونه البيضاء التى تتطابق مع البيض المنزوع القشرة، وأطرافهم المبتورة الحمراء مثل النقانق، وجروحهم التى يغطيها الذباب. حاول مجلس المدينة الحد منهم دون جدوى، حتى إنه قام بتعيين موظفين يمسكون بعصى، يُطلق عليهم "صائدى المشاغبين". كان هؤلاء المشاغبون يفرون عند رؤيتهم، ولكنهم كانوا يعودون بعد عدة ساعات لاحقة.

صعد أفراد عائلة مونييه شارع "جرا" وقد سُمى هكذا بسبب السلم ذى الثلاثين درجة الذى ينحدر من الكاتدرائية. وتقع وسط هذه السلالم مصطبة تجلس عليها فلاحات القرى المجاورة فى أيام سوق الطيور، ومعهن بضائعهن من سلال البيض والدجاج. وعند مفترق طرق "الصليب"، لاحظوا وجود فتحة على قارعة الطريق. قِيل لهم إنها تُستخدم لتثبيت المشنقة الخشبية بها فى أيام تنفيذ أحكام الإعدام. فكروا فى قريبهم التعس، الذى ولا شك سيتم إحضاره إلى هذا المكان فى القريب العاجل ليشاهده أهالى مدينة كليرمون.

كانت منازل الفقراء، مثل البيوت الريفية الروسية، مبنية من الخشب والطين. أما منازل الأغنياء فهى مبنية من الحجارة الداكنة اللون، وتُستخدم نفس المادة فى بناء الكنائس وكذلك القصر الملكى، بنوافذها ذات الإطارات المتعددة، والأبواب المنحوت عليها رسومات وشعارات. ساعد الانحدار الموجود فى شارع "جرا" على نظافته شيئًا ما، حيث كان جريان المطر عليه يغسله. وفى المقابل، كان الطين يتراكم فى قاع الشارع مشكلاً كومة يطلق عليها الجميع "المسطردة". لونها ليس أصفر ولا بنيًا ولكنها كانت مثل المسطردة المعروفة فى تلك الفترة، التى يطلقون عليها "بوردو" (أى القادمة من منطقة بوردو). ولا تستطيع بعض السيدات المرور من هذا المكان إلا وهن واضعات منديلاً منقوعًا فى الخل تحت أنوفهن بسبب الروائح الكريهة.

من بعيد لاح جبل بووى دى دوم، وكأنها ظهر ضخم تحت هلالة من السحب.

اجتازوا بوابة "القصر". وقادهم رجل مسلح إلى غرفة خاوية من الأثاث إلا من أريكة فجلسوا عليها وظلوا منتظرين لمدة ساعة كاملة يحرسهم صليب أسود معلق على الحائط. وراحوا يتساءلون إذا ما كانوا أنفسهم مسجونين هم أيضًا. ومع ذلك كان أحد رجال الشرطة يطل عليهم بين الحين والآخر من الفتحة المواربة للباب لكى يطمئنهم قائلاً:

- أنتم ما زلتم هنا... فلتتحلوا بالصبر. سيقوم أعضاء هيئة المحكمة باستقبالكم فى القريب العاجل.

أخيرًا جاءهم كاتب المحكمة وهو يضع ريشة على أذنه وراح يشرح لهم ما سيتم من إجراءات:

- سوف يتم الاستماع إليكم واحدًا تلو الآخر، ولنبدأ بالأكبر سنًا.

هكذا كان العم أنطوان هو أول من تم استدعاؤه. ولكن القضاة لاحظوا أنه ثقيل السمع إلى حد ما وأنه يجب عليهم الصراخ بالقرب من أذنيه، كما أنه لا يرد على الأسئلة بشكل مباشر، بل إن ذاكرته ضعيفة.

- لماذا أتيت للشهادة؟

- لرؤية منطقة جديدة من بلادى.

- ما رأيك فى ابن أخيك جيرمان؟

- إنه لفتى شجاع... يعمل بكد وجدية. هو الذى يقوم بنشر قطع الخشب من أجلى.

- وما رأيك فى ابن ابن أخيك الشاب ماتلن؟

- لقد كان فتى لطيفًا أيضًا... كان يشترى لى التبغ يوميًا.

- كنت موجودًا يوم وقوع المأساة فى الرابع من يونيه ١٧٣٨، أليس كذلك؟

- يبدو أنه كانت هناك مشادة كلامية بين ابن أخى وابنه... لم ألحظ شيئاً غريبًا حتى اللحظة التى بدآ يتقاذفان فيها التفاح كل على وجه الآخر. فى البداية اعتقدت أن الأمر لم يكن يتعدى المزاح.

- ومع ذلك فقد شاهدت بالفعل...

- عفوًا... المعذرة... كانا يتقاذفان الكمثرى وليس التفاح.

- هل فعلاً شاهدت ابن أخيك جيرمان وهو يتناول مسدسه؟

- من جديد اعتقدت أنه يتظاهر فقط بذلك.

- ولكن ابن ابن أخيك قد مات بالفعل.

- للأسف! يا للحسرة!

- ما العقوبة التى يستحقها جيرمان فى رأيك؟

- ماذا؟

- فى رأيك: ما العقوبة التى ينبغى أن نوقعها على جيرمان؟

- الاختيار لكم أيها السادة القضاة، ولكن لا تبقوه لوقت طويل فى السجن، فأنا فى أمس الحاجة إليه لتقطيع أخشابى.

عندما وجد باردو نفسه وحيدًا أمام السبعة قضاة بزيهم الأرجوانى، شعر بفرائصه ترتعد. ضيق قبضة يده مغلقًا بالقبضة الأخرى عليها. بدأ الاستجواب: من أنت؟ كم عمرك؟ ما صلتك بالمتهم؟ ما ظروف وجودك أثناء ارتكاب الجريمة؟ سرد لهم جميع الوقائع بما فى ذلك التحاق ماتلن فى كتيبة فرسان مقاطعة أوفرنى.

- وهل طلب هذا الشاب الإذن من والده قبل الالتحاق فى كتيبة الفرسان؟

- مطلقًا.

- استمر.

حكى لهم كيف استشاط جيرمان غضبًا، وتهديده بحبس ابنه فى غرفة بالمفتاح، وكلمات ابنه له: "أنا سئمت من طغيانك".

- فى رأيك، هل دائمًا ما كـان أخـوك يتـصرف بطريقـة استبدادية تجاه ابنه؟

- فى رأيى... أنه كان يتصرف مثل جميـع الآبـاء الـذين يحملون هَم أسرهم.

- بماذا تسمى هم الأسرة؟

- مصلحة الجميع... سواء كان الابن أم غيـره مـن أفـراد الأسرة، والحفاظ على مهنتنا كصناع أجراس.

- هل كان يضربه؟

- ولا شك ناوله بعض الصفعات وهو صغير جدًا. ولكن بعد ذلك لم يحدث أى شيء. ربما كان يزجره ويخيفه دون الحاجة إلـى ضربه. ومع هذا، ففى ذلك اليوم المشئوم، قام برفع يده علـى ابنـه ولكن الصفعة نزلت فى الفراغ. ثم تناول أخى ما كان موجودًا علـى المنضدة من خبز وجبن وكمثرى وراح يقذفه بها. فقط بالأشياء اللينة التى لا يمكنها أن تسبب أى ضرر يُذكر. ولكن ابن أخـى رد عليـه بقذفه بقارورة النبيذ فأصابه بها فـى منتـصف جبهتـه فانكـسرت وانسكب عليه النبيذ الموجود بها. حينئذ...

غطى باردو عينيه بيده كما لو كان يريـد أن يمـسح بـاقى الأحداث من ذاكرته. كان كاتب المحكمة يدوّن مـا يقولـه بـاردو بطريقة الكتابة المختصرة (الاختزال) فتوقفت ريشته فى الهواء.

- استمر.

- حينئذ، أعمت الضربة والنبيذ والغضب أخي، فتناول مسدسه الذى تصادف وجوده ليس ببعيد عنه، وفى نفس اللحظة أفرغ الطلقتين الموجودتين داخله على ابنه.

- لماذا كان هذا المسدس موجودًا على مقربة منه؟

- فى صباح اليوم نفسه عاد جيرمان من الصيد فى الغابة، فوضعه على قطعة أثاث بعد أن أحكم غلق ماسورتيه.

- وهل أخوك مصرح له بالصيد فى الغابات؟

- نحن عائلة معروفة جدًا فى قرية فيفيرول ولهذا يغض حراس أسياد المنطقة النظر عنا.

- لماذا لم تمنع أخاك، أو على الأقل تحاول تشتيت اتجاه الطلقات؟

- لقد حدث كل شيء بسرعة شديدة كما أننى كنت بعيدًا عنه.

- ماذا فعلتم بعد ذلك؟

- اهتممنا بماتلن وقمنا بنقله إلى سريره ثم استدعينا الطبيب والقس. ولكن كل هذا كان دون جدوى. كان الفتى المسكين قد مات دون حتى أن يدلى باعترافه أمام القس.

اقترب أعضاء هيئة القضاة السبعة ذوو أغطية الرأس المربعة من بعضهم البعض وراحوا يتشاورون للحظة. بعدها سأل رئيس المحكمة باردو، كما سأل الآخرين:

- في رأيك ما هي العقوبة التي يستحقها أخوك؟ هز باردو رأسه نفيًا، لم يكن يعرف، فهو ليس قاضيًا ولهذا اعتمد على حكمة هيئة القضاة.

اقتيد إلى غرفة أخرى وجد بها عمه أنطوان. من بعدهما، تم الاستماع إلى شهادة باقي أفراد عائلة مونييه. قام جميعهم بسرد وقائع تتسق بشأن ما حدث في ذلك اليوم الرهيب الموافق الرابع من شهر يونيه. كان رئيس هيئة القضاة يسأل كلاً منهم عن العقوبة التي ينبغي أن توقع على المتهم. جميعهم ردوا بأنهم لا يعرفون. في نهاية هذه الجلسات، تم إعلامهم بأن الحكم سيصدر في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي. هكذا عادوا إلى نزل "الأيكو" الذي يقع في نهاية شارع شوستييه. تناولوا بحزن شديد حساء البنجر وقطع الدجاج والنقانق وجبنة الماعز وثمار الخوخ، وقد كانت هذه هي الوجبة التي قُدمت إليهم في النزل مع إبريق نبيذ من نوع مونچوزيه.

على الرغم من الطقس البديع الذي كان يناديهم للخروج والتنزه، فلم يشعر أيٌّ منهم برغبة في مشاهدة تلك المدينة، مدينة

كليرمون، والتى طالما ما سمعوا ثرثرة الأهالى فى أرجائها ورنين حدوات الخيول، وسباب الحوذيين وشتائمهم، وصهيل الخيول وخوار الأبقار. بل فضلوا قضاء الأمسية معًا داخل غرفتهم فى النزل، وهى تتألف من سريرين - أحدهما يتسع لثلاثة أشخاص والثانى لشخصين - وراحوا يصلون على أرواح أهاليهم التعساء المتوفين، عسى أن يرقدوا فى خلاص وسلام.

فى تلك الليلة لم يغمض لباردو جفن. تصور بالفعل شقيقه وهو يتدلى من حبل المشنقة المثبتة على صليب فى الفتحة التى رأوها فى شارع "جرا" وسط حشد من الأهالى يهزأون به ضاحكين، بينما الجلاد المكلف بتنفيذ الإعدام يتشبث بساقى جيرمان رفقًا بحاله لكى تُزهق روحه وينتهى الأمر بأسرع وقت ممكن.

فى اليوم التالى، وقبل الموعد المحدد بفترة طويلة، توجه أفراد عائلة مونييه إلى بوابة "القصر الملكى". قادهم رجل مسلح أدى إلى الغرفة المفترض أن يجتمع بها أعضاء هيئة القضاة فى هذه الجلسة الختامية الرسمية. اتخذوا أماكنهم على الأرائك. أما ديكور المكان فكان كالآتى:

أمام الأرائك التى يجلسون عليها، مقعد المتهم، وهو نوع من الكراسى الخشبية الصغيرة بدون ظهر على المتهم أن يجلس عليه.

على اليمين، المنضدة الصغيرة المخصصة لكاتب المحكمة بالجلوس أمامها لتدوين الجلسة. وأمامهم منصة هيئة المحكمة ومن ورائها الجدار، معلق عليه الصليب الضخم الذى لا مفر منه، وعليه صورة من تم الحكم عليه بالإعدام من قبل قضاة غير جديرين بالاحترام أو النزاهة (المسيح)؛ وبالقرب من الباب يقف رجلان مسلحان. وقد فاحت فى الغرفة رائحة عفنة لقبو عتيق.

من الكنيسة المجاورة للقصر الملكى وبالتحديد من برج (باييت)، سمعوا رنين الجرس يعلن الساعة الرابعة بعد الظهر. راحوا ينظرون إلى كل ما هو حولهم دون أن ينبسوا بكلمة واحدة. مرت برهة من الوقت راحوا يزيحون فيها الذباب الذى كان يحوم حول وجوههم ويدغدغ أنوفهم.

وأخيرًا انفتح باب من خلف المنصة فصاح الحاجب قائلاً:

- أيها السادة... محكمة! الرجاء الوقوف.

أطاعوا جميعًا ونهضوا واقفين فدخل القضاة السبعة وسمعوا صوت حفيف احتكاك ثيابهم، ثم اتخذ كل منهم مكانه خلف المنصة.

- أدخلوا المتهم.

عندما شاهد أفراد عائلة مونييه الخمسة السجين وقد تغطت أصداغه وذقنه بلحية رمادية مشعثة، لم يصدقوا أنه جيرمان. أما هو

فبدا وكأنه لم يرهم. كان كاحلاه مكبلـين بسلـسلة حديديـة أحـدثت احتكاكًا عاليًا على بلاط أرضية الغرفة. ثم جلـس علـى الكرسـى الخشبى الصغير وقد تكورت ساقاه، كما كانت يداه مكبلتين بـالقيود. بعد ذلك جاء وقت لعبة الأسئلة والأجوبة : من أنت؟ ما هى مهنتك؟

أين تسكن؟ كم عمرك؟

- كنت سأبلغ الخمسين من عمرى منذ ثلاثة عشر أسبوعًا.

أعيد طرح نفس الأسئلة من جديد.

- احك لنا ماذا حدث.

- لا أتذكر شيئا فيما عدا أن الشيطان قد استحوذ علىّ.

- ولكن الشيطان لم يقم برفع الماسورتين الخاصتين بمسدسك.

- بل هو بكل تأكيد.

- هل أنت نادم على فعلتك؟

- من كل قلبى.

- فى رأيك ما العقوبة التى تستحقها؟

- أقصى العقوبات.

- كان هناك أثر كدمة زرقاء فى وسط جبينك. ما سببها؟

- خبطت رأسى فى الحائط.

- ألم يكن ذلك بسبب الإبريق الذى قذفه ماتلن فى وجهك؟

- لا أتذكر.

- لماذا تسعى إلى إدانة نفسك؟

هز جيرمان أكتافه دون أن يرد ثم راح يطقطق أصابعه. دقت ساعة برج "لاباييت" معلنة الساعة السادسة. ظل كاتب المحكمة يدوّن فسُمع صوت احتكاك ريشته على الورق. مال القضاة السبعة كلٌ منهم ناحية الآخر ليتشاوروا من جديد.

وأخيرًا، نهض رئيس المحكمة متجهًا بأنظاره إلى الخمسة شهود وإلى المتهم وإلى الحراس، وأمام الصليب الأسود وعليه تمثال المسيح الذى راح ينظر إليه من نهاية القاعة، وراح يقرأ الحكم وهو يتلعثم قليلاً ويسعل بعض الشىء، لذا وجدوا بعض الصعوبة فى فهم ما يقوله:

- إنه فى يوم الثالث عشر من شهر سبتمبر عام ١٧٣٨، وبعد الاستماع إلى المتهم جيرمان مونييه، صانع أجراس فى قرية فيفيرول، وبعد الاستماع إلى الشهود، وبعد معرفة الأحداث التى نُسبت إليه وكل الظروف المحيطة بها، فإننا بحكم قضائى من رئاسة

المحكمة وبوصفنا السلطة العمومية العليا لمدينة "ريوم"، قد رأينا أن كل ابن لا يحترم أباه وأمه كما تعلمنا وكما حثتنا وصايا الرب وكتبه المقدسة، لا يستحق أن يعيش. وكما هو معلوم فى الفصل الحادى والعشرين من سفر التثنية بالتوارة، والذى يقول: "إن كان لرجل ابن عاق ومتمرد، ولا ينفذ ما أوصاه به أبوه، وإن قام بمراجعته، ورفض الانصياع بمزيد من الازدراء، فعلى أهالى هذه المدينة أن يرجموه حتى الموت". ولهذا فالسيد جيرمان مونييه فى حل من تهمة هذه الجريمة الأبوية. نحن فقط نأمره كإصلاح وتوبة بأداء فريضة الحج مشيًا على الأقدام حتى كنيسة نوتردام دى أنيس فى بلدة فالى، ليطلب منها الشفاعة حتى يغفر اللـه له غفرانًا كاملاً ويمحو أخطاءه.

حرر فى مدينة كليرمون، مقاطعة أوڤرنى

بيير هنرى أرنو

رئيس هيئة القضاة العمومية لمدينة ريوم

أمر السيد أرنو بفك القيود والمكبلات من على كاحلى ومعصمى جيرمان مونييه، وأعلنه حرًا طليقًا.

نام جيرمان ليلته فى نزل (الإيكو) وفى اليوم التالى عاد أفراد عائلة مونييه الستة أدراجهم إلى قريتهم، فيفيرول.

الخاتمة

قام جيرمان بالحج إلى كنيسة بووى - سانت مارى(*) للتكفير عن ذنوبه كما أمرته رئاسة المحكمة.

ولم يحدث خلال رحلته هذه أن صادف أى حصان أحمر لكى يعبر عليه الأنهار الصغيرة، فاضطر إلى عبورها من الأماكن الضحلة وفى بعض الأحيان كانت المياه تغمره حتى بطنه. ولكنه لم يسامح نفسه أبدًا، بل إن قلبه لم يهدأ حتى بعد عودته من هذه الرحلة، على الرغم من أنه قد حصل على عفو السماء ومحو ذنبه.

لم يذهب صناع أجراس قرية فيفيرول بعد ذلك إلى مدينة بواتيه لإصلاح جرس كنيسة نوتردام لا جراند. فابتداء من هذا العام، عام ١٧٣٨، تركت فيهم هذه المأساة أثرًا عميقًا، لم يعودوا أبدًا إلى ممارسة أى نشاط من أنشطة صناع الأجراس، بل كرسوا كل وقتهم وجهودهم فى أعمال الزراعة. هكذا اشتهروا بخبرتهم فى زراعة ثمار الكمأ حتى ذاعت تدريجيًا وعمت جميع أنحاء المملكة تحت اسم "ثمرة البطاطس".

(*) هذه الكنيسة هى ذات الكنيسة التى حكمت المحكمة بالجح إليها ولكن يشار إليها بلغة أهل القرية (المراجع).

بعد مرور خمسين عامًا، دُمرت أبراج الكنائس وأجراسها كما تنبأ العراف، وبالطبع لم يستفيدوا هم بأى شيء حيال ذلك. فقد تم تحويل ورشة صهر الأجراس الموجودة فى قرية لوباردانج إلى حظيرة أغنام.

وهكذا خبا اسم عائلة مونييه وضاع عبر تاريخ منطقة ليفرادوا – فوريز، متلاشيًا وسط زحام الآلاف من الأسماء الأخرى المجهولة. وانتهى المطاف بذريتهم من الأحفاد أن ضاعوا فى طى النسيان، وهكذا اندثر اسم العائلة وصناعتها فى قرية فيفيرول كما كان ذلك شأن عائلة كاليمار.

ومع ذلك فقد ظل هذا الاسم محفورًا على ناقوس جرس القيصر كولوكول فى موسكو. وللأسف وقع إمبراطور الأجراس هذا ضحية لحريق إجرامى فى عام ١٧٣٧، احترق على إثره الجزء الذى يُعلق به الجرس فانهار ساقطًا من برجه العالى، فانكسر بل انغرس جزء منه بعمق فى التربة. ظل هكذا فى مكانه مهجورًا لما يقرب من حوالى قرن.

فى عام ١٨٣٦، اهتم به مهندس معمارى فرنسى يعمل فى الترميمات، فقام ببناء حافة حجرية فى طرف ناقوس الجرس فأمكن لوزنه البالغ مئتين وثمانية عشر طنًا أن يرتفع إلى سطح الأرض بعد أن كان منغرسًا بها. بما فى ذلك الجزء الذى كان قد انفصل عنه

نتيجةً لسقوطه، مما أسفر عن فتحة على شكل باب. كان هذا الرجل يُدعى ريكارد ويُقال إنه من قرية مونفيران، وكان على صلة ما بمقاطعة أوفرني. وإلى يومنا هذا يُعرض الجرس "القيصر كولوكول" في ساحة الكرملين لينال إعجاب الجمهور وانبهاره. وقد أُضيف صليب ذهبي إلى أعلى قمته التاجية ليصل ارتفاعه إلى عشرة أمتار بما في ذلك حافته. ويسعد الأطفال بالمرور إلى داخله. وهم يطلقون صيحات: هووو - هووو، ولكن دون جدوى فلم يحْدث أي صدى داخله نظرًا لضيق المكان. وبالنظر للجرس جيدًا وبسهولة، يمكن قراءة ما هو محفور من حروف سيريلية: باردو مونييه، صانع أجراس في قرية فيفيرول.

في العام التالي لهذا التمجيد والإحياء للجرس - أي عام ١٨٣٧- وفي أثناء أعمال الصيانة والترميم في الكنيسة الصغيرة التابعة للمجمع الكنسي سان بونيه لو شاتو (منطقة لوار بفرنسا)، تم اكتشاف، بصفة رسمية، لأربعين جثة المجتمعين معًا في الكهف الموجود أسفل الكنيسة والذين قام الفتى تيوفيلوس بعرضهم على باردو عندما كان صغيرًا. لقد ظلوا إلى يومنا هذا مجهولي الهوية، ولم يعلم أحد ظروف وأسباب وفاتهم الجماعية تلك. ولقد حدد غاز الكربون الرابع عشر تاريخ الوفاة بأنها قد وقعت في بداية القرن السابع عشر. وقيل إن بعض الأبخرة المنبعثة من التربة هي التي

ساعدت على الاحتفاظ بحالة الجثث جيدة نسبيًا. حيث كانت تتفكك عامًا بعد عام. لهذا تحتم ربطهم بالحبال وتعليقهم على الجدران كما يتم تعليق لحم الخنايز. ليستطيع أى شخص أن يزور الكنيسة ويراهم فى الوقت الحالى. أما فى حالة إغلاق الكنيسة، يرجى الاتصال بمكتب هيئة الاستعلامات. ويمكن لمجموعات الزوار المؤلفة من خمسة عشر شخصًا على الأقل أن يحصلوا على تذاكر بأسعار مخفضة. أما أنا عن نفسى فلا أستطيع المجازفة بهذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر: فالسلم النازل إلى هذا القبو شديد الانحدار.

والنزول إلى غياهب الماضى هو دائمًا بمثابة رحلة شديدة الوعورة.

عندما انهار الجرس الضخم (القيصر كولوكول) كان ولا شك بسبب الحريق وليس بسبب أعباء الخطايا التى تحمّل أثقالها.

إن تاريخ البشرية ما هو إلا معرض كبير حافل بالخطاة. وكلما زادت أهمية هؤلاء الخطاة وكانت قيمتهم فى المجتمع كبيرة، كلما أصبحت خطاياهم أكثر وحشية وضراوة.

ولو لم يكن جيرمان مونييه قد قام برحلته إلى روسيا، ولو لم يكن قد علم بجرائم قتل الأبناء مثل التى ارتكبها إيفان الرهيب وبيير الأكبر، ربما ما كان ارتكب جريمته تلك أبدًا.

"يا حمل اللـــه الذى يرفع خطايا العالم، ارحمنا".

لم تعد قرية لوباردانج تشتهر بصناعة الجرار كما كانت فـــى الماضى. بل أصبحت فى أيامنا هـــذه تـــشتهر بالزراعـــة، فحـــرث الأراضى ورعى المواشى والأغنام هو أهم مـــصادر الـــدخل بهـــذه القرية. وقد ظل الطريق الفرعى المؤدى إليها تصطف على جانبيـــه وتزينه أشجار الزيزفون الرائعة، ويُسمع بها الطنين المتواصل للنحل فى موسم تفتح أزهارها، كما تمتلئ حدائقها بالورود البلدى الجميلة.

فى أوقات معينة، تترامى إلى الأسماع من بعيد جدًا، أنـــشودة الأجراس عابرة للسماء.

تحذير

إن وجود اسم عائلة مونييه هذه على مدار أكثر من ثلاثة قرون في قرية فيفيرول (مقاطعة بووى دى دوم) هو حقيقة واقعة. ومن ضمن الأحداث الواقعية أيضًا هو وجود شخصية باردو أو باردون مونييه، حيث كان الشخصية الأكثر شهرة على مستوى سلالته، وقد حدث بالفعل أنه ذهب إلى موسكو للمشاركة في صهر وبناء "القيصر كولوكول"، أكبر جرس في العالم.

وإنى لأنتهز هذه الفرصة وأطلب من جميع المؤرخين المحترفين ألا ينتقدونى أو يشيروا بتصحيح هذا الحدث أو ذاك، أو إلى هذه الشخصية أو تلك، فقد لا تتسق تمامًا مع الواقع أو مع ما يعتقدونه هم. لقد أمدنى التاريخ بعدد معين من الأحداث الواقعية استبدلها وحى خيالى بقصة تخيلية.

المؤلف فى سطور

جان أنجلاد

ولد جان أنجلاد عام ١٩١٥ فى مدينة تيير بمقاطعة أوڤرنى، من أم خادمة وأب عامل بناء. تلقى تعليمه فى مدرسة المعلمين العليا بمدينة كليرمون فران، ثم عمل بالتدريس فى نفس المدينة، وبعد ذلك فى الريف، كما واصل دراساته العليا فى هذه الأثناء ليصبح أستاذًا جامعيًا فى الآداب، ثم قام بدراسات عليا فى اللغة الإيطالية. قام بنشر أول رواية له وهو فى السابعة والثلاثين من عمره، وهى بعنوان "الكلب والسيد". وقد كرس معظم كتاباته وأعماله بدءًا من روايته العاشرة والتى تحمل عنوان "التفاحة المنسية" والتى نُشرت عام ١٩٦٩، عن مسقط رأسه والمنطقة التى يعيش بها حتى أُطلق عليه لقب "مخلص منطقة أوڤرنى".

رصيده من الروايات يزيد على خمس وثلاثين رواية، ولكنه قام بتجارب أخرى فى كتابة أعمال مثل السيرة الذاتية لباسكال هيرڤيه بازين، والألبومات والشعر والمسرحيات وسيناريوهات الأفلام. كما قام أيضًا بترجمة أعمال للكاتبين الإيطاليين "بوكاتشييه" و"مكياڤيللى"، وله أكثر من ثمانين مؤلفًا.

لقد سافر جان أنجلاد إلى بلدان كثيرة، ويعيش حاليًا بالقرب من مدينة كليرمون فران.

المترجم فى سطور

محمود مصطفى

درس محمود وصفى الإخراج السينمائى فى الكونسرفتوار الحر للسينما الفرنسية بباريس من عام ١٩٩٥ إلى عام ١٩٩٩، وقبل عودته إلى مصر عمل كمساعد مخرج تحت التدريب فى فيلم (الآخر) للمخرج المصرى العالمى الراحل يوسف شاهين، حيث تابع كل مراحل ما بعد التصوير فى معامل مكساج الصوت فى باريس. عاد إلى مصر فى نفس العام ليبدأ العمل كمعد برامج ومساعد مخرج ثم مخرجًا فى قناة النيل الدولية فى الجزء الناطق باللغة الفرنسية. كان شغله الشاغل هو تعريف الجمهور المصرى بالسينما الفرنسية.

فى عام ٢٠٠٣، أسهم بالعمل فى كيفية تطويع المادة الفيلمية داخل مناهج تدريس اللغة الفرنسية، فى المركز الثقافى الفرنسى بالإسكندرية، كما ألقى سلسلة محاضرات مطولة بها تحليل لأهم أفلام يوسف شاهين. فى عام ٢٠٠٤، سافر إلى الدوحة ليعمل كمذيع فى

البرنامج الفرنسى التابع لإذاعة قطر حيث أعد وقدم برنامجًا عن وقائع وكل ما هو جديد فى عالم السينما الفرنسية وذلك على مدار عامين ونصف العام. كما عمل أثناء وجوده هناك كمساعد لمخرج فرنسى لفترة مؤقتة فى قناة الجزيرة للأطفال. عاد إلى مصر فى صيف ٢٠٠٦، وهذه هى رابع ترجمة تصدر له حتى الآن بعد ثلاثة إصدارات لروايات فرنسية فى نفس سلسلة الإبداع القصصى هذه منها: "حقل الغربان" و"على ساحل بونديشيرى" و"مشيئة الرب".

المراجع فى سطور

چينا بسطا

حصلت الدكتورة چينا بسطا على درجة الدكتوراه فى الألسن فى اللغة الفرنسية وآدابها عن رسالة "الفكر الاشتراكى لجول فاليس من خلال ثلاثية جاك فينتراس" مع مرتبة الشرف الأولى.

وتعمل حاليًا بتدريس تاريخ الأدب والحضارة والنقد الأدبى بقسم اللغة الفرنسية بكلية الألسن جامعة عين شمس.

ولها عدد من الأعمال والمقالات المترجمة من وإلى اللغة العربية، وكذلك إسهامات عديدة فى إطار مشروع تصدير الفكر المصرى إلى الخارج، ومشروع سلسلة كتب الجوائز للهيئة المصرية العامة للكتاب.

التصحيح اللغوى: وجيه فــاروق
الإشراف الفنـــى: حســن كــامل